قررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب للمدارس الثانوية

حديث عيسى بن هشام

أو

فترة من الزمن

لمنشئه

محمد المويلحي

الطبعة السابعة مع الرحلة الثانية

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول إلا حقا

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

قــررت وزارة المعارف تدريس هذا الكتاب للمدارس الثانوية

حديث عيسى بن هشام

أو

فترة من الزمن

لمنشئه

محمد المويلحي

الطبعة السابعة مع الرحلة الثانية

كان النبي عليه الصلاة والسلام
يمزح ولا يقول إلا حقاً

ملتزم الطبع والنشر
دار المعارف بمصر

ترجمة حياة المرحوم

السيد محمد المويلحى بك

السيد محمد المويلحي بك

السيد محمد المويلحي بك ابن السيد ابراهيم بك[1] ابن السيد عبد الخالق بن السيد ابراهيم بك بن السيد أحمد بن السيد الشريف الأمير مصطفى وكيل المويلح ، ابن الشريف محمد الوكيل بن العارف بالله عبد المنعم بن السيد محمد بن السيد محمد أبي السرور بن الأستاذ القطب أبيض الوجه بن الأستاذ شيخ الإسلام أبي الحسن المعز بن الأستاذ عبد الرحمن جلال الدين[2] بن السيد عبد الملك بن السيد يرحم بن السيد محمد بن السيد حسان بن السيد سليمان بن السيد محمد بن السيد عبد الملك بن السيد حسن المكفوف ابن سيدنا الحسن المثلث بن سيدنا الحسن المثنى بن سيدنا الحسن السبط عليه السلام ابن السيدة فاطمة الزهراء ابنة الرسول عليه الصلاة والسلام .

فأسرة المويلحي يمتد نسبها إلى الصادق الأمين محمد عليه الصلاة والسلام ، وإلى الصديق أبي بكر رضى الله عنه ، وهذا النسب الشريف ثابت ثبوتاً لا يحتمل الشك إذ أنه يرجع إلى أحكام قضائية شرعية ، لا إلى مجرد الإثبات الإدارى المشهور فى مصر .

٭٭٭

والمويلحي نسبة إلى المويلح ، وهو ثغر فى شبه جزيرة العرب على شاطئ البحر الأحمر وكان تابعاً لمصر فى عهد على بك الكبير ، وظل هكذا إلى سنة ١٨٩٢ ، حيث ضم إلى ولاية الحجاز .

(١) ولد عام ١٢٦٢ هـ ، وتوفى عام ١٣٢٣ (١٩٠٦) وهو فى الثانية والستين من عمره ، وسنتحدث عن تاريخ حياته فى كتابه « موسى بن عصام » الذى سينشر قريباً إن شاء الله . ١٨٤٦

(٢) السيد عبد الرحمن جلال الدين : هو ابن السيدة فاطمة البكرى بنت السيد احمد البكرى ابن السيد محمد بن السيد أحمد بن السيد محمد بن السيد عوض بن السيد عبد الخالق بن السيد عبد المنعم بن السيد يحيى بن السيد حسن بن السيد موسى بن السيد يحيى بن السيد نجم ابن السيد عيسى بن السيد داود بن السيد محمد بن سيدنا أبو طلحة بن سيدنا عبد الله ابن سيدنا عبد الرحمن الصحابى ابن سيدنا أبي بكر الصديق رضى الله عنه

ولقد شيد فيه الأمير السيد مصطفى قلعة ، لا تزال باقية إلى الآن ، ولها دفاتر محفوظة فى المخزن التركى بدار المحفوظات العمومية المصرية ، وتوجد لدى أسرة المويلحى حجة التمليك الخاصة بهذه القلعة ، وهى بتوقيعات أعضاء الشرع الشريف المكون — إذ ذاك — من عامر أفندى القاضى والأمير على أغا كتخدا المرحوم الأمير خليل بيك والأمير حسن أغا سردار طائفة « گوكليان[١] » وغيرهم من الأمراء والحكام ومشايخ العرب .

ولقد جاء بهذه الحجة — بعد الديباجة — : « حضر بمجلس الشرع المشار إليه أعلاه بين يدى مولانا الأفندى المومى إليه (عامر أفندى القاضى) فخر الأكابر والأعيان السيد الشريف الأمير مصطفى أغا بن المرحوم محمد أغا المويلحى . . . » إلى أن ذكر « وصرف عليها من ماله وصلب حاله ٦١٧٧٣ نصف فضة » وتم تحرير هذه الحجة فى ١٨ محرم ١١٨٦ هـ

***

هذا وقد انقسمت أسرة المويلحى إلى قسمين ، قدم أحدهما مصر واستوطنها ، وظل الآخر فى المويلح .

وأول من وفد إلى مصر السيد أحمد[٢] — وبعد أن عاون المغفور له رأس الأسرة المالكة الكريمة محمد على باشا على قمع ثورة الوهابيين — أقام بالقاهرة ، وأسس بيتاً تجارياً لصناعة الحرير ، وقد بنى بالسيدة رابية البكرية ابنة الشيخ خليل البكرى فأعقب السيد ابراهيم ، وكان سر تجار مصر بعد مقتل السيد المحروق ، وكان مولعاً بالأدب ، فبلغت شهرته إلى حبيب أفندى كتخدا المغفور له محمد على باشا ، فاتخذه كاتب سره ، ورزق السيد ابراهيم بالسيد عبد الخالق ، الذى أنجب السيد ابراهيم — الكاتب العظيم والسياسى القدير — والسيد عبد السلام ، الذى لقب « بميرابو » مصر .

***

ولد السيد محمد فى سنة ١٨٥٨ فى حجر والديه وظل جده السيد عبد الخالق ، وهو يومئذ صاحب أكبر بيت تجارى فى الشرق ، فنشأ معززاً ، لا مدللا كأبناء الأسر الكبيرة ،

(١) ينطق : جوتوليان وهو لفظ تركى معناه : متطوعون .
(٢) توفى بالقاهرة فى يوم الاثنين من ذى القعدة سنة ١٢٢٩ هـ .

وقد عنى والده بتربيته فبعث به وهو فى سن التاسعة إلى مدرسة الخرنفش ، وكانت تسمى إذ ذاك « بالمدرسة الكبيرة » ، فكان يتخلف أحياناً عن الذهاب إلى المدرسة ، فيعاتب رئيسها Ildefonsus « الديفونسوس » والده ويطلب إليه أن يشتد عليه قليلا ، حتى لا يهجر المدرسة لأقل انحراف فى صحته أو توعك فى مزاجه ، لأنه يتفرس فيه النباهة وحدة الذكاء ؛ ولقد كان — رغم تخلفه — متفوقاً على أقرانه فى اللغة الفرنسية ، إذ كان يقضى الأيام التى يلازم البيت فيها دائباً على المطالعة والمذاكرة تحت إشراف والده ، وظل يتابع دروسه فى المدرسة تارة وينقطع عنها طوراً ، حتى بلغ الخامسة عشرة ، فآثر والده أن يتلقى دروسه العالية فى البيت ، كما كانت العادة عند الأسر الكبيرة وقتئذ ، فاختار له أحمد اسماعيل بك ناظر مدرسة الألسن « دار المعلمين العليا » لتعليم اللغة الفرنسية ، والشيخ أحمد قطة العدوى رئيس مصححى المطبعة الأميرية لدراسة اللغة العربية وآدابها .

ولما حيل بين الخديو إسماعيل وبين العرش عام ۱۸۷۹ وسافر إلى إيطاليا ، حيث أقام فى قصر الفافوريتا « La Favorita » بليفورنو « Livorno » بعث إلى المرحوم إبراهيم بك يستقدمه إليه ، ليكون سكرتيراً خاصاً له ، فلبى الدعوة ، واستعفى من منصبه فى مصر ولحق بسموه .



ظل السيد محمد بعد ذلك تحت رعاية عمه السيد عبد السلام باشا . فاختار له ابراهيم اللقانى بك ليأخذ عنه العلم والأدب وليصحبه معه إلى حيث يليق بأمثاله من مجالس العلماء وأندية الأدباء .

وفى ٥ أبريل سنة ۱۸۸۲ التحق بخدمة الحكومة المصرية فى منصب بوزارة الحقانية ، ثم حدثت مذبحة الاسكندرية فى ۱۱ يونيه سنة ۱۸۸۲ ، فسافر عبد السلام باشا إلى الشام فى يوليه ، وبقى محمد بك منفرداً فى مصر ، فانضم إلى الثوار مع السيد حسن موسى العقاد وأستاذه إبراهيم اللقانى بك ، وأرسل إليه والده بضع نسخ مطبوعة على الحجر من رسالة عنوانها « الجنة تحت ظلال السيوف » ليوزعها على زعماء الثورة العرابية ، حتى يزدادوا

حماسة وحمية ، وحسبك أنها كانت بقلم إبراهيم ، الذى كان يعرف مواضع الهوى من النفوس ، وكان يستطيع أن يقود الجمهور بقلمه الفذ البليغ ؛ فضبطت بعض نسخ هذه الرسالة عند محمد بك ، وألقى القبض عليه ، وطلب عثمان باشا ناظر الضبطية إحالته إلى مجلس عسكرى ، فتدخل بطرس غالى باشا وكيل الحقانية فى ذلك العهد ، وحال بينه وبين المحاكمة ، بدعوى أنه لا تجوز محاكمة شاب قاصر غاب عنه عمه وأبوه ، وأسفر هذا التدخل عن مجازاته إداريا وفصله من وظيفته، فسافر إلى والده فى إيطاليا، وكان يجاوره فى المسكن فى ليڤورنو محام إيطالى ، وكان صديقاً لابراهيم بك ، فتخرج عليه السيد محمد فى اللغتين الايطالية والفرنسية ، وألم بمبادىء اللغة اللاتينية ، وظل فى أوربا ثلاث سنين قضاها بين إيطاليا وفرنسا وانجلترا ، وتسنى له مصادقة اسكندر دوماس الابن وكثير من أدباء وعظماء الغربيين فى ذلك العهد .

هذا وقد اشترك ، وهو فى باريس ، مع والده والسيد جمال الدين الأفغانى فى تحرير « مرآة الشرق » .

ثم سافر المرحوم السيد إبراهيم بك إلى لوندرا ، وظل هناك إلى أواخر سنة ١٨٨٥ ، حيث لحق به نجله محمد بك ، وقد أراد السلطان عبد الحميد أن يقرب إليه إبراهيم بك ، ليأمن من نفثات قلمه ، فأرسل إليه أغوبيان باشا ناظر الخاصة السلطانية ليستقدمه إلى الآستانة بواسطة قسطاكى باشا سفير تركيا فى لوندرا ، فخشى إبراهيم أن يكون فى الأمر دسيسة ، لأنه لم يكن يتوقع عفو السلطان عنه بهذه السرعة ، فكلف السيد محمد بالسفر إلى الآستانة ليستطلع جلية الأمر ، فنفذ مشيئة والده وأرسل إليه كتاباً يطمئنه فيه من ناحية السلطان . فسافر إبراهيم الى الآستانة وكتب إلى السلطان كتاباً يشكر له فيه عفوه عنه ويعتذر عن تأخره عن المثول بين يديه ، فقبل معذرته وأكرمه السلطان ، وعينه عضواً فى مجلس المعارف الأعلى (انجمن المعارف) .

وفى الآستانة وجد محمد بك نفسه بين مكاتب مكتظة بأنفس الكتب ومختلف الآثار ، الشرقية والغربية فكان كثير التردد عليها ، وعلم منيف باشا ناظر المعارف وصديق والده

برغبته فى حب الاطلاع على مؤلفات أدباء الشرق والغرب وعلمائهما ، فأعطاه « إذناً » بالتردد على مكتبة « الفاتح » ليطلع على ما تحتويه من كتب قيمة ، فكان شغله الشاغل الاطلاع والدرس ، وتمكن أثناء ذلك من نسخ رسالة الغفران ورسائل الجاحظ فى تربية الصبي وديوان ابن الرومى ، ومختارات ونتف من الأدبين العربى والغربى بين قصص وحكم وأمثال ونوادر ، وقد عنى رحمه الله بتدوينها فى سجلات كبيرة وما زالت موجودة فى مكتبته إلى اليوم .

***

وفى سنة ١٨٨٦ اشترك مع عبد الله أفندى المغيرة فى تحرير جريدة « المنبه » وكانت تصدر مرتين فى الأسبوع .

ثم عاد إلى مصر عام ١٨٨٧ ، واشترك مع عارف بك المردينى فى تحرير جريدة « القاهرة الحرة » اليومية ، وظل يكتب فيها حتى وقفها صاحبها لسفره إلى الآستانة بناء على دعوة من السلطان عبد الحميد .

ثم تابع مقالاته فى مختلف الصحف المصرية ، فنشر فى المقطم سلسلة مقالات تحت عنوان « الحرية المعتدلة ملاك السعادة » بتوقيع «مصرى ببلدته عليم » وكان المقطم يقدمها بقوله « هذه مقالة بقلم من إذا عدت أعيان مصر كان فى أوائلها ، وإذا عدت أرباب الأقلام كان أعظم فطاحلها » .

وفى سنة ١٨٩٢ وفد إلى مصر سلطان جوهور ، فاختار محمد بك ليقدمه إلى السلطان ، بواسطة والده ، فسافر معه إلى الآستانة ، وأنعم عليه السلطان بالنيشان الثانى المجيدى .

وفى سنة ١٨٩٥ عاد والده من الآستانة وعين محمد بك معاون إدارة بمديرية القليوبية ثم مأموراً لمركز البرلس ، ولكنه مل الخدمة الحكومية ، فاعتزلها فى أوائل عام ١٨٩٨ .

وفى ١٤ إبريل سنة ١٨٩٨ أصدر إبراهيم بك جريدة « مصباح الشرق » ، فاشترك مع والده فى تحريرها ، ثم نشر فى ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٨ ، « فترة من الزمن ، أو حديث عيسى بن هشام » بإمضاء « م » وهو أول حرف من اسمه ، وظل يتابع نشره ، حتى سافر

فى ١٠ من شهر يونيه سنة ١٩٠٠ إلى انجلترا فى معية الخديو السابق عباس باشا الثانى لزيارة ملكة الإنجليز، فأرسل إلى والده وصف هذه الزيارة فنشرها فى مصباح الشرق بالعدد رقم ١١٢ المؤرخ فى ١٢ يولية سنة ١٩٠٠، ثم زار معرض باريس ونشر أول رسالة فى وصفه بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٩٠٠ . وكان والده إبراهيم ينشر بمصباح الشرق فى ذلك العهد كتابه « مرآة العالم، أو حديث موسى بن عصام » بإمضاء (ا) وهو أول حروف اسمه .

وظل محمد بك يوالى الكتابة فى تلك الصحيفة مع والده حتى ١٥ أغسطس سنة ١٩٠٣ حيث وقف والده إصدارها بعد أن وصل إلى الغرض المطلوب منها، إلا أن محمداً لم ينقطع عن موالاة الصحف برسائله حتى عام ١٩١٠ . وفى سنة ١٩٠٦ أنعم عليه الخديو عباس باشا برتبة المتمايز .

وفى ١٥ مايو سنة ١٩١٠ عينه الخديو مديراً لإدارة الأوقاف، وظل فى هذه الوظيفة إلى سنة ١٩١٥ حيث استقال وآثر العزلة وكان قد تخير لها من رجال الأدب والبيان من بين تلامذته ومريديه طائفة عاونته أصدق المعاونة على رفع شأن اللغة العربية فسما بمستوى الكتابة فى ذلك الحين إلى درجة رفيعة ونذكر من بينهم المرحومين: الأستاذ عبدالعزيز البشرى وعبد الحليم المصرى والأساتذة عباس محمود العقاد وأحمد الكاشف ومحمد مصطفى الماحى . وخلف من تلامذته من انتفعوا بآثاره واهتدوا بهديه ولا يزالون يذكرون عهده بخير ما يذكر به مصلح حكيم .

وفى ديسمبر سنة ١٩٢١ نشر بجريدة الأهرام مقالاً ذكر فيه سبب عزلته، ورحب باتحاد الأحزاب فى مصر لما فى الاتحاد من عزة للشرق .

وفى ١٩٢٥ طلب إليه صاحب جريدة مشهورة فى مصر أن يكتب لجريدته مقالين فى الشهر، على أن يتقيد بلون معين من الكتابة والسياسة، لقاء أجر قدره ثمانون جنيهاً، فأجابه بقوله : « قلم المويلحى لا يباع » .

وفى عام ١٩٢٧ قررت وزارة المعارف «حديث عيسى بن هشام» للمطالعة فى مدارسها الثانوية، ولقد جاء بتقريرها ما نصه : « وحديث عيسى بن هشام إذا دخل فى المطالعة لطلبة المدارس الثانوية أفادهم أجل فائدة من ناحية ما يأخذهم به من بلاغة الكلام، وسلامة

القول ، والصيغ الطريفة التى تناولت كثيراً من الأسباب الدائرة بين الناس ، وهو ما يعوز جميع الكتب التى وضعت فى عصور متقدمة ، إلى مايفسح فى ملكاتهم ، ويطبعهم على دقة الملاحظة ، وقوة التعبير ، وتدبير ألوان الاحتجاج لطرفى الموضوع الواحد . »

وفى ٢٩ من رمضان سنة ١٣٤٨ (آخر فبراير سنة ١٩٣٠) توفى رحمه الله ، تاركا آخر مؤلف له كان قد انتهى من تأليفه قبيل وفاته بأسابيع وأسماه : « رسائل فى الأخلاق ، أوعلاج النفس » فتولت وزارة المعارف طبعه فى المطبعة الأميرية بحروف مشكلة وقررته للمطالعة فى مدارسها الثانوية عام ١٩٣٢ م .

ولقد رثاه شاعر النيل المرحوم حافظ إبراهيم بك بأبيات ثلاثة قالها ارتجالاً وقت خروج النعش :

غاب الأديب أديب مصر واختفى فلتبكه الأقلام أو تتقصفا
لهفى على تلك الأنامل فى البلى كم سطرت حكما وهزت مرهفا
مات المويلحى الحسان ولم يمت حتى غزا « عيسى » العقول وثقفا

وأبنه أمير الشعراء المغفور له أحمد شوقى بك بقصيدة طويلة مطلعها :

كاتب محسن البيان صناعه استخف العقول حيناً يراعه
ابن مصر وإنما كل أرض تنطق الضاد مهده ورباعه

ومنها :

علم فى البيان وابن لواء أخذ الشرق حقبة إبداعه
حسبه السحر من تراث أبيه إن تولت قصوره وضياعه
إنما السحر والبلاغة والحكـــمة بيت كلاهما مصراعه

هذا ولئن كانت صلتى بصاحب الترجمة تحول بينى وبين التنويه بمكانته ومجهوده فى الحياة فحسبه ما ترك للأدب من تراث وما خلدت له آثاره الأدبية من شهرة تشهد له بالزعامة القلمية فى عصره وتضعه من جمهرة كتاب الشرق والغرب فى صف حملة لواء الكتابة النثرية فى ذلك العهد .

وإلى القراء بعض ما كتبه مسيو «هَنْرِي بيرزْ» المستشرق الفرنسي الشهير[1] وأحد كتاب الأدب الفرنسي البارزين عن المويلحي وكتابه «حديث عيسى بن هشام» ننقله إلى العربية فيما يلي :

« إن حديث عيسى بن هشام يعد في طليعة الكتب المؤلفة في الأخلاق والعادات والنقد الاجتماعي ، ويمكننا أن نعتبره بحق مثالا لنهضة الأدب العربي في الشرق . وقبل أن نتعرض لتحليل موضوعات هذا الكتاب ، يجب أن نتكلم أولاً عن حياة المويلحيين الأب والابن إذ أن عبقرية الثاني قد تجلت مستمدة سناها من حنكة الأول وخبرته السياسية ونشاطه التجاري وقوته الفكرية والأدبية » .

وبعد أن أفاض الكاتب في ترجمته للمويلحيين الكبير والصغير قال : « إن المويلحي الصغير كان مثل أبيه شديد الرغبة في الاطلاع على الأدبين الفرنسي والإنجليزي وربما نزعت نفسه إلى اللاتيني واليوناني أيضاً . وما من شك في أن حديث عيسى بن هشام كان العامل الأول في بناء صرح النهضة الحديثة للغة العربية وأن سلاسة لغته تعيد إلى الذاكرة أسلوب الكتابة الفنية لجونكور والإنشاء الخيالي لهويسمان[2] . ولقد صور المويلحي الحياة المصرية في شتى مظاهرها الاجتماعية بقلم جرئ وصراحة واضحة وإخلاص بلغ حد القسوة في تصوير الحقائق الواقعة تصويراً دقيقاً أذكرنا كتابة بلزاك وفلوبير[3] » .

« ومع أن كتاب المويلحي قد مضى عليه أكثر من خمس وثلاثين سنة فإنه ما زال في مجموعه كأنه وليد اليوم يصف الحياة الحاضرة في أسلوب يدخل السرور على النفس ويبعث في القارئ روح الميل إلى تتبع حوادثه دون سأم ولا ملل » .

(١) Henri Perez المستشرق الفرنسي وعضو المعهد الفرنسي بدمشق وقد نشر بحثه هذا في مجلة Bulletin d'Etudes Orientales.
Tome X, 1943-1944-Beyrout, 1944= P.P. 101-118

(٢) Huysmans, Goncourt

(٣) Flaubert, Balzac

« ومما هو جدير بالذكر هنا أن نقد المويلحى لعادات وأخلاق معاصريه قد ساير الأيام والسنين فلم يقف أثره فى الاصلاح عند زمان أو مكان معين ، بل تجاوز العصر الذى كتب فيه والمجتمع المصرى الذى أوقف المؤلف كتابه على نقده — إلى مكان آخر ومجتمع آخر — فقد نقل أحد رجال الإصلاح من علماء شمال إفريقيا فصولاً كاملة من حديث عيسى بن هشام ضمنها كتاباً له فى البدعة أسماه (الرحلة المراكشية) واتخذ من كتابه هذا أداة لنقد المجتمع الإسلامى فى بلاد المغرب وتوجيهه إلى طريق الإصلاح ، غير أن الأديب المراكشى — وهو محمد بن محمد ابن عبد الله الموقت — لم ير ما يدعوه إلى نسبة تلك الفصول من حديث عيسى إلى كاتبها ، ذلك لأن كتاب الأديب المصرى غنى بشهرته فى العالم العربى و بقوة أسلوبه الإنشائى الممتاز ، عن التنويه باسم مؤلفه « محمد بك المويلحى » .

ولقد أشار الكاتب الفرنسى فى هذا المقام إلى طائفة من الكتب الأدبية لكثير من كتاب الأدب فى مصر والشام و بلاد المغرب وقال إن هؤلاء حاولوا أن يحذوا حذو المويلحى فى كتاباتهم وأن يسابقوه فى هذا المضمار ، و بعد أن وازن بين أساليبهم وطريقتهم فى النقد وما امتاز به المويلحى من نهج وأسلوب ، لم يتردد فى الحكم عليهم بأنهم قد أخفقوا جميعاً فى محاولاتهم ، بل عجزوا آخر الأمر عن إدراك غايتهم فى هذه الحلبة . ولقد ختم الأديب الفرنسى بحثه قائلا : « يتعذر أن ينسج كاتب على منوال حديث عيسى بن هشام أو أن يصل إلى سمو أسلوبه مقلدٌ ، فقد بلغ المثل الأعلى للانشاء الوصفى ودقة تصوير المجتمع ولقد بزغ نوره فى فجر النهضة الحديثة للأدب العربى فمحت آيته مختلف المقامات الأدبية وهدى لنوره الرجميين القدامى من كتاب الأدب ، واسترشد بسناه المجددون من الأدباء فسلكوا من بعده الطريق المعبد إلى المستقبل المثمر » .

ابراهيم المويلحى
حفيد المويلحى الكبير
وابن شقيق صاحب الترجمة

يناير سنة ١٩٤٧

إهداء الكتاب

أَلِفَ المؤلفون والكتّاب أن يبدأوا كتبهم ، عند نشرها ، بإهدائها إلى بعض ذوى الشأن والفضل . والضعيفُ العاجز يُهدى هذا الكتاب إلى كل من يقرؤه : من أديبٍ يجد فيه طرَفاً من الأدب ، وحكيمٍ يرى فيه لمحةً من الحكمة ، وعالمٍ يبصر فيه شذرةً من العلم ، ولغوىٍّ يصادف فيه أثراً من الفصاحة ، وشاعرٍ يشعر فيه بمثل طيف الخيال من لطف الخيال .

وأُهديه إلى أرواح المرحومين : الأديب الوالد ، والحكيم جمال الدين ، والعالم محمد عبده ، واللغوىّ الشنقيطى ، والشاعر البارودى ، أولئك الذين أنعم الله عليهم ، وأولئك الذين تأدّبتُ بأدبهم وأخذتُ بهديهم .

***

وأُهدى هذه الرسالة ، التى اختصنى بها المرحوم الأستاذ جمال الدين الأفغانى بخطه الكريم منذ خمس عشرة سنة ، إلى جماعة أهل الفضل والأدب ، لما تضمنته من الحثّ على طلب العلم وأدب النفس ، ولحسنِ أسلوبها فى كتب المودّات . وهى لا تزال عندى إماماً يهدينى ، ونوراً أستضىء به . فأردت أن أشاركهم فى هذه الذخيرة التى يحق الضنّ بها والحرص عليها ، ونقلتها هنا بصورة خطه الشريف تخليداً لأثر تلك اليد الكريمة ، وإذا قدّرنا أن الشرقيين يتنافسون تنافس الغربيين فى اقتناء الرسائل التى تكون قد صدرت عن بعض عظماء الرجال بخطوطهم ، ويتسابقون إلى الحصول على بعض أدوات كتابتهم ، ويبذلون فى سبيل ذلك من الأموال والمساعى مالا يُقدَّر ، فإنى أكون قد أهديت إلى أهل الفضل هدية يعتدُّون بها ، ويتقبلونها بالقبول الحسن إن شاء الله .

حبيبي الفاضل

تقلبك في شؤون الكمال يشرح الصدور ويجدد من حسراتها

وخوضك في فنون الآداب يريح قلوباً علقت بك آمالها

وليس بعده الكمال إلا الإعجاز ولك يومئذ التحدي بها

ولقد تحققت للطليعة الموهوبة في معركة أخرى وهذا توفيق من الله تعالى

فاشدد بنودها وأبرم بما أوتيت من الكياسة والحذق أمرها

حتى تكون كلمة الحق هي العليا ولا تكن للذين غرتهم أنفسهم بباطل

أهوائها وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها وحسبوا أنهم يحسنون

صنعاً ويصلحون أمراً وكن عوناً للحق ولو على نفسك ولا تقف بفكرك

إلى الفضائل عند حجبك لا نهاية للفضيلة ولا حد للكمال ولا موقف للعرفان

دامت بعزيزتك الأمينة أولياء عزك والسلام جمال الدين الحسيني الأفغاني

[illegible]

حبيبي الفاضل

تقلّبك فى شؤون الكمال يشرح الصدور الحرجة من حسرتها ، وخوضُك فى فنون الآداب يريح قلوباً عَلَقتْ بك آمالها . وليس بعد الإرهاص إلا الإعجاز[1] ولك يومئذ التحدّى . ولقد تمثلتْ اللطيفة الموسويّة فى مصر كرّةً أخرى ، وهذا توفيق من الله تعالى . فاشددْ أزرَها ، وأبرم بما أوتيتَ من الكياسة والحذق أمرها ، حتى تكون كلمة الحق هى العليا . ولا تكن كالذين غرّتهم أنفسُهم بباطل أهوائها ، وساقتهم الظنون إلى مهواة شقائها ، وحسبوا أنهم يُحسنون صنعاً ، ويصلحون أمراً . وكُنْ عوناً للحق ولو على نفسك ، ولا تقفْ فى سيرك إلى الفضائل عند عُجبك . لا نهاية للفضيلة ، ولا حدّ للكمال ، ولا موقف للعرفان ، وأنت بغريزتك السامية أولى بها من غيرك ، والسلام م؟

جمال الدين الحسينى الأفغانى

(١) الإرهاص : الخارق للعادة الذي يظهر من النبي قبل أن يبعث .

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله الواحد العدل ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبيّ الأمى القرشى الأبطحىّ التهامىّ المكىّ المدنىّ وآله الطيبين الطاهرين . وبعد فهذا الحديث — حديث عيسى بن هشام — وإن كان فى نفسه موضوعاً على نسَق التخييل والتصوير، فهو حقيقة متبرّجة فى ثوب خيال ، لا أنه خيال مسبوك فى قالَب حقيقة ، حاولنا أن نشرح به أخلاق أهل العصر وأطوارهم ، وأن نصِفَ ما عليه الناس فى مختلف طبقاتهم من النقائص التى يتعين اجتنابها ، والفضائل التى يجب التزامها .

وهذه الطبعة الرابعة ، بعد نفاد الطبعة الثالثة ، تعهدناها أيضاً بما تقتضيه معاودة النظر من إصلاح مواضع النقص والإهمال ، ومداركة ما لا يخلو منه كل عمل من شائبة السهو والإغفال ، ومِنَ الله التوفيق لكل حال ، والتسديد فى كل مقال وفعال .

محمد المويلحى

العـــبرة

حدثنا عيسى بن هشام – قال : رأيت فى المنام ، كأنى فى صحراء « الإمام » ، أمشى بين القبور والرجام[1] ، فى ليلة زهراء قمراء ، يستر بياضُها نجومَ الخضراء[2] ، فيكاد فى سنا نورها ينظم الدرَّ ثاقبُه ، ويرقب الذرَّ راقبُه . وكنت أحدث نفسى بين تلك القبور . وفوق هاتيك الصخور ، بغرور الإنسان وكِبْره ، وشموخه بجده ونخره ، وإغراقه فى دعواه ، وإسرافه فى هواه ، واستعظامه لنفسه ، ونسيانه لرَمْسه ؛ فقد شمخ الغرور بأنفه ، حتى رام أن يثقب به الفلك ، استكباراً لما جمع ، واستعلاء بما مَلَك . فأرغمه الموت فسدَّ بذلك الأنف شقًا فى لحده ، بعد أن وارى تحت صفائحه صحائفَ عزه ومجده[3] . وما زلت أسير وأتفكر ، وأجول وأتدبر ، حتى تذكرتُ فى خطاى فوق رمال الصحراء ، قول الشاعر الحكيم أبى العلاء :

خفف الوطء ما أظن أديمَ الـ ... أرض إلا من هذه الأجسادِ
وقبيحٌ بنا وإن قدُم العهـــدُ ... هوانُ الآباء والأجدادِ
سِرْ إن اسطعتَ فى الهواء رُويداً ... لا اختيالاً على رُفات العبادِ

فقرعتُ سن الندم ، وخففتُ وطء القدم ؛ وإنَّ فى دهماء أولئك الأموات ، وغمار تلك الرمم والرفات ، لمباسمَ طالما حوَّل العاشقُ قبلته لقُبلتها ، وباع عذوبة الكوثر بعذوبتها . قد امتزجت بغبار الغبراء واختلطت ثناياها بالحصى والحصباء[4] .

وتذكرتُ أن تلك الخدود التى كان يغارُ منها الورد فيبكى بدموع الندى ، ويشتعل الفؤاد منها بنار الجوى ، ويقف الخال منها موقف الخليل من النيران ، أو ابن ماء السماء فى شقائق النعمان[5] ، ويترقرق فيها ماء الحياء وماء الشباب . قد طوى الدهرُ حسنها طىَّ السكتاب . وصارت بحكم القضاء ، أديماً لوجه الفضاء .

---

(١) الرجام : جمع رجم وهو القبر (٢) الخضراء : السماء (٣) الصفائح : حجارة القبور .
(٤) الحصباء : صغار الحجارة واحدتها حصبة (٥) ابن ماء السماء : هو ابن المنذر وكان أسود ، وشقائق النعمان : زهر أحمر .

وأنّ تلك العيون التي صادت بأهدابها الملوكَ الصِيد[1] . فكانوا رُعاة الأمم رعايا الغِيد . وسَحرت ببابلَ هارُوتَ ومارُوت . ووقفت موقف الاستكانة ربّ الجلال والجَبروت . يلتمس — والتاجُ فى يمينه ، وعرَق الحياء فوق جبينه — من خلال لحظاتها قبولا . كسائل يمدُّ لالتماس الإحسان كشكولا . قد أمست تراباً تحت الرمس[2] . كأن لم تَفْتِنْ بالأمس .

وأنّ ذلك الفاحم الأثيث من الشَّعَر[3] ، الخاطفَ ببريقِهِ سواد القلب والبصر ، قد حصدَتْهُ من منابتِه يدُ الزمن ، فنسجَ الأجلُ منهُ ثوب الكفن .

وأنّ تلك النهود التي كأنها حِقاق من لجيْن تزينت بحَب من المرجان[4] أو كُرات من جليد بشَقَ فيها زهرُ من الرمان . قد أصبحت كالمِخلاة على الصدر ، تحمل الزاد لِدود القبر .

كم صائنٍ عن قُبلةٍ خدَّهُ سُلّطتِ الأرضُ على خدِّهِ
وحاملٍ ثِقْلَ الثرى جيدُهُ وكان يشكو الضعفَ من عِقدهِ

وأنّ تلك الرفات والعظام ، من بقايا الملوك العظام ، الذين كانوا يستصغرون الأرض دارا ، ويحاولون عند النجوم جوارا . وتلك الضلوعَ التي انحنتْ على البطش والحلم ، والشفاهَ التي طالما لفظت أمر الحرب والسلم . وتلك الأناملَ التي كانت تبري القلم للكِتاب ، وتبرِي بالسيوف الرقاب . وتلك الوجوه والرؤوس ، التي استعبدت الأبدان والنفوس ، ووُصفت تارة بالبدور وتارة بالشموس ، قد تساوَى الرئيس فيها بالمرؤوس . فلا تفريق اليوم ولا تمييز ، بين الذليل منها والعزيز .

هو الموتُ مُثرٍ عنده مثلُ مُقْتِرٍ وقاصدُ نهجٍ مثلُ آخرَ ناكبِ
ودرعُ الفتى فى حكمه درعُ غادةٍ وأبياتُ كسرى من بيوت العناكب
فرُجِّلَ فى غبراء والخطبُ فارسُ[5] وما زال فى الأهلين أشرف راكبِ

(١) الصيد : جمع أصيد وهو الملك المتكبر الزاهي (٢) الرمس : القبر
(٣) شعر أثيث : كثير عظيم (٤) اللجين : ألفضة (٥) فارس : بمعنى مفترس

وما النعشُ إلا كالسفينة راميــاً ... بِغرْقاهُ فى بحر الردَى المتراكبِ

و بينا أنا فى هذه المواعظ والعِبَر، وتلك الخواطر والفِكَر، أتأمل فى عجائب الحدَثان، وأعجب من تقلب الأزمان، مستغرقاً فى بدائع المقدور، مستهدياً للبحث فى أسرار البعث والنشور، إذا برجةٍ عنيفة من خلفى، كادت تقضى بحتفى، فالتفتُّ التفاتة الخائف المذعور، فرأيت قبراً انشقّ من تلك القبور، وقد خرج منه رجلٌ طويل القامة، عظيم الهامة، عليه بهاء المهابة والجلالة، ورُواء[1] الشرف والنبالة. فصَعِقْتُ من هول الوَهَل[2] والوجَل، صعقةَ موسى يوم دُكّ الجبل. ولما أفقتُ من غشيتى، وانتبهت من دهشتى، أخذت أسرع فى مِشيتى، فسمعته ينادينى، وأبصرته يدانينى، فوقفت امتثالاً لأمره، واتقاء لشره. ثم دار الحديث بيننا وجرى، على نحو ما تسمع وترى، بالتركية تارة والعربية أخرى:

(الدفين) — ما اسمك أيها الرجل، وما عملك، وما الذى جاء بك؟

فقلت فى نفسى: حقاً إن الرجل لَقريب العهد بسؤال الملَكين، فهو يسأل على أسلوبهما، فاللهمّ أنقذنى من الضيق، وأوسع لى فى الطريق، لأخْلُصَ من مناقشة الحساب، وأكتفى شر هذا العذاب. ثم التفتُّ إليه فأجبته:

(عيسى بن هشام) — اسمى عيسى بن هشام، وعملى صناعة الأقلام، وجئت هنا لأعتبر بزيارة المقابر، فهى عندى أوعظ من خطب المنابر.

(الدفين) — وأين دواتك يا معلم عيسى ودفترك؟

(عيسى بن هشام) — أنا لست من كُتّاب الحساب والديوان. ولكنى من كتاب الإنشاء والبيان.

(الدفين) — لا بأس بك، فاذهبْ أيها الكاتب المنشىء، فاطلب لى ثيابى وليأتونى بفرسى «دَهمان».

(عيسى بن هشام) — وأين يا سيدى بيتكم فإنى لا أعرفه؟

---

(١) الرواء: حسن المنظر (٢) الوهل: الفزع

(الدفين) مشمئزاً — قل لى بالله من أى الأقطار أنت ؟ فإنه يظهر لى أنك لست من أهل مصر ، إذ ليس فى القطر كله من أحد يجهل بيت أحمد باشا المنيكلى ناظر الجهادية المصرية .

(عيسى بن هشام) — اعلم أيها الباشا أننى رجل من صميم أهل مصر ، ولم أجهل بيتك إلا لأن البيوت فى مصر أصبحت لا تعرف بأسماء أصحابها ، بل بأسماء شوارعها وأزقتها وأرقامها ، فإذا تفضلت وأوضحت لى شارع بيتكم وزقاقه ورقمه انطلقت إليه وأتيتك بما تطلبه .

(الباشا) مغضباً — ما أراك أيها الكاتب إلا أن بعقلك دخلاً . فمتى كان للبيوت أرقام تعرف بها ! وهل هى « إفادات أحكام » أو « عساكر نظام » ؟ والأولى أن تناولنى رداءك أستتر به وتصاحبنى حتى أصل إلى بيتى .

قال عيسى بن هشام : فنزلت له عن ردائى[1] — وقد كان المعهود أن سلب المارة لا يكون إلا من قطاع الطريق ، فإذا هو أيضاً من سكان القبور . ثم ارتداه مستنكفاً متردداً وهو يقول :

(الباشا) — للضرورة أحكام ، وقد لبسنا أدنى من هذا الرداء فى مصاحبتنا لأفندينا المرحوم إبراهيم باشا على طريقة التنكر و « التبديل » فى الليالى التى كان يقضيها فى البلد ليستطلع بنفسه أحوال الرعية . ولكن كيف العمل وكيف يتسنى الدخول ؟

(عيسى بن هشام) — ماذا تريد ؟

(الباشا) — أنسيت أننا فى الثلث الأخير من الليل وليس من يعرفنى بهذا الرداء على أبواب مصر ، ولم يكن معى كلمة « سر الليل » فكيف تفتح لنا الأبواب ؟

(عيسى بن هشام) — كما أنك يا سيدى لم تعرف أرقام البيوت ولم تسمع بها فى حياتك فأنا لا أعرف « سر الليل » ولم أسمع به .

(الباشا) مستهزئاً ضاحكا — ألم أقل لك إنك غريب الديار ، ألم تعلم أن « سر الليل » كلمة تصدر من القلعة فى كل ليلة إلى « الضابط » وإلى جميع « القره قولات » والأبواب ،

---

(١) الرداء : ما يلبس فوق الثياب كالعباءة

فلا يجيزون لأحد مشىَ الليلِ إلا إذا كان حافظاً لهذه الكلمة يلقيها فى أُذُن البواب فيفتح لهُ ، وهى تعطَى لمن يطلبها من الحكومة سراً لقضاء أشغاله بالليل ، وتتغير فى كل ليلة ، فليلة تكون كلمة « عدس » ، وليلة تكون « خضار » ، وليلة تكون « حمام » ، وليلة تكون « فراخ » ، وهلم جرّا .

(عيسى بن هشام) — يظهر لى من كلامك هذا أنك لست أنت من أبناء مصر . فما علِمنا أن هذه الألفاظ تطلق فيها على غير الأطعمة ، ولم نسمع أنها تدل على الإجازة للناس بالسير فى ليلهم . على أن الفجر قد دنا ولم يبق بنا من حاجة لهذه الكلمات ولا لغيرها .

(الباشا) — الأمر فى ذلك موكول إليك .

قال عيسى بن هشام : فسرنا فى طريقنا وأخذ الباشا يزيدنى تعريفاً بنفسه ، ويقص علىّ من أنباء الحروب وأخبار الوقائع التى شاهدها بعينه وسمعها بأذنه ، ويذكر لى ما شاء من مآثر « محمد على » وشجاعة « إبراهيم » .

وما زلنا على تلك الحال حتى وصلنا فى ضوء النهار إلى ساحة القلعة ، فوقف وقفة المستكنّ الخاشع يقرأ سورة الفاتحة لضريح محمد على ويخاطب القلعة بقوله فى بلاغة تركيته :

« إيهٍ لكِ يا مصدرَ النِّعم ، ومصرع الجبابرة من عُتاة المماليك ، ويابيت المُلك وحصنَ المملكة ، ومنبعَ العز ومهبطَ القوة ، ومُرْتفَع المجد وموئلَ المستغيث ، وحِمَى المحتمِي وكنزَ الرغائب ومنتهى المطالب ، ومثوى البطل الشهم ومَقبرَ الملك الهمام . أيها الحصن كم فككتَ بالكرم عانياً ، وقيدتَ بالإحسان عافياً ، وكم أرغمتَ أنوفاً ، وسللت سيوفاً . وجمعتَ بين البأس والندى ، وداورتَ بين الحياة والردى . »

قال عيسى بن هشام : ثم التفت الباشا إلىّ وقال : أسرِعْ بنا نحو البيت لألبس ثيابى وأتقلد حسامى وأركبَ جوادى ، ثم أعود إلى القلعة فألثم أذيال ولىّ النعم الداورىّ الأعظم .

الشرطة أو البوليس

ولما غادرنا ساحة القلعة انحدرنا فى الطريق ، و بينا نحن نسير إذ تعرّض لنا مُكار يسوق حماره ، وقد راضهُ الخبيثُ على التعرض وسد الطريق على المـارة ، فكلما سرنا وجدنا الحمار فى وجهتنا والمـكارى ينبح بصوت قدبُحَّ حتى أمسك بذيل صاحبى يقول له :

(المـكارى للباشا) — اركب يا أفندى فقد عطلتنى وأنا أسير وراءك منذ ساعتين .

(الباشا للمكارى) — كيف تدعونى أيها الشقىّ إلى ركوب الحمار وما رغبتُ فيه قط وما دعوتك فى طريقى ! وكيف لمثلى أن يركب الحمار الناهق ، مكان الجواد السابق !

(المكارى) — وكيف تنكر إشارة يدك التى دعوتنى بها وأنت تتكلم مع صاحبك فى طريق « الإمام » ، وقد دُعيتُ مراراً من السائرين فلم أقبل منهم ، ولم ألتفت إليهم ، لارتباطى معك بهذه الإشارة ، فاركب معى أو أعطنى أجرتى .

(الباشا) وهو يدفع المـكارى بيده — اذهبْ عنا أيها السفيه ، فلو كان سلاحى معى لقتلتك .

(المـكارى) متسافهاً فى القول — كيف تجسر على هذا الـكلام ! فإمَّا أن تعطينى أُجرتى ، و إما أن تذهب معى إلى « القسم » ، وسترى هناك ما يعاقبونك به على تهديدك إياى بالقتل .

(الباشا لعيسى بن هشام) — إنى لأعجب من صبرك على هذا الفلاح السفيه الذى استرسل معنا فى سفاهته ووقاحته ، فهلمَّ فاضربه بالنيابة عنى حتى تريحه من عيشته وتريحنا منه .

(عيسى بن هشام) — كيف يكون ذلك وأين القانون وأين الحـكام ؟

(الباشا) — مالى أراك قد شَقَّ الخوفُ قلبَك ، وقَطعَ الهلعُ أنفاسك ، أيعتريك الخوف وأنت معى ، إنَّ هذا لعجيبٌ منك !

(المكارى) مستهيناً — العفو ! العفو ! مَنْ أنت ومَنْ غيرك ، ونحن فى زمن الحرية لا فرق بين الصغير والكبير ، ولا تفاوت بين المكارى و بين الأمير .

(الباشا لعيسى بن هشام) — ويحك هلمّ فاضربهُ أو دعنى أقتله .

(عيسى بن هشام) — أنا لا أضرب أحداً وأنت لا تقتل أحداً ما دمت معى . واعلمْ أنه لا تصدر منا « مخالفة » أو « جنحة » أو « جناية » إلا والعقاب من ورائها ، فلا تعجبْ من طول صبرى واحتمالى ، وأقول لك ما قاله الخضر لموسى عليه السلام : « إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ، وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَالَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا » ، والطريقة للتخلص من سفاهة هذا السفيه أن أعطيه شيئاً من الدراهم فيتحول عنا إلى سوانا ، وأنا أسأل الله أن يبلغنا بيتك بالسلامة .

(الباشا) — لا تعط هذا الكلب النابح درهماً واحداً وقد أمرتك أن تضربه ، فإن لم تفعل فأنا أتنزل إلى ضربه وتأديبه ، والفلاحُ لا يصلح جِلْدُهُ إلا بجَلْدِهِ .

قال عيسى بن هشام : ثم أمسك الباشا بعنق المكارى وأوسعه ضرباً ، وأخذ المكارى يستغيث وينادى : يا « بوليس » يا « بوليس » ، وأنا أجتهد فى إنقاذه من مخالبه ، وأستعيذ بالله من شر هذا اليوم ، وأقول للباشا : ليس هذا مما يحمد عقباه ، فاتقِ الله أيها الأمير فى عباد الله ، فما أتممت هذا القول حتى رأيته اشتد به الغضب وتغلبتْ عليه الحدة فتغير وجهه ، وانقلبتْ حماليقُهُ ، وتقلصتْ شفته واتسع مِنخره وصاقت جبهته ، نخفتُ أن يحمله جنون الغضب على البطش بى مع المكارى فتداركت أمرى وقلت له : مثلك أدام الله عزك لا يتنزل لمثل هذا الفعل ، فأنت أرفع قدراً من أن تمس بيدك الشريفة ، مثلَ هذه الجيفة . فسكنت بذلك من حدته ، وعمدت إلى المكارى فوضعت فى يده دُرَيْهماتٍ على غير علم من الباشا وطلبت إليه أن ينصرف عنا ، فما ازداد اللئيم بذلك إلا استغاثة بالشرطة واستنجاداً بالبوليس .

(الباشا لعيسى بن هشام) — ألم أقل لك أن الفلاَّح لا يصلحه إلا الضرب ! ألم تعلم أن غاية ما ينتهى إليه أمره فى رفع الألم عنه أن يعلو صياحه استغاثةً بالمشايخ والأولياء !

ولـكن قل لى بالله : هل « بوليس » هذا الذى يناديه ويستغيث به ولىٌّ جديد ؟

(عيسى بن هشام) — نعم إن هذا البوليس هو ولىّ الأمر احتلت فيه القوة الحاكمة .

(الباشا) — لست أفقه هذا المعنى ، فأوضحْ لى حقيقة هذا البوليس .

(عيسى بن هشام) — هو « القواس » الذى تعرفه .

(الباشا) — وأين هذا « القوّاس » الذى لا يسمع النداء فإنى أرغب فى حضوره ليتلقّى أمرى فى هذا الشقّ .

(المكارى) — يا بوليس ! يا بوليس !

(الباشا لعيسى بن هشام) — هلم لمساعدته فى نداء القوّاس .

قال عيسى بن هشام : فقلت فى نفسى كيف أنادى البوليس ، وأنا أحمد الله على سكوته وسكونه ، وهو بمقربة منا لا يكترث بنداء المستغيث . ثم التفتُّ إلى الباشا وقلت له : إن البوليس هو الذى تراه أمامنا وليس يفيد فيه الآن صياحٌ أو نداء ، فإنه مشتغل ببائع الفاكهة كما ترى . ولما لمح المكارى البوليس أمامه أسرع إليه وتبعَهُ مَنْ تجمَّع حولنا من النظارة ، فوجدوه واقفاً وفى يده منديل أحمر قد امتلأ بأصناف متنوعة مما جمعه فى صباحه من باعة الأسواق فى محافظته على « النظام » ، وهو لاهٍ بصاحب الدكان يأمره أن يضع فى داخلها ما عَرَضَهُ فى خارجها من « عيدانِ القصب » ، وفى يده عود منها يهدده به ويهزه فى وجهه هِزةَ الرمح ، ثم هو يضاحك مِنْ جهة أخرى طفلا على كتف امرأة ويناغيه ، حتى إذا أقبلنا نحوه أقبل علينا والمنديل فى يدٍ « وعود القصب » فى الأخرى .

(البوليس للجمع) — ما هذا الصياح فى الصباح ، وما هذا النداء وما هذا العناء ، كأن كل واحد من الأهالى يجب أن يكون له واحد من البوليس خاص بخدمته !

(المكارى) — أغثنى « يا سعادة الجاويش » فإن هذا الرجل ضربنى ولم يعطنى أجرتى ، وأنت تعرفنى فى هذا « الموقف » وتعرف أننى لست ممن يتشاجر أو يتخاصم .

(الباشا) — خذ أيها القواس هذا السفيه وضَعْه فى السجن حتى يأتيك أمرى فيه .

(البوليس للمكارى) — مِنْ أين ركب معك هذا الرجل « يا مُرسِى » ؟

(المكارى) — ركب معى من جهة « الإمام » .

(الباشا للبوليس) — ما هذا الإبطاء فى تنفيذ أمرى ! أسْرِعْ به إلى السجن .

(البوليس) ضاحكا هازئاً — أظنك أيها الرجل من « مجاذيب الحضرة » فى « الإمام » هلمَّ معى إلى القسم فإن هيئتك تنبئ عن إفلاسك وعجزك عن دفع الأجرة .

قال عيسى بن هشام : وجَذَبَ الشرطىُّ صاحبى من ذراعه فكاد يُغمَى عليه من الدهشة فلم يدرِ مايصنع . وأودع البوليس ما كان فى يديه من الفاكهة وغيرها عند الرجل الذى أودع المكارى حماره عنده ، وسار صاحبى مسحوباً بذراع الشرطى ، والمكارى خلفهما ، والجمع على أثرهم إلى « القسم » . فلما وصلوا إليه وصعدوا السُّلم بدأ المكارى يصرخ ويصيح ، فقابله أحد عساكر « المراسلة » فضربه ليسكته لأن « حضرة المعاون » غريق فى نومه ، فدخلنا جميعاً فى حجرة « الصُّول » لضبط الواقعة ، فوجدناه يأكل والقلم فى أذنه وقد نزع « طربوشه » وخلع نعليه وحلَّ أزرار ثيابه ، وبجانبه اثنان من الفلاحين ، أظنهما من أقربائه ، يشاهدان ما يتمتع به من لذة الأمر والنهى وسعة سلطانه على الكبير والصغير فى عاصمة القطر وقاعدةِ المُلك ، وما فى قدرته من حبس أى شخص كائناً مَنْ كان وشهادته عليه بما يجرى فى هواه . فطرَدَنا جميعاً من الحجرة حتى ينتهى من طعامه ، فخرجنا ننتظر . وأراد الباشا أن يستند على الجدار من شدة ما ألمَّ به من الحزن فخانته يده فسقط فوق جندىّ كان يكنس الأرض هناك ، فأخذ الجندىُّ فى السب والشتم ودخل إلى حجرة « الصول » هاجماً فقال له : إن المتهم الذى يشتكى منه المكارى تعدَّى علىَّ « فى أثناء تأدية وظيفتى » فضربنى بكل جسمه . فأمر « الصول » باحضاره ونادى كاتبَهُ العسكرىَّ فطلب منه أن يحرر « محضرَين » محضر مخالفة ومحضر جنحة ، وأملَى عليه كلاماً مصطلحاً عليه لم أفهم منه حرفاً . وبعد أن شهد « البوليس » الذى جئنا معه فى محضر المخالفة بما ينفع المكارى فى تأييد دعواه ، وشهد « الصول » نفسُهُ فى محضر الجنحة بأنه شاهدَ المتهم يعتدى على أحد

عساكر القسم فى أثناء تأدية وظيفته ، ختم المحضرَيْن وأمر بالمتهم أن يؤخذ إلى « خشبة المقاس » وتحرير « ورقة التشبيه » ، فجاء العسكرىّ صاحبُ الدعوى وأخذ بيمين صاحبى وأجرى ذلك عليه بنفسه وأذاقه أنواعاً من الأذى فى مقاسه . كلّ هذا والباشا كالمغشىّ عليه من الدهشة والذهول ، حتى إذا أفاق من غشيته التفتَ إلىّ يقول :

(الباشا) — أنا لا أتصور فى هذه الحالة التى أنا عليها إلا أن يكون اليوم يوم حشر ، أو أن أكون حالماً فى المنام ، أو أن يكون الداورىّ الأعظم غضب على غضباً شديداً فأمر بإهانتى على هذه الصورة الشنيعة .

(عيسى بن هشام) لا بدّ لك من التسليم والاحتمال على كل حال حتى نخلص من هذه النازلة بسلام .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفنا أمام الكاتب لتحرير « ورقة التشبيه » سأل الباشا : هل له من ضامن يضمنه ، فتقدّمت نفسى لضمانته فلم يقبلوا منى إلا بتصديق «شيخ الحارة» فحَرتُ فى أمرى ، ومن أين أجد « شيخ الحارة » فى الحال ؟ فألقى بعضُ العساكر فى أذنى : أن اخرجْ فإنك تجد « شيخ الحارة » بالباب فأعطه عشرة قروش للتصديق على الضمانة . ولِحَقنى ذلك العسكرى فدلّنى على شيخ الحارة وتوسط بيننا فى مناولة أجرة التصديق . ثم اشتغل عنى بمشاركة العساكر فى ضرب أرباب القضايا الذين علا صياحهُم وعويلهُم ليخرسوهم خشية أن يوقظوا المعاون من رقاده ، ثم ما لبثوا أن رأيتهم قد امتنعوا عن الضرب فى أقلّ من لمح البصر وتفرقوا مُهرولين كأنّ نازلاً نزل عليهم من السماء ، ووجدت مَنْ كان مِنْ بينهم أشد إيذاء لعباد الله وأعظم حرصاً على راحة المعاون فى منامه قد هجم على باب الحجرة فدفعه بكل قواه ففتحه وأخذ يهز السرير هزّاً عنيفاً ، فاستيقظ المعاون فزعاً وعَلِم أن « المفتش » قد شوهد داخلاً من باب القسم ، فأسرع إلى ثيابه فلبسها فى لحظة وهَروَلَ إلى استقباله ، فلما رآه وقف « وقفة النظام » . ولكن كان من نكدِ طالعه أنه ذهل عند لبس « الطربوش » فلم يجعل زرّه جهة اليمين بل تركه فوق الجبهة ، وكان الشعر قد تجدد

فى عارضيه لأنه لم يتمكن من حلقه فى يومه ، فأخذ المفتش عليه ذلك ودخل إلى الحجرة مُغضَباً فاشتغل بكتابة تقرير لمحاكمة المعاون على مخالفته فى الزّى « للأوامر المستديمة » .

ولما رأى الباشا سكونَ الضرب والصياح مرةً واحدة ، وما تولّى العساكر من الخوف والاضطراب ، وما شاهده من حركات المعاون ، سألنى عن شأن هذا الداخل الذى أورث ذلك الانقلاب ، فأعلمته بأنه « المفتش » جاء إلى « القسم » للتفتيش والتنقيب فى « الأحوال » والنظرِ فى شكوى الشاكين وتطبيق أعمال العمال على ما يقضى به القانون والنظام . فقال : إذن لندخل إليه لنعرض عليه ما أصابنا من الإهانة . فدخلنا فوقفنا أمامه فوجدناه يكتب فى تقريرهِ ، فالتفت إلينا وسألنا عن أمرنا ، ولما بدأنا بذكر القصة أمر أحدَ العساكر بإخراجنا من حضرته ، ثم رأيناهُ قد وضع التقرير فى جيبه بعد كتابته ونزل مسرعاً لم يلتفت فى التفتيش والتنقيب لغير زِيّ المعاون . ولما انصرف عاد الضرب والصياح والضجيج فى أنحاء القسم إلى أشد ما كان عليهِ قبل حضوره . وصاح أحد المضروبين فى شدة ألمه بأنه لا بد أن يشتكى عمال القسم إلى « النيابة » فدخل أحد العساكر إلى المعاون ليخبرهُ بما يقول الرجل ، فوضعتُ أذنى عند الباب فسمعت المعاون يحادث نفسه بقوله : « ما هذه الخدمة وما هذا الذل ؟ ولعنة الله على ضرورة الحاجة فى المعاش ومع ذلك فالحمد لله إذ كان هذا المفتش من الأجانب ولم يكن من « أولاد العرب » فهو خير منهم لأن عجزه فى فهم اللغة وجهلَهُ بالعمل جمله يقتصر فى التفتيش على طربوشى ولحيتى ، ولو كان من « أولاد العرب » لاطّلع على الاختلال الواقع فى القضايا وما يرتكبه عمال القسم من مخالفة « الأصول » .

ثم التفت إلى العسكرىّ وسمع منهُ ما ينقلهُ إليـه من قول ذلك الرجل الذى عزم على الشكاية إلى « النيابة » فازداد همه واشتد غضبه فأمر بحبس المتهمين جميعاً أربعاً وعشرين ساعة والباشا داخلٌ فيهم ، فذهبت إلى المعاون وكلمتهُ فيه ليطلقهُ بعد ضمانتى لهُ ، فأبى ذلك وقال لى بوجه عبوس : الأوْلى أن يبقى فى القسم إلى الغد حتى يُكشف على « السوابق » ثم يرسل من هنا إلى النيابة . فدخل الباشا الحبس مع الداخلين .

النيـــابة

قال عيسى بن هشام : ولما تركت صاحبى فى حبسه وذهبت إلى دارى بتُّ طول ليلتى فى هم وأرق . وقضيت رقادى فى اضطراب وقلق ، لِمَا أصاب الرجلَ من ضربات الدهر المتتالية ، وهو غريق فى دهشته وحيرته لا يدرك مُضِىّ الزمن ولا يدرى ما الحال ، ولا يعلم بتغيير الأمور وما أحدثه الدهر بعد عهده وزوال دولته من تبدل الأحكام وانقلاب الدول . وكنت هممت أن أكاشفه بشرح الأحوال وتفصيل الأمور عند أول مصاحبتى لهُ لولا ما دَهمنا به القضاء المحتوم فأوقعنا فيما ألمّ بنا . ثم فكرت بعد ذلك فكان من حسن التدبير وسداد الرأى عندى أن يبقى الرجل جاهلا بالأمر حتى ينتهى من خطبه ويكون جهلهُ بتغيير الأحوال قائماً بعذره فى التخلص من محاكمته . ثم عقدت العزيمة على أنى لا أفارق صُحبتهُ بعد ذلك حتى أُرِيَهُ ما لم يَرَ ، وأُسمعه ما لم يسمع ، وأشرحَ لهُ ما خفى عليهِ وغمض من تاريخ العصر الحاضر ، لأطّلع على ما يكون من رأيه فيه عند مقابلته بالعصر الماضى ، ولِأَعلمَ أى العهدين أجلّ قدراً وأعظم نفعاً وما الفضل الذى يكون لأحدهما على الآخر . فبكّرت إلى القسم فى اليوم الثانى وحملت معى ما يليق بصاحبى من الثياب ليرتديها عند خروجه من حبسه ، فوجدت العسكرىّ يستعد بهِ للذهاب إلى قلم « السوابق » فى دار المحافظة ، فلما بَصُرَ بى نادانى بقوله :

(الباشا) — ما هـذه الخطوب والملمات ، قد كنت أظن أن ما وقع لى أمس كان لسخط ولىّ نعمتنا الداورىّ الأعظم وغضبهِ على عبده بمكيدة كادها لى أعدائى أو فرية افتراها حسادى ، فلذلك صبرت لحكم الضرورة ، وامتثلت على تلك الصورة . حتى أتمكن من التشرف بالأعتاب ، والمثول بين يدى مالك الرقاب ، فأزيل الشبهة وأنفى الريبة وأبرأ لهُ مما رمانى بهِ الساعى والواشى ، وأُجلى له حقيقة عبوديتى وإخلاصى فيضاعف علىّ رضاهُ لحسن ما قمت بهِ من الطاعة فى احتمال هذا الهوان .

طال منى تحملٌ خلتُ أنى قابضٌ من أذاتهِ فوق جمرِ

ثم إني أعمد بعد ذلك إلى إفشاء العقاب ، عقاب القتل والصلب في هؤلاء الأدنياء السفهاء والأشقياء والأغبياء ، جزاء ما اجترأوا عليه في معاملتي واقترفوه من جهل منزلتي ، ولكني سمعت في الحبس — ويا سوء ما سمعت — وعلمت — ويا شرّ ما علمت — أن الدول دالت والأحوال حالت . وأنكم أصبحتم في زمان غير ذلك الزمان ، وفي حال من الفوضى يصح فيها قول ذلك المكارى : « إنه هو والباشا في المنزلة سواء » وتلك التي :

تُصِمُّ السميعَ وتعمِى البصير ويُسْأَلُ مِن مثلها العافيـه

فاللهمَّ عفوكَ وصفحك ، هل قامت القيامة وحان الحشر ، فانطوت المراتب وانحلت الرياسات ، وتَساوى العزيز بالذليل ، والكبير بالصغير والعظيم بالحقير ، والعبد بالمولى ، ولم يبق لقرشيّ على حبشيّ فضل ، ولا لأمير منا على مصرى أمر . ذلك ما لا يكون ولا تحتمله الظنون . ثم اعلم أيها الرجل أن ذنب أولئك السفهاء فيما جنوهُ عليّ لا يُعد في جانب ذنبك عندى إلا كالخردلة من الصخر ، والقطرة من البحر ، لكتمانك على الأمر ، حتى دخلت بي بلداً هذا حاله وذاك شأنه ، وأعوذ بالله منك ومن شياطين الجن .

(عيسى بن هشام) — إنما أقول لك أيها الأمير أيضاً ما قاله موسى للخضر عليهما السلام : « لا تؤاخذنى بما نسيت ولا تُرهقْنى من أمرى عُسراً » ولقد نزل بي من الخوف والذهول عند انتشارك من القبر ما أورثني التبلد والتحير ، ومنعنى عن تبصرتك بالواقع وتنبيهك إلى ما تغيرتْ به الحال من بعد عهدك ، وما كدت أنتبه إلى تعريفك بها حتى دُهينا بذلك المكارى ودُهِمْنا بتلك الحادثة فلا ذنب لى فيما أتيتُ ، والعذر مقبول لديك ، فاصبرْ على ما تلاقيه ، واحتملْ ما أنت فيه . وتقبّل القضاء بوجه الرضاء ، ولا تأسَ على ما فات . لتكفر عن السيئات .

(العسكرى للباشا) — هلم إلى « السوابق » .

(الباشا) — سبحان العزيز القادر ، أتُرَى قد زال عنى بؤسى وانقشع نحسى ورجع إلىّ عزى فجاءونى بموكبى وخيلى .

(عيسى بن هشام) — ليس المقصود « بالسوابق » تلك الجياد الصافنات ، والعتاق الصاهلات ، وإنما هو ديوان تُقيَّدُ فيهِ سحنة المتهم وسيماه . ويكشف فيهِ عما جنتهُ يداه .

(العسكرى للباشا) وهو يسحبهُ — لا تُطِل فى الكلام وامشِ معى ساكتاً ساكناً

(الباشا) وهو يمتنع — ما الحيلة فى القضاء ؟ وما العمل فى المقدور ، وكيف الخلاص وأين النجاة ؟ ومن لى بالموت ثانية ليردنى إلى راحة القبر ؟

(عيسى بن هشام) وهو يتضرع — أقسمت عليك بدفين القلعة ، ووقع سيوفك فى المعمعة ، إلا ما قبلت نصيحتى وعملت بمشورتى ، فلا تعارضْ ولا تعاندْ فإن الامتناع لا يفيد ولا يزيدنا فى ملمتنا إلا شدة . والعقل يرشدنا أن نسلم للأقدار حيث لا عمل ، وأن نلبس لكل حالة لبوسها . إما نعيمها وإما بوسها .

(الباشا) ممتثلاً — اللهم لا رأى مع القضاء .

قال عيسى بن هشام : وسِرْنا مع العسكرى فوصلنا إلى «قلم السوابق وتحقيق الشخصية» فرأى الباشا هناك من الشدة ما تنخلع لهُ القلوب وتشيب منه النواصى ، فجردوه من ثيابه وفحصوا بدنه عضواً عضواً ، وقاسوا وجهه وجسده وحدّقوا فى عينيه ، وصنعوا به ما صنعوا ، وهو يتنفس الصُّعَداء حتى انتهوا من عملهم . ثم سألوا عن ضمانته فلم يجدوا له ضمانة ، لأن المعاون قاتله الله ردّ شيخ الحارة عن التصديق على ضمانته ليجوز له الحبس ، فأرسلونا مع العسكرى إلى النيابة . ولما دخلنا على النائب وَجدْنا معهُ قضايا جمة ، وأصحابُها مزدحمون ينتظرون نوبتهم ، فانفردنا ناحية ننتظر نوبتنا أيضاً ، والتفت إلىّ صاحبى يسأل ويستفهم .

(الباشا) — أين نحن الآن ومَن هذا الغلام وما هذا الزحام ؟

(عيسى بن هشام) — نحن أمام النيابة ، وهذا عضو النيابة ، وهؤلاء أرباب الدعاوى .

(الباشا) — وما النيابة ؟

(عيسى بن هشام) — النيابة فى هذا النظام الجديد هى سلطة قضائية مكلَّفة بإقامة الدعاوى الجنائية على المجرمين بالنيابة عن الهيئة الاجتماعية ، والغرضُ من إنشائها ألا تبقى

جريمة بلا عقوبة ، ووظيفتها أن تدافع عن الحق فتظهر ذنب المذنب وتكشف عن براءة البرىء .

(الباشا) — وما « الهيئة الاجتماعية » التى تنوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) — هى مجموع الأمة .

(الباشا) — ومنْ هذا الأمير العظيم الذى اتفقت الأمة عليهِ لينوب عنها ؟

(عيسى بن هشام) — ليس هذا الذى تراهُ بأمير ولا بعظيم من عظماء الأمة و إنما هو أحد أبناء الفلاحين أرسلهُ أبوهُ إلى المدارس فنال الشهادة فاستحق النيابه فتولى فى الأمة ولاية الدماء والأعراض والأموال .

(الباشا) — نعمت المنزلة عند الله منزلة الشهادة ، وللشهيد فى الجنة أعلى الدرجات ، ولكن كيف تتصور عقولكم — وأظنكم فقدتموها — أن تجتمع الشهادة فى سبيل الله والحياةُ فى الدنيا لأحد من الناس ؟ والذى يفوق ذلك عجباً و يزيد العقل خبالاً أن يحكم الناس فلاحٌ و ينوب عن الأمة حرّاث ! و يشهد الله أننى خرجت من شدة إلى شدة وانتهيت من خطب إلى خطب فسلمت وصبرت ، ولكن لا صبر لى على هذه الخارقة . فما أعظم الفاجعة وأشقّ النازلة ، لقد فَنِيَ منى الصبر . ومن لى بِفِناء القبر ؟

(عيسى بن هشام) — اعلمْ أن هذه الشهادة ليست بشهادة الجهاد ، بل هى ورقة يأخذها التلميذ فى نهاية دروسه ليثبت بها أنه تلقى العلوم وبرع فيها . وقيمتها لمن يريد الحصول عليها ألف وخمسمائة فرنك فى بعض الأحيان .

(الباشا) - مِهْ مِهْ كأنك تريد الإجازة التى يجيزها علماء الأزهر لمن تلقّى عليهم العلوم من الطلبة وفاق فيها . غير أننا ما سمعنا فى دهرنا بهذه الأثمان وما عهدنا أن الأزهر الشريف يعرف ما الفرنكات أو يفقه من العملة سوى الجرايات .

(عيسى بن هشام) — ما هذه العلوم بعلوم الأزهر ، ولكنها علوم إفرنجية يتلقونها فى بلاد الإفرنج . والفرنك عملة تلك البلاد ، ويقال لتلك القيمة عندهم رسم الشهادة ، وهى قيمة لا تذكر بالنسبة إلى كثرة فوائدها لأن القاعدة فى هذا النظام « أن الشهادة بلا علم

خير من العلم بلا شهادة » ، وصاحبُ الشهادة إذا قدّمها للحكومة يكون لهُ الحق فى الاستيلاء على مرتب وظيفة يزيد على الدوام ويَرقى .

(الباشا) — الآن كدت أفهم ، وأظن هذه الشهادة تعادل « أوراق الالتزام » و « سراكى الروزنامجه » فى أيام حكومتنا .

قال عيسى بن هشام : وبينا نحن فى هذا الحديث إذا بشابين رشيقين رفيقين قد أقبلا يخطران فى مشيتهما والطِّيب ينتشر فى الجو من أردانهما ، وهما يصعِّرانِ(١) خدَّيهما كبراً واختيالاً ، ولا يلتفتان إلى من حولهما تيهاً وإعجاباً ، أحدُهما يشق الهواء بعصاه ، والثانى تلعب « بالنظارة » يداه . فشخصتْ إليهما الأنظار ، وتحولت نحوهما الأبصار ؛ والحاجبُ مِن أمامهما يدفع الناس من طريقهما ، حتى وصلا إلى باب النائب ، فقام لهما عن مجلسِهِ وأمر بأرباب القضايا أن ينصرفوا من حضرته ، واشتغل الحاجب بسحبهم وجَرِّهم ، وطردِهم ونهرِهم ؛ واشتغل النائب بطىِّ المحاضر ورفع المحابر ، حتى خلا لصاحبيه من كل شغل وعمل .

(الباشا لعيسى بن هشام) — يظهر لى أن هذين الشابين من أكبر أولاد الأمراء أو انهما مفتشان للنيابة كما رأينا المفتش للقسم .

(عيسى بن هشام) — ما أظنهما إلا زائرين من قرناء النائب فى المدرسة كما يظهر لى من شمائلهما .

(الباشا) — وهذا أعجب وأعجب !

قال عيسى بن هشام : وأردت أن أختَبِرَ خبرهما وأكشف أمرهما ، فانتهزت فرصة التزاحم بين الناس واشتغالَ الحاجب بهم ، فانزويت عقبَ الباب من وراء الستار بحيث أسمع وأرى ، فسمعت هذه المحاورة بينهم :

(الزائر الأول) بعد السلام والجلوس — لماذا تركتنا أمس أيها الخبيث من قبل أن ينتهى اللعب ؟

---

(١) صعر خده : أماله تكبراً

(النائب) — لأنه كان قد مضى من الليل أكثره ، وعندى من القضايا ما يضطرنى إلى التبكير .

(الزائر الثانى) — وهل سمع أحد أن القضايا تعوق الإنسان ، عن مجالسة الإخوان . ومثل هذا العذر يعتذر به لغير الواقفين على أعمال النيابة وقضاياها . أوَ لم تعلم أن فلاناً وفلاناً وسواهما من أقرانك لا تستغرق منه قضايا اليوم كله أكثر من ساعة واحدة . وأخص بالذكر منهم فلاناً فإنه يكتفى بأن يمر عليها بلحظة منه ويستغنى عن مطالعتها ويرتكن على توقد ذهنه ونباهة قريحته وكثرة تمرنه للإحاطة بفهمها . وما دام الشقاق والنزاع قد انتهى أمره بين النيابة والبوليس فالأولى الاكتفاء بمحاضر البوليس أو إعادتها إليه لاستيفائها ، ولا محل لتجديد التحقيق بعده وتضييع الوقت سدى فيما عساه أن يولد الشقاق أو يعيد النزاع مرة أخرى .

(النائب) — ذلك ما أفعله ، ولكن لا بد من التمسك « بالظواهر والأصول » على قدر الإمكان .

(الزائر الأول) — أفما عندك الكاتب يقوم فى ذلك مقامك ويكفيكه .

(النائب) — صدقت إن الكاتب ليكفى . والقول الصحيح أن السبب فى مفارقتكم أمس وفى ترك اللعب هو أننى خسرت ما كان معى من مرتب الشهر ونحن لا نزال فى أوائله .

(الزائر الأول) — تلك هى عادتك فى ادعاء الخسارة دائماً مهما ربحت ومهما كسبت ، وما سمعت منك فى عمرى إلا أنك خسران . أفلم تربح منى فى « اليد الأخيرة » التى كانت بيننا خمسة جنيهات ؟

(النائب) — وحقّ شرفى وذمتى ومستقبلى أنى قمت من عندكم أمس بالخسارة .

(الزائر الثانى) — ما علينا . ولكن قل لى : هل أنت لا تزال على وعدك معنا فى التوجه إلى صاحبنا لمشاهدة الرقص البلدى من فلانة المشهورة ؟

(النائب) — أسألك المسامحة فإنه لا يمكننى ذلك ، أولاً لأن هذا الرقص الذى يعجب أولاد البلد والفلاحين لا يعجبنى ، وثانياً لأنى دعوت « مادموازيل فلانة » المشخصة فى

« الأوبرا » مع فلان وفلان المشخصين لتناول الغذاء فى الأزبكية عند « سانتى » ، وسنذهب بعد ذلك إلى « خان الخليلى » و « قصبة رضوان » و « مقابر الخلفاء » و بعض الأماكن القديمة من البلد للتفكه والتسلى .

(الزائر الأول) — دعواك الآن أنه لم يبق معك من مرتب الشهر شىء ، فكيف لك بما يلزم لمثل هذا من النفقات ؟

(النائب) — فاتنى أن أذكر لكما أن معنا فلاناً المحامى ومعه صاحبهُ العمدة .

(الزائر الثانى) — وكيف يميل هذان الشخصان إلى مثل هذا المجلس الأفرنجى أو يستريحان لهُ وهما لا يعرفان شيئاً من اللغات والاصطلاحات الأوربية .

(النائب)— ألم تعلم يا أخى أن أمنية المحامى أن يكون مصاحباً لأهل القضاء . وأمنية الفلاح أن يتحكك بنا . والرغبةُ عند أمثالها عظيمة فى حضور المجالس الأفرنجية وإن كلفهم ذلك ما كلفهم وخرجوا منها على غير فائدة لهم ؟

(الزائر الأول) مقتضباً — من أين اشتريت هذا « الكرافات » (رباط الرقبة) ؟

(النائب) — ما اشتريته يا « مونشير » (عزيزى) وإنما جاءنى مع ملابسى من عند الخياط فى باريس وهو من آخر طرز .

(الزائر الثانى) — هل بلغك زواج فلان بمعشوقته ؟

(الزائر الأول) — هل ركبتَ مع فلان فى « الأتومو بيل » ؟

(النائب) — قد وقفت لكما على سبب انتحار ابن فلان المتمول .

(الزائر الأول) — أنا أعرفه ، فهو الغرام .

(النائب) — لا .

(الزائر) — المال ؟

(النائب) — لا .

(الزائر) — المرض ؟

(النائب) — لا . وإنما هى سُنَّة جديدة فى شبان باريس اقتدى المسكين بها .

(الزائر الأول) — وأنا وقفت لـكما على سبب استعفاء فلان من وظيفته .

(النائب) — سيرته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — وظيفته ؟

(الزائر) — لا .

(النائب) — فرنسويته ؟

(الزائر) — لا . وإنما هي « انكليزيته » .

المحامى الأهــــلى

قال عيسى بن هشام : فسئمت من هذا الكلام الفارغ والحديث المقتضب وانتهزت دخول الحاجب ، فخرجت من مكمنى وعدت إلى الباشا صاحبى فوجدت بجانبه أحد سماسرة المحامين قد التصق بِهِ وهو يحاوره . فوقفت عن بُعْدٍ أسمع ما يدور بينهما :

(السمسار) — اعلمْ أن المحامى يدير القضاء فى يده بما يريد ، فيعاقب من يشاء ويبرئ من يشاء ، وما أعضاء النيابة وقضاة الجلسات إلا طوع إشارته ، ورهن كلمته وكالخاتم فى إصبعه ، فلا حكم إلا بقوله ولا قضاء إلا بأمره . وأنت ، على ما أراك ، رجل غريب حقيق بالرحمة والشفقة ، ولا يليق بالمُروءة أن أدعك طعمة فى أيدى بعض المحامين من أهل الطبقة السفلى الذين اعتادوا سلب أموال الناس بطرق الغش والاحتيال وكاذب الوعود والآمال ، ولى صاحب معروف بين طائفة المحامين بالصدق والأمانة ، وله مقام سام بين القضاة والحــكام ، فهو صديق الناظر وجليس المستشار ونديم القاضى وخدين النائب ووكيل « البرنس » . لو شاهدتَهُ يا سيدى مرة واحدة فى اجتماعه معهم فى السهر والسمر، ورفعِ الكلفة بينه وبينهم فى ساعات الأنس وأوقات السرور ، يشاربهم ويؤاكلهم ويمازحهم ويفاكههم ويناظرهم ويقامرهم، لأيقنتَ فى الحال أن كل طلب له يجاب، وليس لأمره من راد ، فالمجرم برىء والبرىء جانٍ على حسب المراد . فقل لى حينئذٍ عن مقدار ما تستطيع دفعه من « مقدم الأتعاب » فى تبرئتك من تهمتك والانتقام لك من عدوك

(الباشا) — أنا لا أعرف المقدم ولا المؤخر ولم يخبرنى صاحبى عن هذا الحاكم القادر الذى تصفه لى فإذا استفهمتُ عنه . . . . . .

(السمسار) مقاطعاً — لا لزوم للاستفهام من أحد ، فها هو ذا حضرة المحامى قد أقبل لمقابلة « النائب العمومى » فأنا أستوقفه لحظة للنظر فى شأنك .

(ويسرع السمسار لمكالمة المحامى بعد أن يوسع له فى الطريق ويسلم عليه بسلام الأمراء حتى يصل بهِ إلى جانب الباشا) .

(المحامى) بصوت عالٍ — أنا لا أستطيع قبول التوكيل عن أحد فى هذه الأيام لتراكم الأعمال وتزاحم القضايا، فلم يبق عندى وقت للطعام والشراب، فكيف تكلفنى أن أقبل التوكيل عن صاحبك فى هذه القضية الصغيرة وقد رفضت فى صباحى هذا خمس قضايا لها شأن عظيم.

(السمسار) — سألتك بحق الإنسانية وحرمة المروءة وبما جبلتَ عليه من الحنو والشفقة على الضعفاء أن تأذن لأحد عمال مكتبك بمباشرة هذه القضية إن لم تتنازل لمباشرتها بنفسك فإن المقصود هو تأثير اسمك وصيتك فى المحكمة.

(المحامى) — لا أرى فى ذلك بأساً للعناية بك والشفقة على صاحبك. (وينصرف المحامى بعد مصافحته للباشا).

(السمسار للباشا) — هلمّ فادفع عشرين جنيهاً.

(الباشا) — ليس عندى الآن شىء من الدراهم.

(السمسار) — أعطنى تحويلاً.

(الباشا) — أنا لا أفهم لك كلاماً فاذهب عنى فقد ضقت بك ذرعاً.

(السمسار) — كيف أذهب عنك وقد تم لك الاتفاق مع حضرة المحامى أمامى؟

(الباشا) — أنا لم أتفق مع أحد فاتركنى وانصرفْ.

(السمسار) — كيف تنكر اتفاقك مع المحامى بعد أن وضعت يدك فى يده.

(الباشا) — عفوكَ اللهم ولطفكَ! ومَن يصبر على هذه الحال. أشرت بيدى فى حديثى مع صاحبى، فوقعت فى حادثة المكارى. وصافحت المحامى، فصرت مديناً بعشرين جنيهاً. ففى أى العوالم أنا، وبين أىّ المخلوقات!

قال عيسى بن هشام: ولما رأيت لوائح الغضب بدت على وجه الباشا خشيت أن يقع مع السمسار فى حادثة أخرى، فأدركته وبخت الرجل على احتياله وتوعدته بالشر ورَفع الأمر إلى النائب العمومى إن لم ينتهِ عنا، فخلفنا وانصرف. ونادى الحاجبُ أربابَ القضايا

فدخلنا فوجدنا النائبَ لازال لاهياً فى حديثه مع زائريْهِ ، وأشار لنا بالتقدم إلى الكاتب ، فتقدمت مع صاحبي وشرعت فى بسط القضية و بيان ما قاسيناه من سوء معاملة البوليس وقبحِ افترائه ، فالتفت النائب إلى الكاتب وقال له : لا تقبل كلاماً فى البوليس ولا تسمع فيه طعناً بل خذ بأقواله واستمسك بتحقيقه . ثم نظر فى الساعة فوجد الميعاد قد حلّ فأخذ عصاه ولبس طر بوشه وخرج يهرول مع صاحبيه . فقلت لصاحبي : الآن وجب أن أذهب للبحث عن أحد المحامين الصادقين من أصحابى المدافعة عنك .

(الباشا) — قل لى بالله ما هو المحامى عندكم ؟

(عيسى بن هشام) — هو وكيل الحكم والمخاصمة يتكلم مكانك بما تعجز عنه ، و يدافع عنك بما لم تعلمه ، و يشهد لك بما لم يخطر ببالك ، وصناعتُه هذه صناعة شريفة يمارسها كثير من الفضلاء اليوم بيننا ، ولكن قد دخل فى الصناعة جماعة ليسوا من أهلها فاتخذوا الخداع والاحتيال بضاعة للتكسب مثل هذا المحامى وسمساره ، وهؤلاء بعينهم هم الذين يعنيهم علاء الدين الكندىُّ بقوله :

ما وكلاء الحكم إن خاصموا　　إلاَّ شياطينٌ أولو باسِ
قومٌ غـــدا شرُّهم فاضلاً　　عنهم فباعوهُ على الناسِ

المحكمة الأهليـــة

قال عيسى بن هشام : ولما حلّ يوم الجلسة رافقت الباشا إلى المحكمة فوجدنا فى ساحتها أقواماً ذوى وجوهٍ مُكفهرّة . وألوان مُصْفَرّة . وأنفاس مقطوعة . وأكفّ مرفوعة . وشاهدْنا باطلاً يُذكر . وحقّاً يُنكَر . وشاكياً يتوعد . وجانياً يتودد . وشاهداً يتردد . وجندياً يتهدد . وحاجباً يستبدُّ . ومحامياً يستعدُّ . وأُمَّا تنوح . وطفلاً يصيح . وفتاةً تتلهف . وشيخاً يتأفف . وسمعنا ألفاظاً متناقضة ، وأقوالاً متعارضة . ورأينا المحاميَيْن ، عن الخصمين . يشحذ كل منهما لسانه . ويقدح جنانَه . استعداداً للنزال . فى ميادين المقال . وتأهباً للدفاع . فى مواقف النزاع . لِيَخرج كلاهُما بغنيمة البراءة فى الحكم . ورفع التهمة والجُرم . فانزويت بصاحبى . ومحامينا بجانبى يذكر لنا « أصولاً مرعية » . و « مسائل فرعية » وظروفاً وأحوالاً . وشروحاً وأقوالاً . وموادّ وفقرات . فى الجنح والمخالفات . ثم يتصفح محاضره . ويقلب دفاتره . ويقسم لنا بوكيد الأيمان . أن الباشا من تهمته فى أمان . وأنا أجيب صاحبى عن كل سؤال . بما تقتضيه الحال . ولما سألنى عن هذه الملحمة ، قلت له هى المحكمة .

(الباشا) — قد كان العهد بالمحكمة الشرعية و بيت القاضى على غير ما أرى ، فهل أصابها الدهر فيما أصاب بالتغيير والانقلاب ؟

(عيسى بن هشام) — هذه هى المحكمة الأهلية لا المحكمة الشرعية .

(الباشا) — وهل للقضاء بين الناس غير المحكمة الشرعية ؟

(عيسى بن هشام) — للقضاء فى هذه البلاد على ما تشتهى محاكم متعددة ومجالس متنوعة ، فمنها المحاكم الشرعية والمحاكم الأهلية والمحاكم المختلطة والمجالس التأديبية والمجالس الإدارية والمجالس العسكرية والمحاكم القنصلية دع المحكمة المخصوصة .

(الباشا) — ما هذا الخلط ، وماهذا الخبط ؟ وسبحان الله ! هل أصبح المصريون فرقاً وأحزاباً . وقبائل وأفخاذاً . وأجناساً مختلفة . وفئات غير مؤتلفة . وطوائف متبددة . حتى

جعلوا لكل واحدة . محاكم على حدة . ما عهدناهم كذلك فى الأعصر الأول . مع دولات الدول . وهل انطمست تلك الشريعة الغراء . واندرست بيوت الحكم والقضاء . اللهم لا كفران . ولعن الله الشيطان .

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر على ما تتوهم وتتخيل ، فلم يتفرق المصريون فرقاً ، ولم يتوزعوا شعوباً ، بل هم أمة واحدة ولهم حكومة واحدة يقضى نظام الأمور فيها بهذا النسق والترتيب فى القضاء والحكم ، وأنا أشرح لك جملة الحال شيئاً قليلاً .

أما المحاكم الشرعية فقد جُرِّدت من النظر والحكم فى عامة المخاصمات واقتصر العمل فيها على الأحوال الشخصية : أعنى مسائل الزواج والطلاق وما يدخل فى هذا الباب .

(الباشا) — تالله لقد فسد الحال وانحل النظام . وكيف يعيش الناس ويستقر لهم حال بغير شرع الله وسنة نبيه ، وهل أصبحتم فى الزمن الذى يعنيه القائل بقوله :

قد نُسِخَ الشرعُ فى زمانِهِمُ ‏ ‏ ‏ فليتهم مثل شرعهم نُسِخوا

(عيسى بن هشام) — لم يُنْسخ الشرع ولم يرتفع حكمه ، بل هو باقٍ على الدهر ما بقى فى العالم إنصاف وفى الأمم عدل . ولكنه كنز أهمله أهله ، ودرة أغفلها تجارها ، فلم يلتفتوا إلى وجوه تشييده وتمكينه ، وتمسكوا بالفروع دون الأصول ، واستغنوا عن اللب بالقشور ، واختلفوا فى الأحكام وعكفوا على الاشتغال بسفساف الأمور ، وتعلقوا من الدين بالأغراض الحقيرة والأقوال الضعيفة ، وتركوا الحقيقة إلى الخيال ، وتعدوا الممكن إلى المحال ، فكان من أكبر همّ العالم العلامة فيهم والحبر الفهامة منهم أن يُبدع فى التفنن للاغماض فى الحق الأبلج ، والتعقيد فى الحنيفية السمحة ، ولم ينتبهوا يوماً إلى ما تجرى به أحكام الزمن فى دورته ، ولم يفقهوا أن لكل زمن حكماً يوجب عليهم تطبيق أحكام الشرع على ما تستقيم به المصلحة بين الناس ، بل ظلوا واقفين عند الحد الأدنى لا يتزحزحون ولا يتحلحلون ، معتقدين أن الدهر دار دورته ثم وقف ، وأن الزمن تحرك حركته ثم سكن ، فلا أمل فيه ولا عمل ، فكانوا سبباً فى تهمة الشرع الشريف بخلل الحكم ووهن المأخذ وقلة الغناء فيه

لإنصاف الناس فى معايشهم ومرافقهم على حسب ما تتجدد به حالات الزمن وتتخالف عليه أشكال العصور . ومن هنا تولدت الحاجة إلى إنشاء المحاكم الأهلية بجانب المحاكم الشرعية .

(الباشا) — ما أظن إلا أن يكون لأهل الشرع وأصحاب التفقه فى الدين عذرٌ واضح فى النزول إلى هذه الحالة السيئة من معارضة معارض ومنازعة منازع ، أو جور سلطان قاهر وعسف حاكم قاسر . فصدَّهم عن سواء السبيل ، وأرعاهم هذا المرعى الوبيل .

(عيسى بن هشام) — لم يكن من ذلك شيء على الإطلاق ، فالإرادات مختارة ، والأفكار طلقة والنفوس مطمئنة والأرواح آمنة . وليس الفساد ناشئاً عن طوارئ الزمان وطوارق الحدثان ، ولكنه فساد فى التربية عم أمرهُ وانتشر ، وانحطاطٌ فى الأخلاق عَظم بلاؤه واشتهر ، سكنتْ إليه نفوسهم وارتاحت به ضمائرهم ، وقد تمكن منهم داء التحاسد والتباغض ، ودبت بينهم عقارب التشاحن والتضاغن ، واستولى على قلوبهم الجبنُ والخوَر ، وعلى عقولهم الضعفُ والخبَل ، وعلى نفوسهم الفتور والكسل ، فوصلوا إلى الحال التى يرون بها السُّنة بدعة ، والبدعةَ سنة ، والفضيلةَ نقيصة ، والنقيصةَ فضيلة ، وأقاموا يتعسفون فى الحكم ولا ينصفون . ويتفكهون فى الدين ولا يتفقهون . وصرَفهم حب المال ، عن صالح الأعمال . وألهاهم ما يدَّخرونه من زخرف الحياة الدنيا ، عما يُدَّخر لهم فى الدار الأخرى . فنحن الذين نعلنا كل هذا بأنفسنا ، منا الأثمُ والوزر ، وعلينا الذنب والإصر .

وأما المحاكم الأهلية فهى القضاء الذى يقضى على الرعية اليوم فى جميع الخصومات طبقاً لنص القانون .

(الباشا) — « القانون الهمايونى » ؟

(عيسى بن هشام) — القانون « الأمبراطورى » .

(الباشا) — ما عهدت منك أن تُعجم وتبهم

(عيسى بن هشام) — لا إعجام ولا إبهام ، فهو قانون نابليون إمبراطور الفرنسيين .

(الباشا) — وهل عاد الفرنسيس فأدخلوكم تحت حكمهم وسلطانهم مرة أخرى ؟

(عيسى بن هشام) — لا . وإنما نحن الذين أدخلنا أنفسنا فى حكمهم فاخترنا قانونهم ليقوم عندنا مقام شرعنا .

(الباشا) — وهل هذا القانون ينطبق حكمه على حكم الشرع الشريف والسنة المطهرة ، وإلا فإنهم يحكمون فيكم بغير ما أنزل الله ؟

(عيسى بن هشام) — المسألة فيها خلاف . فالإجماع تام عند علماء الشريعة فى السر والنجوى ، على أنهُ مخالف للشرع ، وأن كل من يقضى به داخل تحت نص الآية الشريفة : « وَمَن لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ . » ولكن يظهر أنهُ مطابق عندهم للشرع ، فى حالة الجهر والعلن ، بدليل ما أعلنه أحد كُبرائهم عند نشر هذا القانون ، وهو يومئذ مفتى نظارة الحقانية ، فقد أقسم الأيمان المغلظة على فتواه التى أفتاها بأن هذا القانون الفرنسىّ غير مخالف للشرع الإسلامى . وإنْ كان لا عقاب فى هذا القانون على الفسق واللواط مع رضا المفسوق به إن تجاوز عمرُهُ الثانية عشرة بيوم واحد ، ولا عقاب فيه على من يزنى بأمه إذ هى رضيت وكانت غير متزوجة ؛ وهو الذى يعد الأخ مجرماً جانياً إذا تعرض لحماية عرض أخته والمدافعةِ عنهُ ، وكذلك بقية أهلها ما عدا زوجها ؛ وهو الذى لا يعاقب الزوج إذا سرق من إمرأته ، ولا المرأة من زوجها ، ولا الولدَ من أبيه ولا الأبَ من ابنه .

وأما المحاكم المختلطة — وقضاتها من الأجانب — فهى تختص بالنظر فيما يقع من الخصومات بين الأهالى والأجانب ، وبين الأجانب وبعضهم فى الحقوق المدنية ، أعنى فى قضايا المال . ولما كان الأجانب هم أحق وأولى بالغنى لسعيهم وجِدّهم ، وكان المصريون أخلق بالفقر وأجدر لإهمالهم وتوانيهم ، كان معظم القضايا التى تحكم فيها هذه المحاكم لا بد أن تنتهى بسلخ المصرى من ماله وعقاره .

وأما المجالس التأديبية ، فهى تختص بالنظر فى عقاب الموظف الذى يخل بتأدية وظيفته — وهى تتألف فى الغالب من نفس الرؤساء الذين يتهمونه — وحدُّها فى العقاب الرفت

والحرمان من المعاش ؛ وما بقى من درجات العقاب ، فالنظر راجعٌ فيه إلى المحاكم الأهلية .

وأما المجالس الإدارية ، فهى تختص بعقاب من يخالف اللوائح والأوامر والمنشورات ، وشرح ذلك يطول .

وأما المحاكم العسكرية ، فهى تختص بالنظر فى عقاب المتهمين من الضباط والجنود ، وتحكم أيضاً على الأهالى فى مسائل القرعة وما شاكلها .

وأما المحاكم القنصلية ، فهى تختص بالنظر فى الجنح التى تقع من الأجنبى على المصرى ، ومن الأجنبى على الأجنبى من جنس واحد ؛ فإذا وقعت جناية من أجنبى على مصرى فليس لها فى مصر من حكم أو عقاب ، ولا تختص أى محكمة من هذه المحاكم التى عددتها لك بالنظر فيها ، بل يرتدّ الجانى بالقضية إلى وطنه ومسقط رأسه وديار قومه ، فينظر قضاته هناك فى أمره ، والغالب فى مثل هذه الحال عندهم أن ينتهوا بتبرئة المجرم بعلل معلومة مثل: « عدم ثقتهم بتحقيق البوليس المصرى ، وضياع معالم القضية ، وعدم توفر الشهود . »

وأما المحكمة المخصوصة ، فهى تختص بمعاقبة الأهالى عند تعديهم على الجنود الأجنبية .

(الباشا) — ما زلتَ تسمعنى الغريب ، وتفهمنى غير مفهوم ، ومِن أعجب ما سمعت أن المصرىّ يتعدى على الجندى .

قال عيسى بن هشام : وبينا نحن فى هذا الحديث إذا ارتجّ المكان ، وتماوج الزحام ، وأقبل القاضى ، وهو فى عنفوان شبابه ، وصبا أيامه ، يتألق وجههُ حسناً ، ويشاكل فى القد غصناً ، وكأنه طائر فى مشيته ، من نشاطه وخفته . ولما دخل الجلسة ، ذهبتُ أسأل عن نوبة القضية ، ثم عدت إلى صاحبى ، ومكثنا فى الانتظار زمناً طويلاً إلى أن جاء وقتنا ، ونُودى الباشا ، فدخل مع المحامى فى الجلسة ، وقام النائب فطلب الحكم على المتهم بمقتضى مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات لتعديه بالضرب على أحد رجال « الضبطية القضائية » فى أثناء تأدية وظيفته ، وبالمادة ٣٤٦ مخالفات لتعديه على المكارى بالإيذاء الخفيف .

(القاضى) للمتهم — هل فعلت هذه التهمة ؟

(المتهم) — لم أفعل .

قال عيسى بن هشام : وجاءوا بى شاهداً ، فسألنى القاضى عما أعلمه فى هـذه الواقعة فأجبته :

(عيسى بن هشام) — إن لهذه الحادثة قصة عجيبة وحكاية غريبة وهى أنه . . . .

(القاضى) مقاطعاً — لا لزوم لتفصيل القصة والحكاية ، قل لى « معلوماتك » فيها

(عيسى بن هشام) — « معلوماتى » هى أننى كنت أزور المقابر ذات ليلة وقت الفجر أبغى الموعظة وأنشد الاعتبار . . . .

(القاضى) مستثقلاً — لا لزوم لكثرة الكلام ، أجبنى عن النقطة التى سألتك عنها فقط .

(عيسى بن هشام) — ذلك ما أفعله من حكاية الواقع ، وهو أنى رأيت رجلاً خرج من ..

(القاضى) متململاً — قلت لك إنى لا أقبل التطويل ولا الشرح فى الواقعه ، ولكن هل ضرب المتهم العسكرى والحمار ؟

(عيسى بن هشام) — ما ضرب المتهم الحمار ، وإنما دفعه عنه من شدة إلحاحه ، وما ضرب العسكرى ، وإنما سقط عليه مما غشيه بغير عمد ولا قصد ، وهو يجهل . . .

(القاضى) — يكفى ، يكفى ، هلم « النيابة » .

(النائب) — إن هذا الباشا متهم بتعديه بالضرب على أحد رجال البوليس فى أثناء تأدية وظيفته بالقسم ، ومتهم بالتعدى بالإيذاء على «مرمى» الحمار . والتهمة ثابتة من شهادة الشهود التى فى الأوراق . واطلاع المحكمة عليها كاف ، وبناء عليه النيابة تطلب الحكم على المتهم بالمادة ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات وبالفقرة الثانية من المادة ٣٤٦ مخالفات ، وتطلب من عدالة المحكمة التشديد فى العقوبة ، لأن حالة المتهم تستدعى ذلك ، فإنه يتخيل أن رتبته تجعله خارجاً عن سلطة القانون ، وتخوله الحق فى اعتباره بقية الناس أصغر منه شأناً ، فيؤذيهم بنفسه مع عدم مراعاة حقوقهم وحرمة القانون ، ولا شك أن تشديد العقوبة عليه واجب ، لاعتبار أمثاله به ، وللمساواة فى العدالة ، وأفوض الأمر إلى المحكمة .

(القاضى) للمحامى — المحاماة ، مع الاختصار .

(المحامى) بعد أن يتنحنح و يقلب فى أوراقه — إننا نتعجب من أن النيابة العمومية استحضرتنا اليوم بصفة متهمين ، ونقول إن أصل وقوع الجرائم يا حضرة القاضى فى وضع الشرائع والقوانين فى هذا العالم منذ البداوة وعصور الهمجية كان يُقصد منه . . .

(القاضى) مشمئزاً — اختصرْ يا حضرة المحامى وادخلْ فى الموضوع .

(المحامى) — . . . ومن المعلوم أن نظام الترتيب يا حضرة القاضى فى طبقات الهيئة الاجتماعية يقضى . . .

(القاضى) — متضجراً — اختصر يا بك .

(المحامى) — الموضوع يقتضى ذلك .

(القاضى) متأففاً — لا لزوم له .

(المحامى) متحيراً — قالت النيابة العمومية (و يسرد شيئاً من أقوالها) ونحن نقول إننا لو سمحنا جدلاً . .

(القاضى) مغضباً — يكفى يا بك ، الموضوع .

(المحامى) متلعثما مضطرباً — إن هذا المتهم يا حضرة المحكمة الواقف الآن بين يدى القضاء هو رجل عظيم وأمير خطير من أهل العصر القديم ، وله حديث منشور فى الجرائد — وهذه أعداد جريدة « مصباح الشرق » تطلعون عليها — وقد اعترضه فى طريقه أحد المكارين ، فدفعه عن نفسه ، والناس يعلمون إلحاح الحمَّارة وسوء أدبهم ، ومثل هذه الطبقات التى ليس فيها تربية . . .

(القاضى) نافداً صبرُهُ — قلنا اختصر يابك .

(المحامى) وهو يتصبب عرقاً — . . . ولما توجه المتهم إلى القسم أغمى عليه ، فسقط بدون تعمد على عسكرى كان يكنس أرض القسم بغير ملابسه الرسمية . وعدالة المحكمة تقضى بعدم الالتفات إلى دعوى البوليس ، ولا عتاب على المتهم البتة ، لأنه كان فى عصر غير عصرنا ، وفى نظام خلاف نظامنا ، ولم تبلغه دعوة القانون ، فهو يجهل أحكامه ، وحضرة القاضى الفاضل أدرى بالأحوال . وإن . . .

(القاضى) منفعلاً ضارباً بيده على المكتبة — المحكمة تنورت يا بك ، ولا لزوم للكلام مطلقاً ، فهلمّ طلباتك .

(المحامى) ساخطاً فى نفسه — طلباتنا هى « أننا نطلب من باب أصلى : الحكم ببراءة المتهم ، وإن رأت المحكمة غير ذلك ، فنرجو استعمال الرأفة بالمادة ٣٥٢ عقوبات » .

قال عيسى بن هشام : وبعد ذلك نطق القاضى بالحكم ، فحكم على الباشا بالحبس سنة ونصفاً بمقتضى المادتين المذكورتين من قانون العقوبات ، وبخمسة قروش والمصاريف بالمادة المذكورة أيضاً من المخالفات . فضاقت الأرض بى ، وأظلمت الدنيا فى عينى ، وكدت أشترك مع صاحبى فى الذهول والإغماء ، لولا أن المحامى أكد لى كل التأكيد أنهُ لا بد من البراءة فى محكمة الاستئناف ، لعدالة رجالها ، ولكن يجب مع ذلك أن نرفع عريضة شكوى إلى « لجنة المراقبة » لحسن التأثير فى القضية عند نظرها فى الاستئناف ، ثم قال لى : اعلمْ أن السبب فى كل ما صدر عن هذا القاضى من المقاطعة والمعاكسة والاستعجال هو لأنهُ مدعو فى وليمة بعض رفاقهِ عند الظهر تماماً ، وأمامهُ فى جدول القضايا ثلاثون قضية يريد أن يأتى عليها كلها حكماً قبل حلول الميعاد .

وأطعنا إشارة المحامى ، فقدمنا عريضة إلى « لجنة المراقبة » ، ولما طلبنا منه أن يتوجه معنا للسؤال عما تم فى أمرها ، تنحّى عن استصحابنا ، وقال إنه كان يود مباشرة ذلك بنفسه ، ولكن يمنعه أن يعلم القاضى بسعيه فى التظلم منه ، فيتعمد فى المستقبل أذاهُ ، وينصرف همهُ إلى نكايته ، بسبب شكايته ، والمحامى فى حاجة دائمة إلى اجتلاب رضا القاضى ، واجتناب غضبه . فقبلتُ عذره ، ودعوت الباشا إلى التوجه والسؤال ، فأعرض ونأى بجانبه ، وخاطبنى وهو يشتد فى الإباء ويلجُّ فى الامتناع بقوله :

(الباشا) — يكفينى ما قد وصلت إليه من الذل والهوان ، وما قاسيته من نزول القَدَر وحلول الضيم بحكم القضاء من رافع السماء ، وأنا أربأ بنفسى أن يجتمع عليها ذلّانِ فى سلك واحد ، ذلُّ المتحمل للظلم المستكنّ للجَور ، وذلُّ المشتكى الضارع والمتظلم الخاضع . فإليك عنى لا تكن عوناً للخطوب ، ومفتاحاً للكروب ، وصدَقَ ابنُ يعقوب : « ربِّ السِّجْنُ أحبُّ

إلىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ » . ويعلم الله لولا عذاب النار ، لفرَّجت عن همى بالانتحار ، وبِودِّى لو يبدل حكم الحبس بالإعدام ، لأخلص من هذه الأوصاب والآلام ، وقد عشت دهرى ما علمت أن السجن يكون فى عقاب الكبراء والأمراء ، وإنما هو يجرى عندنا فى عقاب الغوغاء من الناس والسفلة من العامة ، وللأمراء الامتياز على كل حال ، فإن كان ثمَّ لنا عقاب ، فضرْب الرقاب ، وعندنا أن لقاء المنون . أليق بنا من ظلمة السجون .

(عيسى بن هشام) — ما كنت أعهد من مثلك هذا الجزع والفزع ، ولا أتوقع منك مثل هذا الخوَر والهلع ، وأنت البطل الجرىء والشجاع المقدم . وما الشجاعة إلا فى التصبر على المكروه والتجلد للخطوب ، تتلقاها بوجه طَلْق وصدرٍ رحب ، وتترقب الفرج منها بعد الضيق :

ربما تجزع النفوسُ من الأمـــــر له فُرجةٌ كحــلّ العقالِ

وأنت عندى الحازم الأرشد ، والعاقل المسدَّد ، وما العقل إلاّ نفاذ الرأى فى كشف الملِمة ، وتسديد الحيلة فى إزاحة الغمة ، وأمامنا اليوم طرق مسنونة ، ووسائلُ مشروعة ، لا غضاضة علينا فى وُلوجها ، ولا مضاضة فى سلوكها . واعلمْ أن تبدل الأزمان ، وتقلب الحدَثان ، يغيرّ من مبانى الأمور ، ويكيّف فى اعتبار الأشياء ، فما كان يُعتبر بالأمس فضيلة يُعتبر فى الغد رذيلة ، وما كان يعدّه الناس فى الزمن الماضى نقيصة يعدونه فى الحاضر كمالاً . وإن كان الشرف فيما مضى يستمدّ رونقه من السطوة والمَنعة ، ويقوم ركنُه على البأس والبطش ، فإن الشرف اليوم كل الشرف فى الاستكانة للأحكام والخضوع للقانون . فهلمّ نسلك سبيله ، ونأخذ طريقه ، عسانا أن ننتهى بالخلوص والنجاة . ومن القواعد المقبولة لدى العقلاء والحكماء أن يقبل الإنسان نظام الأحكام فى البلد الذى اتخذهُ داراً واختارهُ مُقاماً .

(الباشا) — لَطعمُ الموت الزُّؤام[1] ، أهونُ من هذا الكلام . ولَلشربُ من حميم آن[2] أيَرُ من احتمال هذا الهوان .

---

(١) الموت الزؤام : الكريه أو المجهز . (٢) الحميم : الماء الحار . وآن : شديد الحرارة .

قال عيسى بن هشام : فاعتلّت علىّ وجوه الآراء ، فى صرف صاحبى عن الامتناع والإباء ، وكدت أيأس من بلوغ الغاية ، فى باب النصيحة والهداية ، لولا أن سمعنا منادياً من باعة الجرائد ينادى فى طريقنا بصوت نكير ، دونه صوت الحمير :

المؤيد والمقطم ! ! الأهرام ومصر ! !

الأربعة بقرش

(الباشا) — ماذا أسمع من الأعاجيب ! أأصبحت المساجد والجبال والآثار والبلاد تباع فى الأسواق بالمزاد ؟

قد اختلّ الأنامُ بغير شكٍّ فَجِدُّوا فى الزمان أو العبوهُ

(عيسى بن هشام) — ما هى بالآثار ولا بالبلاد ، ولكنها أسماء انتُحلت أعلاماً لهذه الجرائد اليومية :

(الباشا) — لعلك تعنى « جرائد الصيارفة ويومياتهم » أو « جرائد الالتزام » ، ولكن ما وجه هذه التعمية فى التسمية ؟

(عيسى بن هشام) — ليس الأمر كما ذهبتَ إليه ، ولكن الجرائد هى أوراق تُطبع كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر تُجمع وتُسرد فيها الأخبار والروايات العامة ، ليطلع الناس على أحوال الناس ، وهى أثر من آثار المدنية الغربية انتقل إلينا منها فيما انتقل ، والأصل فى وضعها انتشارُ الحمد للفضيلة ، والذم للرذيلة ، والنقدُ على ما قبح من الأعمال ، والحثُّ على ما حسن من الأفعال ، والتنبيهُ على مواضع الخلل ، والتحضيضُ على إصلاح الزلل ، وتعريفُ الأمة بأعمال الحكومة النائبة عنها حتى لا تجرى بها إلى غير المصلحة ، وتعريفُ الحكومة بحاجات الأمة لتسعى فى قضائها ، وبالجملة فإن أصحابها هم فى مقام الآمرين بالمعروف ، والناهين عن المنكر ، الذين أشارت الشريعة الإسلامية إليهم .

(الباشا) — قد كنا نسمع فى زماننا بشىء من هذا القبيل يقال لهُ « غازيته » ، وكانت تصدر عندنا واحدةٌ منها بالتركية اسمها « رُوزنامه وقائع » ، وأخرى بالعربية اسمها

« الوقائع المصرية » ، تُدوَّن فيهما المدائح والتهانى ، ويُذكر فيهما انتقال الركاب العالى . ولكن إن كانت الجرائد قد ارتفعت اليوم إلى ما تزعم ، فلا بد أن يكون قد اشتغل بها واهتمّ بأمرها كبراء العلماء الأعلام وعظماء المشايخ الكرام ، ولَنِعْمتِ الوسيلة ، وحَسُنَتِ الطريقة فى تبليغ الناس ما يصلحهم فى معاشهم ، وينفعهم فى معادهم . فعلىّ بواحدة منها .

(عيسى بن هشام) — علماؤنا ومشايخنا ، يغفر الله لهم ، هم أبعد الناس عن اجتياز هذه الطريق ، وممارسة هذه الصناعة ، وهم يرون الاشتغال بها بدعة من البدع ، ويعتبرونهُ فضولاً تنهى عنه الشريعة ، وتداخلاً فيما لا يعنى ، فلا يأبهون بها ، وربما اختلفوا فى كراهة الاطلاع عليها أو إباحتهِ . وقد مارس هذه الصناعة قوم آخرون غيرهم ، فيهم الفاضل وغير الفاضل ، واتخذها بعضهم حرفة للتعيش بها ، والتكفف على أية حالة كانت ، فلا تجد بينهم وبين أهل الحرف وباعة الأسواق فرقاً فى الغش والخداع والكذب والنفاق والمكر والاحتيال للاستلاب والاغتيال .

عَمروا موضعَ التصنعِ فيهم ومكانُ الإخلاص منهم خرابُ

فذهب منها الغرض المقصود ، وسقط شأنها بين العامة ، بعد أن سفل قدرها عند الخاصة ، وأصبح ما كان يُرجّى فيها من النفع دون ما تجلبهُ من الضرر . ومن العقلاء من لا يزال يرجو من الأيام أن تدور يوماً بتهذيب هذه الحال ، ورفع هذه الصناعة إلى الدرجة اللائقة بها من الشرف وعلو القدر . والحكمُ كلهُ للقارئين فى الإقبال على ما ينفع ، والانصراف عما يضر ، « فأما الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفاء وأمَّا مَا يَنفعُ النَّاسَ فَيمْكثُ فِى الأَرْض » .

ثم ناديت البائع فاشتريت منه أربعاً ، وفتحت واحدة أقرأ على صاحبى نُتفاً من أخبارها فوقع نظرى فيها على كلام طويل عن الحكم على أحمد سيف الدين ، فأسمعتهُ ما جاء فيه من وصف ما يقاسيه هذا الأمير من خشونة العيش فى سجنه ، واستدرار الدموع لما يلاقيه هذا الغلام من ضيق السجن ، وهو من سلالة الولاة والأمراء . ثم قلت لهُ بعد أن انتهيت من أقوال الجريدة فى استعطاف القلوب والتماس العفو :

(عيسى بن هشام) — أنظر أيها الباشا كيف وصلتْ بنا الحال فى المساواة ، وقد علمتَ ما أصاب « البرنس » أحمد سيف الدين من حكم المحاكم عليهِ ، فكيف تترفع

نفسك بعد ذلك ، وتأبى الخضوع للقانون ، والامتثالَ لأحكامه ، والتوسلَ بطرقه للخلاص مما وقعتَ فيه .

(الباشا) — ما « البرنس » ومَن أحمد سيف الدين ؟

(عيسى بن هشام) — أما « البرنس » فهو لقب أجنبيّ قديم كان يتلقب به رؤساء الدولة الرومانية قبل أن يجترئوا على الأمة بانتحال لقب «إمبراطور» ، ثم صار يُطاق بعدهم فى أوربا على أعضاء بيت الملك وعلى رؤساء الحكومات الصغيرة ، ويُطلقهُ اليوم على أنفسهم أعضاء « العائلة الخديوية » ذكوراً وإناثاً ، وإن كان لا ذِكْر له بين الألقاب الرسمية فى الدولة العليـة . وأما أحمد سيف الدين هذا ، فهو أحمد بن إبراهيم بن أحمد بن إبراهيم بن محمد على جد الأسرة الخديوية وعميدها ، وقد ارتكب جناية فسحبوهُ إلى المحاكم ، واستحق العقاب الذى يقضى به القانون ، فحكم عليهِ المحكمة الابتدائية بالسجن سبع سنين ، فاستأنف يلتمس الشفقة والرأفة من قضاة الاستئناف ، فأنقصوا المدة إلى خمس ، ثم استغاث بمحكمة النقض والإبرام ، فلم تُغثهُ . وقد انصرفت المساعى لاتفاق أعضاء الأسرة الخديوية على التماس العفو عنه ، وذهبت أمه يميناً وشمالا ، فلم تبقَ وسيلة من وسائل الاسترحام إلا سلكتها ، ولكن لا وسيلة مع القانون ، فان سيفه ماضٍ فى كل الرقاب ، وسلطانَهَ نافذ فى كل الرءوس . فهل يليق بك حينئذ أن تتكبر وتترفع عن التوسل والتظلم وتأنف نفسك من السعى وراء « لجنة المراقبة » و« محكمة الاستئناف » ، وقد علمت من تاريخ الأمراء وأولياء النعم ما علمت ؟

(الباشا) — نعم كيف لا تخرّ الجبال الشم ، إذا استنزلوا منها الأراوىّ العصم[1] . وكيف لا تنشقّ القبور ، ويُنفخ فى الصور ، وقد انحلّ المقام ، وسفل القدْر ، وحقت كلمة ربك على مصر : « فَجَعَلْنَا عالِيَها سافِلَها » ، وما دام حفيد محمد على فى السجن على ما تَروى ، يخضع لحكم القانون ، ويتوسل بتلك الوسائل ، وتتشفع أمه بتلك الشفاعات ، فما علىّ من عارٍ فيما تدعونى إليه ، فاذهبْ بى إلى حيث تريد ، وليتهم كانوا يقبلون منى أن أكون فداء لابن سادتى وأولياء نعمتى ، فتضاف عقوبتهُ إلى عقوبتى .

(١) الأراوى : جمع اروية وهو الوعل . والأعصم : ما فى ذراعيه بياض وسائره أسود .

لجنة المراقبة

قال عيسى بن هشام : فسرَّنى من الباشا مطاوعتهُ إيّاى ، وقبوله لنصيحتى ، ورضىَ بالتوجه إلى نظارة الحقانية ، فسار معى ، وهو مختنق بدمعه ، متعثر بقدمه . ولما وصلنا إليها، قصدنا مكان « لجنة المراقبة » وهممنا بالدخول فى حجرة المفتشين ، فمنعنا الحاجب وطلب منا « الكارت » .

(الباشا) مستفهماً — ما معنى هذا اللفظ الأعجمى ؟

(عيسى بن هشام) — « الكارت » بطاقةٌ صغيرة يطبع عليها الاسم والعمل أو الحرفة والصنعة يقدمها الزائر قبل الدخول ليكون المَزورُ بالخيار فى قبول الزيارة أو التملص منها .

(الباشا) — لقد كانت أبواب التظلم مفتوحة فى أيامنا لكل من يطرقها . وكيف ينطبق هذا التضييق على ما تصفهُ لى من المساواة فى الحقوق والإنصاف فى الأحكام ؟

(عيسى بن هشام) — لا يسلم الحال من زيارة زائر بغير شغل ، أو من لجاجة صاحب حاجة ، فوُضعتْ هذه الطريقة ليتفرغ الحكام لأعمالهم .

(الباشا) — ألم تكن هيبة الحكام وعزتهم بكافيةٍ لصدٍّ من ذَكرتَ عن الدنو منهم والتجرؤ عليهم ؟

قال عيسى بن هشام : وبادرت إلى القلم فكتبتُ وُرَيقة باسم الباشا وسلمتها للحاجب. فجاءنا بعد الانتظار بالإذن ، فدخلنا فوجدنا أمامنا فتى من أجمل الفتيان ، قد أرسل لحيته قبل الأوان ، يتموج تحتها ماء الشباب ، كما يتموج الضوء وراء السحاب . ولما اقتربنا منه بعض الاقتراب ، رأيت فى يده جريدة حساب ، يجمع فى أرقامها ويضرب فى أعدادها ، ثم يضع يدهُ على جبهته ، كمن يتذكر رقماً سقط من حسبته ، وعن يمينه كتابٌ أعجمىٌ ، وعن شماله كتابٌ عربىٌ ، فكتاب اليمين « لفولتير » الفرنسى الملحد ، وكتاب الشمال لابن العربى المتصوف الموحد . ولما تقدمنا نحوهُ سألَنَا عن حاجتنا ، فذكرتُ لهُ العريضة

التى قدمناها ، وقصصت عليهِ القصة ، وشرحت لهُ ما عاملنا بهِ القاضى من سوء المقاطعة ، فى الشهادة والمرافعة ، وهنا انبرى الباشا يخاطبهُ بقولهِ :

(الباشا) — وأدهى ما فى القضية وأمرُّ ما فى الأمر أن الذى تسمونهُ « النائب » اعتبر رتبتى سبباً لإهانتى ، وما كنت أتخيل فى الأحلام أن الرتبة التى نلتها باقتحام الأخطار واحتمال المشاق تكون جريمة لا تغتفر ، وبرهاناً قاطعاً لديه فى تشييد دعواهُ يَطالب بهِ تشديدَ العقوبة ، فقولوا لى بالله : متى كانت هذه الرتبة الشريفة تستوجب العقاب والانتقام ، ومِنْ أى صنف أنتم بين صنوف الأنام .

قال عيسى بن هشام : ودخل أحد الزائرين فى هذه الأثناء ، فحمدت الله على انقطاع الكلام بسبب دخوله ، وإلاَّ فقد كان الباشا اندفع فيه ، بما يتعذر تلافيه . وبعد أن سلَّم الزائر ، سأل عما حدث من الأخبار ، فى وجه النهار . فناولهُ المفتش خطبة يتفكه بقراءتها ، بعد أن بالغ لهُ فى بلاغتها . وما كاد يلتفت إلينا ثانية حتى وافاهُ أحد المفتشين من الأجانب ، فأطلعَهُ على رسم فى ورقة زعم أنه نقشهُ فى أثناء مناقشة قانونية اشتدَّ فيها الخصام ، واحتدَّ الجدال ، فنظر الشاب فيه نظرة وضحك له ، ثم تخلص منهُ للاشتغال بأمرنا ، فخاطب الباشا بكلام لطيف عذبٍ ينبئُ عن كرم نسبه وحسنِ أدبه ، وختَمَ كلامَهُ بقوله :

(المفتش) للباشا — قد اطَّلعتُ على ظروف القضية كلها فى « مصباح الشرق » ، فأما القاضى فقد يكون لهُ العذر فى مقاطعة المحامى ، لأن منهم من اعتاد أن يأتى فى مرافعاته بتاريخ نشأة الخليقة ، وتكوين الجمعية البشرية ، وما يجرى هذا المجرى مما يطول شرحه ، ويُملّ سماعه ولا يكون لهُ أقل ارتباط بجوهر القضية ، وهم يستعملون ذلك فى أيسر القضايا وأدناها ، ليقتنع صاحب القضية أن المحامى لم يدّخر لديه كلاماً يقال فى الدفاع عنه ، بقطع النظر فى ربح القضية أو خسرانها . فترى أرباب القضايا يعتقدون أن المحامى لا يستحق أجره من المال ، إلا بكثرة ما يقال ، كالسلعة يكون تقدير ثمنها ، على كمية وزنها . فقد توقف بعضهم مرة عن دفع المتأخر من الجعالة لمحاميه بعد أن ربح لهُ

القضية بدعوى أنه لم يسمع منهُ كلاماً مطوّلاً فى المرافعة يستحق عليهِ الأجر ، سواء أكان مفيداً أم مضرا بها ، وليس يخفى أن وقت القاضى قصير ثمين ، فلا يسعهُ إلا المقاطعة على المحامى المكثر فى كلامه ، وكذلك تكون المقاطعه على الشاهد لتوجيهه إلى وقائع الحادثة لئلا يفوتها بالخروج عنها ، وحاصل الأمر أن القاضى لم يخالف القانون بشىء فيما أتاه معكم .

(الباشا) — ليت شعرى إذا اعتذرتَ عن القاضى فى مقاطعته ، فما العذر فى وضعهِ لى فى « قفص المتهمين » ، وتقييدهِ لى بالقيام عند كل سؤال ، وأنا رجل شيخ معمّر ، وقد قضيت عمرى فى المناصب العالية بالحكومة المصرية ، وبذلت دمى فى خدمة الأسرة الخديوية ، فهلا كان وقّرنى لسنى ، واحترمنى لقدرى ، وأىّ قانون فى الدنيا يمنعهُ من ذلك ، وتوقيرُ السن طبيعىّ ، واحترامُ المقامات أمرٌ أصلىّ ، واللهُ تعالى يقول . « وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » .

(المفتش) — ذلك ما يقضى به القانون أيضاً ، فإنه قائم على المساواة بين الناس ، ولا فرق عندهُ فى المقامات والأعمار ، وهذا عين ما يأمر به الشرع الشريف ، وعَيْن ما يجرى على أعضاء الأسرة الخديوية ، وخاصةِ الحكام إذا ارتكب أحدهم ما يؤاخذهُ القانون عليهِ ، ولا معرّة عليك ، ولا غضاضة فى وقوفك أمام القاضى ، فإنما تقف أمام النائب عن الحضرة الخديوية وهى أكبر الدرجات .

(الباشا) — إن كان هذا حكمكم فى القاضى ، فما الحكم فى عضو النيابة الذى عيرنى بشرف رتبتى .

(المفتش) — أنا لم أطّلع بعدُ على أوراق القضية ، وتفصيل المرافعة ، ولكن ما انتشر فى « مصباح الشرق » من كلام « النائب » لا يؤخذ منهُ معنى التعيير بالرتبة ، بل كان غرضهُ أن يثبت أن الرتبة ، مهما عظُم شأنها ، لا يكون من حقها هضم حقوق الضعفاء ، والامتيازُ بها على الناس أمام القانون ، فإنها قاصرة على صاحبها لا تجعل لهُ سبيلاً على المحروم منها . ولا بأس عليكم من كلام النائب فى هذا الباب ، فإنهُ جرى بيننا مجرى العادة فى هذا العصر .

(الباشا) — إذا كان للقاضى العذر وللنائب الحق ، فما فائدة تظلمى لكم وحضورى أمامكم ، أفما كان من اللائق أن تزجروا القاضى ، وتؤنبوا النائب ، وتفحصوا القضية ، وتتثبتوا من بطلان التهمة ، وتنقضوا ذلك الحكم أمامها ؟

(المفتش) — ليس ذلك من اختصاصنا . وإذا وقع من أحد رجال المحاكم ما يخالف واجب وظيفته ، فالنظر فى أمره موكول إلى « مجلس التأديب » ، ولا سبيل لرئيس على مرءوس إلا بحكم من المحكمة . وأنا آسف غاية الأسف لعجزنا عن التصرف فى قضيتك ، والحكمُ فيها راجعٌ إلى محكمة الاستئناف وحدها .

قال عيسى بن هشام : وكنت أشاهد فى أثناء هذه المحاورة شاباً آخر بجانبنا من المفتشين يسطع « طربوشه » احمراراً ، ويقلّب طرفه ازوراراً ، تلوح على وجهه مخايل الإمارة ، ولا تنفك يدُهُ فى رفع وخفض « للنظارة » ، وتشهد عليه سيماهُ بالتفنن فى التدبير ، وتدل على قوة الدّهاء والتفكير ، فلما وصلنا إلى حيث وقف بنا الكلام ، رأيناه ينادى الحاجب ويقول له :

(المفتش الثانى) — علىّ « بدللوز » و « وجارو » .

(الباشا لعيسى بن هشام) — هل هذان الاسمان يُطلقانِ على القاضى والنائب ، وهل ترى هذا الشاب هبّ للانتصاف لى منهما ؟

(عيسى بن هشام) — هذان اسمان لكتابين فى فقه القانون بدل « ابن عابدين » « الهداية » فى فقه الشرع .

وحضر خازن الكتب بالكتابين ، فردّ المفتش لهُ أحدهما وقال لهُ : ما طلبت « بودرى » بل طلبت « جارو » . ولما جاءهُ بهِ أخذ يبحث فى الكتابين طويلاً ، ثم نظر للخازن نظرة اليائس وقال . ائتنى « بفوستن هيلى » ، فأتاهُ بكتاب آخر ، فخرج منه بعد النظر الطويل إلى المناقشة مع زميله باللغة الفرنسية ، وانتهى الأمر بينهما أن قالا للباشا معاً : لعل لك عذراً فى القانون يمكنك أن تدلى به إلى الاستئناف فى قضيتك ، وأما ما يختص بالقاضى والنائب فسنضع لهُ « نوته » (مذكرة) ونقدمها إلى اللجنة عند انعقادها ، فإذا تبين لها

أقل خلل فى تصرفهما أصدرت منشوراً إلى جميع المحاكم بعدم اتباع ذلك فى المستقبل .

ثم ودّعانا بالاحترام والتعظيم ، وخرجنا والباشا يقول :

(الباشا) — قد كتب علىّ أن لا أخرج من همّ إلاّ إلى همّ ، ولا أنتهى من كدر إلاّ إلى كدر ، حتى كاد يصفو بالى ويخلو خاطرى لكثرة ما تراكم علىّ من الهموم والأحزان :

فإنى رأيتُ الحزنَ للحزن ماحياً كما خُطَّ فى القرطاس رسمٌ على رسم

ومن البديع الغريب فى أمر هذه الحكومة الحاضرة أننى ما وضعت قدمى فى دائرة من دوائرها إلاّ رأيت أمامى غلماناً وفتياناً يتولّون أمورها ، ويتصرفون فى أعمالها ، فهل خُلق المصريون خَلقاً جديداً ، أم صاروا فى الجنة استوت فيها الأعمار ؟

(عيسى بن هشام) — لا تعجبْ مِنْ تقلّد الشبان لمناصب الحكومة ، فإن نظام هذا العصر يقضى بذلك ، وهم يزعمون أنه ليس فى استطاعة الكهول والشيوخ أن يقوموا بأعباء المناصب لخلوهم من علومها الجديدة وجهلهم بفنونها الحديثة .

(الباشا) — كيف يدّعون أن العلم ينحصر فى الشبان دون الشيّب ، وما عهدناه إلا فيمن أحنت السنون ظهورَهم ، وبيّضت التجاربُ مفارقهم ، فابتسم فيها بياض الرأى والأدب .

(عيسى بن هشام) — هم يقولون إن العلم والمعرفة لا يختصان بسن دون سن ، ولا عمر دون عمر ، وربما أن كان الشاب أنفذ سهماً فى حلبة العلوم ، وأجمع لشتات الفنون لما يختص به من حدة الذهن وسرعة الإدراك ، فإذا انصرف بهمّته إلى الدرس كان نصيبه منها أبلغ من نصيب الكهول والشيوخ ، وأغناه ذلك عن طول الممارسة وكثرة التجارب التى يمتاز بها ذوو الأسنان والأعمار .

ليس الحداثةُ عن علم بمانعةٍ قد يُوجَدُ العلمُ فى الشبان والشيّب

(الباشا) — ولنرجع إلى شأننا ، فقد اتبعت آراءك وامتثلت نصائحك ، وعرضنا أمرنا لجنة المراقبة فخرجنا منها بالخيبة كما ترى ، فليس لنا بعد هذا التعب إلا الركون إلى حالة

اليأس ، ولم يبق لك بعد اليوم وجه فى أى احتجاج وجيه توجهنى به ، وتسحبنى معك للسعى والتظلم أمام الحكام .

(عيسى بن هشام) — لا تيأس ولا تقنط ، فإن أمامنا محكمة الاستئناف ، ولى اعتماد عظيم على إنصافها فى الأحكام ، ولو خاب فيها الأمل على الفرض والتقدير ، فلا يزال عندنا باب العفو مفتوحا نلتمسه بوساطة ناظر الحقانية

(الباشا) — لا تذكر لى من الآن حاكما ولا ناظراً ، فقد سئمت من وقوفى أمام هؤلاء الغلمان والشبان ، مهما بالغت لى فى الوصف ، واستشهدت فيهم بالشعر

(عيسى بن هشام) — ليس ناظر الحقانية الذى أذكره لك من صف هؤلاء الشبان وطرازهم ، بل هو رجل كهل ، عاكف على العبادة ، منكب على الأوراد ، منصرف إلى الأذكار . يمسى ليله قائماً ، ويصبح نهاره صائماً ، فبين السبحة وأصابعه عهد وميثاق ، وبين السجادة وجبهته ارتباط والتصاق . وبالجملة فهو يذكرنا فى هذا العهد الجديد بعهدكم القديم ، وأبوه رجل من أكابر رجالكم اسمه حسن باشا المناسترلى .

(الباشا) — حسن المناسترلى ! ! ذاك خليلى وقرينى ، وصاحبى وخدينى ، ورفيقى فى الخدمة وأخى فى الحكومة ، ولماذا لم تخبرنى عن ابن أخى هذا من أول الأمر فتكون قد حقنت ماء وجهى ، وأنقذتنى من كل هذه الإهانة وذلك التحقير ؟

(عيسى بن هشام) — ما غاب عنى أن أذكرك به ، فإنه لم يكن له أقل نفع يدفع عنا ما تقلبنا فيه من المصائب ، وإنما نفعه يكون فى آخر الدرجات ، ولا عمل نرجوه منه فى مساعدتنا إلا بعد صدور حكم الاستئناف والسعى فى التماس العفو من ولى الأمر .

محكمة الاستئناف

وآن أوانُ الجلسة فى الاستئناف . فسرنا فى طلب العدل والإنصاف ، وكم واحد منا مشغول بحاجته ، لاهٍ بنازلته . فالباشا يفكر فى مصيبته ، ويتألم من بليته . والمحامى يدبر فى أمره ، ويتطلع لأجره ، وأنا أسأل الله لنا النجاة ، من مكايد الحياة . ولما وصلنا إلى حىّ « الاسماعيلية » ، ورأى الباشا دُورها ومبانيها ، وشاهد قصورها ومغانيها ، واستطاب رياضها وحدائقها ، واستنشق رياحينها وشقائقها . استوقفنا سائلا مبهوتاً ، واستنطقنا بعد أن كنا سكوتاً . فقال : ألا تخبرنى عن موضع هذه الجنة الزاهرة ، من مدينة القاهرة . فقلت له هذه « الاسماعيلية » ، اختطها اسماعيل ، فيما اختطهُ لزينة وادى النيل ، يسكنها اليوم جماعة من العظماء ، ذوى الغني والإثراء ، وقد كانت فى أيامكم خراباً قفرا ، لا تحمل بيتاً ولا ترفع قصراً ، ولا ترى فيها من النبات غير الطلح الضال[1] . ولا من الأزهار غير الشوك القتاد أو شوك السيال[2] ، ولا من الطير غير البوم والغربان ، أو الرَّخَم والعِقبان ، ولا تجد فيها من الإنس إلا لصّاً سالباً ، أو مغتالا ناهباً ، أو فاتكا متأهباً ، أو كامناً مترقباً .

(الباشا) — لله در المصريين ، لقد ابتسم لهم الدهر ، فأبدلهم من الشوك الزهر ، وأسكنهم هذه القصور العالية ، بعد تلك الأطلال البالية .

(المحامى) — أيها الأمير ، لا تغبط المصرى على نعمته ، وتعال فابك معنا من نقمته ، فليس له فى هذه الجنة من دار ، يقر له فيها من قرار ، وكل ما تراه من هذا الجانب ، فهو ملك للأجانب .

(الباشا) لله أبوك ، كيف يختص الأجنبى دون الوطنى بهذه الجنان الناضرة ، ويستأثر دونه بهذه المساكن الفاخرة ، ولعلك تلغز فى قولك وتُحاجى ، وتعمى فى تعبيرك وتداجى .

---

(١) الطلح : شجر عظام ترعاها الابل . والضال : السدر البرى

(٢) القتاد : شجر صلب له شوك كالابر . والسيال : جمع سيالة نبات له شوك أبيض

(المحامى) — لا تحجية ولا تعمية ، بل هكذا قَدَّر المصرىُّ لنفسه ، وتبدّل سعده بنحسه ، واقتنع من دهره بالدون و بالطفيف ، ورَضى بالقِسم الخسيس الضعيف . . . فبات محروماً تحت ظل إهماله وخموله ، وغدا بائساً فى سُباته وذهوله ، وما زال الأجنبيّ يسعى ويكدّ ، ويعمل ويجدّ ، وينال ثم يطمع ، ويسلب ثم يجمع ، والمصرىّ يبذر بجانبه ويسرف ، ويبدّد ويتلف ، ويتحسر ثم يلهو ، ويعجز ثم يزهو ، ويفتقر ثم يفتخر ، فتساوى السيد والمَسود ، وتشابه الحاسد والمحسود ، وتعادل الرفيع والمنيع ، بالحقير والوضيع ، واشتركنا كلنا على السواء ، فى منازل الشدة والبلاء ، وأصبح نصيب القوىّ المكين ، مثل نصيب الضعيف المستكين ، وكذلك تكون عاقبة من يُلقى للأجنبى بيديه ، ومن أعان ظالماً سلّط عليه :

ومن يجعل الضرغامَ بازاً لصيده تَصيَّدهُ الضرغامُ فيما تصيَّدا

قال عيسى بن هشام : وما كاد ينتهى رفيقاى من خطابهما ، ويفرغان من سؤالها وجوابهما ، حتى مر بنا راكب درّاجة تنساب به كالصلال[1] ، فى بطون الرمال ، ويتمايل بها تمايل النشوان مالت به نشوة الخمر ، وينثنى انثناء الأغصان هزها نسيم الفجر . فامتلأ الباشا تعجباً واندهاشاً . وسألنا الشرح والبيان ، عن أمر هذا « البهلوان » ، فقلت هذه عجلة حادثة يختارها بعض الناس ، على المركبات والأفراس ، ومما يرغبهم فيها أنها لا تأكل ولا تشرب ، ولا تهزل ولا تتعب ، وهذا الراكب من أهل القضاء ، يركبها لرياضة الأعضاء ، فأتبعَه الباشا نظره ، فوجده قد سقط فجأة من فوق دراجته ، فانفرط عقد الهيئة على سطح الأرض إلى ثلاثة أقسام : الراكب والعجلة والطربوش ، ثم رأيناه تماثل للقيام فلمّ شعثهُ ، وحاول أن يعلو الدراجة ثانية ، فلم يقدر عليها ، فسحبها بيده يجرها ويماشيها ، وأخذ الباشا يخاطبنا فيه وفيها .

(الباشا) — يا حبذا لو عدنا من حيث أتينا ، وكنا مطاقَيْن لا لنا ولا علينا ، وكيف يكون شأن القاضى أو الحاكم إذا كان هذا منظره وذاك مركبه أمام أعين العامة ، وهل

---

(١) الصلال : جمع صل ، وهو الحية .

حُكم الناسُ يوماً بغير أبهة الحجاب وعظمة المناظر وفخامة المواكب ، وقد كان الحاكم أو القاضى لا يركب فى عصرنا إلا فى موكب تحف به الحشم والأعوان ، وتتقدمه الجنود والفرسان ، فترتجف منه القلوب رُعبا ، وتخرّ له الأعناق رهبا ، وقلّ من يجترىء من الناس على ارتكاب ما يقفهُ أمامه يوماً موقف التهمة والارتياب

(عيسى بن هشام) — ذاك عصر مضى ، وحكم انقضى ، ولقد تفنن أهل العصور الماضية فى وصف ما تذكره من منظر الأبهة والجلال ، وهيئة العزة والوقار ، حتى أدخلها الشعراء فى مخالصهم البديعة ، كقول أبى الطيب فى ممدوحه مثلاً :

جمح الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ   مما يشوبُ ولا سرورٌ كاملُ
حتى أبو الفضل بنُ عبد الله رؤْ   يتهُ المنى وهى المقامُ الهائلُ

(المحامى) — قد آن أن نفرغ من هذا الحديث ، فقد اقتربنا من المحكمة .

(عيسى بن هشام) — ولعلنا نجدها باذن الله فى مكانها ، فقد تعودت التنقل من مكان إلى مكان ، حتى أشبهت خيام العرب :

يوماً بحزوى ويوماً بالعقيق وبالـــمُذَيْبِ يوماً ويوماً بالخُليصاء

ثم اقتربنا فوجدناها ، وأقمنا فى ساحتها ننتظر نوبتنا بين أرباب القضايا ، حتى نودى علينا ، فتقدمنا للجلسة أمام ثلاثة من القضاة ، فأخذ الأجنبىُّ منهم يقرأ «ملخص القضية» بلهجة أعجمية ، وحروف لم تستوف مخارجها فقال : « إن هذا الرجل متهم بالتعدى على فلان العسكرى بالضرب فى أثناء تأدية وظيفته فى يوم كذا من شهر كذا ، والمتهم أنكر ، وشهد المجنىُّ عليه ، ودلّ الكشف الطبىُّ على وجود علامات فيه للضرب ، والمحكمة الابتدائية حكمت عليه بالحبس سنة ونصفاً بالتطبيق على مادتى ١٢٤ و ١٢٦ عقوبات ، فاستأنف المحكوم عليه . »

ولما سألت المحامى عن هذا التلخص الغريب قال لى : هكذا تجرى العادة هنا ، فيأخذ مثل هذا القاضى الأجنبىّ عبارة الديباجة المذكورة فى الحكم الابتدائى ، فيجعلها تلخيصاً للقضية ، ثم يكتبها بعربيتها بحروف أجنبية ، ليقرأها أمام الجلسة على نحو ما رأيت .

ثم التفت رئيس الجلسة إلى الباشا وسأله عن اسمه وسنه وصناعته ومحل إقامته، وأشار إلى النيابة بالكلام، فشرع النائب فى شرح القضية على ما يوافق هواه، ولم نسمع من الرئيس مقاطعة له فى كلامه، كما يكون فى المحاكم الابتدائية، (والسر فى ذلك أن بعض القضاة الذين لم يكونوا اطلعوا على أوراق القضية فى الاستئناف هم فى حاجة إلى العلم بها من أقوال النائب فيتركوهُ وشأنه فى التطويل والإسهاب)، ثم أذِنَ الرئيس بالكلام للمحامى مع الإيجاز، فابتدأ المحامى بسرد أقواله فى أوجه الدفاع عن المتهم، وكلما وصل إلى النقطة المهمة فى دفاعه، قال له الرئيس: «الموضوع» «طلباتك». ولما تكرر منه وقوع ذلك، رأيت أحد القضاة ينبه الرئيس إلى أن كلام المحامى فى عين «الموضوع» (وللرئيس العذر لأنه لم يطلع على تفصيل القضية ولم ينصت لأقوال النيابة)، ثم نطق الرئيس بعد ذلك بقوله: «سُمعت القضية والحكم بعد المداولة» فانتقلت الجلسة إلى حجرة المداولة، وخرجنا ننتظر، وسألت المحامى عن المدة التى تنقضى فى المداولة، فأجابنى:

(المحامى) — لا تزيد مدة المداولة فى الغالب عن ساعة واحدة.

(عيسى بن هشام) — وما هو متوسط عدد القضايا فى الجلسة؟

(المحامى) — متوسطها عشر قضايا.

(عيسى بن هشام) — وهل تكفى هذه المدة للاطلاع على ما تحتويه القضايا الجنائية من كثرة الأوارق؟

(المحامى) — نعم تكفى عندهم، وطالما اطلعنا على القضايا التى تعود من عند القاضى «الملخص» إلى قلم الكتاب لاطلاع المحامين، فنجد عليها رمزاً بأحد هذه الأحرف: «ب» «ع» «ت»، فالباء إشارة إلى البراءة، والعين إشارة إلى العقوبة، والتاء إشارة إلى تأييد الحكم الابتدائى. وإنما يضع القاضى هذه الرموز حتى لا ينسى رأيه فى القضية عند عرضه على زملائه فى المداولة، فإذا عرضه عليهم لم يَضِع الوقت بينهم سدى فى البحث والمناقشة، ولكن لما كان القاضى الجنائى له الاستقلال المطلق فى الحكم بما يرتاح إليه ضميره، وتطمئن به نفسه، كان من الواجب عليه أن يسلك غير هذا الطريق،

ويفحص أدلة الثبوت ، وأدلة البراءة بنفسه ، فيعرضها على ضميره وهو خالٍ من كل اعتقاد خاص للبراءة ، وللتهمة ، حتى إذا استقامت لديه الأدلة ، حكم بما يغلب عليه منها ، لا أنه يجرى فى طريق التسليم لرأى غيره ، ولا أن يكون الحكم مبتوتاً فى القضية بأحد هـذه الأحرف الثلاثة التى عَنت للقاضى الملخص وهو يمر عليها فى انفراده ببيته مرّ السحاب .

قال عيسى بن هشام : وبينا نحن فى هذا الكلام ، إذ عادت الجلسة إلى انعقادها ، فدخلنا لسماع الحـكم ، فنطق الرئيس ببراءة الباشا ؛ لأن التهمة وإن كانت ثابتة عليه إلا أنه قد حالت دونه ودون دعوة القانون قوة قاهرة . فخرجنا مسرورين بهذه النعمة ، وخرج الباشا وهو يقول :

(الباشا) — لا أنكر اليوم أن العدل موجود ولـكنه بطىء ، لا يتحمل أعباء بطئه البرىء ، وكان الأولى فى هذه المحاكمات أن تكون النهاية فى البداية ، فلا يَلحق من كان مثلى هذا الهوان والصغار ، ويقع به ما وقع من الحبس والعار ، بعد أن يقف موقف التهمة والإجرام ، ويحل به ما يحل من التعذيب والإيلام .

(المحامى) — إنى أهنئك بهذه البراءة ، وأسأل لك دوام العافية من مصائب الاتهام ، ولا زلت تخرج من كل قضية خروج السهم من قوسه ، والسيف من غِمده ، وقد مضى منى الدفاع ، وبقى عليك الدفع .

قال عيسى بن هشام : وما زال المحامى عاكفاً علينا يطالبنا بالأجر ، والباشا يَعِدُهُ لآخر الشهر ، حتى يأتيه بعضُ خدمه وأتباعه ، بمال من عقاره وضياعه ، والمحامى يأبى التسويف والإمهال ، وإلا الدفع فى الحال .

(المحامى للباشا) — أتظن أن هذه الوعود ، تقوم لدينا مقام النقود ، فى بلد كثُرَ فيه الإنفاق وزادت الضرورات ، وقلّ فيه الربح كما قلت المروءات ، وصار الدرهم أعز عند الأب من بنيه ، وعند الابن من أبيه ، ولقد تعبت فى القضية تَعَبين باللسان وبالجنان ، ولا أستريح منهما إلا بنقد الأصفر الرنان ، وإنك لا تصرفنى — وإن كنتَ محمود

الخلق — بالوعد ، ولكنك تصرفني — وأنا أحمد — بالنقد ، وإني لا أريد أن أسكن في بيت المتنبي : أنا الغنيُّ وأموالي المواعيد

فلا تجعل الخلاص من قضية بقضية ، والفكاك من بلية ببلية ، فذلك ما لا يأتيه العقلاء ، ولا يرتضيه الأمراء .

قال عيسى بن هشام : ولما رأيت الباشا لم يقدر على التلفظ ، من شدة الحنق والتغيظ ، وقفت بينهما وقفة الأريب ، وتوسطت توسط اللبيب ، فنلت بلطف الالتماس والرجاء ، رضاء المحامي بالمهلة والإرجاء ، إلى أن ينتقل الباشا من العوز والعسر ، إلى الغنى واليسر ، وقلت لهُ ما يقال له في باب المروءة والهمة ، من وجوب الحنو على من يقع في مصيبة أو ملمة ، وأنَّ مَن تذكَّر الدهرَ وغِيَرَه ، والزمانَ وعِبَرَه ، لانتْ عريكته ، وطاوعتْ شكيمته ، وليس بين صعود المرء ونزوله ، وإشراق سعدِه وأفوله ، وبين غنـاه وفقره ، وصفوه وكدره ، إلاّ مسافة انقضاض القضاء ، من رب السماء . فنظر إليَّ الباشا نظرة الاحتقار والازدراء ، وخاطبني بالأنفة والكبرياء :

(الباشا) — لَبئس الخدينُ أنت والقرينُ ، كيف تسمني بسمة الفقراء ، وتستعطف عليَّ قلوب الضعفاء ، وأنا الأمير السَّرِيُّ ، والغنيَّ المثرى ، وأين ما ادخرتهُ في عمرى ، واكتنزته في عصرى : من مال وعقار ، وفضة ونُضار ، وقصور وضياع ، وزُخْرُف ومتاع ، ولقد كان يضرب بغناى المثل ، فإن كنت جاهلاً بي فَسَلْ ، اذهبْ فأتني بخبر ما خلفت وأبقيت ، وأثرِ ما جمعت واقتنيت ، وكيف يخفى عليك وعلى المحامي مالي من الأموال والعقار ، وما قضيت فيه العمر من الجمع والادخار ؟ فإني يشهد الله ما تركت حيلة ، ولا أغفلت وسيلة ، في الحصول على الإثراء والغنى ، حتى جمعت منهُ كثيراً مما تفرّق على الورى ، فجعلتهُ عُدَّةً لشد أزرى ، وأماناً لي من مصائب دهرى ، وتركته ذخيرة لأبنائي وحفدتي ، وميراثاً لأعقابي وذريتي ، ليكونوا من ذل الحاجة في جُنة [1] ، ومن نعيم العيش في جنّة ، وتركتهم على ذلك مطمئن القلب مستريح الفؤاد ، رفيع الذكر رفيع العماد .

---

(١) الجنة : السترة وكل ما وقى من السلاح .

(المحامى) — إنا لنعلم ، يا معشر الأمراء والحكام ، أنكم قضيتم الأعمار فى جمع الحطام ، واتخذتم الحكم والسلطان تجارة من التجارات ، و بضاعة من البضاعات ، ترجون منها الغنى والثروة ، ولم تكونوا تعلمون للحكم من مزية سوى اكتناز الأموال ، واستلاب الحقوق ، وابتزاز الدراهم من دماء الأرامل والأيامَى ، وانتزاع الأقوات من أفواه الأطفال واليتامى ، وكنتم سواء عليكم أحُزتم المال من حِلّه أم من غير حله ، لم تبالوا بالضعيف المسكين ، ولم ترثوا للعاجز المستكين ، بل ظلمتم البرىء ، و برأتم الظالم ، فجمعتم لديكم من أثر ذلك مالاً يقدَّر من الأموال ، ورضيتم بالوزر ، وطوقتم أعناقكم بالإصر ، ثم حرّمتم بعد ذلك على أنفسكم التمتع بما جمعتموه ، وحرّمتموها من كل ما حزتموه ، ولم تكونوا من الذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ، ولم تؤدوا ما فرضه الله عليكم فيها من الحقوق ، ولم تطهروها بزكاة ، ولم تزكوها بإحسان ، وأطربكم رنين الدرهم فوق الدرهم ، وصمتُ الدينار مع الدينار ، وأبدعتم ما شئتم فى وسائلَ وطرائقَ يأباها الله لعباده و يمقتها ، و يستبشعها الإنسان ويستفظعها ، لِسلب ماسلبتموه ، وكنز ما كنزتموه بالإثم والعدوان ومعصية الرسول ، واجترأتم على الله فى أوامره ونواهيه ، وكلفتم العلماء بتأويلها على أهوائكم ، فأوّلوها لكم لانحصار الأرزاق فى أيديكم ، واحتياجهم إلى ما يقتاتون به من فضلات عيشكم ، فالوزر عليكم وعليهم ولكنه عليكم أعظم وفوقكم أثقل ؛ حتى إذا انقضى العمر وحل الأجل ، تركتم ما خلفتموهُ لِغلْمة من أولادكم ، وصبايا من جواريكم ، نشأوا بينكم على الحرمان ، ولم تُثقفوهم بالتعليم ، ولم تتركوهم للزمن يؤدّبهم ، وللأيام والليالى تهذبهم ، فكنتم فى أعينهم كالرصد الذى يكون على باب الكنز — كما يقال فى الأقاصيص — يحتالون لنقلهِ بقتله ، فإذا استراحوا منكم بالموت أو القتل ، مزقوا أموالكم انتقاماً منها ومنكم ، وفرقوا شملها فى أدنى من لمحة ، جهلاً منهم بوجوه التصرف وأبوابِ التمتع ، فما هو إلا أن يتسابق الدودُ والورثةُ فى أحشائكم المدفونة ، وأحشائكم المخزونة ، فيسبق الورثة الدود ، فى الصدور والورود ، تذهب البَدْرة وراء البدرة ، والضيعة بعد الضيعة ، والدار عقب الدار ، حتى إذا لم يبق إلاّ بيت السكن أتوا على ما فيه من الأثاث بيعاً ، وما فى أعناق الجوارى من الجواهر

والقلائد رهناً ، ولا يزالون يخلُون من البيت حجرة إثر حجرة ، والدائنون يدخلون فيه خطوة إثر خطوة ، إلى أن ينهدك بناؤهُ ، ويعفو أثره ، ويزول اسم بانيه الذى ارتكب ما ارتكب من الذنوب لتشييده ودوام بقائه ، وهو يشيع منهم باللعنتين فى الحالتين : حالة الخلاص منه بالتشييع إلى القبر ، وحالة أسفهم على إهماله إياهم من تثقيف العلم بما كان ينفعهم فى خشونة الفقر .

هذه أيها الأمراء عاقبة ما صارت إليه أموالكم ومقتنياتكم من بعدكم ، ويا ليت أولادكم وأحفادكم خففوا عليكم من الإثم فى جمعها من دماء المصريين بإنفاقها بينهم ، وتبذيرها فيهم ، فيكون ذلك منهم كَردّ بعض الحق إلى أهله ، ولكن البلاء كل البلاء أنها ذهبت جميعاً إلى أيدى الأجانب والغرباء ، وكأن الدهر سلط المماليك على المصريين ينهبون أموالهم ، ويسلبون أقواتهم ، ثم سلطكم الله عليهم لسلب ما جمعوه ، ثم سلط عليكم أعقابكم فسلموا مجامع ذلك للأجانب يتمتعون به على أعين المصريين ، والمصريون أوْلى بالقليل منهُ ، وما دَفعَ بأعقابكم إلى هذا اللِيان والتسليم إلا ماورثوه عنكم من الاحترام لشأن الأجنبيّ والاحتقار لجانب المصريّ ، وأنكم لم تكتفوا بأن تكونوا أربابا المصريين ، حتى شاركتم معكم الأجنبى فى تلك الربوبية فغلبكم عليها ، وأشرككم مع المصريين فى العبودية ، وتشابهت الموالى بالعبيد ، وقد آن أن تعلم أيها الأمير بأن جميع أقرانك وإخوانك من ذوى الثروة واليسار فى أيامكم قد أصبحتْ بيوتهم خاوية على عروشها ، وأبصار أعقابهم شاخصة إليها ، فإن أردتَ أن تبحث عن أموالك وضياعك اليوم ، فابحثْ عنها تحت ثفال (1) تلك الرَّحى ، وقُلْ معى ما يقوله الشاعر الحكيم :

يقول الفتى ثمّرْتُ مالِى وإنما ... لِوَارثه ما ثمّرَ المالَ كاسبُهْ
يُحاسِب فيهِ نفسَهُ فى حياتهِ ... ويتركه نهباً لمن لا يحاسبُهْ

فيا عبثَ المدّخرِ الجامع ، ويا غبنَ المكتنز الطامع ، ما كان أغناكم عن الجمع والادّخار ، وعن الحرمان فى الدنيا والخلود فى النار .

---

(١) الثفال : جلد يبسط تحت الرحى والحجر الأسفل من الرحى .

(الباشا) — أراك قد تجاوزت أيها المرشد الواعظ حدّك فى اللوم والتعنيف ، وخرجت عن طورك فى العذل والتعزير ، وكان بودى أن أعطيك أجرك مضاعفاً ، ولا أشاهد منك هذه الجراءة علينا بسوء التقريع والتوبيخ ، وربما قلتَ حقاً فى بعض ما تقول ، والرجاء فى غفران الله عظيمٌ ، وفى رحمته متسعٌ ، ولعل ما تخلل أعمالنا فى أيامنا من الحسنات يشفعُ لنا فى ما اقترفناهُ من السيئات ، ولكن كيف التدبير الآن فى اكتساب المعيشة ، والاحتيالُ لالتماس الرزق ، بعد أن ضاعت الأموال وذهبت من أيدينا الأحكام على نحو ما تروى وتحكى ، وما أرى لضيق من الفرج إلا أن أورد نفسى حتفها ، وأعيد لها حمامها ، فما أرْوَحَ ما كنت فيهِ من ظلام الرمس (١) ، وما أقبح ضياء هذه الشمس .

(عيسى بن هشام) — ليس لمثل حالتكم غير الأسف منا ، والتوجع لكم ، فقد تمكن الاعتقاد فى رؤوس الحكام أن ما يقع بالاتفاق لهم أحياناً من ولاية الأحكام ، هو قياس مُطَّرد ، وصراط مستقيم ، لا ملجأ لكم سواهُ فى وجوه المساعى ، وممارسة مطالب الحياة . وقامت الولاية عندكم مقام بقية الآلات والصناعات التى يجتنى أهلُها منها ثمر الارتزاق والتكسب ، فإذا خلَتْ أيديكم منها ، واعتزلتم الأحكام ، تقطعت بكم الأسباب ، وضاقت بكم السبل فى وجوه المعايش ، كما تصاب يد الصانع بالشلل ، فيتعطل عن العمل ، ويصبح كَلًّا على كاهل الجميع ، يرجو الموت كما رجوتَ ، ويتمنى راحة العدم كما تمنيتَ ، وكأنكم أيها الحكام صنف فوق أصناف الخلقة لكم نصيب من العيش دون سائر الخلق ، فلا تكونون إلاّ فوق ذهب العرش ، أو فوق خشب النعش ، وقد قال مسكين من رؤساء صناعتكم هذه ، وهو فى ضِيق الحبس ، وضيق النفس :

ونحن أناسٌ لا توسّطَ عندنا لنا الصدرُ دون العالمين أو القبرُ

ومعلوم لك ما فى هذه الصناعة ، صناعة الولاية والحكمِ ، من قلة ما يرفعهُ الصدر ، وكثرة ما يضمهُ القبر ، وكان الأولى بكم أن تكونوا كالناس فى معايشهم ، لكل إنسان آلة بينة من صناعة أو حرفة أو مهنة يُحسن بها التعيش والارتزاق ، حتى إذا أنتم نزلتم

(١) الرمس : القبر .

عن تلك العروش ، دخلتم فى بقية الأحياء من أفراد الجمعية تنفعون وتنتفعون .

(الباشا) — تالله إن ما قاسيتهُ من الآلام أمام البوليس والنيابه والمحكمتين واللجنة كان أقلّ همّاً وأدنى شَجَناً من مرارة هذا النصح والوعظ ، وما الرأى عندكما ، وقد فات وقت التحصيل والطلب ، ولم يبقَ وقت للصناعة والعمل ، والموعظة صالحة نافعة ، ولكنها لمن يجىء لا لمن يمضِى .

قال عيسى بن هشام : فأحزنتنى حالة الرجل ، وأشفقت عليهِ ، فأخذت أتدبر له وأتفكر فى طريقة يتعيش بها ، وكلما خطر لى فى ذلك خاطر خاب رجائى فيه ، حتى كدت أيأس من الحيلة ، والباشا ينظر إلىّ وأنا فى تفكرى تارة ، ويطرق للتفكير فى نفسهِ تارةً أخرى . ثم رأيتهُ قد انتفض من مكانه وأخذ بيدى يقول لى :

(الباشا) — قد وجدت والحمد لله باباً لسد العوز وكفاف العيش .

(عيسى بن هشام) — ماذا وجدت ؟

(الباشا) — كان من عادة الحكام أمثالنا فى الأزمان السالفة أن يأتوا فيما يأتونه من أعمال الخير التى تقرّبهُم من الله وتعتق رقابهم من النار بعملٍ صالح اتفقوا عليهِ كافةً ، وهو إقامة بناء لجامع أو كُتّاب أو « سبيل » ، وكانو يخصصون له أرضاً أو ضيعة وقفاً عليهِ للانفاق من ريعها على طول الزمان ، وقد سلكتُ مسلكهم ، واتبعت سُنتهم ، وخلّفت لذلك وقفاً عظيماً لا تناله أيدى الأعقاب بالإتلاف والتبذير ، فهلمّ معى نبحث على ما شيدتهُ ووقفتهُ .

الوقف

قال عيسى بن هشام : وظللت أنا والباشا نواصل الطَّواف بالطواف ، للوقوف على تلك الأوقاف ، ونسائل العابر وابن السبيل ، عن المسجد و « السبيل » ، ولا سؤال المُجدِب عن الروض ، والظمآن عن الحوض ، فلم نجد من يُرشد ، إلى مانَنشد . وأخذ الباشا يتذكر الطُّرُقَ وأماكنَها ، والأزقَّةَ ومساكنها ، ويقول كان هنا وكان هنا ، جَلَّ ما يَقضِي به إلهُنا . ومازال يقاصر فى خَطَواته ، ويطاول من آهاته ، ويبكى لرسوم الأطلال والديار ، بكاء صاحبِ عزَّةَ[1] أو صاحبِ نوار[2]

فاسألنها واجعلْ بكاكَ جواباً تجـد الدمعَ سائلاً ومجيبا

حتى وصلنا بعد طول التَّجوال والتجواب ، وترداد المجىء والذهاب ، إلى مُنعطِف مضيق ، فى منتهى الطريق . فوقف الباشا هناك قُبالَةَ دورٍ مهدَّمة ، وجدرانٍ محطَّمة ، ومسجدٍ فى ناصية منه حانوتُ خمَّار ، وفى زاويةٍ منه دكان عطار ، وبجانبهما حوانيت متباينة الأوصاف ، مختلفة الأصناف . فطفق الباشا يصعّد نظره فيها ويصوّبه ، ويَخطىء حَدْسه تارة ويصوّبه ، فهداه طول النظر والتدقيق ، وشدة الإمعان والتحقيق ، أن رأى شيخاً فانياً متربعاً فى دكانه ، متحيزاً بمكانه ، عليه علامات الانحلال والسقوط ، وشارات الخذلان والقنوط ، وسيما الرضاء بالمقسوم ، والتسليم للقضاء المحتوم ، له جبهة كأنها من ورق البَردِىّ العتيق ، تتلو فيها ما دوّنه الدهر من آيات الشدة والضيق . فخرج الباشا فى الحال من حال المتحير المتردد ، إلى حال الواثق المتأكد ، فنادى صاحب الدكان عن بُعد نداء السيد للعبد ؛ فانتفض الرجل انتفاضاً مجيباً ، وقَصَدهُ مُلبياً ومُجيباً ، فما شككت من هيبة النداء وأدب التلبية ، إلا أن ملكاً ينادى أحد الحاشية . ووقف الرجل أمامنا وقفة الممتثل الخاضع ، والمطيع الخاشع . فقال له الباشا ، بعد أن حدّد فيه نظره ، واستجمع فكره :

(١) عزة : هى التى كان يتشبب بها كثير الشاعر

(٢) نوار : هى امرأة الفرزدق التى كان يتشبب بها

(الباشا) — ألستَ أنت أحمد أغا الرِّكبدار المعدود من أهل حاشيتى ، ألاَ تعرفنى من أنا ؟

(صاحب الحانوت) — لولا أن الموت حجاب كثيف ، وحجاز منيع بين ظهر الأرض وبطنها ، لقلت إنك سيدى وأميرى ، ويشهد الله أننى كلما أمعنتُ فى وجهك ، وسمعت لصوتك ، كاد يطير عقلى ، ويندهش لبى ، لاستحكام الشَّبَه بينك وبين سيدى المرحوم .

(الباشا) — إنى أنا سيدك ، وهـذه هى العلامة التى تعلمها فى جسمى من أثر اللعب بالجريد على مشهد منك فى يوم من أيام السباق والرهان (وكشف الباشا عن ساقه فأراه العلامة) فوقع الرجل مُنْـكَبًّا على الأرض من شدة الدهشة ، يُقَبِّل قدم الباشا ويغسلها بمنحدر الدموع ، ويقول فى بكائه وشهيقه :

(صاحب الحانوت) — كيف بالحياة بعد الممات ، أحَقٌ أنت إحدى المعجزات ، وليس ما أراهُ بغريب ، فقد شاهدت فى هذا العمر الطويل ، مالاَ تحيط بوصفه الأقلام ، ولا تتسع له بطون الدفاتر من عجائب الانتقال ، وغرائب الانقلاب ، فلا يبعد بعد ذلك أن تُشرق الشمس من مغربها ، وتُخرج الأرضُ أمواتَها من مقابرها .

قال عيسى بن هشام : فقلت للرجل : لا تكثر من الدهشـة والحيرة ، ولا تغرب فى الاستغراب والتعجب

على أنهـا الأيام قد صِرْنَ كلُّها عجائبَ حتى ليس فيهـا عجائبُ

واعلمْ أن القدرة لاتعجز عن شىء فى الوجود ، ولا تحيط بها العقول ، ثم قصصت عليه قصة الباشا منذ البداية ، فصاح الرجل يبكى ويتضرع ويقول : ليت أمى لم تَلِدنى ، وليت القدرة التى بعثت الأمير من بعد موتهِ نَشرتْ معه زمنَه ؛ وأعادت عصره ؟ وإلا فكيف له بالعيش فى هذا الزمن ، وما أولاهُ بالعودة إلى أدراج الكفن .

ثم التفت إلى الباشا ، وشرع يقص عليه مامرّ بهِ من الحوادث والكوارث ، وما جرى لبيت الباشا ولأهل طبقته من النوازل والخطوب :

(صاحب الحانوت) — ولم يَبقَ لك أيها المولى من أثرٍ يُذكر فى ثروتك ومتاعك ،

وأموالك وضِياعك ، وقد عشتُ دهراً وأنا متمتع بريع ما وقفتَهُ أيها الأمير على حاشيتك وأتباعك ، وعلى هذا المسجد والسبيل والكتاب ، لتخليد ذكرك ، وإحياء اسمك ، فما لبث الوقف أن تهدّم وتخرب بطول الترك والإهمال ، فوقعنا كلنا فى الفاقة والاحتياج ، وانقلب الكتاب مخزناً ، والسبيلُ خمَّارةً ، والمسجد مصبغةً ، كما تشاهد وترى ، وأصبحت أنا بيطاراً بعد أن كنت « ركبداراً » وأخذتُ هذه الحانوت من الوقف لممارسة صناعتى فيها والتعيش منها ، وسبحان مقلّب الأحوال ومبدّل الأشكال

(الباشا) — ألم يبق من ذريتى أحد يباشر هذا الوقف بنظره ؟

(البيطار) — آخر العهد عندى كان بواحد منهم ، ذهبتُ اليهِ لأجل هذه الحانوت وأعلمتهُ بمكانى من أهل الحاشية ، فانتهرنى وطردنى ، وأبعدنى وزجرنى ، ولكن الحاجة دفعتنى إلى الإلحاح ، فترددت عليهِ مراراً . فتخلص من ثِقل إلحاحى بإحالتى على رجل فرنجى عندهُ يدير لهُ ما بقى لديهِ من ثروة نضبت عينها ، ونزَحت بئرها ، فأحالنى الإفرنجى على صاحب الخمارة ، لأنهُ أصبح صاحب الأمر فى أرض الوقف بوضع اليد عليها ، وليس يجسر أحد أن يعمل فيها شيئاً بغير إرادته خوفاً من الخصومة فى المحاكم ، فقصدت الخمار ، واتفقت معهُ على أجرة معيّنة وأقمت فى هذه الحانوت أصرع الدهر ويَصرعُنى ، وأطلب القوت ويُعوزنى ، وأتمجل الأجل ويمهلنى ، وتعالى الله المتفرد بعزته ، المبدع فى حكمته .

(الباشا) — وأين هذا الولد العاق المخالف لإرادتى ، وهو يعلم أن شرط الواقف كنص الشارع .

(البيطار) — هو مقيم الآن فى « الأوتيل » .

(الباشا) — وما الأوتيل ؟ .

(البيطار) — « اللوكاندة » .

(الباشا) — وما « اللوكاندة » ؟

(عيسى بن هشام) — « الأوتيل » هو بيت معروف يعدونهُ لنزول مَنْ لا بيت لهُ من الغرباء على أجر معيّن ، وهو فى المعنى كالخان الذى تعرفونه فى زمانكم .

(الباشا) — هل وصل التدنّى بهذا الخائن إلى سُكنَى الخان ، وسبحان مصرّف الأحوال ومغير الأزمان . وكيف يطيب للمسكين عيش على هذه الحال ، بعد عز النعمة ووفرة المال . أفكان رجوعى إلى الحياة على ما لا أرغبهُ ولا أرضاه ، تعذيباً لى على ما فرطت فى جنب الله ، أو لم يكن عنده سبحانهُ فى الآخرة من عذاب النار ، ما يغنى عن التعذيب بالعار ، فى هذه الدار ، ربّ إن الجحيم لأهْوَنُ علىّ فى العذاب والنكال ، مما ألاقيه فى الرزية فى المال والعيال :

فليت وليداً مات ساعةَ وضعِهِ ولم يَرتضِع مِن أمِّهِ النُّفَساء

(عيسى بن هشام) — ليست السكنى فى « الأوتيل » اليوم عن ذل وفقر ، بل هى عن عز ويسر ، فإن النفقة فيهِ عن بضعة أيام تكفى لنفقة شهر ، على أكبر قصر ، بجواريهِ وخَدَمهِ ، وأتباعهِ وحَشَمِه ، وقد دعا أولادكم إلى ذلك وُلوعُهم باحكام التقليد للأجانب ، وإتقان الاقتداء بهم ، والسعيدُ المنعَّم من أولاد الأمراء اليوم من يبيع عقارهُ ، ويرهن ضياعهُ لتتيسر لهُ الإقامة فى هذا الخان ، ومنهم من يتعذر عليه مفارقة أهله فيؤْتَى لهُ بالطعام من «الأوتيل» إلى البيت ، وعنده الطباخ فى أسفله ، والجوارى الطاهيات فى أعلاه .

(الباشا) للبيطار — أرجوك أن تصف لصاحبى مكان « الأوتيل » الذى يسكنهُ ذلك الغلام ، فإنّ بى حاجة إلى لقائه .

(البيطار) — كيف تخاطبنى أيها الأمير بلفظ الرجاء ، وأنا أنتظر فى خدمتك أن تأمرنى بما تشاء ، وهل تظن أنى أفارق ركابك ، أو أزايل معيتك ، مهما تقلبت الأحوال ، وتبدلت الأزمان ؟ فهلمّ ، منك الأمر والاشارة ، وعلىّ السمع والطاعة .

أبناء الكبراء

قال عيسى بن هشام : ودعانى الباشا للسير معه ، وهو يكفكف دمعه ، وتبعنا البيطارُ من خلفنا بخُطاه الثقيلة ، وعصاه الصقيلة ، فقد صقلها طول التوكؤ والاستعمال ، وتعزَّى بها فى السير والانتقال ، عن ظهور الخيل ومتون البغال ، إلى أن وقفنا عند أحد القصور الكبيرة ، من الفنادق الشهيرة ، فهال الباشا ما رآهُ من ضخامة البناء ، ونخامة المنظر والرُّواء ، وما لقيه من أدب الخدم والأعوان ، ورشاقة الوصُفاء والغلمان ، فتخيل أننا أخطأنا الأبواب والمداخل ، فدخلنا بيتاً من بيوت الوكلاء أو القناصل ، وتقدمتُ للسؤال والاستخبار ، وقد خلقنا البيطار فى الانتظار ، فدلّنا أحد الخدم على رقم المكان الذى يسكنه الأمير ، بعد طول التردد والتفكير ، فما وصلناه حتى دَفع الباشا بيديهِ دفّتى الباب ، لم يلتفت لطلب إذن ولا لرجع جواب ، فوجدنا أمامنا جماعة من أولاد الأمراء ، وأعقاب الكبراء ، مختلفين فى الجلوس ، حاسرين عن الرءوس ، ففريق منهم عاكفون على لعب القمار ، وفريق ينظرون فى صور خيل المضمار ، ومنهم جماعة قد استداروا بامرأة نَصَفٍ (١) لا عجوز شوهاء ، ولا فتاة حسناء ، تجتلب الحسن بإفراط التأنق والتفنن ، فى وجوه التصنع والتزين ، فيكاد يضىء وجهها بِسنَا العقود والقلائد ، ويتلألأ جبينها بلألاء الجواهر والفرائد ، وفى وسط المكان مائدة عليها صنوف الراح ، فى الأباريق والأقداح ، وبجانبها منضدة (٢) ، عليها آنية مُنَضَّدَة ، وفوقها الدواة والقرطاس ، ويراعة مرصعة بالماس ، وكتبٌ أعجمية موشّاة بالذهب ، لا أدرى إن كانت فى اللهو أم فى الأدب ، وعلى الأرض أوراق أحكام منشورة ، وجرائدُ تحت الأقدام منثورة ، لم يفضض عنها « ظرف » ، ولم يقرأ منها حرف ، وسمعناهم يتراطنون جميعاً بلغات أجنبية ، دون اللغة التركية أو العربية ، إلا ما كان من أسماء الخيول العربية ، بعد أن يبدلوا الكاف بالقاف ، وينطقوا بالحاء كالهاء ، ولما رأونا

---

(١) النصف : المرأة الوسط بين الحدثة والمسنة .
(٢) المنضدة : شىء له أربع قوائم يوضع فوقه متاع البيت .

ظهرَ منهم العبوسُ والقطوب ، وبدا عليهم انقباضُ الصدور والقلوب ، وانبرى مِنْ جانب المرأة شاب فأسرع نحو الباب ؛ فخاطبنا بعبارة فرنسية ، ولَثْغة باريسية :

(الشاب) — كيف ساغ لكما الدخول بغير إذن ؟

(عيسى بن هشام) — دعا إلى ذلك شوقُ الوالد إلى رؤية ذريته .

(الشاب) — لست أفهم لك كلاماً فصرِّحْ لى وبَيِّنْ .

(عيسى بن هشام) — فلان يسأل عن فلان .

(الشاب) إنى أنا فلان ، ولكن مَنْ فلانٌ الذى يسأل عنى ؟

(عيسى بن هشام) — هو جدُّك الأكبر أحياه الله بعد مماته ، وبعثهُ من رقاده ، وكان من أمره أنى كنت أزور المقابر ذات يوم من الأيام . . .

(الشاب) مقاطعاً مستهزئاً — اذهبْ عنى ، فلست أسمع لهذا الكذب والخَرَف ، وليس لى اليوم من جدٍّ ولا والدٍ ، ولا أنا ممن يصدق بحديث البعث فى الآخرة ، فكيف برجوع الموتى إلى الدنيا . تعالَوْا أيها الإخوان فاعجبوا معى ، واضحكوا مما أسمعه من هذا الرجل الذى يخاطبنى ، وانظروا إلى هذا « الباشبوزق » الغليظ الذى يجانبه ، فهو يدَّعِى أنه من آبائى وأجدادى ، بعثهُ الله ليطالبنى فيما أظن بما ورثتهُ من الأموال ، وينازعنى فى نظارة الأوقاف . فهل سمعتم بأعجب مما أصبحنا فيه اليوم ، لم يكتفِ الدهرُ بتكدير عيشنا ، وتعكير حياتنا بمطالبة أرباب الديون ، حتى بعث الأموات من قبورهم ، ليطالبونا بمواريثهم وأموالهم ، ألا ترون أيها الخلان أنها أبدع نكتة فى أواخر القرن ؟

قال عيسى بن هشام : فاستغرق الجميع عند ذلك فى الضحك ، واستلقوا من القهقهة ، وكلما سألنى الباشا عن مكان حفيدهِ ، واستفهم منى عما يجرى معى من الكلام ، استمهلته لتمام الحديث ، حتى لا يقف على شىء مما يقال ، ولا يحس بوقع تلك السهام والنبال . ولما انتهى الشبان من ضحكهم ، نادوا بالخادم ليأمروهُ بطردنا وإخراجنا . وحانت فى هذه الأثناء التفاتةٌ من الحفيد بين دورانه وحركاته ، فلمح أحدَ قرنائه وإخوانهِ قد انزوى بتلك الخليلة ، التى هى عندهم كالحليلة ، يلاعبها وتلاعبه ، ويغازلها وتداعبه ، فانقضَّ عليها

كالصقر الأجدل ، فاستمرَّ بينهم الجدال ، واشتد الخصام ، والتفَّ حولهم الجمع ، وسمعت الحفيد يعتب ، والصاحب يعتذر ، والمرأة تبكت وتؤنب ، وتقول لعاشقها : « ليس لك مثل هذه الجرأة فى العتاب والملام ، ولا يأتى ما تأتيه من الحدة والتهور فى الغيرة إلاَّ مَنْ كان قائماً بحاجتى ، مجيباً لرغبتى ، وقد طلبت منك بالأمس أن تشترى لى ذلك العقد الذى حضرلتاجر الحلىّ من أوربا فى البريد الأخير . فسوَّفت وماطلتَ ، بعد أن أجبتَ ووعدت ، واعتذرتَ بالإعسار والضيق ، ثم بلغنى اليوم أنك اشتريت فرساً جواداً بمقدارعظيم من المال ، فكيف تقصر فى حاجتى مثل هذا التقصير ، وتَبغِى منى الاقتصار عليك ، والاختصاصَ بك دون بقية من يبذل ماله وروحه فى سبيل مرضاتى من أصحابك و إخوانك ؟ »

ثم سمعتُ الحفيد يجاوبها ، والعرق يتساقط من جبينه ، والوجد يقطع أنفاسه : « تالله ما اشتريت شيئاً ولكن بعتُ أشياء لأشترى لك العقد بثمنها ، ولا يغرّنك ما يقال لك عن ثروة هذا الصاحب الدنىء الخائن ، وعن قلة أموالى ، ورهنِ أطيانى ، فأنتِ تعلمين بمقدار الأموال التى ستأتينى من اكتساب القضايا المعلقة لى فى المحاكم كما ينبئك به المحامى فى كل حين » .

وما سمع ذلك الصاحبُ سَبَّهُ بهذين النعتين ، حتى اضطرم واضطرب ، وثارت به سَوْرة الغضب ، فتقدم فَلَعَنَهُ وشتَمَه ، ودفَعَه ولَطَمه ، فوعده الملعون الملطوم ، بالمبارزة فى يوم معلوم .

ثم علا هناك صياحٌ أيضاً فى مجلس القمار بين صديق وصديق ، أحدُهما فى يُسر والآخر فى ضيق ، وأخٍ يبغى الاقتراض من أخيه ، ومفلسٍ يطالب مُيَسّراً بدَيْنٍ لا يؤدّيه ، وانكشفَ الجدال كذلك عن الضرب واللكم ، وانتهى النزاع بالصفع واللطم .

واشتبك خصام آخر فى ركن المكان ، بين أهل السبق والرهان ؛ هذا يقول فرسى سابق ، وفرسك لاحق ، وذاك يقول « ركبدارى » حاذق وابن حاذق ، وجوادك قصير وجوادى شاهق ، وأنت الآن مقرٌّ معترف ، بأن الوزن بينهما مختلف ، واشتدت المنافسة والمنابزَة ، وجرى بينهم حديث المبارزة ، كل هذا والمرأة تنسحب من حلقة إلى أخرى ، تسحَبَ الحية والأفعى ، فتطفئ نار الجدال مرة على حسب بغيتها ، وتشعلها طوراً لخبث نيتها .

ورأيت الأجدر بنا أن نتركهم على هذه الحال ، فجذبت بضُبُعِ الباشا وخرجنا من ذلك المكان ، وأسرعت به منحدراً إلى الطريق ، فسألنى عن تفصيل ما كان وجرى ، فترجمت لهُ شرح الحال والمآل ، فاحتدم غيظه ، واضطرم حنقه ، فلم يطفئه إلا ما قلته له فى آخر الحديث من عزم القوم على المبارزة فيما بينهم بالسلاح . فقال وهو يتابع زفراتِه : لعل القدرة تكشف عنى هذا المصاب ، وترُيحنى المبارزة من الأبناء والأعقاب . فقلت فى نفسى : إن أبناءكم لم يرثوا منكم أخلاقكم ، كما ورثوا عنكم أموالكم ، وليس عندهم من الشهامة ما يدفعون بهِ عن الأعراض والأحساب ، ولا من الشجاعة ما يؤنسهم بالطعان و بالضراب ، ولا يأبهون لكشف العار ، وأخذِ الثار ، والمبارزة عندهم كلمة تقال بالليل وتمحى بالنهار .

وتذكَّر الباشا فى طريقهِ شدة حاجتهِ إلى وفاء ما عليه من الأجر للمحامى ، فالتفت إلى البيطار يسألهُ :

(الباشا) — هل بقى أحد ممن كانوا حولى من الخُلَطاء والأقرانِ أهلِ النجدة والفتوّة وأصحاب الهمة والمروّة ؟

(البيطار) — لم يبق منهم إلا فلان وفلان وفلان .

(الباشا) — ابدأ بالذهاب معنا إلى بيت الأول منهم .

قال عيسى بن هشام : فسرنا إلى حيثُ أشار ، والهموم تفرسُنا ، والغموم تخرسُنا ، والأكدار لا تفارقنا ، والأقدار لا توافقنا .

كبراء العصر الماضى

قال عيسى بن هشام : ومضينا نقصد أحد الثلاثة من قرناء الباشا ورفقائه ، و بقية أخلائه وأصدقائه ، فانتهى بنا طول المسير ، إلى بيت ذلك الأمير ، وكأنهُ ميدان فى اتساعه ، وحصن فى ارتفاعه ، ووقف بنا البيطار ، عند باب الدار ، فسلم على الخدم وحيَّاهم ، ثم سألهم عن سيدهم ومولاهم ، فأجابوه بالتجهم والعبوس ، أنه ُفى قاعة الجلوس ، فخطونا فى بحبوحة الميدان ، فرأينا فى وسطهِ شجرة كثيفة الأغصان ، حَنى قوامَهَا تقادمُ الأزمان ، كأنها الثكلَى حلَّتْ شعورَها في مأتم الأحزان ، وفى ظلها فرس يجنّ من النشاط والمِرَاح ، و بجانبهِ كبشُ ضأنٍ للنطاح ، وحوْلَهما دِيَكةٌ نزال وضراب ، ظَنَابِيبُها مسنونة كالحراب :

فَحُمْرٌ وسودٌ حالكات كأنها سَوامُ بنى السَّيدِ ازدهتْهُ القوائمُ(١)
يزَانُ لديها الطعنُ فى حومة الوغَى إذا زُينتْ للعَاجـزين الهـزائمُ
وفيها إذا ما ضَيَّعَ النِكس غيْرة تُصانُ بها المستصْحَبات الكرائمُ(٢)

ثم وصلنا إلى قاعة مشيدة البنيان ، فسيحة الأركان ، فى أحد جوانبها سلسبيل ، يسيل ماؤه من أفواه التماثيل ، والأرضُ مفروشة بالبسط الفارسية ، و بجلود الضوارى الوحشية ، والحيطان مستورة بأنواع السلاح ، من خناجرَ وسيوفٍ ورماح ، وفوقها عدة صفوف ، من الرفوف ، تحمل الطرائف الكريمة ، والأوانى الصينية القديمة ، مع عيدان للتدخين ، من أغصان الياسَمين ، فخلمنا نعالنا ، وتقدمنا أمامنا ، فوجدنا الأمير ومن معه جلوساً متربعين ، مُنْصتين مستمعين ، يفىء فى وجوههم نور الشيب والوقار ، وتزدهيهم هيئة العزة والاستكبار . فانقطع الحديث عند دخولنا ، برد سلامنا ، ولكن ما لبث أن اتصل ما انقطع من الكلام ، بعد رجع التحية ورد السلام .

---

(١) السوام : الإبل الراعية ، وبنو السيد : قبيلة تكثر فيها الإبل السود والحمر .
(٢) النكس : الرجل الضعيف الدنىء .

ولما استقر بنا المكان ، همستُ فى أذن البيطار أن ينبئنى بأسماء الحاضرين ، فقال لى : هذا المتصدر فيهم هو الأمير فلان رب الدار ، وهو رفيق مولانا الباشا فى البيت الكريم الخديوى ، وقد اعتزل الأعمال واعتكف فى آخر عمره يتعبد ويتهجد ، ويسلك طريق النسك والزهد ، ويتقرب إلى الله بدوام القيام والقعود ، وطول القنوت والسجود ، وله أموال عريضة ينفق منها فيما ينفق على قَمَدَةِ المشايخ وقُوَّامِ أهلِ الطريقة وطُوَّافِ الآفاق من سكان الأماكن المقدَّسة ، رجاء أن يغفر الله له ما تقدم من الذنوب ، وأن يُلحقه بالصالحين من أوليائه . وأما الذى عن يمينه فهو فلان باشا كان عضواً من الأعضاء الكرام ، فى « مجلس الأحكام » ، والذى عن جانبه عالم من جلّة العلماء الأعلام والمشايخ العظام . أما الجالس عن شماله فهو فلان الفريق الجهادىّ المشهور فى الوقائع والفتوح ، والذى بعده هو فلان من كبار المديرين السابقين . وأما الذى تراه فى أُخْرَيات المجلس فهو فلان التاجر من تجار خان الخليلى .

قال عيسى بن هشام : ولما وقفت من البيطار على معرفة ما عرَّفَنيهِ ، نظرت إلى الباشا فأدركت أنه لا ينبغى المبادرة إلى كشف أمره قبل انتهاء الحاضرين من حديثهم ، فأنصتُّ مع المنصتين ، فإذا الفريق الجهادىُّ يقول فى اتصال حكايته وروايته :

(الفريق) — وكان « جنتمكان » محمد على باشا الكبير معجزة دهره ، وآية عصره فى الدَّهاء وعلو الهمة ، وبُعدِ النظر ، وإحكامِ عقدة التدبير ، واجتذابِ القلوب ، وتربية النفوس على الوفاء ، والأمانة لخدمته ، فكان له من الكُماة مَنْ خدموه بالصدق ، وافتدوه بالأرواح ، وأذكر منهم المرحوم « محمد بك لاظ أوغلى » ، فهو الذى دبر له قطع دابر المماليك فى ساعة واحدة ، وقد حكى لى المرحوم أخى ؛ وكان حاضراً فى تلك الواقعة الهائلة ، أن المماليك لما رأوا أن المكيدة فى استئصالهم قد استحكم عقدُها ، واشتدّ رباطها ، وأنهم أُحيط بهم من كل مكان ، تقدموا للبحث عن محمد على فى كل حجرة وزاوية من زوايا القصر للفتك به ، والتخلص منه ، فلم يقفوا له على أثر ، وأعياهم البحث والتنقيب ، لأن « لاظ أوغلى » أخفاه عنهم شديدَ الإخفاء ، وقام له فى ذلك الوقت — إن جاز

التشبيهُ والتمثيل — قيامَ علىّ بنِ أبى طالب مقامَ الرسولِ عليه الصلاة والسلام ليلة الهجرة (عضو الأحكام) — نعم، وكان المرحوم محمد على فوق ما يقال وما يتصوَّر فى دقة سياسته لتربية الرجال فى خدمته، فكانوا كلهم طرازاً واحداً فى حسن الولاء وجميل الإخلاص، وربما كان يجذب الرجل منهم بكلمة واحدة تَطبعه له على الصدق فى خدمته طول حياته. ومن ذلك ما حكاه لى صديقنا المرحوم راغب باشا قال: « كنت أقرأ بين يدى المغفور له أوراقاً، وأنا يومئذٍ كاتبٌ من كتبة معيته، فدخل علينا سامى باشا فى أثناء القراءة، ووقف معنا، فسأله محمد على عما يريده، فتلعثم تلعثمَ المتطلع لخروجى حتى ينفرد به، فيعرض عليه ما عنده، فقال له: « قلْ ما عندك فى الحال فإنى لا أخفى عن « راغب » سراً من أسرارى، ولا فرق عندى فى المنزلة بين نسلى وذريتى و بين كتبة معيتى » .

فهل تعلمون يا قوم أنه يقوم مقام هذه الكلمة فى جَلْب النفوس، وجذبِ القلوب إلى النصح والولاء فى الخدمة، إنعامٌ بِضياع، او إحسانٌ بأموال، أو تقليدٌ لرتبة أو نشان؟ وانظروا إلى ذلك الرجل العظيم كيف أتقن صناعة الألفة فى تربية رجاله، وما الملوك صناعة غيرها، فإذا أتقنها أحدهم فاز بالتسلط على النفوس، واحتكر مودات القلوب، فيصفو لهُ الملك، و يطيب له الحكم.

(الشيخ العالم) — أصبتَ وصدقتَ، وقد اطَّلعتُ فى التاريخ القديم على واحدة فى هذا الباب للمنصور العباسىّ، تدل على براعته ودقته فى صناعة الملك، وهى أنه كان يأكل ذات يوم، وبجانبهِ ابناه مع شيخ من قواد جيشه، ذهبتْ أسنانه لكبر سنه، فكان يسقط من فمه بعض الفُتات وهو يأكل، والأميرانِ يتغامزان عليهِ، فالتفت إليهما الخليفة فرأى ما بينهما، فمدّ يده فجَمعَ ما سَقَط من ذلك الفتات فأكله، فقام القائد يقول له: « لم يبق إلاّ دينى أقدمُه لك يا أمير المؤمنين فأمُرْنى بما تريد » .

(المدير السابق) — وأنا أقص عليكم واحدة أخرى للمغفور له محمد على، تشهد بلطف سياسته، وحسنِ عطفه على الأهالى، وشفقتهِ على الرعية، وهى أن أحد المديرين أراد

أن يفوق إخوانه فى الخدمة ، لينال مكانة عالية من أميره ، فجدّ فى تحصيل الأموال ، وتغالَى فى طريقته ، فأخذ ما عند الأهالى من المال جملة واحدة ، فضجَّ ضجيجُهم ، واشتدَّ صياحُهم ، حتى بلغ مسامع ولىّ النعم ، فأمر باحضار المدير ، فلما وقف فى حضرته قال له : اذْن منى ، فلما دنا منه ، أخذ بعنقه فى قبضة يده ، وصار ينتزع من رأسه شعرة ، ومن قفاه شعرة ، ومن عارضه شعرة ، ومن حاجبه شعرة ، حتى جمع فى قبضته خُصلة من الشعر ، والمديرُ لا يجد لذلك من الألم إلا أثراً خفيفاً ، ثم إن الأمير انتقل إلى لحية الرجل ، فانتزع منها خُصلة دفعة واحدة من جهة واحدة بمقدار تلك الُخصلة المتفرقة ، فنبَع من تحتها الدمُ وصرخ المدير من شدة الألم ، فقال له محمد على : « هكذا تختلف المعاملة مع الرعية فى جباية الأموال ، إذا أنت أخذت من هاهنا درهماً ، ومن هاهنا درهما ، آناً بعد آنٍ ، خفّ الوقع على الأهالى ، ولم يدركوا الألم ، وحصَلْتَ منهم على مثل المقدار الذى تأخذه جملة واحدة فى وقت واحد مع شدة الألم ، كما رأيت الفرق بين انتزاع الشعرات متفرقاتٍ وبين انتزاعها مجتمعاتٍ ، والكميةُ واحدة ، والألمُ بينهما مختلف ، فإياك أن تعامل الناس بعد اليوم بما يلجئهم إلى الشكوى ، ويبعثهم إلى الاستغاثة » .

(الشيخ العالم) منشداً :

فلا تُكثروا ذكرَ الزمانِ الذى مَضى   فذلك عصرٌ قد تقضَّى وذا عَصرُ

ورحم الله الماضى ، وأعاذنا من الحاضر ، وأجارنا من المسقبل ، وإنى لأراكم أيها الأمراء ، مهما أسهبتهم فى محاسن المغفور له وأفضاله ، وأطنبتم فى حميد أخلاقه وخصاله ، فلستم ببالغى حق الشكر ، ولا موفين بجميل الذكر ، ويكفيه من الحسنات التى يُغنِى ذكرُها عن الإجمال والتفصيل ، وتحكم له بالسبق فى باب التميز والتفضيل ، أنه كان يقرب العلماء ويعظمهم ، ويدنيهم منه ويكرمهم ، ثم يَقضى حاجاتهم ، ويتبرك بدعواتهم ولقد رأيت له رؤيا صالحة تحكم له فى أخراه ، بأن له جانباً مع الله ، وأنه نال جزاء الاحسان ، بسكنى فراديس الجنان .

قال عيسى بن هشام : وأقبل فى أثناء هذا الحديث رجل من أهل مكة ، المعروفين

بالمطوِّفين أو المزوِّرين ، فتقدم إلى رب الدار فقبَّل يدهُ ، و إلى الشيخ العالم ، فلثم ذيله ، ثم وضع عن يده صُرة فأخرج منها قطعة من الحرير الأخضر وجُزءاً من التمر ومشطاً ومُكحلة وسُبحة وشيئاً من الحنّاء ، ثم قرأ الفاتحة ، وخاطَبَ الأمير بقوله :

(المكى)— قد جئتك أيها الأمير بالقطعة التى أمرتَنى باحضارها من الكسوة الشريفة ، وأتيتك بجزء من تمر النخلة المباركة التى غرستها الزهراء البتول بيدها الكريمة .

(الشيخ العالم) ـ بعد أن ذاق التمر واستطابه ـ إيهِ إيهِ صدقتَ أيها الرجل ، ومَنْ كان صائماً فأفطر على تمر المدينة كُتبت له الجنة .

قال عيسى بن هشام : فرأيت الباشا يتأفف بجانبى ويزمجر ، ويتململ و يتضجر ، ويهم بأن يتكلم ، فالتفت صاحب الدار عند ذلك إلى البيطار يسأله عن شأن هذا المتأفف المتضجر ، فتقدمت له بشرح القصة على الحاضرين ، وذكرت خروج الباشا من القبر ورجوعه إلى الدنيا . فمنهم من صدَّق ، ومنهم من كذَّب ، فتنحنح الشيخ العالم ، وأشار فيهم بإشارة الاستماع ، ثم اندفع يقول :

(الشيخ العالم) — اعلموا أنه ليس للمعجزات حد ، ولا للخوارق حصر ، ولا تنكروا على الرجل حياته بعد موته ، فليس من حسن اليقين ، أن ننكر بَعْثَ الدفين ، والرجوعُ إلى الدنيا بعد الفناء ، أمر معلوم بلا امتراء ، تخص القدرة بهِ من تشاء ، ببركة الأصفياء والأولياء ، وأقربُ ما أستشهد لكم بهِ على ذلك من كتاب « مناقب تاج الأولياء و برهان الأصفياء للقطب الربانى والغوث الصمدانى السيد عبد القادر الكيلانى » ما أرويه لكم بحرفه ونصه :

« ذكر فى « رسالة حقيقة الحقائق » أن امرأة غرق ولدها فى اليمّ ، وجاءت إلى الغوث الأعظم ، وقالت : إن ولدى غرق فى البحر ،واعتقادى جازم بأنك تقدر على رد ولدى إلىَّ حيًّا ، فقال لها رضى الله عنه : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده ، فجاءت ثانيةً وتضرعت ، فقال لها الغوث أيضاً : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك فى بيتك ، فراحت ولم تجده ؛ فجاءت ثالثة بالبكاء والتضرع ، فراقب الغوثُ

وانحنى برأسه ثم رفع رأسه فقال لها : ارجعى إلى بيتك ، تجدى ولدك فى البيت . فراحت ووجدتْ ولدها فى البيت : فقال الغوث الأعظم بطريق المحبوبية : يارب ًّ لِمَ أخجلتنى مرتين عند تلك المرأة . فجاءه الخطاب من الملك الوهاب : إن كلامك حين قلتَ لها كان صدقاً ، ففى المرة الأولى جمعت الملائكة أجزاءه المتفرقة ، وفى المرة الثانية أحييتهُ ، وفى الثالثة أخرجتهُ من اليمّ وأوصلتهُ إلى دارها ، فقال الغوث : يارب خلقت الأكوانَ بأمر « كنْ » ولم يسبق زمان ولا آن ، وفى وقت البعث تجمع أجزاءها المتفرقة التى لا نهاية لها ، وتحشرهم فى طرفة عين ، وتجمع أجزاء جسد واحد و إحياؤه و بعثه إلى دارها شىء جزئى، فما الحكمة فى هذ التأخير ؟ فجاء الخطاب من الرب القدير : أطلبْ ما تطاب ، فقد أعطينك عوضاً من انكسار قلبك . فتضرع الغوث ووضع وجههُ فى التراب وقال : يارب أنا مخلوق فبقدر مخلوقيتى يليق بى الطلب ، وأنت خالق ، فبقدر عظمتك وخالقيتك يليق بك العطاء. فجاءه الخطاب : كل من يراك يوم الجمعة يكون وليا مقرّباً ، إذا نظرتَ إلى التراب يكون ذهباً . فقال : يارب ليس لى نفع من هذين ، أعطنى شيئاً أعظم منهما و يبقى بعدى لينفع فى الدارين . فجاء الخطاب من الله العزيز القدير : جعلت أسماءك مثل أسمائى فى الثواب والتأثير ، ومن قرأ اسماً من أسمائك فهو كمن قرأ اسماً من أسمائى » .

ورُوى فيه أيضاً عن السيد الشيخ الكبير أبى العباس أحمد الرفاعى رضى الله عنه قال : « تُوفى أحد خدام الغوث الأعظم ، وجاءت زوجته إلى الغوث ، فتضرعت ، والتجأت ، وطلبت حياة زوجها ، فتوجه الغوث إلى المراقبة ، فرأى فى عالم الباطن أن ملك الموت عليه السلام يصعد إلى السماء ومعه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فقال ياملك الموت قِفْ وأعطنى روح خادمى (وسماه باسمه) ، فقال ملك الموت : إنى أقبض الأرواح بأمر إلهى ، وأؤديها إلى باب عظمته ، كيف يمكننى أن أعطيك روح الذى قبضته بأمر ربى ؟ فكرر الغوث عليه إعطاء روح خادمه إليـه ، فامتنع من إعطائه ، وفى يده ظرف معنوىّ كهيئة الزنبيل فيه الأرواح المقبوضة فى ذلك اليوم ، فبقوّة المحبوبية جرّ الزنبيلَ وأخذه من يده ، فتفرقت

الأرواح ورجعت إلى أبدانها ، فناجى ملكُ الموت عليه السلام ربه وقال : يا رب أنت أعلم بما جرى بينى وبين محبوبك ووليّك عبد القادر ، فبقوّة السلطنة والصولة أخذ منى ما قبضتُه من الأرواح فى هذا اليوم . فخاطبه الحق جل جلاله : ياملكَ الموت إن الغوث الأعظم محبوبى ومطلوبى لِمَ لا أعطيتَهُ روح خادمه ، وقد راحت الأرواح الكثيرة من قبضتك بسبب روح واحد ، فتندم هذا الوقت . »

قال عيسى بن هشام : وما انتهى الشيخ من روايته ، حتى رأيت الباشا قد انتفض قائماً يقول ، والغضبُ بادٍ على وجههِ والغيظُ يتقد فى صدره :

(الباشا) — أعلموا أيها الإخوان أن مغفرة الرحمن ، وسكنى الجنان ، لاتنال بكثرة الصوم ، وأكل التمر ، أو التبرك بالآثار ، والتحصن بالأوراد ، وما تُكتَسب الدرجة الرفيعة عند الله إلا بالعدل والإحسان ، وفعلِ الخير واجتنابِ الشر ، والرحمةِ بالضعفاء والمساكين من عباد الله ، وقد غرنى فى دنياى ما يغركم الآن ، فكنت أسمع قبل مماتى من مثل هذا الشيخ العالم ما يهوّن علىّ ارتكاب المخزيات ، وفضائح الشرور فى معاملة الناس ، ارتكاناً على نهار أصومهُ ، وليلٍ أقومُه ، وحرزٍ أحمله ، وأثرٍ أقبله ، فنمتُ عن عمل الخير ، وغفلت عن بذل المعروف ، فلما توفانى القدير العليم ، وسكنتُ فى حفرة القبر ، علمت ما لم أكن أعلم ، فلم يغننى ذلك وحده من الله شيئاً ، وما خفَّف علىّ أهوالَ القبر ، وهوّنَ علىّ سؤال الملك ، إلا حسنة واحدة كنت أتيتها فى إغاثة مظلوم استجارنى فأجرتُهُ ، وهو فى يد الجلاد بين السيف والنطع [١] . فعليكم بالعدل والاحسان ، وتقوى اللهِ فى عباده ، وافشاء البر والمعروف فى خلقه ، ولا تطيعوا النفس الأمارة بالسوء ، فتركنوا إلى الاغترار بالأمل ، وتطلبوا المغفرة بلا عمل ، بل استكثروا من الخير قبل حلول الأجل ، وتذكروا قول الله الأجلّ : « وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُ » ، واعتبروا بقول علىّ رضى الله عنه : « كم من صائم ليس له من صيامه إلا الجوع والظمأ ، وكم من قائم ليس له من قيامه إلا السهر والعناء » . واسمعوا قول حكيم الشعراء :

(١) النطع بالفتح والكسر : بساط من الجلد يفرش تحت المحكوم عليه بقطع الرأس

ما الخير صومٌ يذوبُ الصائمون له ولا صلاةٌ ولا صُوفٌ على الجسدِ
وإنما هو تركُ الشر مطَّرَحاً ونفضكَ الصدرَ من غلٍّ ومن حسدِ

ولا يستقيم أمر المسلم إلا إذا جمع بين فرائض العبادات وحسن المعاملات .

(الشيخ العالم) — إنى لأخالك أيها الرجل شيطاناً فى زىّ إنسان ، وزنديقاً يتستر بدعوى النشور من القبور ، تعساً لهذا الزمن ما أكثر أضاليله ، و بؤساً له ما أعظم أباطيله ، ولم يبق علينا من مُدَّخرات عجائبه إلا أن يخرج الميت من قبره ، فيخبرنا بما رأى و بما سمع .

(صاحب الدار) للباشا — سألتك بالله أن تخبرنى بأية لغة كان سؤال الملكين لك ، أبا العربية ، أم التركية ، أم السريانية ، فإن هناك اختلافاً وأقوالاً بين العلماء .

(الشيخ العالم) — ناشدتكم الله أن تقصروا عن هذا الرجل ولا تخاطبوه ، فإنه فتنة من فتن إبليس اللعين ، ونعوذ بالله من الشيطان الرجيم .

قال عيسى بن هشام : فلم يسع الباشا إلا الخروج من هذا المجلس ، وهو يهدر ويغلى ، ويستعيذ ويستعدى ، فانخرطتُ وراءه ، وأنا أذكر قول عمر رضى الله عنه فى مثل هذا الشيخ الغليظ البدِن : « إن الله يكره الحَبْرَ السمين » ، وأردد قول أبى تراب كرّم الله وجهه : « أشكو إلى الله من معشر يعيشون جهالاً ، و يموتون ضُلاّلاً ، ليس فيهم سلعة أبْوَرَ من كتاب الله إذا تُلِىَ حقّ تلاوته ، ولا سلعة أنفَقَ بيعاً وثمناً من الكتاب إذا حُرِّفَ عن مواضعه ، ولا عندهم أنكرَ من المعروف ولا أعْرَفَ من المنكر » .

ولَحِقَ بنا البيطارُ فى خروجنا ومعه التاجر الذى كان مقيماً فى المجلس ينادياننا ، فوقفنا لهما ، فتقدم التاجر إلى الباشا ومال على يده يُقبلها و يقول له :

(التاجر) — أُشهد الله أيها المولى أننى مصدِّق بأمرك ، وليس بعد العيان من برهان ، وما أخطأَ نظرى فيك ، فأنت سيدى الباشا بعينه ، وأنت صاحب اليد التى أتذكرها طول عمرى ، وما بى من نعمة فمنك ، وما أصبحت فيه من ثروة فبيُمنك وفضلك ، ولستُ أنسى أنّ أصل شهرتى واتساع تجارتى هو أنك جلست فى دكانى مرة عندما عثرتْ بك رجلُك وأنت تقصد زيارة الحسين ، فارتفع بتلك الجلسة قدرى ، واشتهر ذكرى ، وأقبل

على الناس من دون التجار، لتوهمهم فىَّ أن لى برحابك صلةً، و بجانبك نسبةً، فأصبحتُ ولله الحمد فى غنى ومالٍ كثير، وقد بلغنى من أحمد أغا هذا ما أنت فيه من الحاجة إلى الدراهم لأجرة المحامى التى جاءت بك إلى هذا المجلس، ولكنك أنِفْتَ من ذكرها عندما غضبتَ لله، وأنا أتضرع بخالق الخلق أن تتنازل فتقبل منى ما تسدّ به حاجتك، وتتخلص به من مطالبة المحامين.

(وأخرج التاجر كيساً مملوءاً فقدمه إلى الباشا وهو يرتعد من خيفة الرد، فأخذه الباشا وقال له) :

(الباشا) — إنى أشكرك جميل الشكر لحسن صنيعك، وأسأل الله لك حسن الجزاء، فهلمّ أكتبْ لك صكا بالمال لأردّه إليك عند استرداد أوقافى.

(التاجر) — حاشا لله أن أكون من أهل هذا الزمن الذين أصبحوا لا يثق بعضهم ببعض، فلا يأمن الأخ أخاه، ولا الوالد ولده، ولا الصاحب صاحبه، ولا الجار جاره على درهم واحد إلاَّ بعقود وصكوك، بل أنا لا أزل من أهل ذلك الزمن الذى لم يكن يتعامل التجار فيه بينهم بغير الثقة والائتمان، دون احتياج إلى تحرير الأوراق، وتسطير الصكوك، وما يكون الاستيثاق إلا عند توهم الخيانة والعياذ بالله.

قال عيسى بن هشام : فكرر الباشا شكره للتاجر مضاعفاً وقال لى : انصرفْ بنا إلى المحامى، نستنقذ رقابنا من أسره، ثم نذهب إلى المحكمة الشرعية للمطالبة بالوقف فقلت له: لا بد لنا من محام شرعى يطالب لنا بحقنا، فما نخرج من قبضة محام، إلا إلى قبضة محام، ونسأل الله السلامة فى الختام.

المحامى الشرعى

قال عيسى بن هشام : وأخذتُ طريقى ، مع رفيق ، أنشُد صاحباً أسترشده ، فى محام شرعى أقصده . وبينا نحن نسير ، ونسأل الله التيسير ، إذا بصاحبٍ لى عرفته ، فاستوقفته ، قال : ما خطبُك ؟ قلت : قضية ، فى المحكمة الشرعية ، فما طرَقَ الخبرُ سمعه ، حتى أجرى دمعه ، وهوَّلَ الأمرَ وهوّلت ، وحَوْقَل وحوْقلْت . ثم قال : لقد وقعتُ قبلك فى هذا البلاء ، ولمّا تَتِمّ لى النقاهةُ من الداء ، وأنا أنصح لك إن كنتَ مدّعياً أن تترك دعواك ، وتصبرَ على بلواك . أما إن كانت الدعوى عليك ، فليس الخيار إليك ، وَلاَ مردّ لحكم القضاء ، بتدبير الآراء . فقلت : للضرورة أحكام ، فأرشِدْنى لانتخاب محام ، يكون مشهوداً بعدالته ، مشهوراً بطهارته ، بعيداً عن خُلْف الوعد ، بريئاً من خُلق الوغد[(١)] ، لا يتفق مع الخصم ، ولا يسرق من « الرسم » ، قال : اطلبْ من أنواع المحال ، أن يحمل الذرُّ الجبالَ ، ولا تطلب فى محام اجتماع هذه الشروط ، فينتهى بك الأمر إلى اليأس والقنوط ، ولمحاولةُ الارتقاء ، فوق متن العنقاء[(٢)] ، أيسرُ من ذلك مطلباً ، وأوسع مذهباً ، وأقسم لك بخالص الود ، أنى لا أثق منهم بأحد ، وكيف تكلفنى أن أنتقى لك ذئباً من الذئاب ، وأحمل على كاهلى عبء اللوم والعتاب ، فأعفِنى من هذا الاختيار والانتقاء ، عافاك الله من جميع الأسواء ، ثم ما ابث أن خلّفنى ومضَى ، وتركنى على مثل جمر الغضَى . فسرت كئيباً حزيناً ، أبغى سواه مرشداً ومُعيناً . ولما لم أجد من أصحابى مَنْ يتكفل على عهدته ، باختيار محام يُوثَق بذمته ، قصدت أحد المعلومين عندى بكثرة الخصومات ، وطول المحاكمات ، فكاشفته بطَلِبَتِنا ، ليكشف من مصيبتنا . فقال : اعلمْ أن المحامين الشرعيين أجناس وصنوف ، فمنهم المبصر ، ومنهم المكفوف ، وفيهم — كتب الله لك السلامة — صاحب « الطربوش » ، وصاحب العمامة ، وأنا أدلك على أهونهم شراً ، وأقلهم ضراً ، وأخفهِّم رزيةً وبلية ، وأكثرِهم علماً بالحيل

(١) الوغد : الرذل الدنىء . (٢) العنقاء : طائر مجهول الجسم لم يوجد .

الشرعية ، فعليك بفلان ، و بيتهُ معلوم ، فى منتهى « حارة الروم » ، فقصدنا البيت نشق طرُقاً مُعوجّة ، ونخترق ثنيّات مزدوجة ، إلى أن انتهينا إلى باب دار ، كأنها مطلية بالقار[1] ، تسورت بأكوام من الأقذار ، وتلفعت بتلالٍ من الأوضار ، ورأينا عند مدخل الباب ، صِبْيةً يلعبون بالتراب ، ومن بينهم طفلة تجمّعَ على وجهها من الذباب ، مثل البرقع تنقبتْ بهِ قبل أوان النقاب ، ولما تخطيناهم غَشيتنا رائحة المرحاض ، فاستندنا هناك على هضبةِ أنقاض ، بجانبها مذْود أتان ، يزاحمها عليهِ إوَزّتان و بَطتان ، ثم اهتدينا إلى حجرة فى جهة اليمين ، فرأينا أمامها فرّاناً ينادى : « العجينَ » « والأجرة » ، فسألناه عن رب الدار ، فأشار إلى الحجرة ، فدخلنا فوجدنا فيها حصيراً تَغطى بالغبار والحصباء ، ومتكئاً تعرى من الفراش والغطاء ، وفى زاوية من زوايا المكان ، سراجٌ لا ينفذ نوره من تكاثُف الدخان ، وفى أعلى رفوف الرواق ، أحمالُ كتبٍ وأوراق ، قام لها نسيج العناكب مقام الوقاية والتجليد ، وألصقتها الرطوبة بحفظتْها من التوزيع والتبديد ، وفوق الأرض زجاجات مطروحة من المداد ، وفى بياض الحائط تسويد وتخطيط من لَعِبِ الأولاد ، و بَصُرنا برجل :

تُغَيّرُ حِنّاؤهُ شَيْبَه فهل غَيّرَ الظهرَ لما انحنى

ووجدناه جالساً على سجادة الصلاة ، وعن يساره امرأة كأنها السّعلاة[2] . فسمعناه يقول لها فى تسبيحه : « أتستكثرينَ ـ أدرّ الله عليك خيرَه ، وأبدلكِ زوجاً غيرَه ـ ما أخذته منك لاستنباط الحيلة فى التفريق ، واستخراج الحكم بالتطليق ، فأبعدت عنك زوجاً تكرهينه ، لتتبدلى منه زوجاً تحبينه ؟ » ثم إنه أحس بدخولنا من ورائه ، فارتدّ إلى اتصال تسبيحه ودعائه ، وانفضت المرأة فتنقبت بخمارها ، وتلفحت بإزارها ، وخرجت وتركتنا مع رجلٍ يخدع الأنام بطول صلواته ، ويتلو سورة الأنعام فى ركعاته :

إذا رام كيداً بالصلاةِ مقيمُها فتاركُها عمداً إلى الله أقربُ

وجلسنا مدة ننتظر خلاصَه من هذا الرياء ، وخلاص الملكين من صحيفته السوداء ،

---

(١) القار : الزفت . (٢) السعلاة : الغول .

وخلاصنا من هذا الكرب العناء ، وكنا نشاهد منه فى خلال ذلك نظراتٍ مختلساتٍ نحو الباب ، كأنه هو أيضاً فى انتظار وارتقاب ، إلى أن دخل علينا غلامٌ يصيح به : إلى متى هذه العبادة ، فقد بَليت السجادة ، وحاجاتُ الناس موكولة إليك ، وقضاء مصالحهم موقوف عليك ، وهذا دولة « البرنس » ينتظرك فى القصر ، منذ العصر ، دَعْ مدير الأوقاف ، و« نقيبَ الأشراف » ، فلم يعبأ المصلِّى بهذا الكلام ، بل جهر بالآية من سورة الأنعام : « قُلْ إنَّ صَلاتى وَنُسُكى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ » ، فجلس غلام الشيخ وهو يمسح العرق ، واشتد بنا الضجر والقلق ، فقلنا مَن يضمن لهذه الصلاة انتهاء ، ولهذا التسبيح انقضاء . وهممنا بالقيام ، فالتفت الشيخ للغلام ، وأشبعه من التأنيب والملام ، ثم حيّانا بألطف سلام ، وقال : بارك الله فيكم وعليكم ، وأنا فى الخدمة بين يديكم ، فقلنا : عَلِمْنا أنك رجل عدلٌ عَف ، فجئناك لقضيةٍ فى وقف ، فقال الغلام : أتطلبون رَيْعَه ، أم تريدون بَيْعَه ؟ فقلت : سبحان الله ، وهل تُباع الأوقاف ؟ قال : نعم ، ويباع جبل قاف . ثم تنحنح الشيخ وسعلَ ، وبصَقَ وتفَل ، وتسعَّط ، ثم تمخَّط ، واقترب منا وَدَنا ، ثم قال لنا :

(المحامى) — دَعونا من هذا الغلام ، وقُولاَ لى ماحقكم فى الوقف ، وما شرط الواقف ، وكم يُقدَّر ثمن العين لتقدِّر « قيمة الأتعاب » بحسبه ؟

(عيسى بن هشام) — إن لصاحبى هذا وقفاً عاقته عنه العوائقُ ، فوضع سواه عليه يدَهُ ، ونريد رفع الدعوى لرفع تلك اليد .

(المحامى) — سألتك ما قيمة العين .

(عيسى بن هشام) — لست أدرى على التحقيق ، ولكنها تبلغ الألوف .

(المحامى) — لا يمكن أن يقلَّ مقدَّم الأتعاب حينئذ عن المئات .

(عيسى بن هشام) — لا تُشططِ أيها الشيخ فى قيمة الأتعاب ، وارفُق بنا ، فإننا الآن فى حالة عسر وضيق .

(الغلام) — وهل ينفع فى رفع الدعاوى اعتذار بإعسار ، ألم تعلم أن هذا شغل له

« اشتراكات » وللمكتبة والمحضرين « تطلعات » ، وأنَّى لكما بمثل مولانا الشيخ يضمن ربح الدعوى ، وكَسْبَ القضية ، بما يهون معه دفع كل ما يطلبه فى قيمة أتعابه ، وهل يوجد مثله أبداً فى سعة العلم بالحيل الشرعية ، ولطفِ الحيلة فى استمالة محامى الخصم ، واستجلاب عناية القضاة ؟

(عيسى بن هشام) — دونك هذه الدراهم التى معنا فخذها الآن ، ونكتب لك صكاً بما يبقى لحين كسب القضية ، وليس يفوتك شىء من ذلك ، مادام ربحها مضموناً لديك على كل حال .

(المحامى) — بعد أن استلم الدراهم يعدها — أنا أقبل منك هذا العدد القليل الآن ابتغاء ما ادَّخره الله لعباده من الأجر والثواب فى خدمة المسلمين ، وعليك بشاهدين للتوكيل .

(عيسى بن هشام) — وبأية طريقة يكون التوكيل .

(المحامى) — يجب عليك أن تستحضر شاهدين يشهدان أمام المحكمة بأن فلان بن فلان وكَّل فلان بن فلان بن فلان « فى المرافعات والمدافعات والمخاصمات والمصالحات والقبض والاستلام والتسليم وفى المطالبة والدفع والإقرار وكل ما يصح فيه التوكيل شرعاً وفى أن يوكل عنه فى الدعوى غيره وأن يعزله وأن يفعل ذلك مراراً وتكراراً كلما بدا لهُ فعله المرةَ بعد المرة والكرةَ بعد الكرة » وأنا أنتظر حضوركما غداً مع الشاهدَيْن ومستنَدِ الوقف .

(عيسى بن هشام) — ليس لدينا الآن إلاَّ شاهد واحد يعرف أصل الباشا ونسبه .

(غلام المحامى) — هذه أول خطوة فى تكاليف القضية ومشاقها ، ولعلك تعرف قيمتها ، ونحن نجد لك بتيسير الله من يعرف أصل الباشا ونسبهُ و يشهد به بين يدى الحق .

(عيسى بن هشام) — وليس فى يدنا أيضاً مستند للوقف .

(المحامى) — أما جهة المستند فينبغى استخراج صورة من السجل « المصان » (كذا) وهذه خطوة ثانية فى متاعب القضية .

قال عيسى بن هشام : وعند ذلك قطع الشيخ المحامى كلامه معنا ، واستقبل القبلة بوجهه يتنفل ويتبتل ، فقمنا للانصراف ، وسرت مع صاحبى ، وأنا غريق فى الأفكار ، أتدبر وأعتبر ، وأعجب مما رأيت من سكون الباشا وسكوته ، وحسن احتماله وصبره ، بعد أن كان شديد الحدة سريع الغضب ، يرى القتل واجباً لأدنى هفوة وأقل سبب ، فأصبح بفضل وقوعه فى هذه الخطوب المتتالية ، والرزايا المتتابعة ، ليّن العريكة ، واسع الصدر ، موطأ الكنف ، كثيرَ الاحتمال ، حتى أنه لم يأنف ولم يتأفف من كل ما رأيناه فى يومنا هذا ، بل كانت حالته حالة الفيلسوف الحكيم الذى يجعل دأبه البحث والتأمل فى أخلاق الناس أثناء التعامل معهم ، وازددتُ يقيناً بأنه لا شىء أسرع فى تهذيب النفوس وتربيتها على التخلق بالأخلاق الفاضلة مثل ممارسة الخطوب ، ومصارعة النوائب ، وأنّ أسوأ الناس أخلاقاً ، وأنكدهم عيشاً ، هم هؤلاء الأغمار[1] ، المنعمون المترفون ، الذين لم يأخذوا العيش عن تجارب الحدثان ، ولم تهذّبهم صروف الأزمان ، ولم يزدنى الباشا فى كلامه أثناء الطريق على أن قال :

(الباشا) — قلتَ لى إن المحامين الشرعيين فيهم صاحب « الطربوش » وصاحب العمامة ، فهل تراهم جميعاً على هذا النمط الذى شاهدناه ، أم بين الفريقين فرق ؟

(عيسى بن هشام) — اعلم أن الخيرة فى الواقع ، والحمد لله على كل حال ، فإن فيهم تحت « الطربوش » مَن هو أشد فتكاً من ضوارى الوحوش ، وأعرفُ طربوشاً منهم أقسم أمامى بالطلاق ثلاثاً من زوجته ومن كل زوجة يتزوج بها فى حياته على إنكار كلام نَطَقَ به فى مجلس كنتُ حاضرَه ، إرضاء لأحد أرباب القضايا ، وإغضاباً لخالق البرايا ، واستهانةً بحكم الشارع ، واعتماداً على قول الشاعر :

وإنْ أحلفونِى بالطلاقِ أتيتُها ... على خير ما كُنا ولم نتفرّقِ
وإن أحلفونى بالعتاقِ فقد درَى ... عُبيدٌ غلامِى أنه غيرُ مُعتَقِ

---

(١) الأغمار : جمع غمر وهو الجاهل الأبله .

قال عيسى بن هشام : ومضت علينا الأيام ، ونحن نقصد الشيخ المحامى فى كل يوم ، فلا نتمكن من لقائه ، فان ذهبنا إليه فى البيت قيل لنا إنه فى المحكمة ، وإن ذهبنا إلى المحكمة قيل لنا إنه فى القصر الفلانى أو القصر الفلانى من قصور الأمراء والكبراء ، حتى حَفِيت الأقدام ، ومللنا الاصطبار . فاخترنا أن نربط له أمام بيته عند الثلث الأخير من الليل ، فنصطاده عند خروجه ، وقعدنا بعيداً عن الباب حتى خرج علينا راكباً أتانَهُ ، فتقدمت إليه ، فقال لى : أرجو المسامحة فى هذا التأخير ، فالذنب فيه لكثرة مشاكل الأمراء ودعاويهم ، فتقبلنا عذره ، وتوجهنا معه إلى المحكمة ، فذهب بنا إلى « كاتب الإشهادات » ، فوجدناه جالساً يلمع فى ثيابه ، من حُمرة الحذاء فى رجله ، وزُرقة الجبة على كتفه ، وصُفرة الحزام فى خصره ، وبياض العمامة فوق رأسه :

تعدّدتْ ألوانُهُ كأنّه قوسُ قُزَحْ

وكان الشيخ المحامى قد تركَنا مع الغلام والشاهدِ الذى اختاره لنا ، فنظر الكاتب إلى الشاهد نظرة المتوقف ، وقال إنه شاب صغير السن ، وإنه وإنه ... فمال عليه غلام المحامى ، وألقى فى أذنه بعض القول ، فقام معنا من فوره إلى قاضى الجلسة لسماع الإشهاد بعد أن قال لنا الغلام : وهذه الخطوة الثالثة فى تكاليف القضية . ثم انتهى الإشهاد بحمد الله وحسن العناية بنا فى أثناء يوم واحد . وقال لنا الغلام عند الانصراف : يجب بعد هذا أن نقدّم عريضة لحضرة القاضى بطلب الكشف من الدفترخانة عن الوقفية فى السجل ، وأن نوضح فيها نمرة الوقفية وتاريخها ومِنْ « عملية » مَنْ هى (يعنى اسم الكاتب الذى كتبها فى زمانها) ، فخرجنا نبحث عن أحمد أغا البيطار ، لعله يعرف طريقة توصلنا إلى مطلوبنا ، فعثرنا عليه وأعلمناه بغرضنا ، فقال : إن عندى ورقة فيها نمرة الوقفية ، كنت تحصلت عليها بطرقٍ مختلفة بعد الجهد الشديد والزمن المديد لإثبات حقى فى ريع الوقف . ثم ذهب إلى بيته وعاد إلينا بالورقة ، فوجدناها قاصرة على ذكر النمرة والتاريخ ، ولم يُذكر فيها اسم الكاتب الذى عمل « العملية » ، فقصدنا غلام المحامى ، وتوجهنا معه إلى المحكمة ، فكتبنا العريضة ، وقدمناها لحضرة القاضى ، فوضع عليها إشارة لحضرة الباشكاتب ، ليتحرى عن

مسألة « الشأن » ، وطلبوا منا شهوداً يُشترط فيهم أن يكونوا من أهل جيل الباشا ليثبتوا شخصيته و يشهدوا بأنه صاحب الوقف ، وأن سواه وضعَ يدهُ عليه ، فأدركتنا الحيرة فى الأمر ، فتكفل لنا الغلام باستحضار أولئك الشهود أيضاً بعد أن قال لنا : وهذه الخطوة الرابعة فى تكاليف القضية . ولما نظر الباشكاتب فى العريضة ، ووجد أننا لم نبين فيها اسم الكاتب صاحب « العملية » ، قال لنا . إنه لا يمكن الاهتداء فى الدفترخانة بدون ذلك ، وإنه لا بدَّ لنا من انتظار السنين والأعوام ، حتى يمكن العثور على صورة الوقفية فى السجل بالنمرة والتاريخ وحدهما . فعاودتنا الحيرة ، فقال لنا الغلام : لا تحزنا فأنا أساعد على سرعة الإنجاز ، وأتوجه معكما إلى الدفترخانة إن شاء الله ، وهذه هى الخطوة الخامسة في تكاليف القضية . وما زال الخبيث يعدُّ لنا الخطوات ، ونَعُدُّ له فى كل خطوة دريهمات ، ونحن نسأل الله أن ينقذنا مما أصابنا من حُكم الدهر ، وأن يعجّل بانقضاء القضية قبل انقضاء العمر .

الدفترخانة الشرعيـــة

قال عيسى بن هشام : وعكفنا زمناً نشتد فى الطلب ، والمحامى يشتدُّ منا فى الهرب . فلما طال علينا الأمدَ فى ارتياده ، ويئسنا من لحاقه واصطياده ، انتقلنا للبحث عن غلامه ، حتى قبضنا على زمامه ، فرأينا الخبيثَ يُصَعِّب فى الأمور والأحوال ، لنسترضيه بالعطاء والنوال ، وقال لنا : أقول لكما الحقّ ، والحق أقول ، إنه ليس من المتصوَّر المعقول ، أن نهتدى فى هذه القضية ، إلى صورة الوقفية ، بمجرد تاريخها أو اسم صاحبها ، دون الوقوف على اسم محررها وكاتبها ، ولا يجول فى الخواطر والأوهام ، أن يعثر عليها كاتب السجل بين تلك الآكام ، من غير وحى أو إلهام ، إلاّ بعد كرِّ السنين ومرِّ الأعوام ، وإن اعتراكما بعض الشك أو الريب ، ولم تصدّقا بظهر الغيب ، فهلمّا معى أطلعكما على ما يزول معه اللّبس ، وتقتنع به النفس ، فقيّدناه بقيود الترغيب والتأميل ، وأعطيناه ما يحضرنا من كثيرٍ وقليل ، فانطلقَ أمامنا يَثِب ويحجِل ، حتى دخلنا بيت السجل ، فلما جاوزنا الباب ، حيث يجلس الـكتّاب ، ألفينا خُشُباً مُسنَّدة ، على خُشُب مُوطَّدة ، وهياكلَ تفترش الفِراء ، فوق الأقذار والأقذاء ، لا تميز منهم وجهَ إنسان من إنسان ، لِعَشوة البصر من ظلمة المكان ، فتذكَّر الباشا عند ذلك ظلام الرمس ، وكَرّ راجعاً ينتظرنا فى ضوء الشمس ، ثم مال الغلام إلى أُذُن أحدهم يكلّمه ، بما لا أعيه ولا أفهمه ، فبادر الرجل بالنهوض والقيام ، وسار بالغلام ، وأنا فى عقب الغلام ، فما خطونا بضع خطوات ، حتى حِيلَ بيننا و بين ضوء النهار ، وتجلّلنا من حِندِس(١) الليل بحجبٍ وأستار . فوقفت لا أبصر ولا أهتدي ، فأخذ الغلام بيدى ، وقد عميتْ علىّ وجوهُ المسالك ، فى هذه المخاوف والمهالك . وسرتُ فوق أرض تهَشُّ تحت القدم وتلين ، كأنها مفروشة بالهشيم تلبَّدَ فى الطين ، وما زلنا نمشى فى أنحاء تلك المطمورة(٢) ، على هذه الصورة ، حتى تخيلتُ أننى فى قبور قدماء المصريين ، أو فى هياكل الأسرار بمعابد الرومانيين أو فى طريق الامتحان

(١) الحندس : الليل الشديد الظلمة .

(٢) المطمورة : الحفيرة تحت الأرض .

عند أحرار البنائين ، فوجَبَ القلب[١] ، من شدة الرعب ، خشية أُحبولةٍ نُصِبت ، أو مكيدةٍ رُتِّبت ، ووَجمت ، ثم أحجمت ، وقلت للغلام : ليس بيننا ما يوجب الاحتيال ، أو يدعو للاغتيال ، وماذا تريد منى فى هذا الغيهب[٢] ، وليس معى من فضة ولاذهب ، ولا مِن شيء يستلب أو يُنتهب ، فقهقه الفاجرُ ثم أقسم بالله وثنى بالطلاق ، أننا نسير فى أمان بين غرائر[٣] الدفاتر ولفائف الأوراق ، وقال : كنْ آمناً مطمئناً على نفسك ، وسترى الحقيقة بعينىْ رأسك . وما كاد الشقىّ يتم لى هذه العبارة ، حتى عثرتْ قدمى فى لفافة فوقعت على غِرارة ، وإذا بصائحٍ يصيح من تحتها متبرّماً متأففاً ، ويقول لى متغطرساً متعجرفاً : ما هذه العشاوة يا عديم الإبصار ، ونحن لا نزال فى أديم النهار ؟ فقمت متثاقلا متساندا ، وقلت فى نفسى منشداً :

دجًى تتشابهُ الأشياء فيهِ فيُجْهلُ جنسها حتى يَصيحا

ثم تأملت ، فإذا أنا بخيال ينفض الغبار عن رأسه ولحيته ، بذيل مِئزره أو جُبته ، فتولأنى الخوف والوجل ، وقلت : مَنِ الرجل؟ فقال الغلام : كاتب من كتبة «السجلات» ، ينبش عن أوراق فى « سجل الأيلولات » ، فقلت : وكيف يهتدى لذلك ، وسط الظلام الحالك ؟ فقال : أولئك قوم اعتادوا العمل مع احتجاب الضياء ، فصاروا كالخفّاش يبصرون فى سواد الظلماء :

ولو سار كلُّ الوَرَى هكذا لمَا حَسَدَ العُمى مَن يبصرونْ

ثم انعطفْنا من ذات اليمين إلى شبه قاعة ، يلوح فيها من الضوء مثل جناح يراعة[٤] ، وإذا هو لعاب الشمس[٥] يسيل من ثُقب ، فى سقف الجب ، وهو يتموّج بأنواع الجراثيم ، تموُّجَ الماء بالهشيم[٦] ، فخلت أن عجوز الفلك الدوّار — أريد بها شمسَ النهار — خشيتْ أن تضلّ فى ظلمة هذه المفازة ، فاتخذتْ لها من لعابها عكّازة ، تتوكأُ عليها للاهتداء ،

---

(١) وجب القلب وجيباً : رجف وخفق (٢) الغيهب : الظلمة
(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهى الجوالق (٤) البراعة : الذبابة
(٥) لعاب الشمس : شيء كأنه ينحدر من السماء إذا قام قائم الظهيرة تراه مثل نسج العنكبوت
(٦) الهشيم : نبت يابس متكسر

وتدبُّ بها فى هذا العماء ، فمسحتُ على بصرى ، وأحدقتُ بنظرى ، فأبصرتُ وماذا أبصرت، ونظرتُ وماذا نظرت :

ما إنْ سمعتُ ولا أرانى سامعاً | أبداً بصحراء عليهـــــا بابُ

ثم رأيت فضاء متسعاً ، تَرَاكَمَ فيهِ من الأوراق الرثيثة ، والدفاتر البالية ، مثلُ الرُّبى الشاهقة ، والأَكَمَاتِ العالية ، غير أن هذه تُثمر و تجْنى ، وتلك تعثُّ وتَبلَى ، هذه تكون مخضرَّة مخصبة ، إن جَادَهَا الحيَا أينعتْ بالغضِّ من النبات ، وتلك سوداء مجدبة ، إن بلَّتها الرطوبةُ اهتزت باليابس من الحشرات :

فالأرضُ تبسُطُ فى خدِّ الثرى ورَقاً | كما تنشَّرُ فى حافاتِها البُسطُ
والريحُ تبعثُ أنفاســاً معطَّرةً | مثلَ العبير بماء الوردِ مُختلطُ
وهذه بَسطتْ فوق الثَّرى ورقاً | لكنه للبِلَى والعُثِّ منبَسِط
وَرِيحها تورِثُ الأسقامَ ناشِقَها | كأنه من ترابِ القبر يستعطُ (١)

وما لبث أن استبان لى شخص الكاتب المرافق لنا فى لمحة ذلك السنا ، فإذا هو قصير القامة ، كبير العمامة ، ذو وجهٍ مقنعٍ بالاصفرار ، وعين مكتحلة بالاحمرار ، وقد طَوى من خلفِ الجبة ، ورفعها على ظهره كالجُعبة ، وفى حزامِهِ دواة من نحاس أصفر ، و بين طيات العمامة أوراق بالتواريخ « والنمر » ، فاستعذتُ بالله من الشيطان الرجيم ، وقلت لذلك الغلام اللئيم :

(عيسى بن هشام) — هلمَّ بنا أيها المراوغ إلى الباب ، لنعود إلى ضياء الحياة ، فقد يئست من أمرنا ، وأنى لهذا الكاتب أن يهتدى للبحث فى هذا اللج القامس (٢) ، والليل الدامس (٣)

(غلام المحامى) — لا تنكرنَّ على مثله الاهتداء فى دياجى الظلماء ، ولا يَهولنك تشتت الدفاتر وتراكمُ الأوراق ، فهى مرتبة فى حافظته ترتيباً انطبع فيها من طريق

---

(١) استعط الدواء : أدخله فى أنفه
(٢) القامس : البعيد الغور
(٣) الدامس : الشديد الظلمة

الوراثة عن أبيه وعن جدّه ، فلا تخفى عليه مواقعها ، كما يتوارث رؤساء « البوغاز » فى الاسكندرية هدايةَ السفن عند دخولها ، بما علموه عن آبائهم من مواقع الأرض فى قاع البحر ، ولو كان معنا اسم الكاتب لسُهل البحث ، ولوصلنا إلى الغرض .

(الشيخ الكاتب) — نعم لا تنكرْ علينا — بارك الله فيك — اهتداءنا للبحث فى هذه الأوراق ، والله يعلم أن هذه الدفترخانة مرسومة فى ذهنى منذ الصغر على أحسن ترتيب وتبويب ، فهى مقسمة إلى عدة سجلات ، منها « سجل الباب العالى » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة غير الموروثة . ومنها « سجل القسمة العسكرية » ، تسجل فيه الأعيان المبيعة الموروثة . ومنها « سجل الأيلولات » ، تسجل فيه الأعيان المحصورة من تركة تُخصص أو تباع بالمزاد . ومنها « سجل الاعلامات » ، تسجل فيه المواد التى تصدر فيها أحكام من المحاكم الشرعية من أى نوع كان ، ومنها « سجل التقارير » تسجل فيه تقارير النظار وقفاً وغيرَه ، ومنها « سجل الوقفيات » ، وتسجل فيه نفس الوقفيات ، ويدخل فيه التوكيلات والوصايا والتصادق .

(عيسى بن هشام) — سبحان الفاتح الوهاب ، ومَنْ يهدينى إلى طريق الباب ! !

(الشيخ الكاتب) — ومنها « سجل الديوان العالى » ، تسجل فيه الفرمانات المتعلقة بتولية القناصل وعزلهم ، والاعلامات الصادرة من مجلس استئناف مصر فى الهيئة التى يحضرها القاضى الشرعى أو النائب عنه مع جملة من كبار العلماء من المذاهب . ومنها « سجل القسمة العربية » ، تسجل فيه الأعيان الموروثة المختصة بالذميين .

(عيسى بن هشام) — اللهم ارفع عنا الأذى والمقت ، وهلمّ فقد ضاق بنا الوقت .

(الشيخ الكاتب) مسترسلاً — . . . ومنها « سجل إسقاط القرى » ، يسجل فيه ما يأخذه الأمراء ويعطونه من الأطيان والقرى . وليس يخفى أنه كان فى مدينة مصر محاكم شرعية سياسية ، وكانت السيطرة عليها للقاضي من قِبل السلطان ، وكان لكل واحدة سجل تسجل فيه جميع الأنواع (وقد حفظتْ تلك السجلات كلها بهذه الدفترخانة) ، وكانت مراكزها فى جهات : « باب الشعرية » و « قناطر السباع » و « جامع طولون » و « جامع قيسون » . . .

(عيسى بن هشام) — يكفى أيها الشيخ ، فقد وجب الرحيل ، ولا حاجة بنا إلى هذا التطويل والتفصيل .

(الشيخ الكاتب) معدّداً — وفى جهات « درب سعادة » و « باب الخلق » و « الصالحية » و « النجمية » و « أحمد الزاهد » و « البرشمية » و « مصر القديمة » و « بولاق » و « جامع الصالح » و « جامع الحاكم » . . .

(عيسى بن هشام) — تبارك مَنْ له الأسماء الحسنى ، ومَنْ يعيدنى إلى الحياة الدنيا .

(الشيخ الكاتب) — ... ثم « محكمة البابِ العالى » ، وهى المحكمة الكبرى وقاضيها هو المسيطر على الجميع الموَلّى من القسطنطينية و « محكمة القسمة العسكرية » ، وقاضيها يعين كل سنة من دار السعادة كقاضى المحكمة الكبرى ، « ويسمى القسّام » وشغله المواريث بأنواعها فقط ، و . . .

(عيسى بن هشام) للغلام — لقد ملّ سمعى ، وضاق ذرعى ، فاخرج بنا وأنقذنى من شر هذه الدار ، ومن ثرثرة هذا الشيخ المهذار .

(الغلام) — لا تضجر ولا تقنط ، وأنظرنى قليلاً ، حتى أستنير برأى الشيخ ، لعلنا نجد عنده حلا للعقدة . وفرجاً للكربة ، (ثم مال على الشيخ منفرداً به ، فسمعته يقول له) :

(الغلام) — مثلك لا يعجز عن استخراج الوقفية بدون الوقوف على اسم كاتبها ، وأنت لا تأبى الربح والكسب لنا جميعاً ، وأصحابُ القضية من كبراء الناس أهل السماحة والكرم .

(الشيخ الكاتب) — مهلاً فقد كدت أتذكر اسم كاتب الوقفية على ذكر السماحة والبذل ، فإن لكتابتها حكاية مشهورة فى الجود والعطاء منذ ذلك العصر ، ولا يزال للخِلَع التى خُلعت على كاتبها بقايا إلى اليوم عند أهله وذريته ، وهو المرحوم الشيخ فلان ، فدونك وأصحابَ القضية فاتّفِقْ معهم لوضع هذا الاسم فى ورقة النمرة والتاريخ ، وجئنى بها نافعةً تشفع لنا أجمعين ، والله ينفعنا بنفع المسلمين .

(الغلام) لعيسى بن هشام — قد تيسرت الحال باذن الله ، ووصلنا إلى معرفة اسم الكاتب الذى تستخرج به الصورة ، والرأى لك فى هذه الخطوة السادسة .

قال عيسى بن هشام : ثم انطلق الغلام أمامي يسحبني وراءه ، حتى خرجنا بحسن صنع الله من الظلمات إلى النور ، فَجَهِرَت[١] عيني وسَدِرَت[٢] فلم أُبصر في الشمس عند الباب إلا بعد التردد مراراً بينها وبين الظلام . ولما التقيت بالباشا في الموضع الذي كان ينتظرني به ، سألني عن طول هذا الغياب ، فلم أُرِد أن أضيف إلى مصائبه مصيبة أخرى بوصف ما كنت فيه ، بل كتمته إياه ، وأخبرته بتيسير الحاجة . ثم اتفقنا مع الغلام على أن يباشر وَضْعَ اسمِ الكاتب في الورقة ، ويعود في اليوم الثاني إلى الشيخ الكاتب ليأتينا بصورة الوقفية ، بعد أن نقدناه ما نقدناه .

ثم دارت بعد ذلك علينا الأيام ومضت الشهور ، ونحن نتردد على الدفترخانة ، تارةً في صحبة الغلام ، وتارةً بدونه ، إلى أن حل الأجل ، وآن الأوان ، فجاءنا الغلام ذات يوم يبشرنا بالوقوف على الوقفية ، ففرحنا فرح الغوّاص بدُرّة التاج ، تحت تلاطم الأمواج ، ونهضنا معهُ إلى الدفترخانة ، فرأينا الشيخ الكاتب عند الباب يتيه إعجاباً بمهارته في الاهتداء عليها مع قِصَر الوقت ، ويَحمد الله على حسن الطالع وسعود الجَدّ ، فحمدناه على همته العالية وصنعهِ الجميل ، فأخرج من تحت إبطهِ أوراقاً بالية متخرقة متآكلة ، لاتستوي منها ورقة مع أختها ، فيها سطور متقطّعة ، وخطوط متوزعة ، لايستطيع أن يحلها إلاّ مَنْ كان عريقاً في كشف الرموز وفكِّ الطلاسم ، فقلت له : إن الاهتداء إلى نقل صورة مفهومة من هذه الأوراق لأعظم مشقة وأدهى بليةً من الاهتداء على موضعها من تلك الصحراء المظلمة ، فقال لي : إن كثرة التعود تيسر العسير ، وتهوّن الصعب ، وقد ورثتُ عن المرحوم والدي أيضاً قراءة هذه الخطوط ، وتلفيقَ ماربتْ من أواخر السطور ، والعبارةُ واحدةٌ لاتتغير تقريباً في كل باب من أبواب السجلات ، ورأيته يستعد ليسترسل في أبواب الشرح والوصف ، وخفتُ أن تشتد به نوبة الهذر والإكثار ، فودعناه وانصرفنا ، وكلفنا غلامَ المحامي أن يأتي لنا بالصورة من عنده بعد انتهائها ، فطلب منا أن ندفع « رسمها » ، وأن نأتيَ بشاهدين يشهدان علينا باستلامها ، ووعَدَنا بأنه ينوب عنا في اجتلابهما ، بعد أن طالبنَا بالمكافأة الواسعة ، على هذه الخطوة السابعة .

(١) جهرت العين : لم تبصر في الشمس. (٢) سدرت : تحيرت .

المحكمة الشرعية

قال عيسى بن هشام : ولما صارت فى يدنا الصورة ، بعد تلك المواقف المذكورة ، خَطَا غلامُنا الثامنةَ من خطواته ، فى بعض رَوحاتهِ إلى المحكمة وغدواته ، فذهب إلى كاتب « الطلبات » ، لتحديد إحدى الجلسات ، ثم عاد فبشرنا بأن الكاتب اتفق مع الرئيس ، على أن تكون الجلسة فى يوم الخميس ، وأنه حرر « طلباً » لحضور الخصوم ، فى الوقت المعلوم ، فأقمنا أياماً نعلل النفس بالأمل ، حتى حلّ هذا الأجل ، وسمح لنا الطالع بطلعة الشيخ المحامى ولقائهِ ، بعد طول احتجابه عنا واختفائهِ ، ورَضِىَ أن يتوجه معنا إلى المحكمة ، ليكشف عنا بيُمنهِ كل مظلَمة ، فسرنا جميعاً نقصد بيت القضاء الشرعىّ ، والحكم المرضىّ ، والعدل المقضىّ ، بوحى الإله وسنة النبىّ ، حيث تقام منابر الهُدَى ، وتشاد منائر التقى ، وينبلج نور الحقيقة والعدالة ، وتنكشف ظُلمة البدعة والضلالة ، ويُؤخذُ من الظالم للمظلوم ، وينتصف من الحاكم للمحكوم ، ويُسارُ على الصراط السوىّ ، فى الحكم بين الضعيف والقوىّ ، حيث تتحد المواقف والأقدام ، وتستقيم الأوامر والأحكام ، وتغدو فيهِ الثكلَى ربّةُ الأيتام ، أعزَّ من الفارس ربِّ الرمح والحسام ، ويصبح الأعزل الشاكى ، أقوى من المدجّج الشاكى[1] ، ويتساوى لديه ربُّ الشوَيْهَةِ[2] والبعير ، برب التاج والسرير — نعم حيث يكون المقعد الموروث ، عن النبىِّ المبعوث ، وحيث يُعمل بالسنة وآى الكتاب ، فينتصر للذليل على العزيز ، ويقتدَى فيه تارةً بسيرة عمر بن الخطاب ، وأخرى بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وحيث يكون مقرُّ المهابة والجلال ، ومصدر الوقار والكمال ، وموضع الطهارة والأمانة ، ومنبع العفة والصيانة ، وقِبلة القنوت والخشوع ، ومقام الطاعة والخضوع .

ولما وصلنا إلى هذه المحكمة، وجدنا ساحتها مزدحمة بالمركبات، تجرها الجياد الصاهلات، وبجانبها الراقصات من البغال والحمير ، عليها سُرُجُ الفضة والحرير ، فحسبناها مراكب للعظماء

(١) المدجج : اللابس لسلاحه وكأنه تغطى به . والشاكى : التام السلاح .
(٢) الشويهة : تصغير الشاة وهى الواحدة من الغنم .

والأمراء، فى بعض مواكب الزينة والبهاء، وسألنا لِمَنْ هذى الركاب، فقيل لنا إنها لجماعة الكتّاب، فقلنا سبحان الملك الوهاب، ومَنْ يرزق بغير حساب، ونَحَوْنا نحو الباب، فى تلك الرحاب، فوجدنا عليه شيخاً حَنَتْ ظهرَه السنون، فتخطته رُسُلُ المَنُون، قد اجتمع عليه العَمَشُ والصمم، ولج به الخَرَفُ والسَقَم، وعلمنا أنه حارسُ بيت القضاء، من نوازل القضاء، ثم صعِدنا فى السُلّم، فوجدناه مزدحماً بأناس، مختلفى الأشكال والأجناس، يتسابُّون ويتشاتمون، ويتلاكمون ويتلاطمون، ويُبرقون ويُرعدون، ويتهددون ويتوعدون، وأكثرهم آخذ بعضهم بتلابيب بعض، يتصادمون بالحيطان ويتساقطون على الأرض، وما زلنا نزاحم على الصعود فى الدَّرَج، والعمائم تتساقط فوقنا وتتدحرج، حتى مَنَّ الله علينا بالفرج، ويسّر لنا المخرج، فى وسط هذا الجمع المتلاصق، والمأزق المتضايق، ووصلْنا إلى القاعة السفلَى، فوجدنا عندها امرأة حُبلى، تتقلب على الأرض كالثعبان، وتستشهد بالأهل والجيران، أنّ بعلها، أنكر حملها، وحاولنا أن نخطو خطوة إلى الأمام، فلم نستطع من شدة الزحام، وكيف بالتقدم فى عباب موج ملتطم، ومنحدر سيل مرتطم، من نساء صائحاتٍ مُوَلْوِلات، ونائحات مُعوِلات، ونادبات باكيات، وصارخاتٍ شاكيات، كأنهن قائمات فى مأتم على مدافن الأموات، تقرحت فيه العيونُ وبحّت الأصوات، وفيهنّ المسفرة والمتقنعة، والمضطجعة والمتربعة، والحاسرة عن الذراع والرأس، وأختها تُفلّيها فى وهَجَ الشمس، ومنهن الكاشفة عن ثديَيها، تُرضِع طفلاً على يديها، وغيرُها ترضع طفلين فى حذاء، وزوجُها يضرب رأسها بالحذاء، وأخرى آخذة بضفيرة ضَرّتها، ورضيعُها يتلهف على ضَرّتها، ومِنْ بينهنّ مَنْ يتقدّمها طليقُها، ويتبعها عشيقُها، تشيّع الأولَ باللعنِ والسباب، وتغمز الثانى بكفٍّ مزدانةٍ بالخضاب، ورأينا العقيلة المخدَّرة مع «الأغا»، لا يستطيع أن يحميها فى حومة هذا الوغى؛ وشاهَدْنا فى الجمع جماعةً من فُجّار الخلعاء، وتُبّاع النساء، يغازلون كل غانية هيفاء، ويغامزون كل غادة غيْدَاء[1]، ويتعرضون لفضّ النزاع، بين ذوات القناع، وفصلِ العناد والشقاق، بين الطاعنات بالأحداق، فتختلط غمزَاتُ الطرْف، بهمزَات الكف، فيزول ما هنالك

(١) الغيداء: المرأة المتثنية لينا.

من الجدال والخصام ، ويصيرون جميعاً إلى الحسنى والرقيق من الكلام ؛ ورأينا فيما رأينا من غرائب البشاعة ، وعجائب الشناعة ، رجلاً وامرأةً يتسابقانِ فى ألفاظ الفُحش والهُجْر[1] ويتباذآنِ فى أقوال البذاءة والنكر ، وهما يتجاذبان فى أيديهما غلاما ، كأنما يحاولان له اقتساما ، ليأخذ كلٌّ منهما من أعضائه بنصيب ، والغلامُ يبكى من شدة الألم والتعذيب ، فاستعذنا بالله السميع العليم ، من موقف هـذا الجحيم ، وسمعنا من أفظع ما سمعناه امرأة تنتحِب وتقول ، وتقابهـا بماء العين مطلول : « لو كان للنساء قضاة من النساء ، لما وَصلْنَا إلى هذه الحالة التعساء ، فان الرجال يميلون لجنس الرجال ، ويتفاصرون لبعضهم على ذوات الحجال » ، فاستعذنا برب المثانى[2] ، وصعدنا فى السلّم الثانى ، فاذا هو كالأول يتموّج بالناس كبيوت النمل ، أو خلايا النحل ، وانتهينا منه إلى قاعة ، ممتلئةٍ بصنوف الباعة ، هذا يصيح : « الخبزَ والجبن » ، وذاك ينادى : « الدخان والبن » ، وآخـرُ يقول : « الزبدةَ والعسل » ، وبعضهم يردد : « الفول والبصل » وبائعُ الضأنِ يفتتُ بسكينهِ جماجم الرومس ، والثلاجُ يُصَفق بأكواز « العرقسوس » ، وهناك « قهوة » يدب فيهـا الشهود بالعشرات ، كدبيب الحشرات ، فيعرضون أنفسهم على الخصوم ، للشهادة أو التزكية بأجر معلوم ، وغلمان المحامين يروحون بين الجموع ويغدون ، فيمكرون بهم ويكيدون ، ويتقلبون بين الخصوم ويحتالون ، فيخدعون ويغتالون ؛ ودخلنا حجرةً صغيرة من حُجُرات الـكتّاب ، فثار فى وجهنا ما على أطباق الباعة من جيش الذباب ، فرجعنا على الأعقاب ، ونجونا من الأوصاب ، ثم انحدرنا مع غلام المحامى إلى حجرة كبيرة الساحة ، فقال اجلسوا هنا للاستراحة ، فأجلسنا فى صدر المـكان ، بين الـكتبة والغلمان ، ولا بد لكل كاتب هناك من غلام ، يقوم مقامه فى تدوين الأحكام ، فسمعتُ الـكاتب الجالس عن اليمين ، يُقسِم على أقواله بكل يمين ، بأنه لولا اعتراض مركبات الـكهرباء وضيق الميدان ، لما تأخر حمارهُ عن حمار فلان ، وسمعت صاحبه بجانبه ، يحلف بجدّه وأعزّ أقاربه ، أنه لولا حبسه للعنان ، لَسَبق كل الحمير فى يوم الرهان ، ويقول له ، وهو يتلفف فى العباء : « قد بلغنا عن الأجداد والآباء ، أنه إذا صحّت الشمرةُ الخضراء ، لم يتعلق بذيل الحمار

(١) الهجر : القبيح من الـكلام . (٢) المثانى : آيات القرآن .

الهواء » ، ثم التفت ذات الشمال ، فوجدت كاتباً منهم غض الشباب ، عظيم التأنق فى لبس الثياب ، فهو يتلألأ ويتألق ، فى سندس وإستبرَق ، كأنما خاطوا له قباء من أزهار بستان ، مختلفةِ الأشكال والألوان ، يُفعِم الأنوفَ بِعطره ، ويُعبق الجو بنشره ، وأمامه رجل فى يده صرة ثياب ينشرها ويطويها ، فيأخذها « السيد » منه ويرميها ، ويقول له فى حدَّته وشدة سَوْرته :

(السيد) — هذه ثياب لا أرضاها ولا أقبلها ، وبئس المفصّلُ مفصّلها .

(الخياط) — كيف ترى ذلك أيها السيد ، وأنا أقسم لك بالقرآن المجيد ، إنها أوسع من ثياب السيدَين عبد العزيز وعبد الحميد .

(السيد) — كذبتَ وربِّ الكعبة ، فإن استدارة الكم ضيقة ، والرقبة لا تنطبق على الزى الحاضر .

(الخياط) — وماذا أصنع ، وذلك كل ما فى عرض الحرير ، ولو كنا على الزى القديم لدَخَلَ مع السيد فى طَىِّ ثيابه : إثنان أو ثلاثةٌ من أصحابه .

(أحد أصحاب القضايا) — صبح الله السيد بالخير والإنعام .

(أحد الكتبة الظرفاء) منكتاً — لا ، بل بالخيل والأنعام .

(صاحب القضية) — أرجو سيدى أن يعطينى «الإعلام» .

(السيد) — اذهب حتى يأتى الغلام .

(الكاتب الظريف) مورّياً — عليك به فى شارع أمّ الغلام ، تجده جالساً نصّاً تحت الأعلام .

قال عيسى بن هشام : وعافت نفسى هذه النكت الباردة ، والمعانى الساقطة ، فأعرضتُ عن الإصغاء ، وسرحت طرفى فى بقية الأنحاء ، فرأيت الكتبة كلهم يتفاكهون ويتسامرون هذا يلتُّ فى يده أفيونه ، وذاك يكوّر بين أصابعه معجونه ، والغلمانُ يشتغلون تارة بأوراقهم ، وطوراً يتباحثون فى أذواقهم ، وأرباب الحاجات بين أيديهم يقاسون سوء الرد ، ومطل الوعد ، وسمعت أحد الكتبة يخاطب صاحبَ قضية ، بألفاظ بذية ، ويقول له : « كيف تعطى الغلام هذا المبلغ الزهيد ؟ أتظنه كان لك من العبيد ؟ أتريد أن يكتب لك ويتعب

(وهو لا أجرة لهُ فى المحكمة ولا مُرتب) بغير ربح ولا مكسب ؟ إنّ هذا لَمِنْ أعجب العجب ! » ، وجاء رسول القاضى يطلب أحد الكتبة الرؤساء ، فوجده راقداً كالنُّفَساء ، فبعضُهم أشار بتنبيهه من غفلته ، وقال بعضهم : لا بل اتركوه فى رقدته، أنَسيتم حكم عادته، بأنه لا يُفيق من غفوته ، قبل أن يسيل الأفيون مع الدم فى دورته ، ثم اتفق معهم الرسول على أن يرجع فيقول : « إننى لم أجد الشيخ مكانه ، وعلمتُ أنه نزل إلى الدفترخانة » ؛ ثم استيقظ الراقد بعد مدة ، فتثاءب وتمطّى ، ثم تدثر وتغطى، ثم عاد إلى ما كان فيهِ من السُّبات ، وهو ينشد للمعرّى من أبيات :

وفضيلةُ النوم الخروجُ بأهلِهِ عن عالَمٍ هو بالأذى مجبولُ

ثم جاءه بائع كتب وأوراق ، فصاح به حتى أفاق ، وقام بعون الله وحوله ، يخاطب البائع بقوله :

(الكاتب) — هل أحضرتَ ما طلبتهُ من الكتب ؟

(البائع) — نعم جئتك بكتب قديمة ، لا تقدر لها قيمة ، منها كتاب « حل الرموز . لفتح الكنوز » ، ومنها «أصول المراسم ، فى فك الطلاسم » ، ومنها « حسنُ إرشاد الناس فى استخراج الذهب من النحاس » ومنها « القول المأثور ، فى تأثير البخُور » ، ومنها . .

(الكاتب) — ألم تعثرْ لى على كتاب فى (الاستحضار) ؟

(البائع) — نعم معى كتابان : أحدُهما «قلائدُ اللؤلؤ والمرجان ، فى استحضار الجان» والآخر « خير المواقيت ، لرؤية العفاريت » .

(الكاتب) — بارك الله فيك وجزاك خيراً ، فإن عندى نسخة محرفة من هذا الكتاب الأخير ، فاصحبْنى إلى البيت لنقابلها ونصحّحها .

قال عيسى بن هشام : وقام هذا الكاتب مع البائع ، وأقمت أسخط على هذا الجهل الشائع ، والعمل الضائع؛ و بينا أنا كذلك إذ أشار علينا غلام المحامى بالقيام ، فقد آن نظر قضيتنا ، فخرجنا فوقفنا عند باب الحجرة التى تنعقد فيها الجلسة ، فرأينا الزحام خارجَها وداخلَها على أشد حالاته ، وسمعنا الحاجب ينادى تارةً بصوت عال ، وتارة بصوت منخفض ، فسألتُ

الغلام عن ذلك ، فقال إنه يخفض الصوت حتى لا يسمع أربابُ الدعاوى النداء ، فتسقط القضية ، وهو من باب الشفقة والحنو بالمدعى عليه ، وفوق ذلك فإن للحجَّاب أن يُدخلوا الجلسة من أرادوا ، ويحجبوا عنها من أرادوا ؛ ثم نودىَ علينا ، فدخلنا مع شهود المعرفة الذين استحضرهم الغلام لنا ، فوجدنا الجلسة مؤلفة من ثلاثة أعضاء برئيسهم ، وهم جلوس كل واحد منهم بمعزل عن الآخر ، وقد تعسر علىّ أن أفهم كلام الباشا ، وهو بجانبى يخاطبنى ، لشدة الضوضاء وعلو الأصوات ؛ ثم دخل كاتب الجلسة يرقص فى مشيته ، وكأنهُ الطاووس فى هيئته ، فجلس ووقفت عنده بحيث أبصر ما يسطره ، فوجدته قد تناول القلم بأطراف بنانه ، يضعه فى الدواة تارة ، ويضعه فى أذنه أخرى ، ثم يلهو بتفقد ثيابه ، ويشتغل بلمس الإبر التى تتشبك بها العمامة ، ثم ابتدأوا فى سماع القضية ، وتقدَّم الباشا مع الشهود ، فلم أسمع شيئاً مما قالوه أوقيل لهم ، لكثرة الجلبة والصياح ، وإنما رأيت الكاتب يكتب فى دفتر الضبط — وكأنما يكتب من عنده — ما أنقله بحرفه وهو :

« استحضرَ أمام الجلسة المدعى والمحامى والشهود، فتقدم المدعى وعرّف أنه فلان بن فلان بن فلان ، وسمَّى شاهدىْ معرفته ، وهما فلان بن فلان بن فلان ، وفلان بن فلان ابن فلان ، الساكنان بالجهة الفلانية شياخة فلان بن فلان بن فلان ، وشهد كل منهما على انفراده بأنه يعرف المدعى المذكور ، وأشار إليه بيده ، وهو فلان بن فلان بن فلان المذكور ، ثم قال المدعى المذكور إن لى قِبَل فلان بن فلان بن فلان دعوى نظر على وقف ومعى مستند دعواى والمدعى عليه لم يحضر مع استلامه علم الطلب المحدد له فيه الحضور فى هذه الجلسة » .

ثم أمرت المحكمة بانصرافنا للمداولة والنظر فى المستند ، فوقفنا ناحيةً من الحجرة ننتظر مع من ينتظر ، ثم نودىَ علينا بعد مدة ، فقالوا لنا إن المحكمة تعلمنا بمضمون المادة ٧٢ من اللائحة ، وهى تقضى — على ما أخبرنا به المحامى — بالإعذار إلى المدعى عليه ، وقال لا بد أن نطلب ذلك من المحكمة ، لأنه لا يسوغ لها أن تُعذر إلاّ بناء على طلب المحامى ، فتقرر إصدار الإعذار ، والله يكفيك شرَّ ما فى هذه الدار ، من الأقضية والأقدار ، وكثرة الهموم والأكدار .

قصر حفيـــد الباشـا

قال عيسى بن هشام : ودخلنا — لا أدخل الله عليك طوارقَ النقم ، ولا أخرجك من طرائق النعم — فى دَوْر الإنذار يتبعه الإنذار ، والاعذار يتلوه الإعذار ، ومندوبُ المحكمة يعود إلينا بالخيبة ، فى كل أَوْبة ، زاعماً أن خدم الخصم لا يقابلونه إلا بالازدراء ، كغيرهم من خَوَلِ أبناء الأمراء ، حتى وصلنا إلى حد الإعذار الأخير ، ورَمَينا المندوبَ بالإهمال والتقصير ، فرأينا أن نخبُرخبره ، ونقتفى أثره ، ونتحقق بأنفسنا كيف يتسع الذرع ، للاستخفاف برسول الشرع ، فسرنا وراء المندوب ومعه الشاهدان ، يشهدانِ بأنه أعذر فلان بن فلان بن فلان ، وقد أمسك الواحد منهم بكتف الآخر ، على هيئة تستفز كلَّ هازئٍ وساخر ، وكلٌ منهم يخدّ الأرض بحذائه ، ثم يُعفّى الأثر بفضل ردائه ، وهم ينتقلون فى المشى من التّمِيل إلى الرسِيم إلى الوخيد[1] ، كأنهم مسرعون إلى جفنة ثريد ، ونحن من خلفهم نخبّ ونُهرول ، ونُحَسبِلُ ونحوقل ، إلى أن كادوا يغيبون عن البصر ، وكدنا نفقد منهم الأثر ، لولا أن عثر أحدهم بقضبان مركبات الكهرباء ، فطاحت العمامةُ وانفلتَ الحذاء ، فانفتل يلتمسها ويلتمسه ، فلم يَرُعْهُ إلاّ السائق وجرسهُ ؛ فما تحرك ولا انتقل ، حتى أدركته العَجل ، وكاد يداس ويُقضَى عليه ، لولا أن جذبه رفيقهُ إليه ، فحيل بين الرجل، وبين عمامتهِ ونعلهِ ، ووقف مخبولاً لا برأسهِ ولا برجله ، وهو يستنجد لهما ويستغيث فلا يغاث ، حتى مرت عليهما المركبات الثلاث ، فأدركناه وهو ممتقع اللون من اليأس والوجَل ، فبشرناه بسلامتهما ، فاعتمّ بهما وانتعل ، وحمِدَ الله على هذا اللطف فى القضاء ، وحمِدناه على ما أتيح من التعويق والإبطاء، إذ تمكنا من اللحاق بهم ، وقدرنا على استئناف السير فى عقبِهم .

وقد انتهى السير بنا إلى قصر فى سُرة بستان ، يُزرِى فى الحسن بقصور بغداد وغُمدان ،

(١) التميل والرسيم والوخيد : ضروب من السير .

وقد ترصع البستان بأنواع الأزاهر ، كأنه محلّى بصنوف اليواقيت والجواهر ، والقصرُ فى وسطها كأنه الدرة البيضاء ، أو البدر بين نجوم السماء :

كأنه جيــــــدٌ وبستانهُ   مِنْ حولهِ عِقدٌ بديع النظامْ

وما عساى أقول فى وصف روض ، قد نسجته يد الأرض ، لتزدان به يوم عيدها ويوم زينتها ، وتمنمتهُ رداء لها تختال بهِ فى حسن رونقها وبهجتها :

مُؤزَّرة من صَنعةِ الوَبْلِ والنَدَى   بِوَشْيٍ ولا وشيٌ وعَصْبٍ ولا عَصب[1]

قد أغنى الغوانى نسيمهُ العليل ، عن المسك الأذفر ، وكفاها ريحهُ البليل ، تعطُّرَها بالطيب والعنبر :

بغرسٍ كأبكارِ الجوارى وتُربةٍ   كأن ثراها ماء وَردٍ على مسكِ

ومُنى العرائس أن لو اتخذت من نوّار الأزهار فصوصاً للخواتم ، ومن أكمام الأشجار معاقدَ للتمائم ، وودُّها أن لو تأزرت من سندس أرضه بأبهى إزارٍ ومِرْط[2] ، وتحلت من جوهر نباته بأزهى شنْف وقرْط :

إذا ما النَّدَى وافاهُ صبحاً تمايلت   أعاليهِ من درٍّ نثيرٍ وجوهرِ

إذا قابلتهُ الشمسُ ردَّ ضياءها   عليها صِقَالُ الأقحوانِ المنوّرِ

وقامت فيه مثمراتُ الأغصان قيام الكواعب الأتراب، ساقياتٍ بالأباريق والأكواب، ساكباتٍ سؤرَ الطل من تلك الأقداح ، مائساتٍ من رحيق الندى ومداعبةِ الرياح :

شقائقُ يحملن النَّدَى فكأنهُ   دموعُ التَّصابى فى خدود الخرائد

فما تخيلنا فى هذا الروض مذ رأيناه إلا أننا فى حفلة عُرس ، جمعت أسباب اللهو وأطرافَ الأنس ، قد نَصبَ الغيم عليها سُرادقَه ، ومدَّ مُلتفُّ النبات فيها نمارقه[3] ، وأشرقتْ فى الأغصان الأنوار ، إشراق المصابيح بالأنوار ، وقامت الأطيار على الأعواد

(١) العصب : ضرب من البرود   (٢) المرط : كساء من خز يؤتزر به .
(٣) النمرق : الوسادة

تسابق فى الترنم والإنشاد ، فهى تغرّد بألحان يقطع السامع لها حبل النفس ، ويأنس إليها مستنفرُ الوحش المفترِس :

رأتْ زَهراً غضًّا فهاجتْ بمِزْهَرٍ[1] مَثَانيهِ أحشاءٌ لطفْنَ وأوصال

وللنسيم بين الشجر نغماتٌ بالهفيف والخفيف ، من ثقيلٍ فى الضرب أو خفيف ، تصفّق لها أكفُّ الأوراق ، وتقوم الأفنان للرقص على ساق ، مترنحة الأعطاف من خمر الندَى ، مهتزة القدود بغمز الصَّبا ، تبسم عن أقاحٍ نضيد ، يزرِى بثنايا الغيد ، ثم تميل برشيق القوام ، فتلتقط ما ينقطها به الغمام ، والجدولُ يجرى تحت أذيالها ويتعثر ، وينساب الماء فى ظلالها ويتكسر ، كأنّ حصباءه اللؤلؤ والمرجان ، فى نحور الحسان ، أو قلائدُ العقيان ، فى أجياد القيان :

تَرُوعُ حَصَاهُ حاليةَ المذَارَى فتلْمِسُ جانبَ العِقْـدِ النَّظِيمِ

ولمَّا مُلئنا من هذه الجنة طَرَبا ، وقضينا عجَبًا ، قلنا ما شاء الله لا قوّة إلا بالله ، ما أعجز الخلق عن شكر نُعماه ، و إذا بقومٍ عند باب القصر ، كأنهم أفراخ فى مِخاب صقر ، تعلو وجوهَهم قترة ، ترْهقها غَبرة ، وهم بين باكٍ ومنتحِب ، وصارخٍ ومصطخب ، فتفرستُ فى هيئاتهم ، وهم يذكرون حاجاتهم ، فإذا هم جميعاً فى يأس وقنوط ، وخيبةٍ وحبوط ، وإذا الصيرفىُّ يقول ، بصوت المقهور المخذول :

(الصيرفىّ) — تعساً لى لقد ضاع مالى ، وذهبت آمالى .

(التاجر) — و بؤساً لى لو كنت أعلم بهذا المآل ، لم أقم فى تلك الحبال .

(البائع) — يا ويح نفسى اغتررتُ بالمقام العالى ، فخسرت رزق عيالى .

(الجوهرى) — ويلٌ لمن خدعَتْهُ الظواهر ، فضاعت عليه الجواهر .

(الصيدلانىّ) — أقسمتُ لا يضيع عنده ثمن الدواء ، ولو تعلق بأطراف السماء .

(الخمّار) — تبًّا له من محتالٍ مالَ على دَنِّى ، ثم اختفى عن عينى .

---

(١) المزهر : العود

(القصّاب) — أنا لايضيع عنده حق ، ولو وضعوا السكين على حلق .

(الخياط) — وأنا لا أترك هذا الباب ، حتى أمزق ما عليه من الثياب .

(الإسكاف) — ورأس أبيه وجده ، لآخذن ثمن الأحذية من جلده .

(الحلاق) — أنا ابن جلاَ وطلاع الثنايا ، وكم لصنعتى من منافع ومزايا ، وليتنى كنت شوّهت خلقته ، ومسخت سحنته ، فنتفتُ شاربه ، وحلقت حاجبه ، تالله لآخذن بناصيتىْ هذا الثقيل البارد ، ولأسدّنّ عليه المصادر والموارد ، ولألزمنّه صباحَ مَساء ، ولو حلّق فى الهواء .

كل هذا والخدمُ يكتمون وجودَ صاحب الدار ويُقسمون أنهُ لم يبق لديه درهمٌ ولادينار ، وإذا همّ أحدُ الغُرَماء بالدخول مَنَعُوه ، أو دافَعَهُم أحدهم دفعوه ؛ وبينما نحن نتأمل ونتعجب ، ونتقلّى على الجمر ونتقلب ، ونقابل بين سعد المكان ، ونحس السكان ، إذا برجل افرنجىّ قد خرج من بيت الحرم ، وهو يلتهف غيظاً ويضطرم ، ويقول للبواب برطانته ، وسوء عبارته : لقد طالبتهُ فأبان الافلاسَ والعجز ، فلم يبق إلا توقيع الحجز ، وإليك قائمة البيان ، وحذارِ من التلف والنقصان ؛ وما كاد « مُحضر المختلطة » ينتهى ويذهب ، حتى حضر « مُحضر الأهلية » يلهث من التعب ، فسلم البوابَ ورقةَ إنذار ، فأخذها وهو يدعو بالثبور والدّمار ؛ وبعقِبِ ذلك انصرف المحضر ، وتبِعه جميعُ مَنْ حضر ، لاشتداد حرّ الظهيرة وأُوارِها[1] ، ولَفحِ الشمس للوجوه بنارها ، فانتهزنا هذه الفرصة ، فتحرك مندوبُنا وتقدم ، وخاطب البواب وهو يتلعثم ؛ فقال له : أنا مندوب المحكمة الشرعية . فقال له : لم يكن ينقصنا إلا هذه البلية . ثم دفعه فى صدره ، فردّهُ إلينا بظهره ، بعد أن أخرجناَ من الجنان ، وأغلق باب البستان ؛ فأخذ المندوب بيد الشاهديْنِ ، وهو يتظلم ويتضرر ، ووقف بينهما ينادى فى الهواء بالنداء المقرّر :

« يافلان بن فلان إن مولانا قاضى مصر يأمرك بأن تحضر إلى المحكمة فى يوم الخميس الآتى للنظر فى دعوى اغتصاب الوقف الموجهة عليك من قبل فلان بن فلان

---

(١) الأوار . حر الشمس والنار واللهب .

ابن فلان ، وإن لم تحضر فى اليوم المذكور يُنْصبْ عنك وكيلا ويسمعِ الدعوى فى وجههِ ويحكمْ عليك غيابياً . »

ثم وَدّعْنا المندوبَ والشاهدين ، وانصرفوا إلى سبيلهم ، وبقيت أنا والباشا فى دهشة وذهول ، وحزن وأسف ، مما رأينا وسمعنا ، ثم استند الباشا إلى سور البستان ، وشَرَع يقول لى ، وهو فى تأمله وتفكره :

(الباشا) — ما زالت بواطن الأمور ، وحقائق الأشياء ، تتجلى لى على وجهها ، منذ غمرنى الدهر فى هذه المشكلات والخطوب ، حتى تحققتُ اليوم بأن أمور هذه الدنيا إنما تجرى كلها على التضليل والبهتان ، وتدور على التمويه والبطلان ، وتنطوى على الغش والتدليس ، فبالله عليك مَنْ ذا الذى يرى هذا القصر بزينته وبهجتهِ وخدمهِ وحشمهِ ، ولا يتولاه الحسدُ لساكنيهِ ، والتطلعُ إلى حسن حظهم ، وسعادةِ عيشهم ، ثم يرجع إلى نفسه فيسخط على حظه من الدنيا ، ويندب نصيبَه من الحياة ، وسوء قسمته فى العالم ! !

(عيسى بن هشام) — لا زلتَ ترى الحق ، وتقول الصدق بما يتسع لك من سبيل الهداية والحكمة ، نعم إن جُـلّ من تراهم من المنعّمين المترفين ، والأغنياء الموسرين ، لو كشفتَ عن باطن أمرهم ، وحقيقة أحوالهم ، وخبايا معيشتهم من وراء الجدران ، لوقفتَ على ما يوجب الأسى والأسف ، ويدعو إلى الرحمة والشفقة ، لا ما يدفع إلى الحسد والغبطة ، ولأيقنتَ أن الرجل الأجير ، الذى يستخرج قوت يومه منغمساً بعرق جبينه ، هو أسعد منهم حالا وأنعم بالاً . والغالب أنهُ كلما كان مظهر العيش زاهياً زاهراً ، كان باطنُهُ مُقتما مظلماً ، وأشدُّ ما يكون من البلاء على أهل هذه الطبقة أنهم يقضون أوقات حياتهم فى الظهور بين الناس على أغرب حالات التصنع ، فيكون الواحد منهم غريقاً فى بحور الهموم والأكدار ، وتراه يقسم نفسه بين الملأ على التظاهر بالسرور والانشراح ، وأكثر ما يكون فى الضيق والإفلاس ، تراه يتعرض للتبذير والإنفاق ، فهو على الدوام

يتقلب بين الضيقين : ضيقِ العيش ، وضيق النفس ، وإن كان عظيم الثروة ، كثير الغنى ، فإنه لاغنى مع ازدياد الحاجات ، ولا مال يكفى مع تجدد الرغبات .

(الباشا) — قد كانت الحال فى أيامنا على العكس ، إن كان لايسرك الرجل ظاهر حاله ، فإنه يرضيك باطن أمره ، وربما كان يجتهد فى التظاهر بلباس الفقر إذا بلغ حدّ الغنى ، ويُبدى الشكوى إذا أسرّ الرضى .

قال عيسى بن هشام : وقضينا مدة فى مثل هذا الحديث ، وأنا متهلل مستبشر بما أراه ينمو ويثمر فى نفس الباشا من التعلق بالمباحث العقلية ، والتعمق فى معرفة الأخلاق النفسانية ، حتى صار من دَيْدَنِهِ أن يستنبط من كل حادثة يشاهدها مايرتقى بهِ إلى علم الفضيلة والحكمة ، وازددتُ يقيناً بأن الرجل المرتفع القدر لايزال غرًّا بالأمور ، غافلاً عن حقائق الأشياء ، فإذا وقع فى أشراك الخطوب استنارت بصيرته ، واستضاءت قريحتهُ ، وعَلِمَ بطلان ما كان فيه بحقيقة ما وصل إليه .

ثم حانت منا التفاتة إلى ماوراء السور ، فرأينا خدم البيت وحشمَه قد اجتمعوا حَلَقةً وهم يتحاورون ويتجادلون ، فسمعنا البواب يبتدئْ فيقول :

(البواب) — ليت أمى لم تلدنى ، وليت أبى لَم يعلمنى رسم الخط ، فقد كَلَّتْ يدى وَحفِيَ قلمى من طول التوقيع بالاستلام على الإنذارات والمحاضر ، فقلما يمضى يوم إلاّ ولى فيهِ من التوقيعات ماليس لرئيس قلمٍ فى ديوان ، فبئست المعيشة معيشتى ، وبئس الحظ حظى ، وليتنى كنت قادراً على الانضمام إلى صف هؤلاء المطالبين والغُرَماء ، فأخلص بجزء من أجرة الشهور المتراكمة ، ومَنْ لى بالتباعد عن هذا البيت الذى انتشر فيه جراد الحجز ، وأزعجتْ مَنْ فيهِ أصواتُ الغرماء ، وأزعجنى ترددُ المحضرين على صندوق ثيابى .

(الكاتب) — لست أدرى والله ما يصنع صاحب البيت ، وماذا يحتال لحالته ، وكيف لنا بالمعيشة معه ، ولم يبق عنده كثير ولا قليل ، وإن صَدَقَ ظنى كانت عاقبته من أقبح ما تتصورونه فى سوء العواقب ، فقد أحسست من كثرة حركته واضطرابه فى هذه الأيام أنه يدبر لنفسه أسوأ تدبير للخلاص من ضيقهِ ، ليختم أمرَهُ بأقبح الخواتم ،

ويعلم الله أنه لولا ما ألتقطه فى أشغاله من هنا ومن هناك ، لَمَا تيسر لى القيام بقوت عيالى بعد أن انقطعت عنا أجور الشهور ، وقد دعانى هذا الأمير أمس وأعطانى خاتماً من الياقوت لأبيعه ، فذهبت به إلى الجوهرى الذى كنا اشتريناه منه بأكثر من مائة جنيه ، فلم يدفع لى فيه إلا خمسة وعشرين ، فبعتهُ إياه وعُدت للأمير بالدراهم ، فكأنما فككتُ الأسيرَ من القيد ، وأنقذت الغريق من اللجّ .

(الوصيف) — الآن انحلّ ما كان مشكلاً ، وانكشف لى ما كان غامضاً ، فإنى رأيت معه أمس ذهباً كثيراً ، لم أهتدِ إلى مورده ، أعطانى منه عشرة جنيهات ، وأمرنى أن أبتاع من أخيه هذا الكلب الذى ترونه مُولَعاً بملاعبته منذ الصباح .

(الفراش) — وأنا اشتريت له من صهره تلك الببغاء بخمسة جنيهات ، وأخذتُ له غرفة فى « تياترو الأوبرا » بثلاثة ، وزجاجة عطر باثنين .

(الكاتب) — فعلى هذا لم يبق معه إلاَّ خمسة جنيهات ، ولا بد أن أبادر فى الحال لمطالبته بإنجاز الوعد الذى وعدتهُ لصاحب الجريدة المعلومة ، حتى يسكت عنه ، ويكفّ عن التعرض لهُ .

(السائق) — وأنا أذهب إليه أيضاً لآخذ منه ثمن الريش والإسفنج الذى وعدنى به ، ما دام معه من الدراهم بقية .

(الخصىّ) — إنكم لفى نعمة وغبطة بما تنالونه من وراء هذا البيع وهذا الشراء من الربح ، لكن غيركم من الخدم فى الحرم قد اقتنعوا من العيش بيسير الأكل والشرب من غير أجر ، وصبرنا على هذه الحال وفاء بالعهد لأهل البيت ، وياليت هذه النعمة تدوم ، فقد سمعتم اليوم وَعيد حضرة البك الجزار ، كما سمعتم أمس بإنذار البك الخباز .

(السقّاء) — ما أظن أن لنا حيلة نلجأ إليها فى آخر الأمر إلا أن نطلب منه إحالة أرزاقنا على ريع الوقف الذى سَلِم وحده من الحجز .

(البواب) — لقد خاب ظنك وضاع أملك ، فإن هذا الوقف الذى كنا نرتكن عليه

قد دخل فى دور القضايا والدعاوى ، وجاء اليوم مندوب المحكمة الشرعية بالإعذار الأخير، ومَنْ يعلم ماذا يكون من أمره .

وسمعنا الجرس يدق من جانب الحرم ، فتشتت الجمع نحو المطبخ لحلول وقت الغداء ، فانصرفنا من موقفنا واكتفينا بما شهدنا .

قال عيسى بن هشام : وحلّ اليوم الموعود لجلستنا فى المحكمة الشرعية ، فتوجهنا إليها ، ولم يحضر المدعى عليه كعادته . ولما فُتحت الجلسة تقدمنا إليها ، وشهد أمامها شهود المعرفة ، ثم اطّلع الأعضاء على الإعذارات الثلاثة ، فوجدوها جامعة للشروط المقررة ، فأمروا بأن يُنْصَب للمدعى عليه وكيل ، يكون موثوقاً بأمانته ، معروفاً بالمحافظة على حقوق الغائبين ، فاختاروا من اختاروه ، وكلفوه شرح دعواه مكان المدعى عليه ، ثم أخذ محامينا ينظر فى صورة الوقفية التى استخرجناها من الدفترخانة ليعدّد الأعيان ، فلم يجد فيها جميع ما عددناه لهُ ، بل وجد منها جزءاً قليلا لا يقوم بالتعب فى إقامة القضية، وخَشِىَ أن المحكمة لا تحكم لنا بغير المبيَّن فى « الصورة » من العقار ، فتضيع علينا بقية الحقوق ، فطلب من الجلسة تأجيل سماع الدعوى زمناً يتمكن فيه من البحث عن بقية تلك الأعيان الموقوفة ، فوافقهُ الوكيل المنصوب للغائب ، فتأجلت القضية إلى بعد الفسحة القضائية من العام .

وخرجنا من الجلسة مع المحامى ، وقد فُتح له ولغلامهِ باب احتيال جديد ، ولما سألناه عن المظانّ التى تُنبئنا عن بقية أعيان الوقف ، تلكأ فى الجواب ، ثم أحالنا على الغلام ، وتركَنَا معهُ وانصرف . فقال لنا الغلام : لا مظنة عندنا غير ديوان الأوقاف ، لأنه يوجد بهذا الديوان سجلات تسجل فيها مثل هذه الأعيان ، وطلب منا أن نتفق معه على أجر معلوم للسعى وراء هذا الغرض ، فوافقنا على هذا المطلب الجديد ، والله يفعل بنا ما يريد .

الطب والأطبـــاء

قال عيسى بن هشام : ولما حال أمرُنا من المحكمة إلى الأوقاف، وعَلِمَ الباشا بما هنالك من قلة الإنصاف ، وأنه لا بدّ لنا من أن نطيل الالتماس والرجاء ، ونكرر الدعاء والنداء ، ونكثر من الغدوّ والرواح ، فى كل مساء وصباح ، فَنُبْلى فى هذا الديوان جِدّة الزمن ، ونقف عليه وقوف العاشق على الدِّمَن ، لما هو مستفيض من اختلال أعماله ، واعتلال عماله ، وفساد إدارته ، وسوء نظارته ، نزَل به من الهم والغمّ ما أورثه الضَّنَى والسَّقم ، وحلّ به من الحزن والكمد ، ما أخلّ بنظام الجسد ، فغدا هزيلا نحيلاً ، ووقع مريضاً عليلاً ، فأشرتُ عليه بالطبيب ، قال : يخطىء ولا يصيب ، وماذا يجدى العلاج وما يفيد، وللآجال توقيت وتحديد ، فأقنعته بأن الاعتقاد بتحديد الأجل ، لا يمنع من مداواة العلل ، وسبحان من أرشدنا إلى الدواء، عند حلول الداء ، لالتماس الشفاء ، فقبل إشارتى بعد طول الإباء ، فجئت له بأحد الأطباء ، من ذوى الشهرة بالبراعة ، فى ممارسة الصناعة ، فجلس بجانبه يجسُّ نبضهُ ، ويقرع صدره ، ثم استلم قلبه وولاه ظهره ، وأخذ يرقم أصناف العلاج ، بيدٍ دائمة الاختلاج ، ثم قال : دونكم هذا الدواء ، جرعة فى الصباح وأخرى فى المساء ، ولا تأخذوه إلا من صيدلية فلان فإنه صادق مؤتمن ، لا يغش فى التركيب ولا يُغلى فى الثمن ، ثم وقف عند المرآة يُسوِّى مفرِق شعره ، ويصقل ما استطال من ظفره ، ويرسل اللحظات تباعاً نحو الباب بنظر مستراب ، كأنه يريد أن يستشفّ ما وراء الحجاب ، من آنسة فى الخدر أو كعاب ، ولما أعوزهُ ما تفقّده ، طلب أن يغسل يده، وقال إنى أرى حالة المريض شديدة ، تقضى بعيادته أياماً عديدة ، حتى ينتهى المرض من شدته، ويتلطف من حدته

ومضت مدة والطبيب يذهب ويعود ، ودرجة الحرارة لا تفتأ فى صعود ، والمريضُ يهذِى فى شدة حُمّاه ، وأنا أتضرع وَارُحْماه ، حتى كدت أيأس من الشفاء ، وأُسلّم لحكم القضاء ، ولكن زارنى أحد الأصدقاء ، ممن يولعون بالطب والأطباء ، فقال لى وهو يبصر حالته : مَن الطبيب الذى يعالج علته ؟ فقلت : هو الشهير فلان ، قال لى : علمتُ السبب الآن ، وأنا أنصحك لا تعتمد فى الطب ، إلا على أطباء الغرب ، أولئك قوم قد برعوا

فى معرفة الأمراض ، وتشخيص الأعراض ، وأحاطوا بكل جليل وحقير ، من البسائط والعقاقير ، فالأدواء لا تستعصى فى أيديهم ، وليس بين الوطنيين من يماثلهم أو يدانيهم ، وأنا آتيك بمن هو فيهم أوسع معرفة وعلماً ، وأشهر صيتاً واسما ، وقام فعاد بأجنبى يهدُّ الأرض بخطواته ، ويُكثر من إشاراته ولفتاته ، فتقدم نحو المريض فجس ولمس ، ثم قطب وعبس ، ووضع طرف منديله على أنفه ، وقال لنا فى صلفه وعُنفه . إن هواء الغرفة فاسدٌ قتّال ، وداء المريض داء عضال ، ولا رجاء إلا باتباع إشارته ، فى تواتر زيارته ، ثم هزأ بما رآه من دواء الطبيب الأول ، بعد أن كتب علاجه بوصفٍ مطوّل ، وقال لا يُحسن تركيب هذه الأجزاء ، إلا صاحب « صيدلية الشفاء » . وما زال هذا الطبيب أيضاً يذهبُ ويحضُر ، والعلاجُ يتجدد ويتكرر ، والمريضُ يتألم ويتضجر ، والمرض باقٍ لا يتقدم ولا يتأخر ، حتى جاء فى خاطرى أن أجمع منهم جماعة للاستشارة والمداولة ، فنخلص من هذه المراوغة والمطاولة ، فلما اجتمعوا وقعوا فى الحجاج واللجاج ، ولم يتوافقوا على تشخيص الداء أو تقرير العلاج ، وأقام كل واحد منهم منفرداً برأيه ، لا يهتدى إلا بهديه ، وسمعت بينهم مَنْ يقول لرفيقه : لا ينبغى أن نوافق فلاناً فى تحقيقه ، كما أنه لم يوافقنا على رأينا فى الاستشارة الماضية ، وأنكر علينا جميع أدويتنا الشافية .

ثم خلفونى ونزلوا على الخلاف ، وإن كانوا اتفقوا فى تناول الأجرة عند الانصراف ، وكنت شاهدت بينهم طبيباً يُظهر نفورَه من طريقتهم ، ويجرى معهم على غير حالتهم ، فأرسلتُ فى أثره مَنْ دعاه ، وكاشفتهُ بأننى اخترته على سواه ، فقال لى : إن علة المريض بسيطة فيما أراه ، لا يجب فيها هذا الاختلاف والاشتباه ، ولعلها ناشئة عن انفعالات نفسانية ، من هموم فجائية ، فقلت له نعم : أصبتَ فى النظر ، ثم أخبرتهُ بجملة الخبر ، فقال . الآن تبيَّن أن معالجة الأطباء كانت بغير اهتداء ، ولا يلزم لعلاجه إلا الامتناع عن هذه المركبات ، والاكتفاء ببعض البسائط من النبات مع جودة الغذاء ، وتبديلِ الهواء ، فأيقنّا حينئذ بمهارته ، وسلّمنا لإشارته ، فلم يمض إلا بضعة أيام حتى انتقلنا من دَور السقم والاعتلال ، إلى دَور النقاهة والإبلال ، وجلس الباشا ذات يوم إلى الطبيب يشكره على حذقه وبراعته ، ويحاورنا فى الحديث على حسب عادته :

(الباشا) — كيف اهتديتَ أيها الطبيب إلى ما لم يهتدِ إليه سواك من الأطباء ، فأدركتَ سبب علتى ، وأحسنت تشخيص مرضى ، وأصبت فى اختيار العلاج ، فكان الشفاء ؟ لا شك عندى أنك نادرة عصرك ونابغة زمنك .

(الطبيب) — لا فضل لى يستحق كل هذا المدح والثناء ، والسبب فى خطأ الأطباء ، أن العدد الأعظم منهم يسيرون فى ممارسة صناعتهم على طريقة معيَّنة ودائرة محدودة قررتها العادة فيهم ، فهم لا يتخطَّونها ولا يتعدونها ، فترى كل واحد منهم يحصر فى ذهنه عدة أمراض معلومة ، وعلل معروفة ، فيطبّق عليها كل ما يراه من الأعراض التى تظهر له فى عامة المرضى — والأعراض تختلف وتشتبه — فيحكم بمعرفة الداء ، ويأمر بالدواء المعيَّن لذلك المرض المعيَّن ، بقطع النظر عن الفحص ، والتأمل فى حال المريض ، أو البحث والتدقيق فى معرفة الأسباب المادية والأدبية التى يرجع منشأ المرض إليها ، ولايكلف ذهنه التبصر أو التصرف على حال من الأحوال ، فيعيش فى أسر العادة ، وقيدِ الطريقة ، لا يعبأ بالبحث فى اختلاف الأمزجة ، وتباين الغرائز ، وتفاوتِ المعايش ، وتغاير القُوَى فى البُنى ، فلذلك يكثر منهم الخطأ ، ويقل الصواب .

(عيسى بن هشام) — كأنك تريد أنهم يكونون على مثل حال أهل الصناعات الآلية الذين يحل فيهم مجرى العادة محلَّ إعمال الفكر ، فتنطلق أيديهم على وجهٍ واحدٍ ، وتنصرف أفكارهم عن التصرف أو التفنن فى وجوه شتى .

(الطبيب) — نعم لقد أصبت فى التشبيه ، وغير ذلك فإن بين هؤلاء الأطباء مَنْ لا يرى فى صناعته إلا آلة لاجتلاب الرزق ، واصطياد الربح ، واستدرار الدرهم والدينار ، حتى يصلوا إلى اكتناز الأموال ، ويصبحوا فى مصافّ أهل الغنى والثراء ، لا يبالى أحدهم أىَّ باب طرَق ، ولا أىَّ سبيل قصدَ ، للتوصل إلى هذ الغرض المطلوب ، فكل الوسائط لديه مقبولة ، وكل الطرق عنده مسلوكة ، فهو يدخل على المريض طامعاً فى ماله ، لا طامعاً فى شفائه ، فيحتال له أنواع الحيل لتطول مدته فى المرض ، فيتسع نصيبه فى الأجرة ، فيعطيه من أصناف الأدوية مالاينفع ولا يضرّ ، أستغفر الله بل ما يضر ولا ينفع ، ليبقى المريضُ فى حاجة دائمة إلى تجدد العيادة والزيارة ، وفى كل مرة يصف له نوعاً حديثاً وصنفاً جديداً

من المركبات التى يعظم ثمنها بمقدار ما يقل نفعها ، وينفسح له بذلك طريق للكسب والربح فوق أجر العيادات ، يرصده له الصيدلى فى دفتر شركتهما ليقاسمه أرباح تلك الأثمان الفادحة لتلك الأدوية المتكررة ، فيضرب الطبيب فى صناعته بقدحين ، ويصيب فى الكسب بسهمين ، بعد أن يملأ جوف العليل من كل دواء ضار ، ويخلى كيسه من كل فضة ونضار.

ومن أولئك الأطباء من يجعل همه منصرفاً إلى الإبداع والتفنن ، فى وجوه التزيى والتزين ، ويسلك سبيل التصنع والتكلف ، فى أبواب التظرف والتلطف ، ثم يتفنن ما استطاع فى حسن المحاضرة ، ويتعمد رقة الحديث والمسامرة ، ويتقلب فى أساليب المؤانسة والمجاملة ، وأفانين المغامزة والمغازلة ، ليقيم له بين النساء بضاعة رائجة ، وسوقاً رابحة، فيحل من أهل الحرم محل الجليس المحبوب ، والأنيس المطلوب ، وينزل من ربات الخدور بمنزلة المُحِبّ المكرَم ، ويكون بين مقصورات القصور ، أكرم زائر فى أرحب منزل ، والنساء لا يعدمن العلات ، على العلات ، ولا تعوزهن العلل ، فى اختراع العلل ، لاسيما إن كانت دعوى المرض ، تدنى من نيل الغرض ، فيكون للطبيب بينهن زيارات وعيادات ، وروحات وغدوات ، والطبيب ، كما يعلم الناس ، مؤتمن الجانب ، يؤتمن فوق الأهل والأقارب ، تفتح أمامه الأبواب ، ويكشف من دونه الحجاب ، فترى له زيارات بين كل صباح ومساء ، تكتب له بوافر الأجر وسوء الجزاء : بوفر الأجر فى دفتر حسابه ، وبسوء الجزاء يوم عرضه وحسابه ، ومنهم من يتطلع إلى فوق ذلك ، فيطمع فى ثروة البيت بأكملها ، وفى حيازة الأموال بأجمعها ، فيديم التردد ، ويوالى العشرة ، ويحكم الصلة ، ويلحم الخلطة ، حتى إذا تأربت عقدة الحبل ، تم الاتفاق بينه وبين ربة البيت وصاحبة المتاع على التأهل بها ، لا التفات هناك إلى تفاوت الأقدار ، ولا عناية بوجود الكفاءة . فتصبح له حليلة ، بعد أن كانت خليلة ، وينتهى ما كان من أمر الداء والعلاج بما تم من أمر العقد والزواج .

(عيسى بن هشام) — الآن تبين لى ما كان على غامضاً ، واتضح ما كان مبهماً من أمر الطبيبين اللذين كانا يعالجان الباشا فى كثرة الزيارة ، وقلة نفع الدواء ، وشدة

التدقيق فى تعيين الصيدلية ، وطول استراق النظر لما وراء الحجاب .

(الطبيب) — أجل ، هذا هو حال بعض الأطباء ، مع الأعلاء وأشباه الأعلاء ، فأما حالهم مع الأصحاء وذوى السلامة من بعض الخلق ، فهو أعجب وأغرب ، وما يَعزُب عنك أن كثيراً من المُولَعين بسوء التقليد للغربيين ، والمتهالكين على حب التظاهر بمظهر الرّفه والترف ، يتغالون فى الاحتياط لأبدانهم ، ويبالغون فى التوقى لأجسامهم ، فينمو فيهم وسواس المرض والسقم ، فتراهم يتوجسون من كل أكلة شراً ، ويتوقعون من كل شربة ضراً ، ويتخيلون أن فى كل لقمة تخمة ، وفى كل جرعة غصة ، فلا يتناولون قدحاً من الماء ، أو يستنشقون نَفَساً من الهواء ، إلاّ وفى اعتقادهم أنه لا يخلو من كل هامّة سامّة ، أو جرثومة ضارّة ، ولا يزالون على هذه الحال ، حتى يمتنعوا عما فيه صلاح أبدانهم من المأكل والمشرب ، ويُبعدوا ما استطاعوا فى طرق الحِمية من غير علة ولا داء ، فيبدلوا بالماء الزلال الماء المعدنىّ ، ويهجروا الأغذية المناسبة لتركيب الجسم وقوام البدن إلى الأطعمة الغريبة عن أذواقهم المنافرة لنسيج أبدانهم ، فيضطرب نظام التركيب ، وتضعف البنية ، ويصبح كل واحد منهم جازماً بأن به داء دفيناً ، وما به من داء ، وعلةً كامنةً ، وما به من علة ، فيشكو أمره إلى الطبيب ، فيكون الطبيب حينئذٍ أسرع من وَهْمِهِ وخيالِهِ فى اختلاق علة له ، واختراعِ مرض ، دون أن يفحص أمره ، أو يبلو خبره ، فينزل به ما ينزل من بوائق الخوف والفزع ، ويُوالى عليه الطبيب ما يوالى من صنوف الخلاصات المعدنية ، والجواهر السامة ، والمركبات الحادة ، فيترصف على مائدته من ألوان العلاج والدواء أضعاف ما يترصص عليها من ألوان الطعام والغذاء ، ويتقيد المسكين بمعيشة لا تُناسب غريزة البنية ، ولا فطرة المولد ، ولا طبيعة الإقليم ، ولا توافق إلاّ مَنْ جمدتْ عروقُ آبائه تحت جليد لوندرة ، لا مَنْ ذابت مفاصل أجداده تحت هجير القاهرة ، فلا يلبث أن يأتى على ما بقى فى الجسم من قوةٍ ، وما فى البدن من صحة ، ويعيش ، إن عاش ، فى يد الطبيب حياً كميت ، ويكون بين الأموات والأحياء ، لا مِن هؤلاء ولا من هؤلاء ، إلى أن يلحدَ فى لحده ، شهيد طبيبه وقتيلَ يده ، وهناك يخلق بأهله أن يكتبوا بنجيع الدمع لا بِسوادِ المداد ،

ما كُتب على قبر عظيم من قدماء القواد: «لم تُمتنى قوةُ الأعداء، وإنما أهلكتنى قوة الأطباء»

ولقد سرى هذا البلاء فينا مَسرَى العادة ، فأصبحنا لا نرى فى جمهور مَنْ نراهم من المترفين المقلدين إلا شاكياً من ألم، أو متألماً من مرض ، فراجت سوق الطب ، وعظم عدد الأطباء ، وغدت حوانيت الصيادلة فى الأسواق أكثر عدداً من حوانيت الخبازين والقصّابين، وصار من متاع البيت وجهاز العروس صناديقُ الدواء وآنية العلاج، وقلّ أن تجد اليوم بيتاً خالياً من مريض ، ولا مجلساً ليس فيه من سقيم .

(عيسى بن هشام) — كأنك تحاول أيها الطبيب الآسِى أن تقنعنا بقوة البرهان، وجلىّ البيان ، أن لا فائدة من الطب ولا منفعة فى الأطباء .

(الطبيب) — حاشا لمثلك أن يشتبه عليه القصد ، أو أن يذهب بقولى خلاف مذهبه، وما قصدت بكلامى هذا كله إلا أن أظهر عيب بعض الأطباء فى ممارسة صناعتهم ، دون التعرض لصناعة الطب فى ذاتها ، على أنه يمكننى أن أضيف إلى ما قلتهُ ما قد قيل من قبل؛ وهو أن العلم علمان : علم تستنير به البصائر ، وتهتدى به العقول ، فهو جميل الأثر ، محمود الوِرد والصَّدَر ؛ وعلمٌ تصدأ منه الأفهام ، وتضلُّ به الأحلام ، فهو وبىء المرعى ، سيئ العُقبَى ؛ وكذلك الطبُّ طبّان : طبٌ يصحح الأجسام ، ويَشفِى الأسقام ، فهو عظيم النفع ، جليل القدر ؛ وطب يورث الأمراض ، ويولد الأدواء ، فهو شديد الوطء ، عظيم الضر ؛ ومدارُ الأمر كلهِ على حسن الاهتداء للتمييز بين النافع والضار ، والتفريق بين الطيب والخبيث ؛ ولا تتوهمنّ أيضاً أننى أتناول بكلامى جماعة الأطباء قاطبة ، فان فيهم الصالح ، كما أن فيهم الطالح ، ولكننى أعنِى من بينهم أولئك الذين يطلبون مجرد الربح من مباشرة الصناعة مع الجهل بها ، أو يتعمدون الحيل ، وينصبون الأشراك ، حتى يعتل جسم الصحيح ، ويُزمن مرضُ المريض ، ليكون لهم من وراء ذلك ما يسدّ بعضَ شرههم فى الغنى واليسار . وما أولَى سائر الناس بأن يُثبتوا بينهم عادةَ أهل الصين فى معاملة مثل هؤلاء الأطباء ، وذلك أنهم يجرون على أطبائهم العطاء ما داموا أصحاء ، فاذا نزل بأحدهم المرض انقطع العطاء عن الطبيب ، حتى يعود المريض إلى

سلامته ، فيكون من مصلحة الأطباء على الدوام أن تطول مدة السلامة ، وتقصر مدة العلة ، على خلاف الحال بيننا .

وما ينبغى أن ينصرف شىء مما قلته إلى بقية أهل الصناعة من ذوى الحذق والأمانة الذين يوفون الصناعة حقها ، ويؤدون الواجب عليهم فيها حق أدائه ، والذين يراعون فى ممارستها ما يكون من تفاوت الأحوال فى العلل والأمراض ، وما تقضى به أحكام البلاد والعادات ، واختلافُ الأمزجة والطبائع ، والذين يجعلون لأنفسهم من حسن تبصرتهم ، وكثرة تجربتهم ، عُدةً حاضرة لمقاومة الأمراض ، وصحة تشخيص الأدواء ، ولطفِ تناسب العلاج ، وحسن الإرشاد ، لرفع الوسواس ، ودفعِ الخيال ، وما يجرى هذا المجرى مِن استعمال ما يليق بأهل الإقليم الحار ، مما لا يليق إلا بأهل الإقليم البارد ، واجتنابِ مالا يوافق أمزجة أهل البلاد الشرقية من المركّبات المجهّزة لطبائع أهلِ البلاد الغربية ، ولقد طالما سمعت عن أشياخى فى الصناعة أنهُ يجب على الطبيب فى مصر أن يختار ما يكون من الأدوية وغيرها ألينَ قوةً ، حتى لا يكون على طبيعة المصريين فيها كلفةٌ ، ولا يَلحق أبدانَهم منها مضرةٌ ، وأن لا يُقدِم على كل الأدوية المسطّرة فى كتب أهل الغرب ، فإن أكثرها عُملت لأبدان قوية البنية ، عظيمةِ الأخلاط ، على خلاف المعهود فى أهل مصر. فيتعين على الطبيب حينئذ أن يتوقف فى إعطاء هذه الأدوية المرضى ، ويختار أَلْيَنَها ، وينقص من مقدار تركيبها ، ويبدل بكثير منها ما يقوم مقامه ويكون ألين منه ، وألا يهمل الاعتماد على الأدوية الطبيعية ، وهى البسائط واللين والحمية والفصد والاستحمام والرياضة والهواء ، وأن يكون على الجملة مولعاً بلذة الصناعة فى ذاتها ، لا يعادلها لديه سواها من سائر اللذات ، ممتلىء النفس بجلال قدرها وشرف منزلتها من بين الصناعات والفنون ، فتعظم عنده نفسهُ ، ويشرف فى عينه قدرهُ ، فيترفع عن سفالة الطمع ، وحِطة الشرهِ ، ويزهد فى نيل الغنى من طريق التحايل على اقتنائهِ من وراء هذه الصناعة الجليلة ، وكيف تزدهيه لذات العالم أجمع من مالٍ وجاهٍ أو زخرفٍ ومتاع فى جانب لذة الإتقان فى الصنعة والإحسان فى العمل؟ وأية رتبة من مراتب الخلق تماثل رتبة الطبيب

العامل ، وهو القيّم على قوام الأبدان ، والكفيلُ بصحة الأجسام ، والرقيبُ على اعتدال الأمزجة ، والمشرفُ على سلامة الجوارح ؟ لا بل أية صناعة فى الوجود تفضُل صناعته ، وهى أمسُّ الصناعات بخلقة الصانع الفاطر ، وتكوينِ المبدِع القادر ؟ وإذا كان قد بلغ عُجْبُ الصناعة بأحد النحاتين المصوِّرين فى الزمن السابق لمّا ازدهاهُ جمال الإتقان والإحكام فى صورة إنسان نحَتَها من المرمر أن استخفّهُ الطرب ، واستفزته لذة الصنعة ، فعمَّى عليه ، فانحَى على التمثال بمِنْحاتِه يُثيره على نطق اللسان ، بعد أن أُحكِمَتْ فيه خلقة الإنسان ، ويكلف الجماد ، وقد أتقنتْ فيه الصنعة ، أن يخرج من الجمود إلى الحركة ، حتى أطار عنه بعضَ أجزائهِ ، وبقَى التمثالُ قائماً إلى اليوم ، يُفصح بما فيه من التلف عن نهاية الكمال فى جمال الإتقان ، ومقدارِ لذة الإحسان فى عمل الإنسان . فما بالك بلذة الطبيب ومقدارِ طربهِ فى صناعته إذا هو شاهد أجسام الأحياء أمامه ، وقد استخلصها من شوائب الأمراض ، واستنقذها من آفات العاهات ، وردّها إلى سواء التكوين ، وأعاد نظام الخلقة إلى أصله ، وانتساقَ التركيب إلى شكله ؟ فهل يجوز فى العقل ، لمن يدرك كنه هذه الصناعة من الأطباء ، أن يرغب عن تلك الدرجة الرفيعة إلى الدرجة الوضيعة ، فينزل بصناعته إلى مصافّ أهل التجارة والسلع ، لا يفقه فيها من معنى سوى اصطياد الدرهم ، ولا يعلم لها من مزية سوى الاحتيال على اكتساب الأموال ؟ لا جرم أن الطبيب المدرك يفضّل لذة صناعته فى ذاتها على كل لذة ، ويسلو عندها أعظم مزية فى العالم وأعلى رتبة . وفصلُ الخطاب ، فى هذا الباب ، أن يكون مَبْلَغ همتهِ ، ومَجْمع لذته ، أن يرى المريض بعد شفائه ، بوجه لامعٍ كالدينار ، لا أن يراه فى طول شقائه ، بنظر طامع فى درهم أو دينار .

قال عيسى بن هشام : فأعجبنى من هذا الطبيب صدقه فى مقالته ، وحسن نظره فى صناعته ، وسألت الله لجماعة الأطباء ، أن يهتدوا مثل هذا الاهتداء .

ثم إنى ودعتُهُ بعد أن عيّن لنا البقعة المناسبة لتبديل الهواء ، وقرّر ما يناسب حال المريض من العلاج والغذاء ، إلى أن يتدرج من النقاهة إلى تمام الشفاء .

الطاعون

قال عيسى بن هشام : فطاوعنا القدر ، وعزمنا السفر ، التماساً لبرء الداء ، بتبديل الهواء ، ونزلنا من ضواحى الإسكندرية قصراً ذا روضة غنّاء ، فى بقعة فيحاء ، لا تسمع فيها إلا هديل الورقاء ، إيقاعاً على هدير الماء ، فإذا بلّل الموجُ جناحَ النسيم ، فرفرف على ذلك الروض البسيم ، نثرَ الماء درا على تيجان الزّهر ، ورقرقَهُ دموعاً فى أحداق العبهر(١) ، هناك يتمنى العاشق لو استعار هذى الدموع لمحاجرِه ، فيستلين بها قلب شاجيهِ وهاجرِه ، وتودُّ الغانية لو نظمتْ من ذلك الدرِّ عقداً لنحرها ، أو نطاقاً لخصرها :

إنّ هــذا المــكانَ شيءٌ عجيبٌ   تضحكُ الأرضُ من بكاء السماء
ذهبٌ حيث ما ذهبنا ، ودُرٌ   حيث دُرْنا ، وفضةٌ فى الفضاء

أو قلْ إنه المجرّة قامت فيه زواهرُ الزهر ، مقام الكواكب الزُّهر ، وعناقيدُ الكروم ، مقام ثريا النجوم ، وأنوارُ الأثمار ، مقام الشموس والأقمار ، فأقمنا فى ذلك الظل الوريف ، مدة من أيام الخريف ، ومكثنا نقطف القطوف الدانية ، بين تلك الأعين الجارية ، فى عيشة راضية ، لا تُسمع فيها لاغية ، آخذين بمُستَنِّ النحيزة(٢) ، ومُجتَنِّ الغريزة ، فيما يوافق صحة البدن من طعام شهىّ ، وغذاء مرىّ ، ورياضة للأعضاء ، دون تعب أو شقاء ، وتطهيرٍ للنفس من أدران الكدر ، بلطف البحث وحسنِ النظر ، وتجريدٍ للصدر من عوامل الهواجس ، وغوائل الوساوس ، بالتبصر فى حقائق الوجود ، والتمعن فى صنعة الخالق المعبود ، وأفضتْ بصاحبى طِيبُ هذه الإقامة ، إلى المقصود من تمام العافية والسلامة ، لولا أن راعنا شيطان من الإنس بخبر الطاعون ، فقلنا : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وسبحان الله والحمد لله ، ما زلنا نعلل النفس ، بزوال النحس والنكس ، وما زالت تناوبنا النوائبُ والأحزان ، وتراوحنا النوازل فى كل منزل ومكان .

وانبرى الباشا يسألنى عن هذا الطاعون وأخباره ، وما يتوقعه من هول أفعاله وآثاره ،

---

(١) العبهر . النرجس   (٢) النحيزة . الطبيعة

فأجبته بأنه لا يلبث أن يصبح أثراً بعد عين ، وما أصاب إلى اليوم إلا عدد أصابع اليدين ، وقريباً يفرُّ من أمامنا هذا العدو المناجز ، ونردِّد فى أثره قول الراجز :

قد رَفَعَ اللهُ رماحَ الجنِّ   وأذْهَبَ التعذيبَ والتجنِّى

(الباشا) — كيف تدّعى ذلك وتزعمه ، وما عهدت منك إخفاء للحقائق ، ولا تمويهاً للوقائع ، وللطاعون فى مصر أفاعيلُ تذوب لها المآقى والأحداق ، وتتفطر منها القلوب والأكباد ، وهو عندنا من أمراض مصر الموضعية التى تحدث عند اختلاف الفصول ، والمصريون يتوقعونه لكل ربيع ، حتى أطلقوا عليه كلمة « الفصل » ، فيقولون جاء « الفصل » عند ظهور الطاعون ، فترتاع النفوس ، وتنخلع القلوب ، وتَخُور القُوَى ، وتذهل العقول ، ثم يصول صولته ، ويفتك فتكته ، فلا يقف سيلُهُ عند حاجز ، ولا يمنع اندفاعهُ مانع ، ولا تغيض قرارتهُ حتى يخرب القصور ، ويعمر القبور ، فتصبح الأطفال يتامى ، والنساء أيامى ، ويمسى الخلق بين ثاكل ومثكول ، وحاملٍ ومحمول ، هذا يَبكى أباه ، وذاك يندب أخاه ، وهذه تُوَلوِل على أهلها ، وتلك تنوح على بعلها ، وقد سمعتُ عنه فى زمانى عن أحد المعمّرين يقول فى وصفه عند وقوعه فى سنة ١٢٠٥ :

« ابتدأ الطاعون فى شهر رجب سنة ١٢٠٥ ، ودَاخَلَ الناسَ منه وهمٌ عظيم ، واشتد بطشه ، وقَوِىَ بأسه فى رجب وشعبان ، ومات به من لا يحصى من الأطفال والشبان ، والجوارى والعبيد ، والمماليك والأجناد ، والكُشَّاف والأمراء ، ومات من الصناجق أمراء الألوف اثنا عشر صنجقاً ، منهم اسماعيل بك الكبير ، وقد أفنى عسكر القليونجية والأرنؤوط المقيمين بمصر القديمة وبولاق والجيزة ، وكانوا ، لكثرة الموتى ، يحفرون حُفراً بالجيزة بالقرب من مسجد أبى هريرة ويلقونهم فيها ، وكان يخرج من بيت الأمير فى الجنازة الواحدة الخمسة والستة والعشرة ، وازدحم الناس على الحوانيت يلتمسون ما يجهزون به موتاهم ، ويطلبون من يحملون النعوش فلا يجدونهم ، ويقف الناس يتشاحنون ويتضاربون على ذلك ؛ ولم يبق للناس شغل إلا الموت وأسبابه ، فلا تجد إلا مريضاً ، أو ميتاً أو عائداً ، أو معزياً أو مشيعاً ، أو راجعاً من صلاة جنازة أو دفن ؛

أو مشغولا بتجهيز ميت ، أو باكياً على نفسه موهوماً ، ولا تنقطع صلاة الجنازة من المساجد والمصليات ؛ ولا تقام الصلاة إلا على أربعة أو خمسة ، ونَدَرَ من يصاب ولا يموت ، وقل ظهور الطعن على الجسم ، فيكون الإنسان جالساً فيرتعش من البرد فيتدثر ، فلا يُفيق إلا مخلطاً أو يموت فى غده إن لم يمت فى نهاره ؛ واستمر فتكه إلى أوائل رمضان ، فمات الأغا والوالى فى أثناء ذلك ، فولّوا خلافهما فماتا بعد ثلاثة أيام ، فولوا خلافهما أيضاً ؛ واتفق أن الميراث انتقل ثلاث مرات فى سبعة أيام ؛ وأغلق بالمفتاح بيت أمير كان فيه مائة وعشرون نفساً فماتوا جميعاً . »

(عيسى بن هشام) — إنى لأظنك تصف لى موقفاً شاهدتَهُ من مواقف الآخرة وأهوال القيامة .

(الباشا) — وما كان الأمر ليقتصر فى الطاعون بعد ذلك على فتكه ، بل كان يزيد عليه من البلاء ما دَسَّهُ الإفرنج للولاة من وجوب إزعاجِ الناس بأمور تشقّ على نفوسهم ، يزعمون أنها تدفع الطاعون ، فيفصلون بين الناس بعضِهم عن بعض ، ويفرّقون بين الأب وابنهِ ، والأخِ وأخيهِ ، والمرء وزوجه ، ثم يهدمون الدُّور ، ويحرقون الثياب ، وينشرون البخور ، كأنهم لجهلهم يظنون أن هذه الأعمال التى تؤذِى النفوس ، وتعطل مصالح العباد ، تشتت شمل الجن ، وتكسر أسنَّةَ رماحِهِم ، فيزداد الناس ويلاً على ويل ، وحزناً على حزن ، وخراباً فوق خراب ، وقد شاهدت بعينى ما تشيب له النواصى فى سنة ١٢٦٠ ، وقصَّ علىَّ أخى ما رآه منه فى سنة ١٢٢٨ ، وهو فى خدمة المرحوم محمد على باشا الكبير ، قال :

« أمر جنتمكان محمد على بعمل « كُورَنْتيله » بالجيزة فى اليوم العاشر من ربيع الثانى ، وعزم على الإقامة بها إذ اشتد عليه الوهم من الطاعون لوقوع القليل من الإصابات بمصر ، ومات به الطبيب الفرنسىُّ وبعض من نصارى الأروام ، وهم يعتقدون صحة « الكورنتيله » وأنها تمنع الطاعون ، وقاضى الشريعة ، الذى هو قاضى العسكر ، يحقق قولهم ، ويسير على مذهبهم . واتفق أن مات بالطاعون شخص بالمحكمة من أتباع القاضى ، فأمر بحرق

ثيابه ، وغَسْل المكان الذى فيه ، وتبخيره بالأبخرة المتنوعة ، وكذلك الأوانى التى كان يمسها ، وأمروا أصحاب الشرطة أنهم يأمرون الناس وأصحاب الأسواق بالكنس والرش والتنظيف ونشرِ الثياب فى كل وقت ، وإذا وردت عليهم مكاتبات خرقوها بالسكاكين ودخنوها بالبخور قبل تسليمها إليهم . ولما عزم الباشا على « كورنتيلة » الجيزة أمر فى ذلك اليوم أن ينادوا بها على سكانها بأن من كان يملك قوته وقوت عياله ستين يوماً واختار الإقامة فليمكث بالبلدة وإلا فليخرج منها ويذهب فيسكن حيث أراد ، وأُعطوا مهلة أربع ساعات ، فانزعج سكان الجيزة ، وخرج مَنْ خرج ، وأقام منهم من أقام ، وكان ذلك فى وقت الحصاد ، وللناس مزارعُ ومرافق مع مجاوريهم من أهل القرى ، ولا يخفى احتياج الإنسان لبيته وأهلِه وعياله وأسبابِ رزقه ، فيحرمونه من ذلك كله ، حتى لقد سدّوا خروق السور والأبواب ، ومنعوا مراكب المعادى من السير ، وأقام الباشا فى بيت الأزبكية لا يجتمع بأحد من الناس إلا يوم الجمعة ، ثم قصد الجيزة وقت الفجر من ذلك اليوم وصعد إلى قصره ، ووقف مركبين الأولى ببر الجيزة والأخرى فى مقابلتها ببر مصر القديمة ، فإذا أرسل الكتخدا أو المعلم غالى مراسلة ناولها المرسلُ المقيد بذلك فى طرف مزراق بعد تبخير الورقة بالشيح واللبان والكبريت ، فيتناولها منه الآخر بمزراق آخر على بعد منهما ، ويعود راجعاً ، فإذا قرب من البر تناولها المنتظرُ له أيضاً بمزراق وغمسها فى الخل وبخّرها بالبخور المذكور ، ثم يوصلها إلى حضرة المشار إليه بكيفية أخرى ، وأقام الباشا على ذلك أياماً ، وسافر إلى الفيوم ، ثم عاد وأرسل مماليكه ومَنْ يخاف عليه الموت إلى أسيوط . »

(عيسى بن هشام) — اعلمْ أن ما كان يعترض عليه عامة الناس فى الأزمان الغابرة — ولا يزال بيننا إلى اليوم بقية منهم — من الأخذ بأسباب التوقى ، والاحتياط لدفع غائلة الطاعون ، لجهلهم بحقيقته وأسباب انتشاره ، هو الذى يحمينا اليوم من فتكاته وسطواته التى قصصتَ علىّ طرفاً منها ، وقد كان جمهور الناس فى أزمانكم ينكرون هذه الوقاية ويسخرون منها .

(الباشا) — قل لى بالله أية علاقة بين إحراق الثياب وتلك الوخزة التى تأتى

بالأجل ، وأىّ ارتباط بين هذا البخور وحُمّى الطاعون ، اللهم إلا أن يراد به تلطيف أمزجة الجن .

(عيسى بن هشام) — لا يفوتنّك أن كثيراً من الحقائق كانت مكنونة فى خفاء الجهل عند عامة الناس ، لاختصاص بعض الأفراد بالعلم ، ولبعد تناوله على بقية الطبقات ، فلما انتشر العلمُ وأضاء برهانه ، كَشَفَ للناس ما كان مكنوناً عنهم ، وأظهر من العلل والأسباب ما كانت تقف دونه الأفكار حَيْرَى ، فإن كان الناس فى زمانكم يعتقدون أن الطاعون من وخزات الجن برماحها ، وأن لا شىء يَقْوَى على رد تلك الرماح الخفية عن العيون ، فإن البحث أوصلهم اليوم إلى اليقين بأن للطاعون جنوداً لا تدركها العيون المجردة ، وأن لها وخزاً خفياً دونه وخز الأسنة وعَوَالِى المرّانِ[1] ، ولكنهم استعانوا بالعلم ، فصنعوا آلة تجسّم الأشياء الدقيقة وتعظمها ، وتبرزها مرئيّةً للعين ، فوقفوا بها على حقيقة تلك الجنود ، واستنبطوا طرق الوقايه منها ، فتدرعوا بها لدفع أذاها ورفع غائلتها .

(الباشا) — وماذا يُجدِى الوقاية والحذر من القضاء والقدر ؟

(عيسى بن هشام) — حفظتَ شيئاً وغابت عنك أشياء ، إن الوقاية من السنة الشريفة وأحكام الدين المبين ، فقد ظاهَرَ عليه الصلاة والسلام فى الحرب بين درعين ، وقال الله تعالى : « وأعِدُّوا لهم ما استطعتُمْ مِنْ قوّة » . ولِطُرق الوقاية اليوم أنواع مختلفة لدفع هذا العدو الخفىّ الذى يسمونه « الميكروب » ، وهو دُوَيْبة دقيقة من عالم الذر ينطبق عليها أحد أوصاف الجن فى سرعة التولد وكثرة التعدد فى أيسر مدة من الزمن ، وهم يتخذون البخور فى الوقاية لينحل تركيبه ، ويحرقون الثياب والأمتعة حتى لا تنتقل بها عدواهُ .

(الباشا) — لقد كشفت لى معنى دقيقاً فى رماح الجن المسمومة ما كنت إخال أن أحداً يدركه فى عصرنا الماضى ، وهل لك فى أن تطلعنى على تلك الآلة العجيبة المجسّمة للأشياء الدقيقة ، لأزداد تبصرة وهدى بالنظر فى عجائب المخلوقات ؟

قال عيسى بن هشام : فذهبت إلى معمل كيميائىّ وأريتهُ نقطة من الماء تحت

---

(١) المران : شجر يتخذ منه الرماح .

« المكرسكوب » ، فلما رآها كأنها غديرٌ ، ورأى ألوف الألوف من الهوام سابحة فيها ، سَجد سجدة التقديس لقدرة الخالق ، والتمجيد لعظمة الصانع ، وتلا قولَه عزّ مِنْ قائل : « وما يَعلَمُ جنود رَبّك إلا هُو » ، فحمدت الله إذ آمن بالبرهان الساطع ، ولم يفعل ما فعله ذلك الهنديُّ مع العالم الألمانىّ ، حيث أراه مثل هذه النقطة وما فيها من الحيوانات ، ليقنعه بأن ماء الشرب مشحون بما يحرّم أهلُ الهند قتلهُ وأكلَهُ من الحيوانات ، فسخر الهنديُّ منه ، وكسر الآلة إصراراً على الباطل وعناداً للحق ؛ ولما أيقن الباشا بصدق ماقلتهُ وما رآه ، وأنّ العلم هَزَم جنود الطاعون ، وحطّم رماحه ، ولولاه لمات به اليوم مئات الألوف مكان العشرات ، سألنى يقول :

(الباشا) — ومَن المخترع لهذه الآلة التى تدل بغير واسطةٍ على عظمة الخالق وقدرة الصانع من مشايخ الموحدين وعلماء الدين ، وفى أية بقعة من بقاع المسلمين كان مولده لنردد الثناء عليه ونذكر اسمهُ بالحمد ؟

(عيسى بن هشام) — أُقسم لك بالله وملائكته وكتبه أن أكثر مشايخنا لا علم لهم بها ، وأنهم لايزالون كالعهد بهم فى معزل عن هذه العلوم النافعة والمخترعات المفيدة ، وما نشط لرؤيتها أحدٌ منهم ، وهم إلى اليوم ينفرون من الأخذ بوجوه الوقاية ، ويفضلون التعرض لنيران البنادق فى معارضتهم لأوامر الحكومة دون الإذعان لوجوب الاحتياط من هذه الحيوانات الدقيقة ، ولا يعرفون منها إلا ما تحرَكتُبهم من الأرَضَة .

(الباشا) — ومع هذا كله فلا مُقام لنا اليوم فى هذه البلدة التى أصيبت بالداء ، وقد وجب علينا الفرار من قَدَر الله إلى قدر الله ، فَعُدْ بنا إلى مصر إن شاء الله آمنين .

قال عيسى بن هشام : فأجبته إلى سُؤله ، وقفلنا إلى القاهرة ، بعد أن ودّعنا تلك المناظر الباهرة .

الوباء

قال عيسى بن هشام : وأقمنا فى مصر مدة ، وقد أبلَّ الباشا من علته وسقمه ، وتمت له العافية والسلامة فى جسمه ، فأخذتُ أهنئه ذات يوم بالشفاء والإبلال ، من المرض والاعتلال ، وأذكر له أن صحة الأبدان ، هى مِلاك السعادة للانسان ، وإنك لو جمعت نِعم العالم كلها للمريض ، من مالٍ واسعٍ وجاهٍ عريض ، لانصرفت نفسُهُ عنها انصراف الضب عن الماء ، والأرمد عن الضياء ، والمعمودِ[1] عن شهىِّ الغذاء ، وأنَّ خاتم الياقوت فى الإصبع التى أصيبت بدُمَّل ، لا يساوى عند صاحبه حبةً من خردل ، وأن ما اجتمع فى سرير الملك من العزة والبأس ، ليهُونُ عند مفقور الظهر أو مصدوع الرأس :

ومَن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ يجدْ مرًّا به الماء الزلالا

وكنت كلما زدته من هذه الموعظة والحكمة ، أراه قد زاد فى الإعراض عن شكر تلك النعمة ، فتحققت أن المرء إنما يذكر النعيم فى البؤس ، ولا يذكر البؤسَ فى النعيم ، وينسى المرضَ فى الصحة ، ولا يذكر الصحة إلا وهو سقيم ، وقلَّ من يحمد النعماء فى لبسها ، ويدرك سعادة الحياة إلا فى نحسها ، فهذا معنى من معانى الآية الشريفة : « وإذا مَسَّ الإنسانَ الضُّرُّ دعانا لجنبِهِ أو قاعداً أو قائماً فلما كشَفنا عنهُ ضُرَّهُ مرَّ كأنْ لم يدعُنا إلى ضُرٍّ مسَّهُ » . فسألته عما دهاه ، وأذهله عن شكر الله ، فأجابنى يقول ، فى حال الخبَل والذهول :

(الباشا) — فِيمَ الهناء بكشف البلاء والضرر ، وما انتقلت من خطرٍ إلاّ إلى خطر :

فانْ أسلمْ فما أبقَى ولكن سلمتُ من الحِمام إلى الحِمام

ألم تسمع معى بخبر انتشار الوباء فى مصر ، بعد أن خلَّفنا الطاعون فى الاسكندرية ، فما هذه الرزايا المتساقطة ، وما هذه البلايا المتلاحقة ، أو كلما انتهينا من بلاء دخلنا فى بلاء ، وانصرفنا من شقاء إلى شقاء ؟

(١) المعمود : الذى يعمدته وجع من مرض .

(عيسى بن هشام) — أراك لا تزال كأمثالك من سائر الناس ، يغلب عليك الفزعُ والوسواس ، وإن كنتَ جرّبت فى هذه الحياة شدة الألم ، وذقتَ فى القبر راحةَ العدم ، وإن ما كنت تتمناه على دهرك ، من الرجوع إلى قبرك ، عند اشتداد الكروب ، منْ وقعْ الخطوب ، لم يكن لشجاعةٍ فى النفس ، تستهين بسُكنَى الرمس ، بل كان لِضعفك عن احتمال الآلام ، من نوازل الأيام ، وأراك لا تزال ، مع صحة الدين ، وقوة اليقين ، ترهب الموت وتخشاه ، وتَعتوِرُك الأهوال من ذكراه ، وهذا داء فى الناس قديم ، عزّ شفاؤه على كل مرشد وحكيم :

وخوفُ الرَّدَى آوَى إلى الكهف أهلَهُ
وَعَلّمَ نُوحاً وابنَهُ عَمَلَ السُّفْنِ
وما استعذَبتْهُ رُوحُ موسى وآدم
وقد وُعِدَا مِنْ بعدهِ جنّتَىْ عدْنِ

ولكننى لا أزيدك فى الموعظة ، ولا أخفف عنك من وَيلات الهواجس والوساوس ، بأحسنَ مِن أن أقرأ عليك مقالة نافعة ، اطلعت عليها اليوم فى بيان أحول الناس ، وتقسيم طبقاتهم فى أهوال هذا الوباء ، فان أردتَ تلوتُها عليك ، ثم ضع نفسك بعدها حيث شئت.

(الباشا) — هاتِ أسمعنى لا زلتَ للحق راويا ، وللهدَى داعياً .

(عيسى بن هشام) قارئاً — « إنما النوازل العظيمة ، والخطوب الجسيمة ، محكُّ الطباع ، ومِسبار الأخلاق ، فهى لشدّتها وَهوْلهـا تكشف عن الناس ما يخفونه عن الناس ، وتهتك سجوف التمويه والتزويق عن حقائق الصفات ، فلا تتمالك النفوس أن تبقى على التظاهر بما ليس فيها ، ولا التطاول بما هو مفقود لديها ، بل تتجلى للناظر بما اشتملتْ عليه ضمائرها ، واحتوته سرائرها ، من قوة أو ضعفٍ ، ومن فضيلةٍ أو نقيصة ، ومن علم أو جهل ، وهنا يتمكن الباحث فى الأخلاق من النظر فيها نظرة التثبت والتحقيق ، وهى مجردة أمامه من كل غشاء ، عاريةٌ من كل غطاء .

« وليس فى باب النوازل والخطوب ما يَهوُل النفوس ويروع القلوب ، أعظم ولا أكبر

من مصيبة الموت وبلاء هذا الوباء ، فلذلك لانرى بأساً من الكلام بشىء عما يجده المستقرىء لأحوال الناس من طبقات المصريين ، وهم بين أيدى هذه النازلة العظمى والمحنة الكبرى .

« فطبقة العامة أناس جُبلوا فى مثل هذه النوازل العامة على التسليم لأحكام القضاء ، وتفويض الأمر لأقدار السماء ، وهم لا يعلمون من الوباء ، ما جراثيم الداء ، ولا علة المرض والشفاء ، ولا سبب الهلاك والنجاء ، وليس فى قدرة قادر من البشر أن يزحزحهم عن اعتقادهم ، أو يحوّلهم عن يقينهم ، ولا فى استطاعة أحد من أبلغ الوعاظ وأفصح الخطباء أن يضع فى رءوسهم أن الوقاية تمنع من المقدور ، وأن الحذر يُنجِى من المكتوب ، وأن طب الأطباء يؤجّل فى الأجل المحدود ، وأن صنوف الدواء تنفع فى رد القضاء المحتوم ، وهم يرون كل ما يؤمرون به من وسائل الوقاية وأسباب الحيطه أموراً تضر ولا تنفع ، فلا تزيد فى عمرهم ساعة ، ولا تكف عنهم غرب المنون ، ولا تقبض دونهم يد قابض الأرواح ، فهم بمعزل عن الخوف والهلع ، وفى أمانٍ من الذعر والفزع ، وفى ضمانٍ من الوسواس والهواجس وإن كانوا مقيمين فى غفلة عما يجب عليهم لأنفسهم من المحافظة على صحة الأبدان ، وتمهد الأجسام ، بما يدرأ عنها الاستعداد لقبول الداء ، والوقوع فى مخالب الوباء ، لبعدهم عن فهم قوله عليه الصلاة والسلام : « اعقلها وتوكلْ » ، لكنهم لا يزالون على كل حال فى صحة من الأرواح ، وإن أعوزتهم صحة الأبدان .

« وطبقة الخاصة ، ونعنى بهم أهل الدين واليقين ، وهم الذين يعتمدون أيضاً على التسليم لأحكام القضاء ، وحسنِ الاعتقاد بتحديد الآجال ، والإيمان بأنه لن ينالهم إلا ما قدره الله لهم ، ولا تفتأ تجرى ألسنتهم فى مثل هذه الأهوال بتلاوة الآيات البينات من كتاب اللهِ : « ولكلِّ أجل كتاب » ، « فإذا جاء أجلُهم لا يَستأخرون ساعةً ولا يَستقدمون » ، « أينما تكونوا يُدرككُمُ الموتُ ولو كنتم فى بُروجٍ مُشيَّدة » ، « قُلْ إن الموتَ الذى تفرُّون منه فإنه مُلاقيكم » ، تعالى الله أحكم القائلين . وهم الذين يعلمون علم اليقين أن الموت أمر واقع لا مردّ منه ، وأن الإنسان عرضة له فى كل وقت ولحظة ، وأن طعمه واحد ،

سواء أكان بمرض الوباء ، أو صواعق السماء ، أو زلازل الأرض ، أو كان بغصّة شراب، أو عثرة قدَمٍ ، أو لسعةِ حشرةٍ ، وأن نَفَسَ المرء خُطاه إلى أجلهِ ، فعليهِ أن ينتظر ساعته في كل حركة وسكون ، وعند كل قيام وقعود :

وما نَفَسٌ إلا يُباعدُ مَوْلِداً ويُدنى المنايا للنفوسِ فتقربُ

وهم يعتقدون حق الاعتقاد أن الحىّ حىٌّ للفناء، وأنه مقيم من دنياه أبداً فى أرض وباء، وإن لم يكن ثَمَّ وباء .

ما خَصَّ مصراً وَبَاءٌ وحدها بل كائن فى كلِّ مصرٍ وبأ

وأنّ مَنْ فرّ من المقدور، فعلَى المقدور نزل ، ومن هرب من القضاء ، فالى القضاء رَحَل .

مهْلا أمِنْ وبأ فررتَ وهل ترَى فى الدهــر إلاّ منزلاً موْبُوءا ؟

وأن مَن حانت منيته ، لم تنفعه تقيَّتُه ، ومن حل أجلُه ، لم يحمه وَجَلُهُ :

ومن هَاب أسبابَ المنايا يَنَلْنَهُ ولو رَامَ أسباب السماء بِسُلَّمِ

إلا أنهم مع ذلك كله لا يرون من مانع يمنعهم عن الأخذ بأسباب التقية والحذر ، ولا فى العمل بمقتضى القوانين المندوب إليها فى حفظ صحة الأبدان، وما يقرره أهل صناعة الطب من سبل التوقى والتحرس اتقاء لما نُهُوا عنه من الالقاء بالأيدى إلى التهلكة ، واحتذاء لما ترسمه ظروف الأحوال ، وتقضى به أحكام الزمان ، ولا يجدون الطاعة لاشارة الأطباء فى مثل هــذه النوازل مما يخالف لهم سنة أو يناقض لديهم شرعاً ، وإن لم يكن من ورائها فائدة ، فليس فى عقباها مضرة . فتراهم لذلك فى أجل مقام من شجاعة القلب ، وقوة النفس، وثبات الجنان ، بفضل الدين واليقين ، وعلى أحسن حال من سلامة الجسم ، وطهارة البدن بفضل العلم ، وحسن القيام بما يرشد إليه من وسائط الوقاية ، لا سلطة للوساوس والهواجس عليهم ، ولا محل للرعب والرهب فيهم ، آمنين مطمئنين ، يتمتع كل واحد منهم بالروح السليمة فى الجسم السليم .

« وهناك طبقة ثالثة ، حديثة النشأة ، حديثة التربية ، لا من هؤلاء ولا من هؤلاء،

لم يرسخ الإيمان فى قلوبهم ، ولم تتمكن التربية الدينية من نفوسهم ، ولم يتأدبوا بأدب الدين ، ولم يرتاحوا لحسن اليقين ، بل اقتصرت بضاعتهم على ما تلقوه فى المدارس من العلوم الآلية ، والفنون الصناعية ، دون علوم التربية النفسانية ، والفضائل الروحانية ، وخلَتْ صدورهم من آيات الله والحكمة ، قد أخذوا عن بعض الغربيين عادة التهاون بالشرائع والازدراء بالإيمان ، ولم يحيطوا بشىء من العلوم الموضوعة ، لتقويم النفوس وتطهير الطباع ، ومعرفة الحقائق ، ورياضة القلوب على التجلد والثبات ، عند وقوع المكروه ونزول الملمات ، فتجدهم قد ظهروا للناس فى هذه النازلة الوبائية ، وانكشفوا لأهل البحث والنظر أصغر خلق الله نفوساً وأجبنهم قلوباً ، وأكثرهم هوَساً ووسواساً ، وأشدهم قلقاً واضطراباً ، وأعظمهم خوفاً ورعباً ، وأكبرهم بلاء وكرباً ، يتمثل لهم الموت فى أعينهم على أفظع الصور وأبشع المناظر ، فيحاولون الفرار منه ، وهو ممسك بنواصيهم ، ويهابون دُنُوَّه ، وهو آخذ بتلابيبهم ، حل الخوف مفاصلهم، واستلّ الرعب نخاعهم ، فهم يرون فى كل عود نعشاً لهم، ويحسبون كل صيحة عليهم، أولئك لا إيمان لهم يُثبت أقدامهم ، ولا علم لديهم يرجح أحلامهم، بل هم على مثل حال المغشىّ عليه من الموت ، أو الممسوس من الشيطان ، يتوهمون طعم الموت، ومذاقَ الوباء ، فى تنفس الهواء ، وتناولِ الغذاء ، وشرب الماء ، وملامسة الأيدى ، ومخاطبةِ الناس ، فإذا رأى المسكين منهم تلك الآلة الحدباء ، تَحْمِلُ أحَدَ المصابين بالوباء ، جَمد دمُه ، وسال عرَقُهُ ، وخمدت أنفاسه ، والتوَتْ أعصابهُ ، وأمسك مَنْ بجانبهِ ، يستنجد به ويستغيث ، ليحميه من شر العدوى ، ويدفعَ عنه نزول البلوى ، وما أشبههم فى حالهم هذه من الخور والهلع والفزع والجزع إلاّ بمثل أناسٍ قُضِىَ عليهم بالإعدام لِوقتِهم ، فهم وقوفٌ بين يدى الجلاّد والسيّاف ، إذا قُدِّم أحدهم للسيف والنطع مات الذى يليهِ من الخوف قبل القتل ، ومنهم من اعتكف على الخمر يشربها ليلَهُ ونهارَه عساها تجهِّله كيف اطمأنت به الحال ، ومنهم من يبالغ ويغالِى فى تناول العقاقير السامة والجواهر القتالة ، مما وضعه الأطباء لقتل الجراثيم ، فهو يشربها ويستَعِطُها ، ويدهن بها جسده ، ويغمس فيها ثيابه ، ويبلّل بها فراشه ، ويغسل بها آنية طعامه وشرابه ، وكلما سمع بزيادة العدد فى

المصابين زاد فى مقدار ما يستعمله منها يوماً بعد يوم ، حتى أصبحت أجسامُهم مسمومةً ، وأبدانُهم مهزولة وشفاهُهم متقلصة ، وعيونهم غائرة ، ووجوههم مغبرّة ، وأناملُهم مصفرّة ينطبق عليهم قولهُ جلّ وعلا : « ويأتيهِ الموتُ مِن كلّ مكانٍ وما هُوَ بميّت . » إذا رأيتهم حسبتهم فى حال المصابين بالفعل ، لولا أن هؤلاء يَفضلونهم بالخلاص من ألم الداء ، براحة العدم والفناء ، ولمّا كان الخوف والوسواس من أكبر وجوه العذاب فى الحياة ، ومِنْ أعظم الأسباب فى رأى الأطباء لجلب الداء ، كانوا هُمْ أعداء أنفسهم بأنفسهم ، وهم أصحاب الأرواح السقيمة ، فى الأجسام السقيمة ، لهم النكد فى هذه الدنيا ، ولهم الخزى فى الآخرة » .

فأين تَضع نفسك الشريفة أيها الباشا من هذه الطبقات ؟

(الباشا) — ما أرى لى موضعاً بعد إذ عاشرتنى وأرشدتنى إلا فى طبقة أهل الخاصة الذين يسلمون للقضاء والقدر ، ويعملون بالحيطة والحذر ، لكننى مع ذلك أفضل الابتعاد عن ضوضاء الناس فى هذا الوباء ، وأرغب فى التخلص من النظر إليهم ، وهم فى مثل أهوال القيامة من الفزع والهلع ، وليس من الصواب أن نجمع بين أكدارنا وهمومنا ، وبين التأثر لأكدار الناس وهمومهم .

قال عيسى بن هشام : وخشيتُ على الباشا إن أنا تركتُهُ فى هذا الحال غريقَ أفكاره وأسير همومه وأكداره ، أن ينتويهُ الانتكاس ، ويعتريَهُ الارتكاس (١) ، والنكسة بعد البلة ، شرُّ أطوار العلة ، فبادرتُ إلى طاعته ، وامتثال إشارته ، فاخترت له من ضواحى المدينة مكاناً قصياً ، ومسكناً مرضياً .

---

(١) الارتكاس : كالانتكاس .

العزلة فى العلم والأدب

قال عيسى بن هشام : واعتزلتُ بالباشا مدة من الدهر ، نستملح العزلة ونستعذب عليها الصبر ، ونعيش فيها عيش الحكماء ، من حسن الرضاء ، بحسن الاكتفاء ، ونستروح راحة البعد عن هذا العالم وأذاه ، وإغماض الجفون على قذاه ، مؤتنسين كل الائتناس ، بالوحشة من الناس ، بعد الذى شهدنا من أعمالهم ورأينا ، وسمعنا من أقوالهم ووعينا ، وقاسيْنا من عشرتهم ما قاسينا :

عَوَى الذئبُ فاستأنستُ للذئب إذْ عوَى ۔۔۔ وصوّتَ إنسانٌ فكدتُ أطيرُ

إن سالمتَهم حاربوك ، وإن وادعتهم ناصبوك ، وإن صادقتهم خانوك ، وإن واثقتهم كادوك ، وإن خالطتَهم لا تأمن الاعتداء ، وإذا مازجتهم لا تعدم الافتراء ، وإذا طالبتهم بحق فإنك لا تسمع الصمّ الدعاء :

فلو خبّرتَهمُ الجوزاءُ خُبْرى ۔۔۔ لمَا طلعتْ مخافةَ أن تُكادا

ولو أنك لم تخالطهم إلا فى مجالس أنسهم وصفوهم ، ومعاهد لعبهم ولهوهم ، لم تجنِ منها إلا كلّ ما يُبعد وينفّر ، وينغص ويكدّر ، تدخلها إذا دخلتها مُستروحاً مستبشراً ، وتخرج عنها مستقبحاً مستنكراً ، فعيشتهم فى كلتا الحالتين قرارةُ معايب ، ومجتمعُ نقائص ومثالب ، ومنابت أكدار ، وينابيع أضرار ، ولا راحة فى الدنيا إلا لمن تنسّك وتزهّد ، ولا سلامة من الخلق إلا لمن اعتزل وتوحّد ، وأبعدُ الناس عن معاشرة البرايا ، أقربهم إلى كرم السجايا :

بعدى عن الناس برءٌ من سقامهم ۔۔۔ وقربهم للحجى والدِّين أدواء
كالبيت أفردَ لا إيطاء يدركهُ ۔۔۔ ولا سناد ولا فى اللفظ إقواء[1]

وعكفتُ مع الباشا فى عزلتنا ، أذهب به كل مذهب ، وانتقل به من مطلب إلى مطلب ، فى مطالعة الأسفار والكتب ، من تاريخ وأدب ، ومن حكمٍ متينة قويمة ، وشتى علومٍ

---

(١) الإيطاء والإسناد والإقواء : من عيوب القافية .

حديثة وقديمة ، أهديه من كل طرف بطُرفة ، وأتحفه من كل باب بتحفة ، وأجتنب معه ما يدعو إلى الضجر والملل ، ويُدْنى من الكد والكَلَل ؛ فتارة أخوض معه عُباب البحار، وطوراً أجتاز به سراب القفار ، فنرى مَنْ يحرق فى البحر مراكبه ، ليحمل على اقتحام المنايا كتائبه ، ونسمع الشاعر فى القفر يحدو بناقته ، ويشبّب بمعشوقته ، ثم لا يقعد به ذلُّ الغرام ، عن التفاخر بعزِّ الكرام ، ولا ينسيه ذكرُ الهوى ، مواقفَ الحتف والرَّدى ، فيخلط بالغزل الفخر ، ويخاطب صاحبته من جوف القفر :

إنا محيُّوكِ يا سَلْمَى فحيّينا ... وإنْ سقيت كرامَ الناس فاسقينا
وإن دعوت إلى جُلَّى ومكرمةٍ ... يوماً سَرَاةَ كرامِ الناس فادعينا
إن تَبْتَدِرْ غايةٌ يوماً لمكرُمةٍ ... تلقَ السوابقَ منا والمصلّينا[1]
وليس يَهلِكُ منا سيدٌ أبداً ... إلاّ افتلينا[2] غلاماً سيداً فينا
إنا لنرخصُ يومَ الروع أنفسَنا ... ولو نُسام بها فى الأمن أُغلينا
بيض مفارقُنا تَغلِى مراجلنا ... نأسو بأموالنا آثارَ أيدينا
إنى لِمنْ معشرٍ أفنى أوائلَهُم ... قِيلُ الكُماةِ[3] ألا أينَ المحامونا
إذا الكُماةُ تنحَّوْا أن يُصيبَهم ... حدُّ الظُّبَاتِ[4] وصلناها بأيدينا

وترى الناقةَ تَطرب تحته إلى مواطنها ، وتشتاق إلى معاطنها ، فتحنُّ حنينَه ، وتئن أنينه ؛ وكلما رآها تشكو مثلَ شكواه ، وتُصغى بأذنها إلى نجواه ، وتُردِّد بُرغائها[5] صداه، وتُسعده بترجيعها فى هواه ، تأوَّه وتنهَّد ، وتَرنَّم فأنشد :

لقد زارنى طيفُ الخيالِ فهاجنى ... فهل زارهذى الإبلَ طيفُ خيالِ
لعلّ كَرَاهَا قد أراها جذابَها ... ذوائبَ طَلْحٍ بالعقيق وَضالِ[6]

---

(١) المصلى : السابق (٢) افتلى : استخرج (٣) الكماة : جمع كمى ، وهو الشجاع ولابس السلاح (٤) الظبات جمع ظبة ، وهى حد السيف أو السنان (٥) الرغاء : صوت الناقة
(٦) الطلح والضال : شجر شائك .

ومسرَحَها في ظلِّ أحوى (١) كأنها ... إذا أظهرتْ فيهِ ذواتُ حجالِ
تلوّنَ زَوراً في الحنين مُنزَّلاً ... عليهنّ فيه الصبرُ غيرُ حلال
وأنشدْنَ من شعر المطايا قصيدةً ... وأَوْدَعْنها في الشوق كلَّ مقال

ثم ننتقل إلى مشاهدة المعامع المشهورة ، والوقائع المذكورة ، فنرى الدماء تجرى أنهاراً في الوديان ، والمهج تسيل انحداراً من مسايل الأبدان ، والموتَ واقفاً يحصد الرءوس ، ويجنى نفائس النفوس ، والفارسَ يمشى في الصفوف مِشية الخُيَلاَء ، ويطعن برمحه كل طعنةٍ نجلاء ، ثم ينشد في وصف أثرِها ، وبُعدِ غورْها :

طعنتُ ابنَ عبدِ القيس طعنةَ ثائرٍ ... لها نَفَذٌ لولا الشعاعُ أضاءَها
ملكت بها كفّى فأنهرت فتقها ... يَرى قائمٌ من دونها ما وراءها
يهون على أن تَرُدَ جراحها ... عيونَ الأواسى إذ حمدتُ بلاءها

وتذكو شعلة الحرب ، فلا تنطفىء نارها، ولا يخمد أوارها، إلا وقد غادرت النساء أيامى، والأطفال يتامى ، والأموالَ نهباً منهوباً ، والأعلاق سَلباً مسلوباً . والمدائن خالية خاوية ، والقصورَ بائدة بالية ، والحرب ينخذل فيها القوى لِأَوْهى سبب ، وينتصر الضعيف من حيث لا يحتسب ، فكم دالت بها الدول ، ودارت الدوائر ، وانثلت العروش ، وسقطت الممالك بعد لواء العز المعقود ، وبساط المجد الممدود ، وبعد ذلك التناهى في العظموت ، والتمادى في الجبروت ، وبعد أن لم يكن يدور في الوهم سقوطها ، ويخطر في الخيال هبوطها ، كل ذلك يكون أسرع من لمح البصر ، إذا نزل القضاء وحُمَّ القدر ، وكل مُلْك مهما امتد ظله زائل ، وعند التناهى يقصر المتطاول .

ثم أدخلُ بِهِ في مطالعتنا إلى حلقة حكيم واعظٍ ، يسلب الألباب بقوة بيانهِ ، ويخلب العقول بضوء برهانهِ ، ويسترقُّ النفوس بطلاقة لسانه ، ويقول في حقارة الغنى وهوانه :

(١) الأحوى : ما تضرب خضرته إلى السواد .

« أيها الناس، والله لَدُنيا كم هذه أهوَنُ عندى من عُرَاقٍ[١] كلبٍ فى يد مجذوم. »

« والمخيَّر بين أن يستغنىَ عن الدنيا و بين أن يستغنِى بالدنيا ، كالمخيَّر بين أن يكون مالكا أو مملوكا .

مَنْ سرَّه أن لا يرى ما يسوءه فلا يتخذْ شيئاً يخاف له فَقْدَا

« والحياة الطيبة هى حياة الغَنى ، والغَنى هو القنوع ، لأنه إذا كان الغَنى ، عدم الحاجة إلى الناس ، فأغنَى الناس أقلهم حاجة إلى الناس ، ولذلك كان الله تعالى أغنى الأغنياء :

غِنى النفس ما يكفيك مِنْ سدّ خَلَّة فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا »

و يقول فى محاسن الأخلاق : « الجود حارث الأعراض ، والحلمُ فِدَام[٢] السفيه ، والعفو زكاة الظفر ؛ والاستشارة عين الهداية ، وأشرف الغنى تركُ المنى ، وكم من عقلٍ أسير عند هوى أمير ، ومن التوفيق حفظ التجربة ، ومَنْ لان عودهُ كثفت أغصانه ، ومن لانت كلمته وجبَتْ محبته . »

و يقول فى مساوىء الصفات: « الكاذبُ فى نهاية البعد من الفضل ، والمرائى أسوأ حالاً من الكاذب ، لأنه يكذب فعلا ، وذلك يكذب قولاً ، والفعل آكد من القول ، فأما المعجب بنفسه فأسوأ حالا منهما ، لأنهما يَريَان نقص أنفسِهما و يريدانِ إخفاءهُ ، والمعجب بنفسه قد عَمِيَ عن عيوب نفسه فيراها محاسنَ ويُبديها ، و إنى لأعجب للبخيل يستعجل الفقر الذى منه هرب ، و يفوته الذى إياه طَلَب ، فيعيش فى الدنيا عيش الفقراء ، و يحاسَب فى الآخرة حساب الأغنياء ، وأعجب للمتكبر الذى كان بالأمس نطفة وفى الغد جيفة ، وأعجب لمن يُغفل صبرَه و يشكو إلى الناس دهره ، فإن كان عدوًّا سرَّه ، و إن كان صديقاً أساءه ، وليس مسرة العدو ولا مَساءة الصديق بمحمودة :

ولا تَشكُ إلى خلقٍ فتشمِتَهُ شكوَى الجريح إلى العِقبان والرَّخَم

(١) العراق : العظم أكل لحمه .
(٢) الفدام : الخرقة على فم الابريق .

«والعجز عجزان : أحدهما عجز التقصير وقد أمكن الأمر ، والثانى الجدُّ فى طلبه وقد فات»

ويقول فى ذكر الحياة والموت : «إنما المرء فى الدنيا غرض تنتضل فيه المنايا ، ونهبٌ تبادره المصائب ، ومع كلِّ جرعة شَرَق ، وفى كل أكلة غَصَص ، ولا ينال العبدُ نعمة إلاّ بفراق أخرى ، ولا يستقبل يوماً من عمره إلاَّ بفراقِ آخر من أجلهِ ، فنحن أعوان المنون ، وأنفسنا نُصب الحُتوف ، فمِنْ أين نرجو البقاء ، وهذا الليل والنهار لم يرفعا من شيء شرفاً إلا أسرعا الكرة فى هدم ما بنيا ، وتفريق ما جمعا ، وعجبتُ لمن نسى الموت ، وهو يرى مَن يموت . »

ويقول فى وصف العلماء : «الخير من العلماء من يرى الجاهل بمنزلة الطفل الذى هو بالرحمة أحق منه بالغلظة ، ويعذره بنقصه فيما فرط منه ، ولا يعذر نفسه فى التأخر عن هدايته» .

ثم يختم وعظه بقوله :

الدِّينُ إنصافُكَ الأقوامَ كلهمُ — وأىُّ دِينٍ لآبى الحق إن وَجبا
والمرء يُعييه قَوْدُ النفس مُصحِبةً — للخير وهو يقودُ العسكرَ اللَّجِبا(١)

اللهم اكفنى بوائق الثقات ومكايد الأصدقاء» .

ثم أنتهِى بصاحبى إلى مجالس محاضرات بين الأدباء ، ومفاكهات بين الندماء ، فنقرأ من لطيف بَوَادرهم ، ورقيق نوادرهم ، ما ينير ظلمة الفهوم ، ويجلو صدأ الهموم :

لفظٌ كأنَّ معانى السكْرِ تسكنهُ — فمَن تحفَّظَ شيئاً منهُ لم يُفقِ
جزْلٌ يشجع مَنْ وَافَى لهُ أذنا — فهو الدواء لداء الجبنِ والقلقِ
إذا ترنَّمَ شادٍ للجبانِ به — لاَقَى المنايا بلا خوفٍ ولا فرَقِ
وإنْ تمثَّلَ صادٍ للصُّخور به — جادتْ عليه بعذْب غيرِ ذى رَنَقِ

وهكذا قضيتُ مع الباشا زمناً ليس بقصير ، أستخرج له نفائس الأعلاق ، من بطون

---

(١) اللجب : الجيش ذو الجلبة

الأوراق ، وأقتطف معه زهر الأدب العاطر ، من حدائق الكتب والدفاتر ، إلى أن قال لى ذات يوم ، بين ندم ولوم :

(الباشا) — إنَّ أعظم ما آسفُ عليه اليومَ تلك الأيام التى أضعتها من سالف عمرى فيما لا يجدى ولا يفيد من مشاغل الدهر وملاهى العيش ، ويا ليتنى كنت قصَرت همى منذ صباىَ على مثل هذه المعيشة ، مع هذا التفرغ لاجتناء فوائد العلوم ، واقتناء فرائد الآداب ، مغتبطاً سعيداً ، لا حاسداً ولا محسوداً ، أتنقل من مطالعة الكتب إلى مذاكرة العلماء ، ومن مذاكرة العلماء إلى مسامرة الفضلاء ، ومن مسامرة الفضلاء إلى مطارحة الأدباء : والله يعلم أن أسفى ليزيد شدة ، وأنَّ ندمى ليعظم حدّة ، كلما تذكرت ما كانوا يحدثوننى به فى أيام دولتى عن مجالس العلم والأدب ، فما كنت آبهُ ولا أنتبه إليها ، وكنت أظن أهلها قوماً من أهل الكسل والفراغ يجلسون للدفاتر والكتب كما تجلس النساء للغزْل والرّدْن[1] ، والحمد لله الذى أرشدنى إلى الهدى آخرَ الدهرِ ، فعلمت مقدار هذه النعمة التى حَبَّبتْ إلىَّ الحياة ثانية ، وهونتْ علىَّ احتمال متاعبها ، وما إخالك تبخل علىَّ بعد الآن ، وقد علمتَ نفع ذلك لى ، بمداومة السير معى فى هذا الطريق الحميد ، وما أرى من بأس فى أن نترك هذه العزلة حيناً بعد حين للاجتماع بالناس فى مجالس الأدب ، ومجامع الفضل ، وأندية العلم ، لنتذاكر معهم ما نطالعه ، ونأخذ عنهم ما يحفظونه ، وقد زالت المخاوف واطمأنت الخواطر بزوال الأوبئة والطواعين ، والحمد لله رب العالمين .

(عيسى بن هشام) — لا تطمعنَّ أيها الأميرُ — دفعَ اللهُ عنك المكاره — فى مثل هذه المجالس ، فقد طوتها الأيام ، ورمَستها الليالى ، ولم يبق اليوم من يأنس إليها وينافس فيها .

(الباشا) — كيف يكون ذلك ؟ وأنا لا أزال أسمع ما تزعمونه من كثرة المدارس الآن وانتشار العلوم والفنون ، وتعدد الطالبين ، وسهولة الحصول على الكتب ، ووفرة المطابع وإطلاق الأفكار من القيود ، وأين هذا مما كنا عليه فى الزمن الأول من تعسر الوصول

---

(١) الردن : مثل الغزل .

إلى الكتب ، وتعذر استنساخها لضن أربابها كأنها لديهم خفايا الكنوز ، حتى لقد كان الجهلاء الذين لا ينتفعون بها ، ولا يفقهون منها شيئاً ، هم أول من يفاخر باقتنائها ، ويعتبرونها ضرباً من ضروب الزينة والزخرف ، كأنها اليواقيت والجواهر ، يعجز عنها من يروم الانتفاع بها ، إن لم يكن ذا ثروة واسعة تمكنه من استنساخها أو ابتياعها ، فلا بِدْع اليوم أن يكون فى يد كل مصرى كتاب يطالعه ، وأن يكون كل واحد منهم قد أصبح فى العلوم والفنون أَليفَ محاضرة ، وحليف مذاكرة ، تُزْدهى به مجالس الفضل وتزهو أندية الأدب ؛ وكيف لا يكون ذلك ، وقد ذقتُ من حلاوة المطالعة والمذاكرة ما أنسانى حلاوة كل لذة فى العالم ؟

(عيسى بن هشام) — نعم شاعت العلوم فى هذا العصر ، وترقّت الفنون ، وكثرت المطابع ، وسهل على الناس اقتناء الكتب ومطالعتها ، ولكن قل بيننا عدد الراغبين فيها والمطالعين لها ، فكسدت سوقها ، وبارت تجارتها ، وأغفلها من ينتفع بها الاشتغال بسواها من الأمور الباطلة ، والأشياء التافهة ، ورغب عنها من كان يقتنيها للزينة ، لكثرة الانتشار والتبذل ، والناس اليوم فى حركة لا شرقية ولا غربية ، قد اشتغل بعضهم ببعض ، واكتفوا من دهرهم بحوادث يومهم ، فتعطلت بينهم مجالس العلم ، واندرست مجامع الأدب ، واقتصروا على مطالعة أخبارهم فى الجرائد والصحف دون الدفاتر والكتب ، وأنى يكون لهم الاستقرار فى المجالس ، وهم لا يستقرون فى مكان ، ولا يهدأون من حركة ، ولا ينفكون عن غدو ورواح ، ولا ينتهون عن نقلة وسفر ، وأكثر ما يكون جلوسهم فى المركبات : مركبات الخيول أو البخار أو الكهرباء ، وأهل اليسار منهم يقضون جزءاً من شهور العام مترحلين فى بلاد الأجانب ، متنقلين فى ديار الغربة للنزهة والتفكه ، وقصارى العلم عندهم أن يتلقى الطالب أشتاتاً منه فى المدرسة وأطرافاً ، وهو بالسن التى لم يصل فيها بعد إلى تمام التعقل وكمال الإدراك ، فيحفظها ويؤديها كالببغاء فإن أسعده الحظ فى آخر الدراسة ونجح عند الامتحان ، تأبط صك الشهادة ونفضَ يده من تلك العلوم ،

وطرَحها عنه طرح الثوب الخلَق، ونبذَها نبذ القادم على أهله ما أسِنَ من ماء[1] وما جفَّ من زادٍ، انتقاماً لنفسه مما عاناه من مشقة، وقاساهُ من تعب فى درسها وحفظها، من غير أن يفقه لها مزية فى ذاتها، أو يذوق لها حلاوة فى طعمها، فإذا هو بلغ إربتهُ، ودخل فى خدمة الحكومة، أصبح كالعامل من العمال لا العالم من العلماء، وقلَّ فيهم بعد ذلك من يصبوا إلى العلم وأهلهِ، أو يحن إلى الأدب وكتبهِ، ولئن مال بعضهم للمطالعة فإنها لا تتجاوز حدَّ الكتب المتعلقة بأصول وظيفته، ولذلك أصبحت كتب العلم والأدب مملوله منبوذة، وثقلَ على الناس مطالعتها لما هم فيه من كثرة الحركة والتنقل وطول الانهماك فى الأشغال المتجددة، فلا يقوى أحدهم على مطالعة صحيفة من كتاب إلا وقد بلَّهُ العرقُ، ودهمهُ الكلال والملال، ونزلَ بهِ الضجر والسأم، وَإنك لترى مثل هذا بيناً فى حديثهم، فهم لا ينصتون إلى قصة متصلة، ولا يتبعون فى الكلام قضية مرتّبة، ولا يعجبهم منه إلا ما كان متقطعاً مبتوراً أو مقتضباً مجذوماً.

(الباشا) — ما أكاد أُخليك أيها الصديق من غلو فى وصف هذه الحال، وهل خلا أو يخلو زمان، فى البداوة كان أو فى الحضارة، من مجالسَ للعلم، ومجامعَ للفضل، وأسواقٍ للأدب. وما كان زماننا الذى كنت فيه ليخلو من آثارها، حتى لقد رأينا فيه كثيراً من الكبراء والأمراء ممن لا نصيب لهم من العلم والأدب لا يُغفلون مجالسهم من وجود شاعرٍ مجيد، أو فاضلٍ أريب، أو نديم أديب، أو محدِّث ظريف، تتفكه به النفوس، وتستريح له القلوب، هذا والكتبُ بين الناس قليلة التداول، والعلمُ بعيدُ التناول، فما بالكم اليوم على هذه الحال التى تصف، والصحفُ منشورة، والكتب مطبوعة، وأسماء العلوم مذكورة؟

(عيسى بن هشام) — قد استغنى كبراؤنا وأمراؤنا اليوم عن تزيين مجالسهم بالعلم والأدب، وقصروا هممهم فيها على التفاخر بالمقتنيات المزخرفة، والأدوات المصنّعة من عمل

(١) أسن الماء: تغير فلم يشرب

الغربيين ، فترى الكبير أو العظيم يقلّب فى يده العصا المضيئة بالكهرباء مثلاً ، أو الساعة التى ترنُّ بعدد الثوانى ، وهو يعتقد أنها أجلُّ قيمةً فى العين ، وأجملُ أثراً فى النفس من جميع العلوم التي تستضيء العقول بممارستها ، ومن جميع الكتب التى تصفو ساعات الحياة بمطالعتها ، ولا تتوهمنَّ أننى أجزم لك بخلوّ هذا الزمن عن مجالسَ للعلم ومحافلَ للأدب ، وما كان كلامى إلا على الوجه الأعم ، وقد آن أن أجيبك إلى ما طلبتَ ، فأزُور بك بعض المجالس والمحافل ، لينقطع رَيْبك ، وليطمئنّ قلبك .

الأعيان والتجار

قال عيسى بن هشام : واستنهضتُ الباشا أزُور به مجلساً من تلك المجالس المعدودة، والأندية المعقودة ، مجالسَ الوجهاء والتجار ، أهل الصيت المرتفع فى الأمصار ، فشهدتُ منهُ أزوراراً وانقباضاً ، ووجدت فيه انحرافاً و إعراضاً . ثم التفتَ إلىَّ يعاتبنى عتاباً شديداً، و يوسعنى عذلاً وتفنيداً ، ويقول لى : ما عهدت منك منذ صاحبتك إلا الخيرَ لى تريده، والنفعَ تبدؤه وتعيده ، ومازلت أشكر لك تلك اليدَ البيضاء ، فى العزلة عن الناس والتخلص من مواقف القضاء ، دفعاً لما كنتَ تحذر وتخشى ، من شر الخاتمة وسوء العقبى ، بتزاحم الأحزان ، وتراكم الأشجان ، وما تعقبه من السقم والاعتلال ، وسوء النكسة بعد النقه والإبلال[1] فما بالك تستنهضنى إلى مثل هذه المجالس والمجامع ، وربما كان فيها ما يؤذى العيون وينفر المسامع ، وقد شاهدتنى يكاد يصيبنى التلف، من شدة الحزن والأسف فقلت: أشهد الله ما أبغى لك إلا الخير والتوفيق ، فى كل مذهب وطريق ، وقد رأيتُ التجاربَ أوسعتك كرماً وحلماً ، وصروف الدهر أكسبتك معرفةً وعلماً ، بعد قلة الاختبار ، وكثرة الاغترار ، وسوء الابتدار ، فى الإيراد والإصدار، وما كان فيك من خشونة الملمس، وشموخ الأنف ، وضيق العَطَن ، وصَلَفَ الرأى ، وما أحب لك بعد ذلك أن ترى فى أمور الناس إلا مشهداً يُسلِّى عن الكرب، ومَلعباً يفرِّج عن القلب ، فلا يكن نظرك إلى أعمالهم فى غدوهم ورواحهم وفى أفراحهم وأتراحهم ، ونعيمهم و بؤسهم ، ورجائهم و يأسهم، مثل نظر الحكيم « هيراقليط » بل مثل نظر الحكيم «ديموقريط» ، كان الأول يشاهد أمور الناس فيبكى ويتحسر، وكان الثانى يراها فيضحك ويسخر، فإذا أنشد أحدهما فى نصرة مذهبه :

النـاسُ مِنْ دنياهمْ فى مأتمٍ   فالسُّحْبُ تبكى والرواعدُ تَندبُ

أنشد الثانى فى تأييد مشربه :

هذِى الحيـاةُ روايةٌ لمشخِّصٍ   فالليلُ سِترٌ والنهارُ الملْعَبُ

---

(١) الإبلال : الشفاء

ومن صواب الرأى أن لا تذهب نفسُك عليهم حَسرات ، ولا تذرف عينك من أجلهم العَبَرات ، وهلمَّ معى أمتعك بزيارة مجلس يؤنس من وحشتك ، ويكشف من غمّتك ، فأسلسَ مطاوعاً فى القياد ، ووافقنى على ماتبين له من الرشد والسداد ، فيمّمتُ به داراً عالية الجدران ، واسعةَ الأركان ، شاهقةَ البنيان ، لأحد التجار والأعيان ، فزاحمَنا عند الباب سائسٌ يسحب فرساً مُصحباً مُطيعاً ، ويحمل على كتفه طفلاً رضيعاً ، يقول وقد أظهر الغيظُ بواطنَهُ الكامنة : « لستُ أدرى واللهِ أسائسٌ أنا أم حاضنة ؟ » ، ومن ورائه آخرُ يحمل صفحةً متدفقةً بالخلل ، يقول وقد تلوَّثَ بمائها وتبلل : « علامَ أنصب فى هذه الدار وأشقى ؟ وإلامَ يدوم هذا الشقاء ويبقى ؟ ولست أدرى واللهِ أسائقٌ أنا أم سقّا ؟ » . ولما وَلجنا الباب إذا بالبواب ، يقول وفى يده صُرة ثياب : « لا مَردّ للمقدور والمقضى ، ولا رجاء فى العيش الرخىّ ، ووالله ما أدرى أبوّاب أنا أم خصىّ ؟ » ولما جاوَزْنا دهليز المكان ، إلى باب الإيوان ، وجدنا عنده غلاماً فتىَّ السنّ ، يتنهد ويَئِنّ ، وبين يديه دخان وورق ، وبجانبه كتاب مطبق ، وهو يقول : « عجباً والله للوالد يشغل ابنه بسجارات يحشوها ، فيلهيه بها عن دروس له يتلوها ، لا غروَ إن فاضت العيون بسوا كبها ، واحترقت القلوبُ بلواهبها ، فما أدرى والله أفرّاشُ الدار أنا أم ابنُ صاحبها ؟ » فما أحسَّ بنا حتى انتفض قائماً ، وتقدم مُسلماً ، ثم ذهب أمامنا ، ليذكر قدومنا ، وإذا بالوالد مقبلاً علينا يتكفأ فى مشيته ، ويتعثر فى جُبته ، فسهّلَ بنا ورحّب ، وبالغ فى التحية وأسهب ، ودخل بنا على أهل مجلس مختلفى الأزياء والهيئات ، متباينى الأشكال والسِّمات ، فمِنْ صاحب عمامةٍ يتعهد بيده رَصْفَها ، وآخر يجدّد لفّها ، ويحبك بالإبَر طرفها ، ومِنْ صاحب طربوش قد أمالهُ على جبينه ، فإذا تحرك أسنده بيمينه ، فترى يدَه أبداً لا تسكن ولا تستقر ، كأنما هو فى تأدية سلامٍ مستمر ، ووجدناهم جميعاً قد كثر بينهم اللغو واللغط ، وسمعناهم يتحاورون على هذا النمط :

(أحدهم) — نعم لا بدّ من ذلك إذا يسّر الله وتم الاتفاق مع الخواجه فلان ، فإن إقامة عمارة أخرى بجانب تلك العمارة مما يأتى بأرباح لا يمكن أن تأتى بها الأشغال التجارية ،

وأنا أنصحك يا أبا هاشم أن تترك التجارة جانباً ، فقد أصبحت الآن لا نفع يُرجى منها، وتوكلْ على الله فى الاشتغال معنا بالأبنية فهى أنجح وأربح .

(الثانى) — ومن أين لى ، زادك الله من النعمة والبركة ، ما يساعدنى على هذا التوسع، والحال على ما تعلم ضعيفة ، والحمد لله على نعمة الستر فهى الغنى الكامل ؟

(الأول) — لا تقل هذا أيها السيد ، « وأما بنعمة ربك فحدِّث » ، ودعواك ضعف الحال إن هى إلاَّ تواضع منك ، والله يزيدك فضلا على فضل .

(الثانى) — استغفر الله يا سعادة البك ، هذا حسنُ ظن منك ، وإلا فالحقيقة غير ما ظننت ، وقد قلت لك إن الستر هو الغنى الكامل ، وعلى كل حال فالبركة فى التجارة، فمنها كان رزق الآباء والأجداد . وربحٌ مستور ، أبرك من ربح مشهور .

(ثالث) — تا الله إنكم لفى ضلالكم القديم ، وهل بقى فى التجارة ، التى زاحمكم عليها الأجانب ، ربح يُذكر ، أو رزق يُطلب ، فاتركوا هذا الخمول ، وعليكم بأشغال الأقطان فى البورصة ، فهى الربح المضاعف ، والرزق الحاضر ، يأتيك رغداً بلا كد ولا تعب ، وكم رأينا من فقير ولَجَ البورصة ، فخرج بفضل المضاربات غنياً كبيراً ، وهذا صاحبنا الخواجة فلان اليهودى ، وفيكم من أدرك والدته تبيع الخبز بالحارة ، قد مارس تلك الأشغال ، فأصبح أكثر الناس مالاً وأرفعهم حالا ، ونحن لا نزال على ما تركه لنا الآباء والأعمام رحمة الله عليهم.

(رابع) — ولكن فاتك أيها السيد أن صاحبنا هذا الذى تعنيه لم يصل إلى ذلك إلا بأشغال السمسرة ، وفيها من الحطة ما لا يخفى عليكم ، وهل تريدون أن ينزل أحدٌ منا بنفسه إلى هذه الأشغال بعد أن عشنا مثل هذا العمر ؟

(الثالث) — حاشا الله أيها السيد ، ليس هذا من قصدى ، وإنما أردت أن أبين لكم أن هذا اليهودى دخل البورصة سمساراً لا يملك مالاً ، فأصبح من كبار الأغنياء، فما بالك بمن يدخلها وهو صاحب ثروة ، لا شك أنهُ يخرج منها بعدمدة قصيرة قارون زمانه،

(خامس) — ما وراء الربح الكثير إلا الخسران الكبير ، وقد شاهدنا بأعيننا ما أنتجته أشغال البورصة من تخريب البيوت العامرة ، وتبديد الغنى الواسع ، والانحطاط

العماد الرفيع ، وأرى أن الإقدام على هذه المهالك من الجنون المحض « فالله خيرٌ حافظاً . »

(سادس) — أما أنا ، ولا يُلدغ المؤمن مِنْ جُحْر مرتين ، فقد كفانى تأديباً ما تكبدته من الخسائر فى تلك المضاربات على الأقطان ، ولولا فضل الله وبركة دعاء الوالدين لما نجوت من الخراب .

(الثالث) — لا حول ولا قوة إلا بالله « إنك لا تَهدِى من أحببت » ، كيف تخشون الخسارة فى أشغال الأقطان ، وتتوقعونها والربح فيها مضمون ، مع بعض الانتباه لمجرى الأخبار ، وحسن التخمين فى الإحصاء ، وتقديرِ المحصول والمطلوب للتسليم ، ومع القليل من الممارسة والجراءةِ فى العمل .

(سابع) — كيف تدّعى ذلك ، حفظك الله ، وهذا فلان المشهور قد انقطع لهذا العمل واجتمعتْ فيه معدَّاتهُ ، فما زال يهوِى فى بحر البورصة ، حتى وصل فى الخسارة إلى القرار وإن كان لا يزال ظاهراً فى أعيننا بمظهر الغنَى الواسع والمالِ الجمّ .

(ثامن) — سبحان الله ! ألا تعجبون معى من اتساع الشهرة بيننا بالغنى والثروة ، ثم لا نلبث أن تنكشف الحال عن القلة والضعف ، فكم سمعنا بأن فلاناً صاحب ثروة تقدَّر بألوف الألوف ، ثم يظهر الخفىُّ ، ويتضح الباطن ، فلا تبلغ الحقيقة معشار تلك الشهرة الكاذبة

(الخامس) — نعم صدقت ، ألم تروا إلى المرحوم فلان كيف كان يفاخرنى فى كل مجلس عندما أخذتُ الرتبة بأنه أكثر منى مالاً وأعظم ثروة ، وأن مقامه بذلك رفيع ، ومرتبته سامية ، فلما توفاه الله انكشف الحال ، ولم يَرِث عنه أولادُه ما يكفى لبقاء بيته مفتوحاً ، وبقاء اسمه مذكوراً ، وقس على ذلك أمثاله من هذا القبيل ، فسبحان الغنىّ الدائم .

(الرابع) — دَعُونا بالله من ذكر الأولاد والمواريث ، فإننى كلما تذكرت أخلاق آبائنا فى هذا الزمن ، ورأيت ما وصلتْ إليه ثروة فلان ، وما انتهى إليه حال أولاده من الفقر والضنك ، بعد أن بددوا تلك الأموال الطائلة ، وأصبح ذكر أبيهم بينهم نسياً منسياً ، فلا يزورون له قبراً ولا يطلبون له رحمة ، هان علىّ أن أنفق ما فى حوزتى فى حياتى ، وأن أتمتع بأموالى فى مدة عمرى .

(الخامس) — معاذ الله أن نفعل ذلك بأبنائنا ، وما فائدتنا فى هذه الدنيا إذا لم نجمع الأموال وندخر الثروة لأعقابنا ، ونترك لهم ما يغنيهم عن سؤال اللئيم بعدنا ، ولا نجعل الذنب كله على الأولاد فى تبديد المواريث ، بل الذنب كل الذنب على الآباء الذين يتركون أموالهم هَمَلاً بعد موتهم ، ويغفلون عن تقييدها بالوقف فينتفع الأولاد بالريع ، وتبقى العين قائمة والبيت مفتوحاً ، والاسم مذكوراً ، ولا يحتاج أحد من الذرية وذرية الذرية مع وجودها إلى . . .

(السادس) — لامؤاخذة ياسعادة البك فى مقاطعة الحديث ، ألم تسمع بما حصل فى وقف فلان وفلان وغيرهما ، وكيف أغتال النظار حقوق المستحقين ، وذهب الوقف ضياعاً بين القضايا والدعاوى والديون ، حتى آل النظر والاستحقاق فيها لليهود ، واندثرت البيوت وعفت الآثار ، وذهبت أسماء أصحابها ، كما ذهب أمس قبل اليوم .

(السابع) — نعم ينفع الوقف ويبقى الميراث على شرط أن يكون بمثل الشروط التى وقف بها المرحوم فلان ، فإنه خصص جانباً من الريع لذريته ، واشترط أن يُحفظ الباقى ويُدخر ، وكلما تكوّن منه نقد عظيم يُشترى به عقار ، ثم يوقف ويضاف إلى الوقف الأصلى ، ليكون فى نموّ متواصل على توالى الأيام وصروف الحدثان ، وبذلك يصير البيت فى درجة عالية من الغنَى بعد وفاة صاحبه فوق ما كان عليه فى أيام حياته ، فأنعِمْ بها من طريقة وأحْسِنْ بها من وسيلة .

(الثالث) — ليس ذلك من الحزم فى شىء ، ولكنه الغلو فى البخل والشُّح ومحبة الادخار بعد مفارقة الحياة ، ولقد حَرَم المرحومُ نفسهُ من التمتع بماله فى حياته ، وحَرَمَ أولاده منه بعد موته بابتداع هذه الطريقة الغريبة فى شروط الوقف .

(الأول) — أطلبُ منك العفو والسماح وعدم المؤاخذة ، فمن يقول إن المرحوم كان شحيحاً مقتراً ؟ قد والله عاشرته الزمن الطويل فما رأيته يحرم نفسه أو يقتر عليها ، وما كانت مائدته لِتخلو من الضأن أو الحمام أو الدجاج ، وحَقِّ جدِّك ، وإنما كان الرجلُ حازماً لاينفق ماله إلا فى الوجوه النافعة .

(الثانى) — لا اعتماد عندى فى هـذا الباب على الوقف أو الملك ، وخيرُ مايدَّخر الوالد لأبنائه وأفضلُ ميراث لهم أن يحسن تعليمهم وتهذيبهم فى المدارس ، وأن لايعوّدهم فى حياته الإنفاق والتبذير ، بل يروضهم على التوفير والتدبير ، ومعرفة قدر الدرهم والدينار .

(الأول) — وهل جاءتنا المصائب فى أولادنا إلاّ من هذه المدارس وتعليمها ، وهل ذلك التهذيبُ إلا ما شئتَ من الفظاظة والوقاحة والكبرياء والمكابرة ؟ ولقد أدهشنى فلان بالأمس ، وأضحكنى فى شكواه مرّ الشكوى من حال ابنه المتهذب المتعلم فى المدارس والمجالس ، إذ قال لى فى حديثه : « مازال هذا الولد يزيد فى تعذيبى وتكديرى منذ خروجه من المدرسة ، فأصبح لايكلم أهلهُ إلا بالرَّطانة ، ولا يُعرِب عن غرضه إلا بالتعنيف والتأنيب ، ولا يرضى عن شىء فى البيت ، فإذا جاءوا له بالماء قال فيه الميكروب ، وإذا أتوه بالخبز والجبن قال علىّ بالميكروسكوب ، ثم ترى الشقىّ يقسِّم الأطعمة أقساماً ، فيقول البيض واللبن غذاء كامل ، والخُضَر غذاء ناقص لاينفع ولا يمرى ، وإن الأرز وما شابهه من « المواد النشائية » لا فائدة منها سوى أنها تحترق كالوقيد فى الجسم ، وما زاد منه عن الحاجة فهو شحم يغلظ به الجسد وتتورم به الأعضاء ، وإن الفواكه لابد أن تؤكل من ساعتها إذا تشققت خصوصاً البطيخ لأنه أسرعها قبولاً لتولد الحيوانات السامة ، وهلم جرًّا ، حتى حيّر الخبيثُ أهلَ البيت فى طعامه وشرابه ، فوق ما حيّرنى فى اختلاف ملابسه وتعدُّدِ أزيائه وكلما عارضتُه فى شىء ، شمخ بأنفه استكباراً ، وَلوى عنقَهُ استحقاراً ، وسخر بى لجهلى ، وفَخَر علىّ بعلمه . هذا هو منتهى التأدب الذى يكتسبه أبناؤنا من علوم المدارس ، يتعالون على آبائهم ويعيرونهم ، بعد أن كان الولد كالبنت البكر فى الزمن الماضى ، لايرفع طرفه فى وجه والده حياء ووجلاً ، وكان لايجرؤ على مكالمته إلا مجيباً عن سؤالٍ مِن صغره إلى كبَره

(الثانى) — ولـكن فاتك أن تعليم أبنائنا فى المدارس يفيدنا فائدة عظيمة يُغتفر لها كل ذنب ، وهى دخولهم فى سلك الموظفين فى الحكومة ، وارتقاؤهم المراتب والمناصب ، وياليت آباءنا كانوا التفتوا فى أيامهم إلى تعليمنا فى المدارس ، فكنا استغنينا عن ممارسة التجارة ، وذل البيع والشراء ، وكسادِ السوق ، وترويج السِّلعة بالأقسام والأيمان ، فما

العيش إلا عيش الموظفين الذين يأخذون مرتبهم فى آخر كل شهر نقداً عيناً، وذهباً خالصاً، دفعةً واحدة سالمة لأيديهم بلا مطل ولا تسويف ، فى مقابل جلوسهم بالديوان ثلاث ساعات من كل يوم ، يقضون الجزء الأعظم منها فى المسامرات والمفاكهات ، ثم ناهيك بما لهم بين الناس من التوقير والتعظيم ، وما فى قدرتهم من مساعدة الأصحاب ونكاية الأعداء ، ورأس المال فى ذلك كله الإحاطة ببضعة كتب فى المدرسة ، فأخبرنى حينئذٍ أىّ ربح فى التجارة ، وأى شأن لها يوازى هذا الربح ، وهـذا الشأن فى خدمة الحكومة ، وسبحان مَنْ قسم الحظوظ فلا عتابَ ولا ملامة .

(الرابع) — كل هذا معلوم ومسلَّم به ، ولكن من أين لك أن ينال ابنك الشهادة ، وأنت تعلم حال القابضين على زمام التعليم ، فقد خرج أكثر أبنائنا من المدارس بلا شهادة وخسرنا عليهم الأموال فى نفقاتها ، ومَن صادفتْهُ العناية منهم ونال الشهادة ، مثل ابنى ، فإنه لم يزل يتردد على أبواب الحكومة فى تطلّب الخدمة ، والوظائفُ مشحونةٌ ، ونظار الحكومة لا يجددون سواها .

(السادس) — عسى الله أن يبدّل الأحوال ، ويسقط هـذه النظارة ، ويمنّ علينا برجوع أولئك النظار الذين يهتمون بمصالح أهل البلد وأبناء الوطن ، فترى حينئذٍ كيف يكون تقدُّم أبنائنا فى المناصب .

(الخامس) — حقاً إذا ذهب هؤلاء النظار ، وعاد صاحبك إلى النظارة ، فقد أقبل علينا السعد ، وانجلت الكروب ، وصفت الأوقات ، وأنا أرجو أن لا تنسى ابنى عند السعى لأنجالك ، فقد كان معهم فى مدرسة واحدة ، وهو دائماً يطالع الجرائد ، ويترقب الحوادث التى يكون من ورائها سقوط هذه النظارة .

(الثامن) — أراكم تخبطون فى أمر أولادكم على غير هدًى ، والأصوبُ عندى أن نعلمهم العلوم ليكونوا أسوة أهل زمانهم معرفة واطلاعاً ، لا لأجل التوظف فى الحكومة والخروج عن طبقاتهم ، وأما من جهة حفظ المواريث فى أيديهم بعد مماتنا ، فأحسن الطرق أن لا نقتر عليهم فى النفقة أثناء حياتنا ، وأن لا نتركهم بمعزل عن أشغالنا ، بل نخصص

لهم قسماً من المال يشتغلون به على حِدَتِهم تحت أعيننا ، ليتمرنوا على العمل ، ويدركوا لذة الكسب بأنفسهم ، فتتربى لهم ملكة الحرص على المنافع ، وينتفعوا بعلومهم فى اتساع تجارتهم ، والتفنن فى أبواب المرابحة ، وقد جربت ذلك فى أولادى ، وأنا أرجو فيهم الخلف الصالح إن شاء الله .

(السادس) — هل جاءت جريدة اليوم ؟

(صاحب البيت) منادياً لابنه — إئتنا بالجريدة واقرأها علينا .

(يحضر الغلام وفى يده الجريدة ناشراً لها)

(الأول) — اقرأ لنا من الأول .

(الغلام) قارئاً — الحرب .

(السادس — هل وَقعت الحرب ؟

(الغلام) — ليس يتبين ذلك من أول المقالة

(السادس) — اقرأها من آخرها

(الخامس) — اتركها من أولها إلى آخرها ، واقرأ فى « المحليات » فلا فائدة لنا فى وقوع الحرب أو اجتنابها .

(الغلام) قارئاً — تأليف الشركات .

(الرابع) للسادس — لا يذهبْ عن فكرك مشروع الشركة الوطنية التى كنا تكلمنا فى تأليفها منا لمشترى الأطيان المعلومة من الحكومة .

(الخامس) — إن شاء الله يكون لنا نصيب معكم فى هذه الشركة .

(الثالث) — مَنْ أعضاؤها ، ومن الرئيس ؟

(السادس) — أعضاؤها فلان وفلان وفلان ورئيسها فلان

(الثالث) — معاذ الله أن أقبل الدخول مع فلان في شركة ، وهل نسينا ما وقع منه .

(الثانى) — وأنا لا أقبل الدخول فى شركة بعدُ تلك الشركة المشهورة بخيبة المسعى لما لم أكن أنا الواسطة فى مقابلة الحكام والمداولة معهم .

(السابع) — وأنا لا أقبل الدخول فيها إلا إذا كانت « أسهمى » فى التأسيس أكثر من فلان .

(الأول) — وأنا لا أقبل أن يكون فلان رئيساً علىّ فى شركة أبداً .

قال عيسى بن هشام : واشتد بينهم الجدال والخصام ، تحملقت العيونُ ، وعبست الوجوهُ ، وتحركت الضغائن ، وثارت الأحقاد ، ورأينا كل واحد منهم يضمر لأخيه من الشر والأذى ، ما لا يضمره القِرن لقِرنه فى ساحة الوغى ، فانصرفنا عنهم ، وتركناهم يموج بعضهُم فى بعض ، كأنهم فى موقف الحشر ويوم العرض .

أرباب الوظائف

قال عيسى بن هشام : وسرنا إلى زيارة مجلس من أرباب الحكم والولاية ، وذوى السياسة والدراية ، ممن بِيَدهم حلُّ الأمور وعقدُها ، وبِمُلكهم شقاء الأمة وسعدُها ، الناشئين فى مهد المعارف والعلوم ، والنابغين فى أشتات المنطوق والمفهوم ، والموصوفين بدقة النظر وبُعد الهمم ، والواقفين على أخلاق الخلق وعادات الأمم ، الذين تنكشف لضوء آرائهم غياهبُ الخطوب الداجية ، وتنقاد للطف سياستهم أزمة القلوب الآبية ، فوصلْنا إلى دارٍ يزهر بياضُها ، ويبهر إيماضُها ، قد ضربتْ عليها المحاسن أطنابَها ، وخلعتْ عليها الزخارف جلبابَها ، فسار بنا الخدم إلى حجرة فى جانب الساحة ، أعدّت للانتظار والاستراحة ، وإذا برجل جالس فيها يتمايل بين يقظان ووسنان ، فرأسه كُرَةٌ والكرى صولجان ، فلما أحسّ بقدومنا ودخولنا عليه ، انتبه يزيح النعاس بأصبعه عن عينيه ، فسمْنا فسلَّم ، وهو يتثاءب ويتلعثم ، فتخيلناه من ظاهر جملته ، وبذاذة هيئته ، أنه صانع من الصناع ، أو تبعٌ من الأتباع ، ولكن ما لبث أن ظهر لنا من مخاطبته للغلام ، أنه ذو رحم فى البيت وذو مقام ، ثم التفت إلينا يخاطبنا ويقول ، بعد أن ذهب الخادم مستأذناً فى الدخول : « قبّحَ الله الخدم ، فهم نقمة من النقم ، شرّهم حاضر ، وخيرهم نادر ، والعناء بهم ليس له آخر ، فكم أغضبوا حليما ، وآذوا كريماً ، وكم كسروا الصحيح ، وخلطوا الصريح ، وكم ارتكبوا جرماً وإثماً ، وجاءوا إفكا وظلماً ، وكم فتحوا الأغلاق ، واختلسوا الأعلاق ، وكم أحدثوا الشقاق ، وأذهبوا الوفاق ، وكم فرّقوا بين المرء وأهله ، وحالوا بين الفرع وأصله ، ولعنة الله عليهم فى الدارين ، فقد ذقتُ منهم الأمرّيْن ، وكادت تصل بنا أفعالهم الشنيعة ، إلى ما لا يُحمد من الجفاء والقطيعة ، وابنى حرسه الله ينظر ويُغضى ، ويتحمل منهم ما لا يُرضى ، وهم يتجنّون علينا وينتصرون ، وإذا أمرتهم بأمر لا يأتمرون ، ويشهد الله أننى كلما رأيت مال ابنى فى أيديهم يتبعثر ويتبدد ، ونفقتَه بهم تتضاعف وتتجدد ، ذاب الفؤاد فسال من العيون ، مَشوباً بماء الشؤُون (١) وأما وكيل البيت ، وما أدراك

---

(١) الشؤون : عروق الدمع من العين

ما الوكيل ، فحسبنا الله ونعم الوكيل، فتى لا تخطئ في النفاق مخيلته ، ولا تطيش في البيت حيلته ، دأبه المكر والخداع ، وديدنه الشقاق والنزاع ، يُرضِى طفلا ، ليسخط كهلا ، ويتملق للجارية في الحرم ، وللوصيف من بين الخدم . . . »

هذا وما زال الرجل يشكو ويتضجر ، ويتأفف ويتحسر ، فلم يُنقِذنا من هذه الشكوى التي تُصِم الآذان ، إلا رجوع الغلام بجواب الاستئذان ، فانتهينا من شقشقة لسانه ، وحمدنا الله على كرمه وإحسانه ، ثم اقتفينا أثر الغلام إلى حجرة بادية الرُّواء ، مضيئة بالكهرباء ، مفروشة بأثمن فراش ، وأبدع رياش ، على اختلاف في الأجناس والأنواع ، وتباين في الأشكال والأوضاع ، فالتحفة الشرقية ، تقابلها الطرفة الغربية ، وآنية الذهب ، يضارعها آنية الخشب ، فوجدنا المجلس حافلا بأهل الولاية والقضاء ، من الرؤساء والوكلاء ، فأخذنا مجلسنا نستمع ما يدور من السمر ، ونجني من أدبهم ما يحلو من الثمر ، ودونك بعض ما اقتطفنا وجنيْنا ، وسمعنا ووعينا :

(أحدهم) — نعم حبذا نصرة حزب الجيش على بقية الأحزاب في فرنسا ، فإن في ذلك لو تعلمون تحرير رقبتنا وانقضاء محنتنا .

(ثانيهم) — ما أبعدَ ما ترمِى ، وما أسرع ما تحكم ، فهلا نبأتنا ، لله أبوك ، كيف ترتيبك لهذه القضية ، واستقراؤك لهذه النتيجة ، وما نحن وخذلان الأحزاب الفرنسية ، ونصرة حزب الجيش عليها !

(الأول) — أراك لست بعويص الرأى في السياسة ، ولا ببعيد الغور في استخراج النتائج ، ألا تعلم ، لا زلت مسدّداً ، أن في انتصار حزب الجيش قلباً لهيئة الجمهورية ، ورجوعاً بفرنسا إلى الملكية والإمبراطورية ، أو القنصلية ، فتأتينا بمثل أولئك الملوك والقوّاد الذين دوّخوا الشرق والغرب ، وقهروا الممالك ، وأخضعوا الدول ، وأصبحت لهم الكلمة العليا على أهل البسيطة ، فلا يمانعهم في أغراضهم ممانع ، ولا يعارضهم في مطالبهم معارض ، وإني لأعلم علم اليقين ، ممن عاشرتُ من كبار الفرنسيين وصاحبتُ ، أنه لولا هذه الجمهورية لمَا وصلنا نحن إلى هذه الحال .

(ثالثهم) — دعنا بالله من هذه الخيالات ، واتركنا من هذا اللغو ، ومثلك لا يحق له الشكوى من هذه الحال ، فإنك متين العلاقة بالمستشار ، وما بينك وبين الوصول إلى المنصب الذى تتطلع إليه إلاّ قيد شبرٍ ، وأنت مع ذلك فى غنى عن خدمة الحكومة بما لكَ من الغنى واليسر . ولكن ماذا تقول فى مَنْ هو فى حاجة دائمة إلى البقاء فى أسر الحكومة وذل الخدمة ، ولولا الاحتياج إلى المرتب والاضطرار إلى الرزق لمَا أقمتُ فى الخدمة يوماً واحداً .

(رابعهم) — وأنا والله لا أنتظر إلا أن يتم لى نصف معاش، فأهجر خدمة الحكومة ، وأنجو بنفسى من أسر الرق وذل العبودية ، ثم أعتمد بعد ذلك على الاشتغال بالتجارة ، فهى أهنأ عيشاً ، وأعظم ربحاً ، وأبعد بصاحبها عن مواقف الذل والهوان .

(خامسهم) — ما أسخف الرأى وأضعف الفكر ! ومَن ينكر أن خدمة الحكومة على كل حال هى أعلى قدراً وأرفع شأناً من بقية الحرف والصناعات؟ وكل أسباب المعايش لا تخلو فى هذه الدنيا من المتاعب والأكدار ، ولكن خدمة الحكومة أهونها حالا وأقلّها عناء ، ولا يفضّل عليها الاشتغال بالتجارة إلا من كان قليل التبصر فى الأمور ، ويكفيك برهاناً على ما أقول أنك تستخدم التاجر وتسخره ما دام درهمك فى يدك ، ولكن التاجر فى حاجة أبداً إلى أصغر موظف فى الحكومة ، وإن كان من أغنى الأغنياء ، ولوتراهم إذ يفتخرون بينهم بزيارة الكاتب ومجالسة المعاون وتحية القاضى ومخاطبة المدير لعلمتَ أن خدمة الحكومة بلغت فى أعينهم وأعين بقية الطبقات مبلغاً عظيماً من الشرف والرفعة ، بحيث لو خيّرت أحدهم بين الخروج عن ماله وعقاره وتجارته وأطيانه ، وبين الدخول فى صف الموظفين بالحكومة ، لخرج من كل ذلك خروج السهم من قوسه ، والأرقم من جلده ، والحكم بأن السعادة كل السعادة فيما تعدّه أنت شقاء وبلاء ، وتعتبره ذلاً وهواناً .

(سادسهم) — على رِسْلك أيها القاضى ، لا تعكس القضية ، ولا تقلب الحقيقة ، ولا تحمل ما تراه فى أخلاق أهل التجارة والصناعة والزراعة من الاستهانة بحرفتهم ، والاستعظام لأهل الحكومة ، على أن حرفتهم خسيسة فى ذاتها ، بل ذلك حادث فيهم

من جهلهم وضعف إدراكهم ، وإلا فلو تخلّى أحدهم عن طبقته ، ودخل فى طبقتنا يوماً ، لأدرك فى الحال ما كان فيه من نعمة الاستقلال فى العمل ، والحريةِ فى الرأى ، ولَعَلِمَ أن الموظف قد باع للحكومة حريته ، ووهب لها نفسه ، تتصرف فيها تصرف المالك فى ملكه ، مقابل مقدار من المال يَعُدّ لأجله ساعاتِ اليوم وأيام الشهر ، ويربحه الواحد من أولئك الجاهلين بأحوالنا فى يوم واحد ، وهو أمير نفسه ، وسيد أهله ، ويا ليت آباءنا كانوا انتبهوا إلى تعليمنا الصنعة وتمريننا على التجارة ، ولكن بئس ما صنعوا وبئس ما خلفونا له ، ولو أنهم كانوا أدركوا ما انتهت إليه حال الخدمة فى الحكومة اليوم ، ولم يغتروا بما كان للحكام فى الأزمان السالفة من الصوْل والطول ، والقوة والحول ، واكتسابِ المال من الجاه — ولو علموا أنه سيأتى زمان على هذه الحكومة التى كانوا فى أيديها كالأيتام فى يد الوصىّ يكون أرباب المناصب فيه كالأطفال فى حجر المرضع — لَعضوا الأنامل ندماً ، ولأرسلوا بدل الدمع دماً ، على ما فرطوا فى أمرنا ، وأهملوا فى شأننا .

(الخامس) — إنك لتتكلم بكلام العجائز اللائى يقنعن من دهرهن بالخسيس من الملبس والمطعم . وأين أنت ، هداك الله ، من طلب المعالى ، وابتناء المفاخر ، وتشييدِ المجد ، وخدمة الوطن وارتقاء المناصب للقدرة على النفع والضر ، وأين أنت من قول الشاعر الحكيم :

ولو أنّ ما أسعى لأدنَى معيشةٍ كفانى ، ولم أطلبْ ، قليلٌ من المالِ
ولـكنّما أسعَى لمجدٍ مؤثّلٍ وقد يُدرك المجدَ المؤثّلَ أمثالى

وإلى الله المشتكَى من زمن صغرت فيه النفوس ، وضعفت الهمم ، وماتت العزائم ، ورضى الناس فيه بالخمول والسكون ، وبالعيش الدون .

(السادس) — إنى لأعجب منك أيها الفاضل كيف يغيب عنك الصواب إلى هذا الحد ، فترى أن فى خدمة الحكومة سؤدداً وعلاء ومجداً وسناء ، وما هى إلا الذل والشقاء والبلاء فى أثر البلاء ، وأنا أفصل لك الحال تفصيلا ، لتعلم أن بقاء أمثالك فى خدمة الحكومة ، مع القدرة على التنحى عنها ، عجزٌ وضعف ، وجهلٌ براحة الحياة وأىّ جهل فأقول : تنقسم الرغبة فى خدمة الحكومة إلى أربعة أقسام :

القسم الأول : الرغبةُ فيها للمال ، أعنى لسد العوز وكفاف العيش . وصاحبُ هذا القسم يكون فى حال المضطر الذى حكمَ عليه الدهر باحتمال الهوان لضرورة الرزق ، فهو مثلى يغبط حال كل صانع وتاجر وزارع ، ويتمنى على الدوام أن يخرج من خدمة الحكومة إلى صف أهل الصناعات الحرة .

والقسم الثانى : الرغبة فيها للجاه ، أعنى عزة المنصب ، ونفوذ الكلمة ، ومضاء الحكم . وهو ميدان بعيد الشأو واسع الأطراف ، ليس لأشوطه نهاية ، ولا لحدوده غاية ، ولا بد فيه للجواد من كبْوة ، وللسيف من نبْوَة ، وطالما كان اعتلاء المناصب ، وارتقاء المراتب ، داعية للرزايا والمصائب ، ومَجلبة للبلايا والنوائب .

والشرُّ يَجلبُه العَلاءُ وكم شكا   نبأً علىٌّ ما شَكاهُ قنبرُ[1]

ولو سلمنا أن صاحب المنصب سلِمَ من المعاطب ، ونجا من الخطوب ، فهو لا يزال طول حياته فى همّ ونصب ، كلما ارتقى فى المنصب درجة ، وجد فوقها درجة أخرى يحسد من يليها ويحقد على من يعتليها ، ولا يفتأ مستعظماً لِمَا فوقه ، طامعاً فيه ، مستصغراً لِمَا فى يده ، راغباً عنه ، فهو فى ذهول دائم عن التمتع بلذة الحياة التى يجرى وراءها ، غير راضٍ عن نفسه ، ولا الناس عنه راضون ، وهذا هو منتهى الشقاء والبلاء ، وملتقَى الكمد والكدر

ذلك الخائبُ الشقىُّ وإن كا   نَ يُرَى أنهُ من السُّعداءِ
يُحسبُ الحظُّ كلُّهُ فى يديهِ   وهو منهُ على مَدَى الجوزاءِ

وأخلِقْ بمن كان همُّهُ أبداً التطلع إلى غير ما فى يده أن يكون أنحسَ البرية حالا ، وأمَضّهم عيشاً ، ولذلك زهدا الراسخون فى العلم من الفلاسفة والحكماء فى اعتلاء المناصب ، ورغبوا عن اغتراب غاربها ، وحذَّروا العقلاء من السعى وراءها ، وشغلِ النفس بها؛ هذا كلهُ إذا كان المنصب عظيم الجاه ، نافذ الأمر ، وكان الوصول إليه من طريق الفضيلة والشرف ، والحصولُ عليه من باب الجدارة والاستحقاق ، فأمّا والطريقُ إلى المناصب كما نراه اليوم ، قاصرٌ على التوسل والتوسط ، وإهراقِ ماء الحياء ، والمنصبُ على ما تعلم لا أمرَ

(١) قنبر : هو مولى على بن أبى طالب رضى الله عنه .

فيه ولا نهى، ولا حل ولا عقد، فالفرارُ منهُ أجدرُ بطالب الجاه وأحرى، والتباعدُ عنه أشرف بذى الفضل وأسنَى. والنزولُ عنه نعم المنصب العالى، اطلاَّب المعالى ؟

والقسم الثالث : الرغبةُ فى المنصب لشغل النفس دون سواه، دفعاً للسأم والملل، وتضييعاً لأوقات الحياة وساعات العمر فى الاشتغال بحاجات الناس، والتلهِّى بها عن تهذيب النفس ولا يدخل فى هذا القسم إلا مَنْ كان فارغ الفؤاد خاوىَ الصدر، خالياً من كل أدب وفضل، مشغولَ الضمير بالوساوس والهواجس، فأكرهُ شىء لديه نفسهُ، وأثقلُ حمل عليه حياتهُ، ولا بدّ له من مشاغل متجددة، ومسائل متعددة، تشغلهُ عن الخلوة بنفسه التى صارت عنده، إذا هو خلاَ بها لحظةً، كأنها خاليّة من خلاَيا الزنانير، أو وكرٌ من وكور الأفاعى، وهيهات أن يبلغ المسكين غرضه يوماً، لأن مَنْ ضاقتْ عليه نفسهُ كان العالم عليه أضيق، ومن ثقلت عليه أخلاقه فالخليقةُ عليه أثقل.

والقسم الرابع : الرغبةُ فى خدمة الحكومة، لخدمة الوطن ونفع الأمة، وهذا مطلب عقيم النتيجة أيضاً، لأنه لا يتفق لنا الجمع بين المحافظة على البقاء فى المنصب و بين الاستقلال فى الرأى الذى تقتضيه مصلحة الوطن، ومن أراد أن يخدم وطنه، فليتخلص من قيود الحكومة، و يخدمهُ وهو مطلق اليدين واسع التصرف.

ولا تنسَ فوق هذا كله ما يعقب حلاوة الولاية من مرارة العزل، خصوصاً فى بلد يَنسبون فيه إلى صاحب المنصب كل فضيلة، و ينزعونها عنه إذا سقط منه، فالرجال عندنا بالمناصب لا المناصب بالرجال على عكس ما قد قيل :

إنَّ الأميرَ هو الذى يُضحِى أميراً يومَ عزلِهْ
إنْ زال سلطانُ الولا يةِ لم يَزَلْ سلطان فضلِهْ

فمن ذا الذى يقبل الدخول فى خدمة الحكومة وهو يجد عنها محيصاً إلاَّ مَنْ أضلَّهُ اللهُ على علم، ولذلك فإنى عاهدت نفسى أن أتخير لأولادى فى تعلمهم صناعة يتعيشون بها أحراراً، وتكون معهم أينما حلوا وساروا، لا يسلبها منهم تقلب السياسة، وتغير الحوادث، ولا يؤثر فيهم غضبُ زيدٍ أو رضَى عمرو.

(سابعهم) — لله أنت ما أحلَى بيانَك ، وأجلَى برهانك ! وأنا معك فى هذا الحكم ، وعلى هذا العزم .

(الثانى) — اتركوا هذه الخطب المكدّرة والأفكار المحزنة ، وخذوا بنا فى حديث غير هذا يفرّج عنا ويروّح ، ولا تجمعوا علينا بين ذل النهار وهمّ الليل ، وهل لك يا فلان أن تقوم معى للمسابقة والرياضة بالبسكليت ؟

(الأول) — الأحسن من هذا أن تأتونا بالفونوغراف نستمع إليه .

(ثامنهم) — أو قوموا بنا إلى عرس فلان ، فقد بلغنى أن فيه « بوفيهاً » لم يُسمع بمثله حسناً ووضعاً .

(الأول) — أنا معك .

(الثامن) — لكن على شرط أن تقيم معى هناك نستمع الغناء .

(الأول) — لست معك فى هذا ، بل نخرج من البوفيه إلى الأزبكية لسماع الموسيقا الانجليزية أو الأوبرا التليانية .

(الرابع) — أنا لا أتوجه معكما لأنى ذاهب إلى « السكلوب » .

(السابع) — انتظروا قليلاً حتى نقرأ جرائد المساء .

(الخامس)— علىّ بالجرائد الفرنسية منها ، فهى أصحُّ من العربية أخباراً وأغزر مادة .

الثالث — اقرءوا الجرائد العربية أولاً واحدة بعد أخرى أو بعضها مع بعض .

(الثانى) قارئاً — « آسيا فى أوربا وأمريكا فى أفريقيا . »

(الرابع) — ماذا جرى لصوابك يا عزيزى ؟ إقلب الصحيفة الأولى ، فما لنا ولهذه المقالات الافتتاحية ، وما لنا ولهذه الأفكار الصبيانية ؟

(الثانى) قارئاً فى الصحيفة الثانية — « الاسكندرية لمكاتبنا » : « الأمة برجالها ، والمناصب بأربابها ، والمعارف هى التى تخرج لنا رجال المستقبل ، ومن أين لنا بالرجال إذا كانت تبخل بالمال ، فالمستقبل حينئذ مظلم ، والوطن آسف ، ولا نهضة للأمة إن لم تنهض العواطف لإنشاء مدرسة كلية أو معارف أهلية ، وبخلاف ذلك كان . . .

(الرابع) — حسبك أيها القارئ حسبك . أمّا قلنا لك لا تقرأ هذه المقالات المعلومة؟

(السابع) — اترك « الاسكندرية » إلى غيرها .

(القارئ) — « الزقازيق لمكاتبنا » : يثنى العموم بلسان واحد على حضرة مأمور البندر لاهتمامه بالكنس والرش . . .

(الثامن) — أنعمْ به وأكرِمْ وأكثر الله من أمثاله فى خدمة الوطن ، عليك يا صاحبى بالحوادث الداخلية .

(القارئ) — « يسافر سعادة العضو الوطنى فى السكة الحديدية إلى الإسكندرية فى هذا المساء . ويحضر سعادة مدير البوستة إلى العاصمة على اكسبريس الصباح . . . .

(الثامن) — اتركْ قراءة هذا « المانيفستو » أيضاً

(القارئ) — « سبقنا فذكرنا أن مجلس النظار بحث فى الجبانات والآن نذكر نص القرار . . .

(الثامن) — جعل الله الجنة قراره ومثواه . فدعْهُ واقرأ لنا سواه .

(القارئ) — « وصل سعادة السردار إلى أم درمان وقد بلغنا عن ثقة أن أهم ما يشتغل به الآن هو السؤال عن أحوال السودان » .

(الثامن) — سبحان الله ! كنت أظن أنه سيشتغل هناك بالسؤال عن أخبار اليابان وحوادث اليونان .

(القارئ) — « يسم البوليس الكلاب الضارة . . . .

(الثامن) — نسأل الله السلامة والهداية للجميع .

(القارئ) — « كتب إلينا أحد أفاضل الأطباء بأنه اكتشف علاجاً يشفى من كل داء مزمن ومرض عضال ، ويقول ، حفظه الله ، فى آخر رسالته إنه من غرامه بصدق لهجة جريدتنا صار لا يفارقها حتى ولا فى منامه على فراشه . . .

(الثامن) — لا نزاع فى هذه الكفاءة وسبحان الموفق .

(القارئ) — « رزء عظيم : قد فجع الإسلام وانهدم ركن الدين وأظلم الكون إذ

قصفت المنون غصن نقيب الأشراف بالدير الطويل عن ست وتسعين سنة قضاها فى عمل البر والإحسان ، فكان لنبأ موته أسف وحزن فى قلوب أهل بلده خصوصاً والقطر المصرى عموماً » .

(الثامن) — لا حول ولا قوة إلا بالله . لابد أن تكون أسعار البورصة هبطت لهذا النبأ هبوطاً فاحشاً فى القطر المصرى خصوصاً وفى الولايات المتحدة عموما .

(القارئ) — « نفيد حضرات القراء أنه لا يزال التحقيق جاريا فى قضية التزييف ولم يتم فيها شىء للآن ومتى تم نبادر إلى نشره إفادة لحضراتهم كما هى عادتنا فى نشر الأخبار بأوقاتها » .

(الثامن) — أفادكم الله ونفعنا بهذه الأخبار .

(القارئ) — « فاتنا أن نذكر أن حضرة وكيل دائرة الهيانم كان فى مقدمة المشيعين لجنازة المأسوف عليها «وردة جعلان» فى الأسبوع الماضى. وكذلك فاتنا أن نهنئ حضرة مكاتبنا الفاضل « بنزلة واكد » حيث رزقه الله بولادة مولود . جعله الله من أولاد السعادة » .

(الثامن) — جل من لا يغفل ولا ينسى . ولكن فاته أن يذكر أكان ذكراً أم أنثى . .

(القارئ) — « لدغت عقرب ابنة فى قسم الوايلى » .

(الثامن) — نعوذ بالله . هذا كله ناشئ من إهمال الحكومة فى « الاحتياطات الصحية » ومن غفلة البوليس عن ضبط الوقائع الجنائية .

(القارئ) للثامن — يكفيك يا حضرة القاضى من السخرية والاستهزاء ، واسمع لهذا النبأ العظيم .

(الثامن) — سمعاً وطاعة .

(القارئ) — « بلغنا اليوم أن الحكومة تبحث الآن فى مشروع فتح شارع المرور ، ونحن بلسان العموم و بالنيابة عن الأمة المصرية الأسيفة نحذرها من عواقب هذا المشروع

الوخيمة الذى يكون من ورائه رسوخ قدم الأجنبى فى البلاد ، وسنشرح لحضرات القراء مضار هذا المشروع فى مقالة افتتاحية . »

(الأول) — إن هذا الخبر لا يعلم به أحد سواى ، فكيف وصل إلى الجرائد ؟

(الثامن) — إنى لأخشى إن دام إفشاء الأسرار على هذه الحال أن يعمد أرباب الحل والعقد إلى استخدام الخرس فى مجالس الحكومة رجوعاً إلى العادة القديمة فى مجالس الوكلاء بالدولة العثمانية .

(الرابع) للثانى — اقرأ بقية الأخبار المحلية .

(الثانى) — لم يبق فى الجرائد الثلاث إلا التلغرافات والإعلانات .

(الرابع) — أراك لم تقرأ إلا جريدة واحدة فما قولك « الجرائد الثلاث » ؟

(الثانى) — هى كما تعلم نسخة واحدة فى الأخبار و إن كانت مختلفة فى الأسماء .

(الرابع) — اقرأ لنا التلغرافات .

(الثانى) قارئاً — « ديروط الساعة ٨ والدقيقة ٣٧ — كان الاحتفال بتوديع حضرة النشيط معاون بوليس المركز هائلاً وتليت الخطب وأنشدت القصائد والتفصيل بالبوستة.»

(الرابع) — ما هذه الصغائر ؟

(الثانى) — هى التلغرافات الخصوصية .

(الرابع) — علينا بالعمومية .

قال عيسى بن هشام : وما قرأ القارئ التلغرافات السياسية حتى استدار أهل المجلس حلقة يكثرون اللغط فى شرحها ، و يرجمون الظنون فى تأويلها ، وما فيهم إلاّ مَن هو على خلاف لرأى صاحبه ، و إذا هُم قد عادوا إلى مثل ما كانوا فيه وقت دخولنا عليهم . ولما وجدنا الجدال يحتدم بينهم اشتعالا ، خرجنا من بينهم انسلالا ، وتركناهم فى سياستهم يتيهون ، وفى ضلالهم يعمهون .

العـــرس

قال عيسى بن هشام : ولما فرغنا من زيارة تلك المحافل المشهودة ، والمجالس المعدودة ، قلت للباشا : قد آن أن نعود إلى ما كنا فيه من الانفراد والاعتزال ، ونبتعد عن مثل هذا الاختلاط والابتذال . فأجابنى وهو يظهر التوقف ، ويبدى التأفف : « ما بالك تقطع علىّ الطريق ، فى البحث والتحقيق ؟ ومالكَ تحرمنى السعى والاجتماع ، للاطلاع على العادات والطباع ؟ ولِمَ تختار أن نقتصر على ما فى الكتب والأوراق ، لمعرفة الآداب والأخلاق ؟ فنترك النظر للخبر ، واللمس للَّبس ، والممارسة للمقايسة ، وأىُّ الطبيبين أدقّ صنعاً ، وأكثر نفعاً : الطبيبُ الذى يقتصر على الكتب فى درس الأعضاء والأحشاء ، أم الطبيبُ الذى يدرسها فى تشريح الجثث وهى تسيل بالدماء ؟ على أنه قد زال عنى فى هذه المدّة ، ما كان يعترضنى من الغضب والحدّة ، وانقلب العسر من أمرى يسراً ، وغدا التقطيب بحمد الله بِشْراً ، وصرت لا أقابل عيوب الخلق ، بغير الحلم والرفق ، وتعلمتُ أن أتحلم ، ولا أتألم وأتبصّر ، ولا أتحسّر . وأتدبّر ، ولا أتضجرّ ، فأنا اليوم أتفكّهُ بمخالطتهم ، وأتروّح بمباسطتهم ، فلم يبق لك من عذرٍ وجيه ، ترتضيه بعد ذلك وترتجية . » وما زال الباشا يجرى على هذا النمط فى الشرح والبيان ، ويأخذنى بالبرهان فى أثر البرهان ، حتى ملّكنى بسلطان حجته ، وأنزلنى على حكم رغبته ، وكنتُ دعيتُ فيمن دُعىَ من الناس ، إلى وليمة عُرس من أكبر الأعراس ، فقلت له عندى اليوم حدّ الكفاية ، فى بلوغ الغاية ، فهلمَّ إلى المحفل الذى تحتشد فيه المحافل ، والمنهل الذى تتفرع عنه المناهل ، وسرت به منذ أرخى الظلامُ من سجوفه وأستاره ، وبدأ فى الطور الأول من أطواره ، فما قَرُبْنَا من قصدنا حتى وجدنا الليل هناك نهاراً يتألق ، وفحمةَ الدُّجى جمرة تتحرّق ، فدخلنا ساحة كأنها مدينة ، تبرجت فى يوم الزينة ، فوقفنا هُنَيهَـةً فى وسط المزدحَم ، لا نجد

موضعاً للقدم ، حتى أخذ بيدنا أحدُ المستقبلين بالباب ، من ذوى العلامات فى الثياب ، فدسَّنا بين جماعة لم نعرف منهم أحداً ، ولم يحسنوا لتحيتنا ردّا ، فجزيناهم على ذلك بغض الطرف ، وأقمنا بينهم لا ننطق بحرف ، ثم أخذنا نتلمس بأعيننا صاحب الدار ، فلا نهتدى له على قرار ، كأنما صُنعت الوليمة فى غيبته ، وأقيم الاحتفال انتظاراً لأوبته ، أو أننا أخطأنا العرس إلى سواه ، واشتبه علينا مقره ومثواه ، فهمَمْنا بالقيام والمسير ، لولا أن أشار لنا بالسلام مشير ، فتبيناه صديقاً لنا من الخُلَصاء ، فى جمع من الفضلاء والأدباء ، فقصدناهم ، فأفسحوا لنا بينهم مكانا رحباً ، وجلسنا معهم نجتنى ثمر الحديث يانعاً ورطْبا ، وعلمنا منهم أن رب الدار فى ذهول لا يدرك ما يذَرُهُ وما يأتيه ، وأن صاحب البيت لا يدرِى الليلة بالذى فيه ، وأنه لا تثريب عليه ولا لوم ، فهو مشغول بتحية كبار القوم ممن لم يخالطهم قبل اليوم .

(الباشا) — وهل يدعو الناسُ إلى أعراسهم من لم يعرفوه أو يخالطوه من قبل ؟

(أحد الأصدقاء) — نعم يدعو الناسُ إلى أعراسهم كلَّ مَنْ عَلاَ لَهُ صيتٌ واشتهر له اسم من الأمراء والكبراء والعلماء ، فمنهم من يجيب الدعوة ، ومنهم من لا يجيبها لعدم معرفته لصاحب العرس ، وبين الكبراء جماعة اشتهروا بأنهم لا يخيبون للداعى رجاء ، ولا يتخلفون مرة عن إجابة الدعوة ، حتى صاروا من عَمَدِ الزينة وأساطين الأعراس .

(الباشا) — وما الغرض لصاحب العرس من هذا كله ؟

(الصديق) — الغرض منه أن يذاع بين الناس تشريف هؤلاء الكبراء والعلماء لبيته ، وأكثر الذين تراهم يقيمون ولائم الأعراس ينفقون عليها جانباً عظيما من ثروتهم لا غرض لهم منها سوى ذلك وحده ، وفيهم مَن وصل به حب الشهرة والفخفخة أن أنفق فى إقامة العرس جميع مالِه ثم بقى عليه من الدَّين ما أخلَّ بنظام معاشه ، وأعرف تاجراً من التجار أنفق الجانب الأعظم من رأس ماله فى إقامة عرس كبير ، ثم قسم دفاتر تجارته إلى شطرين : شطر يحتوى على بيان ما بقى لديه من أصناف التجارة وأجناسها ، وشطر يتضمن أسماء من

حفر العرس من الأمراء والكبراء ، وقل ان تشترى منه صنفاً إلا ويذكر لك منهم اسما يقسم بحياته ورأسه أن الصنف جيد والثمن فى جنبه هين .

(الباشا) — ما كنت أعهد أن الأعراس تكون على هذه الحال من استخدامها للشهرة والصيت ، بل كنت أعهدها أنها تقام لائتناس صاحب العرس بأصحابه وأصدقائه ، ومشاركتهم له فى صفوه وهنائه ، ولإطعام المساكين ومساعدة الفقراء .

(الصديق) — ليس للفقراء اليوم ولا للمساكين نصيب فى طعام الأعراس ، بل هو من نصيب مثل هذا الوفد الخارج أمامك وأضرابهم .

(الباشا) — إنى أعرف من هؤلاء الخارجين ثلاثة أشخاص اجتمعتُ بهم فى مجالس للعلماء .

(الصديق) — نعم هذا الوفد كله من كبار العلماء وحملة الشريعة وأئمة الدين .

(الباشا) — ومالى أراهم يسرعون ويُهَرولون فى خروجهم ، وما الذى وقع لهم حتى يتركوا العرس منذ أول الليل ، وليت شعرى ما الذى أزعجهم وأخرجهم ، أنزَلَ بالدين مكروهٌ ؟ أحَلَّ بالإسلام خطبٌ ؟ أحَدَثَ بين الناس حادثُ بدعةٍ يستدعى قيامهم للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؟

(الصديق) — لم يحدث من كل ذلك شىء ، ولم يعرض لهم عارض ، وإنما هى عادة لهم ألِفُوها فى الولائم والمآدب ، إذا انتهوا من غسل أيديهم بعد تناول الطعام بادروا إلى الخروج من العرس ، فتراهم عند قول أحد الظرفاء : «يدٌ فى الكباب ، ورِجْلٌ فى الركاب» والذين يعتذرون لهم يقولون إنهم علماء عاملون بقوله تعالى : « فإذا طَعِمتم فانتشِروا » ، وإنهم يرون سماع الغناء مكروهاً فى الدين ، فلا يجالسون فى العرس بعد الطعام خشية أن يبتدىء الغناء فيحلّ بهم المكروه .

(الباشا) — ومَنْ هذا الشيخ المتخلف عنهم القادمُ علينا ؟

(الصديق) — هذا الشيخ المتخلف عالم من أفاضل العلماء ونبهائهم ، وهو قادم علينا للجلوس معنا ، فإن فينا من يأتنس به ويصبو إلى مجالسته .

(الباشا) للشيخ بعد جلوسه — أرجوك أن تسامحنى فى فضول القول ، فلا صبر لى عن

الاستعلام والاستفهام ، خصوصاً إن كان فى الأمر ما يخص الدين ، فقد قيل لى إن السبب فى مغادرة وفد العلماء للعرس فى عقب الطعام هو كراهتهم لحضور مجالس الغناء ، فهل لك أن ترشدنى إلى القول الأصح فى هذا الباب ، وما الذى يجب أن يؤخذ به ، وكيف انفردت أنت عنهم بالبقاء والجلوس ، ورضيت سماع الغِناء إن كان مكروهاً ؟

(الشيخ المتخلف) — الكلام فى هذا الباب طويل ، وما أظن السبب الأعظم فى المبادرة بالخروج إلاَّ طلب الجسم للراحة بعد الامتلاء .

(الباشا) — إنى أريد أن أهتدى بهديك فى باب سماع الغناء وتقريرِ كراهته أو إباحته فلا تبخل علينا بفضلك وعلمك ، والوقتُ وقت مسامرة ، فإن أردت أن تقفى جانباً منه فيما ينفع ويفيد ، فقد أدَّيت واجباً عليك فى الدين ، وجعلتنا لك من الشاكرين .

(الشيخ المتخلف) — اعلمْ أن طرب الغِناء أمر غريزىّ راسخ فى طبيعة الحيوان ومن الحيوانات العُجم وضوارى الوحوش ما تسمع الغناء فتحنّ إليه وتسكن به ، فيُضعف من قسوتها ، ويكسر من حدتها ، وربما ذَلَّت به رقابها ، وأمكن قيادها ، وهذه الفِيَلة وهى من أكبر الحيوان أجساماً ، وأشدّها بطشاً ، إذا سمعت صوتاً مرنماً أو كلاماً منغماً ، لم يلبث هذا الجسم العظيم أن يتمايل ترنحاً ويهتز طرباً — ولو كان فى مواقف النيران — اهتزاز الحمامة المطوَّقة على فنن من الأفنان . وهذه الإبل المعروفة بأنها أغلظ الحيوان أكباداً تراها إذا بَرَاها السُّرَى ، وأضناها التعبُ ، وأهلكها الظمأ ، فتغنَّى لها الحادى ، ذهلتْ فى الحال عما أصابها ، وتعللتْ بالغناء ، عن مناهل الماء ، وهى على الِخمس فى ظمئها أو العِشر[1] ونشطتْ به تستعيد القوى لاستئناف السُّرَى ، وطالما شاهد المشاهدون هَوامّ الأرض ودوابَّها تخرج من كهوف الجبال وبطون الرمال ، فتجتمع جيوشاً تتبع جيوش الحرب فى مسيرها ، وقد ظهر لأحد الباحثين من علماء الطبيعة عن علة ذلك الاتباع أن صوت الموسيقا أمام الجيوش هو الجاذب لها والدافع بها للخروج من أوكارها وأحجارها للمسير خلف الجيش ؛ ومن الروايات العتيقة أن أحد الموسيقيين من الفلاسفة كان عند شاطئ

(١) الخمس والعشر : من أظماء الابل .

بحر يبغى الشاطىء الآخر ولا يجد ما يحمله إليه ، فجلس يلهّى نفسه بالغناء؛ و إذا بدُلفين[١] قد شقّ أمواج البحر يتدنى من صاحب الصوت ، فلم يزل فى تدنيه ، والفيلسوفُ فى تغنيه ، حتى حاذَى الشاطىء وسكن يستمع ، فأيقن الفيلسوف أنه استهواه بتأثير الغناء ، وذلّلهُ بقوة الطرب ، فامتطاهُ يسخّره كيف شاء ، فوق عباب الماء ، كأنه مطية وَجناء[٢] تسير فى عرض البيداء ، على توقيع الحِداء ؛ وحكاية إبراهيم بن المهدى فى اقتياده الوحوش الضارية بسحر غنائه مشهورة مذ كورة .

هذا بعض ما يقال فى تأثير الغناء فى الحيوانات العجماء ، مع ضعف إدراكها ، وكثافة إحساسها ونقصِ خلقها ، فما بالُك بتأثيره فى الإنسان ، وهو أسمَى الحيوان رتبة ، وأكمله خلقةً ، وأعظمه إدراكا ، وأصفاه جوهراً ، وألطفه روحاً ؟

والغناء ، فى تعريف قوم من الفلاسفة ، فنٌّ يُقصد به تحريك النفس بتنسيق الصوت وتأليفهِ على طريقةٍ ترتاح لها الأذن ، فتهتز له نفوس أرباب المدارك العالية ، والأمزجة الصافية ، وهو القوة المساعدة لقوة النطق فى التأثير فى السامع ؛ وكان القدماء يعتبرونه لغةً عامة لسائر الناس يفهمونها على اختلاف لغاتهم وألسنتهم ، وكان لابد لطالب الفلسفة عندهم من الإحاطة بفن الموسيقا مع الرياضيات ، وقد عبَّر عنه الحكيمانِ الكبيران «فيثاغورس» و« هرمز » أنه علم التنسيق لكل شىء ، ولذلك أطلقوا عليه لفظة « أرْمُونيا » ، ومعناها النظم والتنسيق ومنه الترتيل ، وكلهم مجمعون على أن لا شىء فى العالم يعادل تأثير الغناء فى تهيئة النفوس وتوطئة القلوب لقبول الفضائل والكمالات ، وعندهم أن الذى لا يتأثر منه لابد أن يكون به نقص فى الخلقة ؛ والغناء مغروس فى طينة الإنسان منذ نشأ فى حجر الطبيعة ، ومنذ استهل فى المهد باكيًا ، فلا يسكن إلاَّ به ، ولا يُراح عنه إلا بتطريبه ، وفضلُ تأثير الغناء فى النفوس على تأثير الكلام ، كفضل الشعر البليغ فى لغته على ترجمته كلاماً غير موزون إلى لغة أخرى .

والوقائع كثيرة جمة فى التاريخ ، تشهد بقوة تأثير الغناء ؛ منها أن أهل مدينة اسبرطة كانوا فى فتنة اشتدّ لهيبها ، وعَظُم شرها ، فعمد جماعة من الموسيقيين إلى مكان الزعماء

(١) الدلفين : دابة بحرية وهى المعروفة بالدرفيل . (٢) الوجناء : الناقة الشديدة .

القائمين بأمرها ، فما زالوا يغنونهم حتى طربوا ، فصفت أرواحهم ، ورقت نفوسهم ، ولانت عريكتهم ، فانتهوا من أنفسهم عن إشعال نار الثورة فخمدت ، وقام صياح الطرب ، مقام صياح الشغب ؛ ومنها أن أهل سويسرا كانوا ينزلون عن رءوس الجبال للاحتشاد فى الجند ، فاذا انعقد جمعهم أغرى العدو بهم من يغنى فيهم بلحن لهم معروف يتغنى به الرعاة فى قلل الجبال ، فيشتعل فى نفوسهم لهب الوجد، وتهيج فيهم ثائرة الحنين، وينزع بهم الشوق إلى منازلهم ، فيلقى أسلحتهم عن أيديهم ، ويذهب بهم على وجوههم ، وقد تكرر وقوع ذلك فيهم ، حتى قرر رؤساؤهم الحكم بالإعدام على كل من تغنى بينهم بذلك الغناء ؛ ومنها حكاية الحكيم أبى نصر الفارابى مع سيف الدولة بن حمدان ، إذ أضحك أهل مجلسه وأبكاهم ، ثم أنامهم وتركهم ؛ وقد كان خطباء الدولة الرومانية يتسابقون إلى تنسيق أصواتهم فى الخطابة ، وتتبع النغم لتأثير القول فى النفوس ، وربما استصحب بعضهم معه أحد الموسيقيين بآلة من آلات الطرب، فيجعله بجانب المنبر ، حتى إذا وجده خرج عن النغم أو شذ نبهه بصوت الآلة ، فيرجع إلى الأصل ؛ ولسنا نجد بين الأمم أمة فى بداوتها وحضارتها وماضيها وحاضرها إلا وعندها الغناء فى الجيش آلة من آلات الحرب تعين على ممارسة الأهوال وتثير إلى منازلة الحتوف . وكان القدماء منذ عهد داود عليه السلام يعتقدون أن الغناء يشفى من الأمراض والأسقام ، وكان « إيسمين» فى مدينة « تيب » يزعم أنه يشفى من النسا[1] بصوت الناى . وكان « هوميروس » و « جالينوس » و « بلوتارك » من بعدهما يؤكدون أن الغناء يشفى من الطاعون ومن داء المفاصل ومن نهش الأفاعى . وقام اليوم جماعة من كبراء الأطباء فى أوربا يقررون بعد كثرة التجارب ان الغناء دواء نافع لكثير من الأمراض ، وأطلقوا عليه لفظة « مِلوترابيا » ، يعنى العلاج بالطرب ، كما قرروا من قبل « الهيدروترابيا » ، وهى المعالجة بالماء ، « والاليكتروترابيا » ، وهى المعالجة بالكهرباء . وقد جرب أطباء فرنسا تأثير الغناء فى وظائف الأعضاء بآلة حاسبة ، فوجدوا أنه يزيد فى دورة الدم ، وفى حركة التنفس ، سرعة مقبولة . وذهب بعضهم أن للأخشاب

(١) النسا : عرق من الورك إلى الكعب .

التى تتخذ منها آلات الطرب تأثيراً آخر على المريض ، مثل اتخاذ الناى من خشب الكينا ، فان سماعه يشفى من الحمى . وبلغت العناية بهذا الفن فى ألمانيا أنهم جعلوه درساً من الدروس الأساسية يبتدئ به التلامذة ابتداءهم بحروف الهجاء ، وينتهون منه انتهاءهم من دروس الفلسفة .

وجماع القول فى هذا الباب ، من جهة البحث والنظر ، أن الخالق جلّت عظمته قد جعل من فضلهِ ونعمته على الإنسان لكل حاسة لذة ؛ فلذّةُ النظر فى تناسق المرئيات وترتيبِ أجزائها ، وذلك هو الجمال ؛ ولذة الذوق فى ائتلاف الطعوم ، وذلك هو العذوبة ؛ ولذة الشم فى لطف الرائحة ، وذلك هو الطيب ، ولذة اللمس فى تناسب أجزاء الملموس ، وذلك هو النعومة ؛ ولذة السمع فى اتساق الصوت وحركةِ توقيعهِ ، وذلك هو الغناء .

وأما القول فيه من جهة الدين ، فَقلّ أن تجد ديناً من الأديان فى أنحاء العالم إلاّ ويُستعان فيهِ على العبادات بالترتيل والترنيم والتنغيم ، لِما ينشأ عن ذلك من صفاء النفوس، وانتعاش الأرواح ، للتجرّد والاتصال بالعالم الرُّوحانى ، وما كان الدين الإسلامىّ، وهو دين الأذان ، لينكر سماع الغناء ، ويحكم بكراهتهِ ، وشأنُه فى فطرة الإنسان على ما بينتهُ لك ، وناهيك بما ورد فى الخبر الصحيح أن النبى صلى الله عليهِ وسلم سمع نسوةً يتغنَّينَ فى وليمة عرسٍ ، فلم ينكر ذلك عليهنّ ، وقد استقبله عليهِ السلام نسوة من الأنصار ، عند مَقدَمِه من إحدى الغزوات ، بالدفوف والمزاهر ، وهنَّ يتغنَّينَ على الإيقاع بقولهن :

طلع البدرُ علينا من ثنيّات الوداع
وجبَ الشكرُ علينا ما دعا للهِ داع

فلم ينكر ذلك عليهنّ أيضاً ، وهذا عمر بن الخطاب ، على المعروف من غلظتهِ وشدته فى الدين ، قد سمع الغناء فلم ينكره ولم يكرهه ، بل استعاد ومزَحَ . رُوى عن أسلَم مولاه قال: مرّ بى عمر رضى الله عنهُ وأنا وعاصم نغنى فوقف وقال: أعِيدَا علَىَّ ، فأعدْنا عليه وقلنا : أينا أحسنُ صنعةً يا أمير المؤمنين ؟ فقال : مثلكما كحمارَى العِبادِىّ قيل له : أى حماريْك شرّ ؟ قال : هذا ثم هذا ، فقلت له : أنا الأول من الحمارَينِ ؟ قال : أنت الثانى منهما . وكان

عبد الله بن جعفر على قرابتهِ من رسول الله وصُحبتهِ له كثير الجلوس لسماع الغناء، عظيم الاحتفال به .

ورُوى أن معاوية قال لعمرو بن العاص : امض بنا إلى هذا الذى قد تشاغل باللهو، وسعَى فى هدم مرُوءته ، حتى نعيب عليه فعلَهُ ، يريد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب ، فدخلا إليه وعنده من المغنّين « سائبُ خاثر » ، وهو يلقى الغناء على جوَارٍ لعبد الله ، فأمرَ عبدُ الله بتنحية الجوارى لدخول معاوية ، وثبت سائب مكانه ، وتنحى عبد الله عن سريره لمعاوية ؛ فرفع معاوية عَمراً فأجلسهُ إلى جانبهِ ، ثم قال لعبد الله : أعِدْ ما كنتَ فيه ، فأمرَ بالكراسى فألقيتْ ، وأخرج الجوارى فتغنّى سائب بقول قيس بن الخطيم :

دِيارُ التى كادت ونحن على منًى   تحُلّ بنا لولا نجاءُ الركائبِ

ومثلكِ قد أصبيْتُ ليستْ بِكَنّة   ولا جارةٍ ولا حليلةِ صاحبِ

وردّده الجوارى عليهِ ، فحرّكَ معاوية يديه ، وتحرّكَ فى مجلسه ، ثم مدّ رجليه فجعل يضرب بهما وجه السرير ، فقال له عمرو : اتّئِدْ يا أمير المؤمنين ، فإن الذى جئتَ لتلحاه أحسنُ منك حالاً وأقلُّ حركة . فقال معاوية : اسكتْ لا أبالكَ ، فإن كل كريم طروب .

ودخل المغنون منزل سُكينة بنت الحسين سبط رسول الله ، فأذنت للناس إذناً عاماً ، فغصت الدار بهم ، وصعدوا فوق السطح ، وأمرت لهم بالأطعمة فأكلوا منها ، ثم إنهم سألوا « حنيناً » أن يغنيهم صوته الذى أوله : هلا بكيتَ على الشباب الذاهبِ . فقال لهم : ابدءوا أنتم ، فقالوا : ما كنا لنتقدمك ولا نغنى قبلك حتى نسمع هذا الصوت . فغناهم إياه ، وكان من أحسن الناس صوتاً ، فازدحم الناس على السطح وكثروا ليسمعوه ، فسقط الرواق على مَنْ تحتهُ ، فسلمُوا جميعاً وأُخرجوا أصحاء ، ومات حنينٌ تحت الهدم ، فقالت سكينة عليها السلام : لقد كدّرَ علينا حنين سرورنا .

وذُكِر الدلاّل المغنّى عند عبد الله بن أبى عتيق بن عبد الرحمن بن أبى بكر الصديق رضي الله عنهم فقال إنه كان يحسن :

لِمَنْ ربعٌ بذات الجـــيْش أمسىَ دارساً خلقَا

ثم استقبل ابنُ أبى عتيق القبلةَ يصلى ، فلما كبَّر سلم ، ثم التفتَ إلى أصحابه فقال : اللهم إنه كان يحسن خفيفهُ وأما ثقيلهُ فلا — اللهُ أكبر .

ولقىَ « ابنُ أبجرَ » عطاء بن أبى رَباحٍ ، وهو يطوف بالبيت الحرام ، فقال : اسمعْ صوتاً للغريض ، فقال له « عطاء » : يا خبيث أفِى هذا الموضع ؟ فقال ابنُ أبجرَ : وربِّ هذه البنيةِ لتسمعنه خفيةً أو لأشيدَنَّ به ، فوقف له فتغنى :

عُوجِى علينـــا ربَّةَ الهـَوْدجِ   إنك إن لا تفعلِى تَحْرَجى
أنى أُتيحتْ لى يمـانية   إحدى بنى الحارثِ من مَذْحِج
نَلبثُ حوْلاً كاملاً كلَّهُ   لا نَلتـــقى إلاَّ على مَنهجِ
فى الحج إن حجَّتْ ؛ وماذا مِنًى   وأهـــلُهُ إنْ هىَ لم تَحجُجِ ؟

فقال له « عطاء » : الكثيرُ الطيبُ يا خبيثُ .

وَوَلِىَ قضاء مكة الأوقصُ المخزومى ، فما رأى الناسُ مثله فى عفافهِ ونُبلهِ ، فإنهُ لنائم ليلةً فى جناح له إذ مرَّ به سكران يتغنَّى بصوت للغريض ، فأشرف عليهِ ، فقال : يا هذا شربتَ حراماً ، وأيقظتَ نياماً ، وغنيتَ خطأ ، خذْهُ عنى ، فأصلحهُ له وانصرف .

وكان لأبى حنيفة رحمه الله جار بالكوفة يغـنّى ، فكان إذا انصرف وقد سكر يغـنّى فى غرفته ، فيسمع أبو حنيفة غناءهُ فيعجبه ، وكان كثيراً ما يغـنّى :

أضاعونى وأىَّ فـتًى أضاعُوا   ليومِ كريهـةٍ وسِداد ثغرِ

فلقيهُ العسسُ ليلةً فأخذوه وحُبِس ، ففقَدَ أبو حنيفة صوتهُ تلك الليلة ، فسأل عنه من غدٍ فأخبر ، فدعا بسوادهِ وطويلته فلبسهما ، وركب إلى عيسى بن موسى ، فقال له : إن لى جاراً أخذه عسسك البارحةَ فحُبس ، وما علمت منهُ إلاَّ خيراً ؛ فقال عيسى : سلموا إلى أبى حنيفة كلَّ من أخذه العسس البارحة ، فأطلقوا جميعاً .

فلما خرج الفتى دعا به أبو حنيفة وقال له سرًّا : ألست كنت تغـنّى كل ليلة : أضاعونى وأىَّ فـتًى أضاعوا ؟ فهل أضعناك ؟ قال : لا والله ولـكن أحسنتَ وتكرمتَ

أحسن الله جزاءك ، قال : فعُدْ إلى ما كنت تغنّيه ، فانى آنسُ به ، ولم أرَ بهِ بأساً ،
قال : أفعلُ إن شاء الله .

هذا جملة ما يُذكر فى طرب الغناء طوّلتُ فيه وأسهبت، ليتبين لك منه القول الراجح،
والوجه الصالح .

(الباشا) —

تعالَى اللهُ ما شاء وزاد اللهُ إيمانِى

ما هذا الذى أراه من بحر العلم المتدفق والفكر المتعمق ؟ وما هذا الإبداع والتفنن فى
أطراف المعقول والمنقول ؟ وما هذا التضلع فى علوم الأولين والآخرين ؟ وما عهدت قبل
اليوم فى العلماء من اجتمع له مثل ما اجتمع للشيخ من دقة النظر ، وصحة القياس ، وسعة
الاطلاع فى تواريخ الأمم على اختلاف ألسنتها وأجناسها ، يتنقل فى تقرير البرهان وشواهد
البيان تنقّلَ النحل على جنَى الأزهار ، فيخرج بنا من التاريخِ اليونانىّ إلى الرومانىّ
إلى الأوربىّ إلى الإسلامىّ فعجباً لهُ ! أأعجمىّ وعربىّ ؟ وشرقىّ وغربىّ ؟ وكيف
انفردت أيها الشيخ عن بقيـة إخوانك المشايخ ، ولم تأخذ بنهجهم فى طريقهم ، فتقف
عند حد العلوم الشرعية والأقوالِ الفقهية ، ثم خالفتهم إلى التوسـع فى العلوم الدنيوية
والمباحث العقلية ؟

(الشيخ المتخلف) — لم أخالفهم إلا لأن العلم حق شائع فى بنى الانسان ، ونورٌ ساطع
يستضىء به جميع الأنام ، فلا يختص به أهل إقليم دون إقليم ، ولا أهل ملة دون ملة ،
ولا يقف الانسان منه عند حد ، ومَنْ طلب العلم وارتاحت له نفسه ، لم يمنعه تخالف
اللغات ، وتفرق الأجناس عن اجتناء ثمره من أى لسان كان ، وفى أية أمة كانت ، وفى
أى عصر من العصور ، وما فى الأديان دين يبعث أهله ، ويحض بنيهِ على طلب العلم والتقاط
الحكمة بأى وجه من الوجوه ، مثل الدين الاسلامىّ ، ولـكن قد فشا فى علمائه داء
الـكسل ، فاقتصروا فى طلبهم للعلم على نيل رتبة العلماء دون العلم فى ذاتهِ ، واعتقدوا أنهم
على الهدى ومَنْ سواهم فى ضلال .

(الباشا) — قل ما شئت فى كسل علماء الدين الاسلامىّ، وسوء تراخيهم، واشتغالهم عن العلم لا بالعلم، ولقد بلوت مجلساً من مجالسهم ضاق منه صدرى، وعيلَ صبرى، ولا أزال كلما تذكرتهُ جاش بى الهم والغم، وتملكنى الأسف والحزن، وأراك أيها الشيخ الفاضل أحسنت كل الإحسان بتوسعك فى الاطلاع، وتبحرك فى طلب العلم، وتعلقك بأسباب العلوم الأوروبية، ولكنى مع ذلك لا أتمنى لجميع علماء الدين مثل ما أنت فيه، خشية أن تلهيهم هذه العلوم عن علوم الشرع، وتستدرجهم إلى الخلط والخبط، وقل فى الناس من يحكم نفسه للتوسط فى الأمور، والاعتدال فى المطالب، والوقوف عند الحد. ولست أدرى إلى اليوم، يعلم الله، أىّ العالِمَين أضلُّ سبيلاً وأسوأ مصيراً: العالِمُ الذى يتخبط فى ظلمات الخرافات، ويضرب فى تيه الترّهات، ويغوص فى لجج الأباطيل بلباس الدين؛ أم العالمُ الذى يُوغل فى علوم الأوربيين، ويأتمُّ بسنة المخالفين للدين، ويغترّ بتمويه المموّهين، فيضلّه الله على علم.

(الصديق) — ليس هذا وقت الجدال فى تلك المباحث الدقيقة، والتفتوا بنا إلى سماع الغناء قليلاً، فقد احتشد له المغنّون.

(الباشا) ملتفتاً — نعم أصبتَ، وهل لك أن توفق لى بين حالة المغنّين التى أراهم عليها الآن فى احتشادهم على منصة الغناء، وبين ما سمعتهُ آنفاً عن هذا الفن من الجلال والكمال، فانظر إليهم تجد أحدهم يمزح ويقهقه، والآخر يتثاءب ويتمطّى، وهذا يبصق يميناً ويمخط شمالاً، وذاك يصيح بأعلى صوته: القهوةَ القهوةَ، وتأمل فى هذا الواقف منهم فوق المنصة على رجلٍ واحدة وبيدِه الرِّجل الأخرى يخلع منها نعلهُ فى وجوه الحاضرين، وأين ما ينبغى أن يكون عليه المغنى من سكون النفس، واجتماع الخاطر، وانشراح الصدر، وصفاء الروح، لحسنِ تأدية الغناء، واستهواء النفوس إليهِ؟

(الصديق) — لا تؤاخذهم بما هم فيهِ، فإنهم نشأوا فى أمة يرى السوادُ الأعظم فيها أن صناعة الغناء من سافل الصناعات، وأن فى ممارستها حطة ونقصاً، فصغُرتْ لذلك نفوس المغنّين، وهانت عليهم صناعتهم، ولم يروا فيها سوى أنها أداة للكسب والارتزاق على مثال

بقية الصناعات ، فهم والحدّادون أو هم والبناءون سواء بسواء ، وذهلوا كل الذهول عن جمال الصنعة وجلالها ، وغفلوا كل الغفلة عن لذة الفن وأدبهِ ، وصاروا يؤدونه كما يتفق لا كما ينبغى ، وكما يجىء لا كما يُرضى ، ولا يغيب عن فطنتك أنه لا بدّ المغنى من أن يثق فى نفسه بتأثير غنائه فى نفوس السامعين ، حتى تثور فيهِ نشوة الطرب ، ويتبادل معهم لطف الانفعال ، فتتصل القلوب ، وتتجاذب الأرواح ، وتصعد به نفسهُ فى مراقى الفن ، وتسمو به فى صناعته إلى مدارج الكمال ، وإلا كان المغنى إذا غنى فى غفلة السامع واشتغالِهِ عنه كمَنْ يقرأ للنائم كتاباً أو يسرج للأعمى سراجاً ، فيحلّ به من التوانى والفتور ، ويعتريه من الانقباض والضيق ما يذهب برونق الصنعة ، ويمحو بهجة الفن ، وإنك لتحقق صدق ما أقول إذا نظرت معى نظرة إلى هيئة السامعين فى هذا المكان ، فمن يمينك جماعة من الأعيان والتجار تراهم مشتغلين بمراقبة كل داخل وخارج عسام يحظون بإشارة تحية أو إيماءة تعطّف ، فهم لا ينفكون طول ليلهم فى قيام وسلام ، للتزلف إلى الكبراء والحكام ، وحديثهم لا ينقطع عن التفاخر بمعرفتهم والتباهى بأقدارهم ، وعن شمالك خليط من القضاة والمحامين لا ينتهون أبداً من المناقشة فى صنوف الدعاوى والقضايا ، ولا يستريحون لحظة من تفسير المواد وشرحِ البنود واستنتاج الأحكام ، ولا يترك المحامون القضاة إلا بعد أن يحتالوا على استنفاد ما عندهم من الأفكار والآراء فى الوقائع المختلفة والمسائل المشتبهة ، لينتفعوا بها ويستندوا عليها فى مرافعتهم أمامهم ويتأكدوا بهـا ربح ما لديهم من المشاكل والدعاوى ، ومن قدّامك طائفةٌ من الأمراء والحكام لا همّ لهم إلاَّ أن يجتلبوا توقير الحاضرين واحترامهم بالتأنق فى الجلوس والتكلف فى الشمائل والانتفاخ فى الثياب والفتلِ فى الشوارب ، أجسامهم حاضرة ، وقلوبهم غائبة ، وأبصارهم شاخصة ، وألبابهم ذاهلة على هيئة التماثيل والأصنام ، فاسألوهم إن كانوا ينطقون ، ولئن نطقوا بكلام فإنما يدور على أن اليوم كان شديد الحر ، وأن أوان الرحيل عن مصر قد حل ؛ ومن خلفك ثلة من الأحداث ، لم تهذبهم الأحداث ، وشبان لم يربّهم الزمان ، مرمى الغاية عندهم أن تكون ملابسهم على الزىّ الجديد ، وأن تفرغ أجسادهم منها فى قالب من حديد ،

فهم لا يتحركون حركة إلا بألف حساب ، خشية أن ينفرط نظام الثياب ، فإن قعدوا فكالقاعدين للمصوِّر فى حفظ الأشكال والأوضاع ، وإن هم وقفوا فكالمصلوبين على الأجذاع ، ولئن تجاوز حديثهم حديث الملابس والأزياء ، اشتغلت ألسنتهم بذكر النساء ، ورووْا عن زوج فلان أو بنت فلان ، ما تنقبض منه النفوس وتقشعر الأبدان ، ولم يبق غير هؤلاء من طبقات الحاضرين من يلتفت إلى سماع الغناء ويتفرغ له إلا طبقة الغوغاء من الخدم وغيرهم ، فكيف يتيسر للمغنِّين فى هذا المقام أن يتقنوا فى عملهم ، أو يتفننوا فى صناعتهم ، أو يحافظوا على أدب المجلس ، ويراعوا حرمة الفن ؟

قال عيسى بن هشام : وانقطع الحديث بمرور صاحب العرس أمامنا مرّ السحاب ، فانقضّ على الواقفين عند الباب ، كأنه بارقة شهاب ، أو نازلة عذاب ، يدفع بيديه عن الشمال وعن اليمين ، فى صدور القاعدين والقائمين ، لا يشك من رآه أنه أسيرٌ حُل عنه الوثاق ، أو عبد من العبيد يطلب الإباق .

فالتفت الباشا يسأل الصديق : أجدار هوى فى البيت أم حريق !

(الصديق) — لا هذا ولا ذاك ، وإنما جاء الخبر لصاحب البيت بقدوم جماعة من رجال الافرنج ونسائهم .

(الباشا) — أتراهم يريدون إقامة ألعاب إفرنجية مع الأغانى العربية ؟

(الصديق) — ولا هذا أيضاً ، بل هم قوم من السائحين الأوربيين فى البلاد الشرقية يتشوفون فى مطالعتهم الآثار المصرية إلى رؤية المحافل والأسواق ، فإذا سمعوا بحفلة عرس هرعوا إليها بنسائهم وأولادهم لتسلية الخاطر بدرس العادات والأخلاق .

(الباشا) — قد تبين لى آنفاً أن صاحب العرس من أهل الصعيد ، فأية صلة بينه وبين سياح الإفرنج تدعوه إلى دعوتهم فى عرسه ؟ أم من عاداتهم أن يهجموا على بيوت الناس بغير دعوة ولا استئذان كالطفيليين .

(الصديق) — هم من المدعوين لا من المتطفلين ، ولا يلزم لدعوتهم أن يكون لصاحب العرس أدنى صلة بهم ، أو أن يعرف أشخاصهم ، ويفقه لسانهم ، ولكن حضورهم فى حفلة

العرس أمر مرغوب فيه عند صاحبه ، ينشرح به صدره ، ويزهو به عنده قدره ، ويراه فخراً له يعلو به ذكره ، ومجداً للبيت يرتفع به عماده . وهو فى دعوتهم بالخيار إما أن يرسل إلى بعض تراجمة الفنادق فيعطيهم عدداً من تذاكر الدعوة بغير أسماء معينة ليوزعها على من يكونون فى خدمتهم من السياح ، فيبيعها التراجمة إليهم بقيمة معلومة من الدراهم كأنها تذاكر الملاهى العامة ، ويعتقد الأجانب أن تلك عادة من عادات الشرقيين أن يدخل الناس إلى أعراسهم بأثمان معينة ، وإما أن يترقى صاحب العرس ، فيخاطب أصحاب الفنادق الكبيرة بأن لديه حفلة عرس فى الليلة الفلانية ، ويرغب أن يحضرها كذا عدداً من السياح ، فيتحف صاحب الفندق نزلاءه فيما يتحفهم به بالدعوة إلى العرس ، فإذا شرفوا صاحب العرس بحضورهم ، هرع إلى حسن استقبالهم ، وبالغ فى التلطف والترحيب بهم ، وأنزلهم فوق منازل الأمراء والكبراء ، ونسى كلّ من فى العرس سواهم ، وتفرغ طول ليلته لخدمتهم ، كما تراه من صاحب هذا العرس . وانظر إليه كيف يتيه عُجباً ، ويشمخ كبراً ، وهو يتقدم نساءهم ليدخل بهن إلى بيت الحرم لمشاهدة زفاف العروسين بعد أن أجلس رجالهن على رؤوس العظماء والأمراء فى صدر المكان .

(الباشا) — وما هذا الذى أراه فى أيدى النساء يحملنه معهن كأنه الأسفاط[1] فيها الحلىّ لهدية العروس ، فهل بلغ بهنّ الكرم إلى تكليف أنفسهن تقديم الهدايا لعروس لا يعرفنها ولا يعرفن أهلها من قبل ؟

(الصديق) — هذه آلات الرسم والتصوير يحملنها ليأخذنَ بها مناظر الحرم وصورَ النساء فى زينتهنّ وتبرجهنّ وما تكون عليه هيئة الزفاف ، ليتهادَيْنَ بها إذا رجعنَ إلى ديارهنّ ، وربما نُسخت منها ألوف النسخ ، لتباع فى الأسواق الأوربية ، وتنشر هناك للاستهزاء والسخرية .

قال عيسى بن هشام : ومنذ عاد صاحب العرس من تشييع السائحات إلى الحرم ، كالصاعدات إلى الهرم ، تقدّمَ إلى صدر المكان ، ونَظَرَ فى الوجوه بامعان ، ثم دنا من

---

(١) الأسفاط : جمع سفط ، وهو الوعاء .

طائفة الكبراء والأمراء ، وقصد الأمير المقدّم فيهم بلا مراء ، فوقف أمامه وقفة الإجلال والإعظام ، ودعاه لافتتاح قاعة الشراب والطعام ، فقام الأمير يمشى أمام الصفوف فى خُيلائه ، مشية القائد يوم بلائه ، وفتح له الباب فَفَتَح المائدة ، ولا فتح سعدٍ للقادسية ، والمعتصم لعمورية ، ومحمد للقسطنطينية ، نعم ولا فتح جدّه الأعلى للأقطار الحجازية ، ودخلت فى أثره صفوف الجموع ، وهم فى سكون وخشوع ، دخول التقاة للصّلاة ، والعُفاة للصِّلات ، ثمّ مالبثوا أن هجموا على المائدة هجوم الفوارس البواسل ، على الحصون والمعاقل ؛ لا بل هجوم الأسود الضارية ، على الأشلاء الدامية ، والذئاب الخاوية ، على الشياه الراعية ، والنسور ، على القبور ، والذباب ، على الشراب ، واشتدّ الزحام ، وزلّت الأقدام ، وضلّت المذاهب ، واصطكت المناكب ، وشخصت الأحداق ، وامتدّت الأعناق ، وتهدلت الشفاه ، وتحلبت الأفواه ، وتحركت الأشداق ، وتقارعت الأطباق ، وتصاولت الأيدى بالمُدى ، كالظُّبى فى الوغى ، والتفّت الساق بالساق ، واشتدّ الهولُ وضاق الخناق ، ثم انجلت المعمعة عن شهداء التخم ، وأسراء البشم ، وقتلى الطعام ، وصرعى المدام :

بأجسامٍ يحرُّ[1] القتل فيها وما أقرانُها إلا الطعام

ولعبت الكؤوس بالرءوس ، والشمول[2] بالعقول ، والراح بالأرواح ، وذهبت العقار[3] بالوقار ، والبطنة بالفطنة ، فاختلط الحابل بالنابل ، والعالى بالسافل ، والرفيع بالوضيع ، والأمير بالحقير ، هذا يمزح ويقهقه ، وذاك يتمتم ويتهته ، والآخر يقئ طعاماً ، وسواه يقىء كلاما ، ولم نسمع بينهم من قول يفهم ويعقل ، أو حديث يؤثر وينقل إلا ما سمعناه يدور بين شاب متكلف متصنع ، وكهل مجرّب متضلع :

(الكهل) — أليس من أسوأ الأسواء ، وشر البلاء ، ما تراه من حال هذا الصعيدىّ صاحب العرس ، كيف اعتزل سنة آبائه وأجداده ، وانسلخ عن مألوف العادة فى قومه ودياره ، وطفر طفرة واحدة إلى العمل بعادات الغربيين ، والتقليد لِبدَع الافرنج ، فجرى

---

(١) يحر : يشتد (٢) الشمول : الخمر (٣) العقار : الخمر

فى الاحتفال بالعرس على نمطهم وأسلوبهم مع جهله بها ، وعدم ملاءمتها لطبعه ، وكيف لا يُرثَى لحال هذا المسكين ، وقد أنفق جانباً عظيماً من أمواله لإقامة المهرجان على هذا الطراز الغريب عن ذوقه ، فهو فى حيرة وذهول ، لا يدرى ما يصنع ، ولا يعلم ما يفعل ، فى وسط هذه السوق القائمة والزحام الهائل ، وانظرْ إلى مقدار السخط النازل فوقه والاعتراض المصبوب عليه من أكثر الذين دعاهم ليرضيهم بعمله ويكرمهم بحسن صنعه بعد أن تكلف لهم ما يفوق الطاقة ، وارتكبَ ما يخالف العادة ، ثم اشهد معى بأنه أساء إلى نفسه وجَنَى على أهله .

(الشاب) — ما أراه إلا أنه أحسنَ صنعاً ، وأجاد عملاً ، وأخذَ بالسنن الأرشد فى التحلى بشعار المدنية ، والتعلق بالحضارة ، وقد آن أن يستوى أهل الأرياف بأهل المدن فى السير على النهج الغربى ، لهْواً كان ذلك أو جدًّا ، وأن يخلعوا عن رقابهم أغلال العادات العتيقة ، وربقةَ الأفكار القديمة ، فترتفع الأمة ، وتنتفع البلاد .

(الكهل) أىّ نفع يُرتجى لأهل البلاد بخراب البيوت ودمار الدُّور ، ولئن امتد الزمن قليلا على عمد الأرياف وأعيانها ، وهم يرسلون بأبنائهم إلى البلاد الأوربية ، ثم يهجرون مساكنهم ومساكن آبائهم ، ويتركون مزارعهم ومرافقهم ومساكنهم ليسكنوا معهم عاصمة البلاد بعد عودتهم ، ويتخلقوا بأخلاق الغربيين ، ويتبرأوا من كل ما كانوا فيه من قديم وعتيق ، لم تلبث الأموال أن تذهب ضياعاً والدور أن تمسى خراباً ، وأن تصبح المزارع بأيدى الأجانب الذين يقلدونهم فى امتلاك الأطيان وزراعة الأراضى ، كما يقلدونهم فى باطل المدنية وزخرف معيشتها .

(الشاب) — أظنك كنت تريد أن يقام الاحتفال بزواج هذا الشاب المتمدين بين الأحواض والمستنقعات فى قرية أبيه ، وبين الأوباش والهمج من فلاحيه ومزارعيه ، فيبدل الخيام بالمقاصير ، والمشاعل بالكهرباء ، والسماط « بالبوفيه » ، والقصاع بالصحاف ، والجرار بالأباريق ، والدفين « بالديند » ، والعصيد « بالمايونيز » والفول بالهايون ، والحلبة بعشّ الغراب ، والمش « بالموستاردا » ، والرطب بالمربى ، والدُّوم « بالمانجو » ، والجبز

« بالكريز » والمزهر « بالشمبانيا » ، والحليب « بالكاب » ، وعرق البلح « بالكنياك » والمزمار بالموسيقا ، والأذكار بالأوتار ، والأرغول « بالبيانو » والرباب « بالأوركستر » والسحجة « بالبللو » ، وبيت أم شنب « بمس أوستن » ولعب الهوارة بموكب الزفاف ، ثم يدعو مشايخ العربان بدل القناصل العظام ، ونظار الزراعة بدل نظار الحكومة ، وكتبة المراكز والصيارف ، بدل أمراء البورصة والمصارف ، ويضع على رءوسهم سعف النخيل والعراجين ، بدل أكاليل الأزهار والرياحين . . .

(الكهل) — يكفيك فقد أسهبت فى الشرح والوصف . وأنا أقول لك : نعم يعجبنى أن يكون الأمر على مثل ما تسخر منه ، ما دام من عاقبته عمرانُ البيوت ، وحفظ الأموال وبقاء الأحساب ، وإطعامُ المساكين ، وبر الأقارب ، وإسداء الخير للأصحاب والجيران ، وإدخالُ السرور على النفوس بما يرضيها ويلائم أذواقها ، بهذا ينتفع أهل البلاد ، ويرضى الناسُ بعضهم عن بعض ، ولا أرضى أبداً أن ينقلب الحال كما أراه ، ما دام من ورائه عواقب الخراب ، وسخطُ الناس ، وعقوقُ الأهل ، ولصوق العار ، ووقوع الفضيحة ، وسوء المصير ، ومن الذى يعارض فيما أقول من أهل العقول الصائبة ، وهو يرى هذا الرجل العريق النسب فى أهل الصعيد ، أهل الشهامة والحميَّة وذوى الغيرة والأنفة ، ومن حوله الحصيان على ما نشاهده الآن يطالبونه أن يأمر الخدم بحمل صناديق الخمر لشرب النساء فى الحرم وهو يعرف حكاية الأعرابى الذى سقوه الخمر فى أحد الأعراس ، ولم يكن ذاقها من قبل ، فلما ثارت سورتها قال لمن حوله من أهل البيت : « إن كان نساؤكم يشربنها فقد زنين ورب الكعبة » ، ولست أدرى على كل حال ما الغرض الدافع لصاحب هذا العرس إلى احتمال كل هذه الفضائح والمعايب ، فإن كان غرضه إرضاء أهل العاصمة بإنفاق تلك الأموال الطائلة فى إقامة الاحتفال ، فقد أغضبهم وأسخطهم جميعاً على ما نسمعه ونراه ، وليس فيهم إلا كل منتقد لعمله ، معترض على فعله ، ويرميه بعضهم بالتبذير ، ويرميه بعضهم بالتقصير ؛ وإن كان الغرض من هذا التوسع فى الانفاق إذاعة الشهرة بعظم الثروة والغنى بين الناس وانتشار ذكره بالكرم والجود ، فلهذه الشهرة وجوه أخرى تفيده وتفيد الناس ، ولابتناء

المحامد سبل شتى ترضى النفوس وتسر القلوب ، ولو كان اقتصر فى إقامة الوليمة على نصف ما أنفقه فيها ، و بذل النصف الآخر فى باب من أبواب البر والإحسان ، مثل مساعدة الفقراء، و إنشاء الملاجئ و إقامة المستشفيات ، و إعانة ذوى الصناعات ، لخلد ذكره بين قومه بالعمل الصالح ، ولأقاموا لمجده صروحاً من طيب الأحدوثة وجميل الثناء .

قال عيسى بن هشام : وما نشعر إلا وقد انقطع علينا سماع بقية الحديث بصياح جماعة من خدم المائدة يدعون المدعوين للخروج من القاعة حيث لم يبق على المائدة من طعام ولا شراب ، و يعودونهم بالعودة إليها بعد غسل الآنية وتجديد الألوان . فلم يسمع لهم أحد ، ولم يلتفت إلى صياحهم ، فأخذوا فى التصفيق بالأكف ، تنفيراً لهم كتنفير الدجاج ، فلم ينتقلوا ولم يتحركوا ، فعمد الخدم إلى آخر حيلة يضطرونهم بها للخروج ، فأطفأوا الأضواء ، وتركوهم يتخبطون فى الظلمات ، و يتساندون على الجدران يطلبون الأبواب ، فسبقناهم إلى الخروج ، والتقينا فى خروجنا عند الباب بصاحبين يتنازعان فى هذه الحال ، و يتخاصمان فى شدة السكر ، فلطم أحدُهما صاحبه فسقط على الأرض يتخبط فى قيئه . و ينشد هذه الأبيات فى هذره وهَزَئه :

شربتُ الخمر حتى قال صَحبى : ألستَ عن السَّفاهِ بمُستفيقِ ؟
وحتى ما أوَسَّـد فى مَبيتٍ أنامُ به سوى الترْبِ السَّحيقِ
وحتى أُغلِق « البُوفيهُ » دونى وآنستُ الهوانَ من الصديقِ

وسمعنا الآخر ينشد وهو ينتفخ تيهاً وعجباً ، و يصعِّر خدَّه صلفاً وكبراً :

شربتُ الخمر حتى خلتُ أنى أبو قابوس أو عبدُ المَدانِ

وسمعنا فى الخارج عزف الموسيقا تتقدم العروس لزفافهِ عند دخوله الحرم ، فسكت المغنّون ، وضجّ المكان ، واضطرب الحاضرون ، ووقف الجالسون ، وصعد بعضهم فوق الكراسىّ يتطاولون لمشاهدة العروس وهو فى زمرة من إخوانه وأترابهِ يخطر بينهم و يرفُل ، حتى إذا توسطوا ساحة الدار وقفوا به وقفةً ، فقام أحد الحاضرين فصعد على منصّة المغنّين صعود الخطيب على المنبر ، فشخصت نحوه الأبصار ، ومالت إليه الأسماع ، وإذا هو يخطب

بخطبة هذه نسختها : « أيها الحاضرون والغائبون ، هذه ليلة قامت فيها أعواد السرور ، على منابر الحبور ، وأشرقت فيها أهلة المسرة والبدور ، من سماء القلوب وأرض الصدور ، وطلعت فيها كواكب السعود من أفق العيون ، فانجلت عن بصائرنا غمائم الأحزان ووبل الشجون ، ولو أنى لست من فرسان هذا الميدان ، الراكبين لحيازة قصب الرهان ، ولا من المجرّدين لسيوف الخطاب وخُطب السيوف ، بحروف الرماح ورماح الحروف ، ولا من المتطين فى شروح البلاغة متون الضوامر ، ولا من السابحين فى بحور النظم والنثر على كل كامل ووافر ، ولا من الساحبين فى حلة سحبان ، ولا من المتدرعين فى حصون المعانى والبيان ، وقد حيل بين العير والنزّوان ، إلا أن ما أعرفهُ فى هذا العروس من العلم والإقدام ، وما لهُ فى مستعمرات التربية من وطأة الاحتلال ورسوخ الأقدام ، وما أعتقدهُ فيه من محبة الأوطان ومصادقة الإخوان ، كما أن ما أعلمه وأتحققه فى العروس ، التى تزف إليه هذه الليلة ، من علمها بتدبير المنزل وفروض العيْلة ، وما هو مشهور عنها لدى كل قاص ودان ، مما يوجب حسن القبول والامتنان ، وما شهد لها به معلمو المكاتب ومدرسو المدارس ، بأنها أنس المحافل وبهجة المجالس ، وما أراه على وجوه الحاضرين من الكرم والسماح ، وأتوسمه فى جباههم من الفرح والانشراح ، كل ذلك هو الذى جرأنى على الوقوف فى هذا الموقف الحرج ، وسط بحر هذا العرس المتموج ، وإنى أتوجه إليكم بوجهى لتضربوا عن تقصيرى صفحاً ، وأتقدم لكم بنفسى لتطووا عن هفواتها كشحاً ، وأطلب منكم أن تشربوا معى نُخب الكؤوس ، فى نخب العروس ، وتقولوا معى فليحى هذا الشاب فى هناء وسرور ، ورخاء وحبور ، ممتعاً بنشأة الرّفاء والبنين ، وناشئة الأولاد الناجحين ، ما ناح القُمْرِىُّ فى رياض البساتين ، وصاح الأخدرىّ [1] بين الأعشاب ، آمين آمين . »

ثم نزل الخطيب ، فقابلتهُ الأكفُّ بالتصفيق ، والأفواهُ بالتهليل ، والصدورُ بالتبجيل وصدحت له الموسيقى ثلاثاً بالسلام . ثم أعقبه على المنبر شاعر من المشهورين بين الخاص والعام ، فأنشد هذه القصيدة النادرة والمدحة الباهرة :

---

(١) الأخدرى : حمار الوحش .

بأوقات الهناء الصافيـــات   تجلَّى الأنس من كل الجهات
لقد قام البشير بها ينادى   على أهل العروسين الهداة
وفى تلك الصدور الفرح يجرى   كما تجرى خيول الصافنات
فبشرى أيها الشهم المفدى   بخير الغانيات الآنسات
ظفرت بدرةٍ فى عقد ماسٍ   من المتأدبات الراقيات
وقد زفوا بهذا الأفق بدراً   إلى شمس الهدى والمكرمات
تغذت بالمعارف والمعالى   فحازت زينــة المتعلمات
يرجى أن يكون كذا بنوها   لدى أيامنا المســتقبلات
بهم تزهو الشبيبة فى المرامى   وتغدو للحمى أقوى الحماة
بهم ترقى المواطن مرتقاها   وتصبح قدوة المتربيـــات
كجيش فى البلاد عرمرمىّ   وجند فى الحروب مبرّزات
وتمشى التيه فى أوج المراقى   وترفل منه فى حلل الثبات
فتصبح أنت خير أبٍ كريم   وتصبح تلك خير الأمهات
ودمتم بعد ذاك بألف خير   ونعمى بالبنين وبالبنات
ولولا الاختصار وضيق وقت   لجئت بألف بيت شاهقات

ثم انتهينا بحمد الله من الشاعر بعد الخطيب ، وعاد المغنون إلى اللحن والتطريب ، فأخذت أجيل النظر وأقلب الطرف ، من ركن إلى ركن ، ومن صف إلى صف ، فلم أجد فى الحاضرين بلا استثناء، من هو ملتفت إلى سماع الغناء، رأيتهم يوجهون النظر إلى السماء ، ويكثرون من الإشارة والإيماء ، كمن يتضرع بالدعاء ، لكشف المحنة والبلاء ، فرفعت مثلهم نحو السماء بصرى ، فدهيت من حيث أدرى ولا أدرى ، إذ رأيت نوافذ الدار ، مهتوكة الأستار ، وفى كل نافذة هيفاء مسفرة النقاب ، كالدمية فى المحراب ، أو كالصورة تتألق فى إطارها كالشهاب ، أو كالبدر بدا مسفراً من خلل السحاب ، تنفذ منها مثل خيوط

الغزالة[١] للمغازلة ، وتجرد من اللحظات مثل سيوف الكماة للمنازلة ، فتصيد طيور القلوب الحوائم ، وتفتك بمهج النفوس الروائم ، ثم تراها تومئ بكأس الصهباء ، إلى شفتها الحمراء ، وتلمس واسطة العقد ، بزهرة من الورد ، فيشتبه على الرائى وجه الأمر ، باختلاف اليواقيت كالجمر ، ياقوتة الخمر ، بياقوتة الثغر ، وياقوتة الزهر ، بياقوتة النحر ، ثم لا تفتأ ترسل الإشارة تلو الاشارة ، تارة بالمروحة وأخرى «بالسجارة» ، مع ابتسامات توضح عن مكنون الصدور ، وتفصح إفصاح المعانى فى السطور ، والرجال من تحتهن يجاوبونهن على أعين النظار ، طوراً بإشارات الأيدى ، وطوراً بلغة الأزهار ، وكل مغازل فيهم يعتقد أنه امتاز على سواه ، وتغلب على أهل النوافذ بهواه ، وأضرم فيهن نار العشق وجواه ، وخلع قلوبهن بدعواه ، وما بالنوافذ سوى أزواجهم و بناتهم ، أو أخواتهم و بنات أخواتهم ، والمغنى يستقبل وجوههن فى هذه الأثناء ، بوجه ليس فيه أدنى حياء ، فيغنيهن من الأصوات والألحان ، ما يثير من الغرام ويهيج من الأشجان ، والخصيان يصعدون إلى الحرم بأوراق ، و ينزلون منه بأوراق ، يتخيرون فيها الأدوار السائرة على ألسنة العشاق ، فى وصف حرارة الأشواق ، ومرارة البعد والفراق ، وما زالت الحال تتزايد قحة ووقاحة ، وتتضاعف هتكا وفضاحة ، حتى قام فى وسط المكان جماعة من الأصحاب ، يتقاذفون بألفاظ القذف والسباب ، ثم إنهم انتقلوا من التلاعن والتشاتم ، إلى التضارب والتلاكم ، فقام الحاضرون على الأقدام ، لمشاهدة ميدان النزال والخصام ، ثم توسط رجال الشرطة بينهم لفض المخاصمة ، وسوقهم إلى المحاكمة ، بعد أن تمزقت الثياب تمزق الأوراق ، وتخضبت الوجوه بالدم المهراق ، فصارت الأفراح أتراحاً ، وانقلب الغناء نواحاً ، وقلت لصاحبى : هلم بنا إلى الفرار ، من مواقف التهمة والعار ، وخرجت به أسوقه أمامى ، وأقول له فى بعض كلامى : لقد حق لك بعد الذى رأينا ونظرنا ، و بلونا وخبرنا ، أن تلتهب بالغضب والحنق التهاباً ، أو يذهلك الدهش والعجب فلا تعى جواباً ، وهل بقى بعد ذلك فرق بين سرور الدنيا وحزنها ، أو فضل لظهر الأرض على بطنها ؟ فأجابنى بلسان الحكيم المدرب ، والحليم المهذب ، وهو يبتسم استهزاء ، ويهز كتفيه ازدراء : لم يبق فى بفضل الحكمة فضل للسخط والغضب ، وعجبى اليوم مما أرى يكون من العجب .

(١) الغزالة : الشمس

العمدة فى الحديقة

قال عيسى بن هشام : وتمكن من الباشا حب الاستكشاف والاستطلاع ، لدرس الأخلاق وسَبْر الطباع ، وتبدلت الوحشة عنده بالائتناس ، فى مخالطة الناس ، فصار يلح على ويَلِجُّ فى الطلب، أن أذهب به فى هذا السبيل كلَّ مذهب ، وأنا أداوره وأحاوله ، وأماطله وأطاوله ، وهو لا ينفكّ يستنجزنى و يستقضينى، و إذا استعفيته لا يعفينى . فقلت له : لم يبق أمامنا من المجالس والمنتديات ، إلا ما اشتملت عليه الأزبكية من المخجلات المنـديات [١] ، وما تضمنته من صنوف الرجس والنكر ، وفنون الفسق والسكر ، وأنا أجلك أن أسلك بك مسالك الظنة والتهمة، وأن أحلك محال الريبة والشبهة، وأربأ بسنك وقدرك أن تختلط بتلك الزمر ، وتدخل معهم فى تلك الغمر ، وتقصر نفسك الشريفة على ما لم تألفه من مثل ما يعملون ، وشروى ما يفعلون [٢] ، فلا نأمن حينئذ نقد الناقدين ، وطعن الطاعنين ، وقاسمته إنى لك لمن الناصحين. فقال: ألى تقول ذلك ، وقد آتيتنى من دروس الحكمة العالية ، وضروب الفلسفة السامية ، ما أزدرى معه عذل العاذلين ، وأحتقر به لوم الجاهلين ، ولن يضير النفس الشريفة الطاهرة ، أن تجاور النفس الخبيثة الفاجرة ، وقل أن يعدىَ المريض الطبيب، وتذهب رائحة الدفر [٣] برائحة الطيب، والامعان فى رؤية النقيصة والرذيلة ، يزيد النفس الفاضلة تمسكا بالفضيلة ، ولا يعرف قدر الرشد والهداية ، إلا من نظر فى أعقاب الضلالة والغواية ، و بالظلمة يعرف فضل الضياء ، و بضدها تتبين الأشياء ، ذلك من فضل ما علمتنى مما علمت رشداً ، ولقد كان من أدب الحكام فى أيام دولتنا ، وزمن صولتنا، أن يغيروا من هيئاتهم ، و يستروا من سماتهم ، و يبدلوا من أزيائهم المعروفة بأزياء غير مألوفة ، ليتمكنوا من مخالطة الناس على اختلاف أشكالهم ، و يقفوا على جلية أمرهم وحقيقة أحوالهم ، فلم يكن ذلك مما يغض بسمعتهم ، أو يحط من رتبتهم عند

(١) المنديات : المخزيات (٢) شروى : مثل (٣) الدفر : النتن

ظهور أمرهم، ووضوح سرهم ، فلا عليك إذاً أن تسلك بى ما شئت من المسالك، ولا تخش على شيئاً من تلك المعاطب والمهالك .

قال عيسى بن هشام : ولما لم يبق لى بُدّ من امتثال حكمه ، وتنفيذ عزمه ؛ قصدتُ به من الأزبكية روضتها الغنّاء ، وحديقتها الفيحاء ؛ فلما وصلنا إلى بابها ، ووقفنا عند «دُولابها» ، وضعتُ فيه أجرة العبور ، كما توضع النذور فى صُندوق النذور ، ودرتُ فيه دورتى ، ودار الباشا دَورته ؛ فقال لى وهو يدافع الغضب وسَورتَه : هل كُتب على الداخلين فى هذه الجنة الزاهية، أن يدور الإنسان دَورة الثور فى الساقية ؟ فقلت له: نعم شاع التخوين بين الناس فى جميع الأشياء ، فاخترعوا لهم مثل هذه الآلة الصماء ، لتكون رقيباً عتيداً ، لا يستطيعون معها اختلاساً ولا تبديداً ، فهى ترقم من الداخل عند كل دورة ، ما ينقده الداخل فيها من الأجرة ، فلا يضيع منه مثقال ذرّة ؛ ولما جاوزنا الباب أعجب الباشا حسن المنظر وازدهاه، وراقهُ بهاء المكان واستهواه ، وتملكه الابتهاجُ وتولاه ؛ فقال : ما شاء الله لا قوة إلا بالله ! لِمَنْ هذه الجنة من كبراء البلد ؟ قلتُ: هى مِلك كل واحد وليست بملك أحد ، أنشأتها الحكومة من « المنافع العامة » لنزهة الخاصة والعامة : ثم سرنا نطوف فى أنحاء الحديقة، بين أشجارها الوريقة ، وأغصانها الرشيقة ، وأزهارها الأنيقة ، والباشا يهتز طرباً ، ويميل عجباً ، لحسن هذا المنظر العجيب ، والمنبت الخصيب ؛ ثم وقف بنا وقفةً بين بَرْد الظلال وخرير الماء ، ورفع ببصره يقدّس باسط الأرض ورافع السماء؛ ثم رأيته ينحنى للركوع انحناء القوس ، بعد أن أنشد قول حبيب بن أوس :

أرضٌ إذا جرّدْتَ فى حسنها ... فكرَكَ دلّتكَ على الصانع

وسمعته يتلو فى الركوع والسجود ، قولَ صانع الوجود : « ولله يَسجد مَنْ فى السموات والأرض طَوْعاً وكَرْهاً وظِلالُهُمْ بالغدُوِّ والآصال . » وقوله أيضاً عزّ مِنْ قائل : « تُسبّح له السمواتُ السبعُ والأرضُ ومَنْ فيهنّ وإنْ مِنْ شىء إلاّ يُسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحَهم » .

ثم انثنيتُ به فى طلب الراحة ، فجلسنا على أريكة من أرائك تلك الساحة ، ودارت بيننا هذه المخاطبة ، بما اقتضته المناسبة :

(الباشا) — كيف لا يكون هذا المكان بالناس غاصًا ، وبالمرتاضين مزدحمًا ، يشاهدون جماله ، ويتفيأون ظلاله ، ما دامت الحكومة قد أباحته لكل رائحٍ وغادٍ كما تزعمه ؟ ومالى لا أرى فيه غير هؤلاء الأجانب فى أزيائهم ، بأبنائهم ونسائهم ، فهل وقفته الحكومة على الغربيين ، وحرّمته على المصريين ، فإننى لم أجد فيه أحداً منهم منذ دخولنا إلى هذه الساعة ؟

(عيسى بن هشام) — لم تُؤثر به الحكومة قوماً دون قوم ، ولكن المصريين كأنهم أِلفوا التهاون باللذات الروحانية وتغافلوا عنها ، وأخصُّها معرفة ما حَسُنَ فى الأشياء ، وتمييزُ الجمال والكمال ومواضعِ الاحسان والاتقان فى صنعة الوجود ، ورياضةُ الفكر والنظر فى مطالعة كتاب الكائنات ونظام المخلوقات التى تسبّح بحمد خالقها ، أى تدل عليه بصنعته فيها ، وكأن الواحد منهم قد حبس نفسه وقيّد فكره فى الوجود على الماديات ، فلا يكاد ينظر فى دهره نظرة المشاهدة والإمعان فى خلق السموات وما يتألق فيها من الشموس والأقمار والنجوم والكواكب ، ولا فى خلق الأرض وما ينبت فيها من النبات ويدبُّ من الحيوان ويجرى من البحار ويرسو من الجبال ، وهى بجمال صُنعها وكمال وضعها .

تَصيح بِمَنْ يَمُرُّ : ألا تراني فتفهمَ حكمةَ الخَلقِ العجيبِ ؟

(الباشا) — جلّ الخالق الصانع ، ولكن لأىّ سبب أِلفَ المصريون غفلتهم عن التمتع بهذه النعمة ، نعمةِ المشاهدة ولذةِ المطالعة ، وصار الأجانب يتعلقون بها دونهم ويمتازون بها عنهم ؟

(عيسى بن هشام) — لا سبب فيما أعلم إلا التمادى فى التهاون ، والتراخى عن إيقاظ هذا الشعور الغريزى الكامن فى النفس ، وتنميته بالرياضة والتفكير ، ومعاودة الإمعان والتدقيق ، وقد اعتنى الأجانب به عناية خاصة ، فاجتهدوا فى تنميته وترقيته ، حتى صار لديهم ملكة من الملكات ، وفناً جميلاً من أرقى الفنون ، فدربوا عليه ، ومرنوا فيه ،

وسرى فى دمائهم يتوارثه الأبناء عن الآباء ، فترى الطفل فيهم إذا شب ودرج ، وأراد أن يتحف أهله يوماً بادر إلى الروض فاقتطف منه أول زهرة من الربيع وتسابق بها إليهم كأنما عثر لهم على كنز لحسن الوقع عندهم ، ولقد برعوا فى الصناعة بفضل هذا الشعور ودوام نموه ، ولم يقتصر الحال فيه عندهم على المرئيات الطبيعية ، بل تجاوزه إلى المرئيات الصناعية ، ففيهم من يبذل الألوف من الدنانير والملايين من الدراهم لاقتناء صورة من الصور ، ورسم من الرسوم يحسن تمثيل زهرة من الزهور ، أو دائرة من الشفق ، أو راع من الرعاة ، أو حيوان من الحيوانات بما لا مناسبة بين قيمته فى الأصل الطبيعى ، وبين قيمته فى الشكل الصناعى ، وقل أن تدخل دار ميسور منهم إلا وتجد أنحاء الجدران مزدانة بألواح التصاوير والتهاويل مما يحاكى المناظر الطبيعية ، فلا يفوت صاحب الدار أن يتمتع بحسن المنظر فى داخلها إن حجبته عن مشاهدة جمال الطبيعة فى خارجها ، ولقد جرهم ذلك إلى شدة الولوع بمشاهدة الآثار القديمة ، والتنافس فى اقتنائها ، والغلو فى التحفظ عليها ، والضن بها ، فكم رأينا من قطعة من الحجر أو غيره تزدريها الأعين بيننا ، ولا يعبأ بها المصرى ، فيطرحها فى كناسة منزله ، فلا تزال كذلك ، حتى يلتقطها الأجنبى فى بحثه وتنقيبه ، فتصير عنده فى قيمة فريدة التاج أو يتيمة العقد ، وكم رأينا من السياح من يتكبدون مشاق الأسفار ، ويتحملون أهوال البحار وأخطار القفار مع إنفاق الألوف المؤلفة من الذهب والفضة لمشاهدة آثار الدمن وما عفا من الرسوم فى هذه الديار ، وربما رأينا المصرى ساكن القاهرة يشب ويشيب ويكتهل ويشيخ ويعمر ويهرم ولم ير من الأهرام القائمة فى جواره غير صورتها المرسومة على ورق البريد ، وربما لم يلتفت إلى رؤية ذلك أيضاً حتى يدركه الموت .

(الباشا) — تالله إن ذا لمن العجب ، ولو كان الأمر يجرى على القياس ، لكان المصريون فى مقدمة الأمم التى ينمو فيها الشعور بلذة التأمل فى بدائع الكائنات ومحاسن الموجودات ، لرقة طباعهم ، ولطافة شيمهم ، وسرعة التأثر والانفعال فى نفوسهم ، ولما ميزهم الله به من حسن الاقليم ، واعتدال الجو ، وفيض الماء ، وخصب التربة ، ولانحصار

موارد أرزاقهم ومعاشهم فى استقبات الأرض ، وطول ممارستهم للفلح والحرث والزرع والحصد ، وكل من رأى الاقليم المصرى كالزبرجدة الخضراء ، فى وسط رمال الصحراء ، لا بد أن يحسد أهله على التحلى بهذه الفريدة من عقد الطبيعة ، ويغبطهم على دوام تمتعهم باجتلاء هذا المنظر الذى يجلو البصر ، ويثلج الفؤاد ، وينعش القلب ، ويلطف من هواجس النفس وبلابل الصدر ، فتصفو الروح ، فتخف من قيود العالم السفلى إلى الاتصال بمعارج العالم العلوى ، فترتاح هناك هنيهة مما تقاسيه فى مصارعة العيش من ضروب الأكدار والآلام ، وتفر من وجهها إلى وجه ربك ذى الجلال والإكرام . واعلم — وهذه لفظة طالما أفادنى تكرارها على لسانك فاسمح لى بها مرة من لسانى وما أعلمك إلا عن خبرة وتجريب — أن الفرق بين الانسان والحيوان لا ينحصر فى الخلقة ، فنى الخلقة ما يشبهه ، ولا فى النطق ، فنى الحيوان ما ينطق ، ولا فى الذكاء ، فنى هوام الأرض ما يفوقه ذكاء وإنما المزية التى تميزه عن سائر الحيوانات ، والخصلة التى يفضلها بها ، هى إدراك حقيقة الوجود بالامعان والمشاهدة ، وطول الفكر والنظر فى خلق السموات والأرض للاهتداء إلى معرفة خالقها ، وعبادة صانعها ، قال جل وعز فى محكم بيانه : « أفلا ينظرون إلى الابل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت وإلى الجبال كيف نصبت وإلى الأرض كيف سطحت فذكّر إنما أنت مذكّر » . هذه هى اللذة الروحانية التى أسعد الله بها الانسان دون سائر المخلوقات ، وهى أشرف اللذات وأصفاها ، وأفضلها وأبقاها ، وما يتقرب العبد إلى الله زُلْفَى فى عبادته بأجلّ من النظر والتفكير فى حسن صنعه وكمال خَلْقه ؛ قال وهو أحكم القائلين : إنّ فى خَلقِ السموات والأرضِ واختلافِ الليلِ والنهارِ لآياتٍ لأولى الألبابِ الذينَ يذكُرونَ الله قياماً وقعوداً وعَلَى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السمواتِ والأرض ربَّنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانك فقِنا عذابَ النار » ، ولا يقف على مقدار هذه اللذة الروحانية تمام الوقوف إلاّ مَن تجرّد مثلى يوماً من عالم الأجسام والفناء ، إلى عالم الأرواح والبقاء ، ولا ينبئك مثل خبير .

ولو كانت الأمور تجرى على القياس أيضاً ، لاشتغل المصريون بلذة هذه المشاهدة ،

وسعوا فى نموّها فيهم ، إن لم يكن من جهة لطف الإحساس والشعور ، فمن جهة انصرافهم إلى تقليد الغربيين ، والعمل على نمطهم فى مختلف أحوالهم ، كما شاهدته منهم عياناً فى جميع حركاتهم وسكناتهم ، ولكن لعل هناك من خفىّ الأسباب ما حرمهم اطّرادَ التقليد فى هذا الباب .

(عيسى بن هشام) — لم يكن هناك من سبب يمنعهم غير ميلهم إلى الفتور والانقباض سواء أكان فى الماديات أم الأدبيات ، وهم على شدة وَلَعهم بتقليد الأجانب ، لا يقلدونهم إلا فيما خفّ وهان من الزخرف المموّه ، والبهرج الكاذب ، والملاذ الشهوانية ، مما لا ينتج عنه إلا سقم الأجسام ، ونفاذ الأموال ؛ وما عدا ذلك من أمور المدنية النافعة ، فمجهولٌ عندهم ، بل مرذول لديهم ، و إجمال القول فى هذا الباب أن مثل المصرىّ فى أخذه بالمدنية الغربية ، كمثل المُنْخُل يحفظ الغثّ التافهَ ويفرّط فى الثمين النافع .

(الباشا) — يا أسفاً عليهم كأنهم تخلّوا عن فضائل مدنيتهم القديمة ، ولم يتحلّوا بفضائل المدنية الحديثة ، فأصبحوا كالتى نقضت غزْلها من بعد قوةٍ أنكاثا .

قال عيسى بن هشام : وما زال الحديث يجرى بنا على هذا النحو ، حتى وصلنا إلى المغارة المصنوعة فى بعض أنحاء الحديقة ، فرأينا صنعاً جميلاً وشكلاً بديعاً ، وأعجبنا تدفق الماء من ثنايا الأحجار ، فجلسنا على سُررٍ هناك أعِدّت للزائرين ، و إذا بجانبنا ثلاثة أشخاص مِن المصريين ، شغَلهم اتصالُ الحديث بينهم عن الالتفات إلينا ، فأقمنا نسترقُ السمع ونلتقط اللفظ ، فتبيّن لنا من سياق كلامهم أن أحدهم عمدة من عمد الأرياف ، وثانيهم تاجر من تجار الثغور ، وثالثهم فتى من أهل البطالة والخلاعة . ومما التقطناه من قول العمدة للخليع فى مجرى حديثه :

(العمدة) — وأين الآن مادخلنا الحديقة من أجله ، فقد طال بنا الجلوس ولم نرَ شيئاً ؟ وهل كان جُلّ القصد ومنتهى الجهد أن نجلس هنا فى وخامة الأشجار ، ورطوبة الهواء ، وعفونة الماء ؟ وتالله ما أجد فرقاً بين هذا المنظر و بين منظر ذلك المستنقع الذى خلفته خلف بلدتنا ، ولعمرى إن الأوزّ الذى يسبح فيه هناك أكثر عدداً وأعظم سِمَناً من الأوزّ

الذى يسبَح أمامنا ، وما الفائدة فى طول جلوسنا أمام هذه الأشجار العقيمة التى لا تثمر ولا تغنى من جوع ؟ وأين نحن من ذلك الثمر الشهىّ والصيد الطرىّ الذى وعدتنا به وأطمعتنا فيه ! !

(الخليع) — مهلاً فلن يفوتك من هـذا شىء ، و إن كنا أخطأنا الغرض هنا ، لأننى كنت أظن الحديقة على عهدى القديم بها ، وما كنت أتخيل أن الأمر وَصل بها إلى مثل هذا الخراب من الظبـاء والغزلان إلاّ منذ أخبرنى أحد الأصحاب بعد دخولنا بأن الحـكومة اشتغلت بأمر هذه الحديقة لخلوّ يدها من الأشغال ، فباشرت الإصلاح فيها بمنع ذوات البراقع والمآزر من دخولها ، والتجوال فى أنحائها ، ولا أقول فى هذه النازلة إلا قول الجرائد فى التأفف من أعمال الحـكومة : « حسبنا الله ونعم الوكيل . »

(التاجر) — وعلى هذا فقد ذهبتْ تلك الليالى والأيام التى كانت فيها الحديقة مرتعاً للحسان ، وملعباً للقيان ، ولطالما دخلتُ هنا وحيداً فريداً ، فما أكاد أنصب الحبالة ، وأضع الحَبَّ ، حتى أقتنص من آرامها مثنى وثلاثَ ورُباع .

(العمدة) — يعلم الله أن العاصمة أصبحت على حال لا تصح معها الاقامة إلا مدة قضاء الحاجة ، والرجوع إلى البلد فوراً ، و إلا فقد عرَّض الواحد منا دراهمهُ للضياع ، وصدره للانقباض ، وإلى الآن ترانى فى غاية الأسف والحزن على ما جرى لى أمس فى سهرتى مع فلان الموظف ، إذ جرَّنى للنزهة معه ، فطاوعتهُ على هواه ، أملاً فى إنجاز حاجتى عنده ، فسحبنى من مكان إلى مكان ، ومن حان إلى حان ، يشرب هو وأصحابه على حسابى ، وكأنمـا أجوافهم دنانٌ متخرقة ، فلا تمتلىء أبداً من الخمر ، وكأنما كيسى كنز لا يفنى بالانفاق ، وما كدنا ننتهى من حانات الخمر ، حتى اندفعوا بى إلى بيوت القمار ، فأصبحتُ مصدَّع الرأس من الخمر ، فارغ الـكيس من القمرْ .

(التاجر) — ولم تطاوعه على أغراضه ، وتنقاد إليه مع أصحابه ، وتنفق مثل هذا الانفاق من غير حظ ولا لذة ؟ و إن كانت لك حاجة ترجو قضاءها منه كما تزعم ، فيكفى فى ذلك أن تضع « المبلغ المناسب » فى يده ، وتتخلص منهُ ومن أصحابه ، فلا تسايرهم ، ولا تعرِّض نفسك للتورط معهم كما فعلت .

(العمدة) — يحق لك أن تعترض وتلوم ، فقد أراحكم الله معاشر التجار فى المدن من متاعبنا ومصائبنا مع الحكام ، فان أشغالكم لا تتعلق بهم كما تتعلق أشغال الفلاحة فى الأرياف ، فنحن فى اضطرار دائم إلى استرضائهم ، « والمبلغ المناسب » الذى تقول عنه لا يكفى وحده فى قضاء الحاجة ، بل يلزم الانفاق عليهم فى كل زمان ومكان ، علاوة على تلك المبالغ ، وإن لم يكن لك عندهم حاجة فى الحال . وكم من كلمة واحدة من موظف صغير كانت سبباً فى تعطيل عمل كبير ، وما يدريك أن الذى تمضى عنه الليلة ، ولا تلتفت بنظرك إليه فى حانات الأزبكية ، يصبح غداً قاضياً فى المحكمة ، أو حاكما فى المديرية ؟

(الخليع) مقاطعاً — إذا كانت الليلة الماضية قد انقضت على غير هواك ، فلنا عنها عوض من ليلتنا هذه إن شاء الله .

(العمدة) — أنصدّقك فى وجود العوض ، وقد أخلفت وعدك معنا فى هذه الحديقة ، وآذن الليل بالدخول ، وليس فى اليد شىء من الصيد ؟

(الخليع) — صدّقنى بالله ، فانى ما كنت أعلم بما أصاب الحديقة من أمر الحكومة ، لأننى كنت مقيما بحلوان مدة طويلة ، وجئت وأنا أحسبها على حالها الأول ، ولكننى قد رتبت لك الآن سهرة فى فكرى تفوق فى حسنها كل سهرة مضت ، فانى أعرف صاحباً لى أخبرنى عن بيضة خِدر من بيت فلان باشا ، فقوموا بنا ، وانا أذهب للحصول عليها هذه الليلة بما يمكن من الحيل ، وسأ كتم عنها أمركما إلى أن تصير معى فى الموضع الذى أختاره ، ثم أرسل إليكما من هناك بمن يأتينى بكما ، فيكون دخولكما على حين غفلة ، فلا تستطيع الاختفاء ، ثم تضطر إلى البقاء فى مكانها ، وحينئذ يدور بنا المجلس معها دورة الأنس والسرور ، ولكن لا أخفى عنكما أن مقدار ما معى من الدراهم الآن لا يكفى لإعداد معدات هذا المجلس ، وأخشى إن أنا ذهبت إلى البيت لآخذ دراهم أخرى أن يمنعنى أهلى من الخروج ثانية ، كما هى العادة عند النساء فى التضييق على الرجال .

(العمدة) — لا عليك ، فعندى من الدراهم ما يكفى وزيادة .

قال عيسى بن هشام : وقاموا فى الحال للسعى وراء اللهو والمجون ، وقام الباشا يسحبنى وراءهم للعلم بما سيكون .

العمدة فى المجمع

قال عيسى بن هشام : وخرجنا فى أثر الخليع والعمدة والتاجر ، وقد ألقتْ ذكاء يمينها فى كافر(١) ، ثم أضيئت بعد ذلك شموع الكهرباء ، فعادت الشمس متوزّعة فى مصابيح الضياء ، كالنجوم تتلألأ فى أفق السماء ، وتقشع دياجى الظلماء . ولما توسطنا ساحة « الأوبرا » و « الأوبرا بار » ، وقف الباشا وقفة الأعظام والاكبار ، يكفكف غرْب الدمع والاستعبار ، ويقول سلامٌ على إبراهيمَ ، أإبراهيمُ فى النار ! كيف لا يضطرم القلبُ استعارا ، ويجرى الدمع مدرارا ، فما أستطيع أوارى(٢) ولا أستطيع أوارى ، وقد تمثل أمامى فى هذه البقعة ، وهى موسومة بسوء السمعة ، بطلُ مصر ، ورافع بنود النصر ، وقائدُ جيوش الحرب وهاديها ، فى مفاوز الأرض وبواديها ، ومُوقدُ نيران الوقائع وصاليها ، وخائضُ غمرات المعامع وجاليها :

فى كل منبت شعرةٍ من جسمه   أسدٌ يَمُدُّ إلى الفريسة مخلبا

وكيف جاز لهم أن يضعوا عنوان البأس والجدّ ، فى مواضع الهزل والدَّد(٣) ، ويقيموا لإبراهيم صنماً على صورته ، وفى وسط سوق الفسوق وسرّته ، مشيراً بيُمْناه إلى مواطن اللهو والفجور ، وأماكن الفحش والفُهور ، ودِينُهُ ينهاهم عن تشييد الأصنام وإقامتها ، ويأمرهم بكسرها وإبادتها ، ويا بؤس قومٍ جعلوا اليد التى كانت تشير للكماة والفرسان ، فى ميدان الضرب والطعان ، بمصافحة المنايا ومقارعة الأقران ، تشير اليوم وسط هذا الميدان ، بمغازلة البغايا ومعاقرة الدنان ، فسبحان محوّل الأحوال ، ومبدّل الأزمان . فقلت له : ما هذه الأفكار المحزنة ، أحنيناً إلى تلك الأزمنة ، وقد انقضتْ بخيرها وشرّها ، وذهبت بحلوها ومُرّها ، وأين أنت من طريقك فى الحكمة والسداد ، ومِنْ سبيلك فى الهداية والرشاد ؟ فخفّضْ عليك من حزنك وهمّك ، واترك تلك الهواجس فأنت ابنُ يومك ، ولا تجعل لهواك القديم عليك سلطانا مطاعاً ، فيذهب ما استفدناه من العلم ربحاً مضاعاً ، أما إقامة التماثيل فى الميادين ، ومخالفتها للشرع والدين ، فقد أقامها حكامُنا تقليداً للغربيين ، ولم ينكرها أحد

(١) ذكاء : اسم للشمس ، والكافر : الليل (٢) الأوار : حر النار (٣) الدد : اللهو واللعب

من طلبة العلم وعلماء المسلمين ، فاستنامت إليها الأفكار ، ولم يوقظها التحريمُ والانكار ، وأمَّا وضعُ التمثال فى هذا المكان دون سواه ، وإشارتُهُ فوق الحصان بيُمناه ، فلعل الآمر بوضعهِ أراد أن يذكّر هؤلاء الغافلين الذاهبين ، بما كان لآبائهم الأولين ، من الشأن الرفيع ، والركن المنيع ، أيام إمارتهِ ، وينبّههم على ما انتشر ذكره فى الآفاق ، وخلدته لهم بطون الأوراق ، من اقتحام المهالك ، وافتتاح الممالك ، تحت قيادته ، وهو يشير اليوم بتلك اليد ، ليستفزهم إلى مواقف العز والمجد ، ويستنفرهم عن بواطن الخلاعة والبطالة ، إلى مواطن الشجاعة والبسالة . فتبسَّم الباشا من قولى ضاحكا ، وقال : ما عهدتك فى الجواب محاولا مماحكا . فقلت له : دَعْ هذا وانظر إلى هذه البِنْيَة الايوانية ، ذات الأرائك الخسروانية. فقال : أعظمْ به من بناء ، بين بيوت الكبراء . قلت : هو بيتُ لهوٍ رَفعَ اسماعيلُ قواعدَه ، وبوّأ الناس مقاعدَه ، يشاهدون فيهِ صنوف الألاعيب ، وضروب الأعاجيب ، مما يؤخذ عن أساطير الأولين ، وأقاصيص الراوين ، وما تَفْـتَنُّ فيهِ كلُّ غادة حسناء ، من جمال الزينةوحسن الرواء ، وتَفْـتَنُ به كلُّ قَينة هيفاء ، من فنون الرقص والغناء ، اقتداء بالغربيين فى ديارهم ، واحتذاء لآثارهم ، وقد بقِيَ مِنْ بَعدِهِ تنفق عليه الحكومة من عيش الصانع والفلاح ، لتفكهة النزلاء والسُيَّاح ؛ ثم انظر أمامك إلى هذا المجتمع الملتحم ، والموقف المزدحم . فالتفتَ وقال : ما هذه الضوضاء العظيمة ، أمأتمٌ ما أرى أم وليمة ؟ قلت له : لا بل هو مجتَمعٌ عام ، تتزاحم فيه المناكب والأقدام ، لمسامرة الأصحاب ، ومعاقرة الشراب وبينما نحن كذلك إذ وقف بأصحابنا المسير ، عند باب هذا الخان الشهير ، فسرنا فى عَقِبهم ولحقْنَا بهم ؛ فسمعنا الخليع يقول لصاحبيه : كُونا هنا فى الانتظار ، حتى أعود اليكما بالأخبار ، إنجازاً لوعدى ، وإيفاء بعهدى ، فأجاباه بالقبول ، وتقدَّما للدخول ، فقال العمدة للتاجر : ما أحوجنى إلى تضييع الزمن ، ورياضة البدن ، بشرب كأس من العُقار ، ولعب دَور من « البليار » . وقال التاجر : وما أحوج يدى إلى ملامسة ورق القِمار ، وأذنى إلى رنين الدرهم والدينار ! ثم صعدنا وراءهما إلى قاعدة بأعلى المكان ، أعدّت للعب والرهان . فتقدم العمدة وهو يهزّ أعطافه وأردانه ، فتسلَّم كُرةَ « البليار » وصولجانه . وقعد التاجر وهو يرتعد من

الفرق ، فى مجلس اللاعبين بالورق . وجلسنا نحن للنظر والسمع ، فى غمار ذلك الجمع ، فسمعتُ عن يمينى أحد السماسرة المعروفين بالدهاء، يقول فى مناقشته لأحد أرباب الثروة والغناء:

(السمسار) — لا نزاع ولا جدال فى أن ينابيع الثروة قد نضبت بذهاب تلك الأيام الماضية ، التى يَغتنى الرجل فيها بكلمة ، ويُثرِى بإشارة ، فيصبح بها أغنى الأغنياء ، بعد أن كان معدوداً من الفقراء ، ولقد وصل المصريون الآن إلى زمن كله ضيق وعسر ، ولم يبق من حكامهم من يقطع الأقطاع ، ويهب الضِياع ، وبَقىَ الغنىّ الحازم فيهم على حال الخمول والانكماش لا يستثمر أموالهُ ولا يستربح ثروته ، وقد زادت الحاجات وتعددت وجوه المطالب يوماً بعد يوم ، فأصبح مضطراً إلى الإنفاق منْ تَليدِهِ ، فسرى النقصان إلى رأس المال ، حتى إذا مضى لسبيله لم يترك لأهله وذريته إلا ما يقوم بالكفاف وحده بعد توَزّعه بينهم ، وكن على يقين أنه لا يمضى جيل واحدٌ على هـذه الحال إلا وينذثر بين المصريين ما بقى من بيوت المجد والغنى ، واعلمْ أنه لم يبق أمامنا اليوم سوى بيت واحد ، وهو منبع المنابع فى الثروة والمال ، وكنزُ الكنوز فى الغنى واليسار ، يقوم للمصريين مقام أعظم بيت من بيوت الحكام الذين كانوا ينعمون عليهم بالسيب والعطاء ، ويدفعون عنهم الضراء بالسراء ، وما يخفى عليك أنه بيت البورصة .

(الغنىّ) — اسكت ولا تذكر لى اسم البورصة ، فقد سمعنا فى هذه الأيام عن فعلها بفلان وفلان ما فيه عبرة للمعتبر وموعظة للمتدبر .

(السمسار) — ألتمس من سعادتكم غض النظر عن الاستشهاد بفلان وفلان ، فإن الخسارة لحقتهما من سوء رأيهما وشدة جهلهما ، أما أحدهما فإنه كان يعتمد فى المضاربة بأمواله على التفاؤل والتطير ، وكان لا يأخذ إلا بكلام إحدى العرافتين : العرافة السودانية أو العرافة الافرنجية ، تلك بوَدَعها ، وهذه بِوَرَقها ؛ ومن نوادره فى الأخذ بالتفاؤل أنه سمع رجلا مجذوباً يصيح فى الطريق بقوله : « اذهب يا يزيد » ، وكان لا يزال متردداً بين البيع والشراء ، لا يرجح بين الهبوط والصعود . فتفاءل بالكلمة واعتمدَ عليها ، وسار من توه إلى سمسار ، فأمره أن يشترى له عشرين ألف قنطار ، فنصحه وحاول أن يحوله

عن رأيه فلم ينتصح ولم يتحوّل ، وهبطت الأسعار فى اليوم الثانى ، وتوالىَ هبوطها ، فكان ما كان من خسارته ؛ وأما الثانى فكان جلُّ اعتمادِه على الأخذ بأفكار أرباب الجرائد ، والثقة بالأخبار الكاذبة من الموظفين ، ولم يعمل برأى السماسرة الذين هم أدرى الناس بوجوه المضاربة ، وأعلمُهم بطرق الصواب فيها .

(الغنىّ) — لن تزيدنى والله براعتك فى البيان والبرهان إلا ابتعاداً عن مضاربة البورصة وعن أهوالها ، ولا أعتبرها فى نظرى إلا أكبر باب من أبواب المقامرة ، والمقامرة هى عين المخاطرة .

(السمسار) — أما المخاطرة فهى لاصقة بالإنسان فى كل حركة وسكون ، وملازمة لعمله فى كل زمان ومكان ، ومَنْ أراد أن يتوقى الأخطار ، ويسلَم من المخاوف ، فلا يباشر عملاً من الأعمال ، والأَوْلى له أن يترك هذا العالم إلى سواه ، واسمح لى بآخر قول أقوله لك فى هذا الباب ، وهو أنك أخبرتنى بمقدار محصولك فى هذا العام وهو ثلاثة آلاف قنطار مخزونة عندك إلى اليوم ، لم تبعها تربصاً لصعود الأسعار ، ولم تبال بما يلحق القطن فى طول خزنه من نقص الوزن ، وما يتهدده من بقية الأخطار كالسرقة والحريق ، فإذا كنت فضلّت الانتظار ، لصعود الأسعار على هذه الحال فى ثلاثة آلاف قنطار ، فما الذى يمنعك عن مثل هذا العمل فى ثلاثين ألفاً من « الكونتراتات » ، دون كلفة ولا مشقة كالتى احتملتها فى استخراج المحصول ؟ فإنك لاتدفع هنا ثمن أرض ، ولا تنفق على حرث ، ولا تؤدى ضريبة ، ولاتبذل ماء وجهك لرى الأطيان ، ولا تحنى ظهرك لأصاغر الحكام وما دخلت فى قضية ، ولا وقعت فى منازعة ، ولا تخوفت شيئاً من الآفات ، سماوية كانت أو أرضية ، بل هو ربح يأتيك عفواً صفواً ، ولا رأس مال له سوى أربعة حروف أو خمسة تخطها بيمينك فى التوقيع .

(الغنىّ) — يجوز أن يكون فى قولك هذا بعض ما يقنع ، ولكنى لا أجد نفسى تطمئن يوماً إلى ولوج هذا الباب .

(السمسار) — أنا لا أكلفك أمراً عظيما ، ولا أدعوك إلى أدنى خسارة ، وما عليك

إلا أن تجرب صدق نصيحتى ، فتشترى ألفين من « الكونترانات » ، فتنتظر بها صعود الأسعار مع أقطانك المخزونة ، وأنا أضمن لك الربح ، مادمت آخذاً برأيى ، ولا تستمر فى هذا الانكماش والحذر اللذين هما علة تأخر المصريين ، وخذْ فى النشاط والإقدام اللذين هما سبب تقدم الغربيين ، واعلمْ أن الفرق فى سرعة الربح بين ما يشتغل به الناس من التجارة والصناعة والزراعة و بين أشغال البورصة و « الكنتراتات » ، كالفرق ما بين السفر على ظهور الجمال والطيران على أجنحة البخار ، أو ما بين نسخ الكتب بالخط ونسخها بالطبع ، ولكل زمان ما يقتضيه من العمل و يحكم به من السير ، وأنت المخير مع ذلك فيما ترضاه لنفسك .

(الغنىّ) — وكيف حال الأسعار اليوم ؟

(السمسار) — كما كانت أمس وهى فرصة ثمينة للشراء .

(الغنىّ) — خذ لى اليوم خمسمائة قنطار للتجربة .

قال عيسى بن هشام : وتركنا هذا العصفور قد وقع فى يد الصائد المحتال ، والتفتنا إلى ذات الشمال ، لسماع ما يدور من الجدال ، بين رجل فرغ كيسهُ من المال ، وامتلأ رأسه من الآمال ، و بين تبيع محامٍ من الأجانب ، يتلقّط القضايا من كل جانب :

(التبيع) — لا أشير عليك أبداً برفع هذه القضية أمام المحاكم الأهلية ، وهى معروفة بجبنها وخوفها من الحكم على الحكومة فى مثل هذه القضايا ، ولئن حكمت مرة فقلّما تبادر إلى التنفيذ ، أما المحاكم المختلطة فإنها لا تحسب لغير الحق حساباً ، وسواء لديها الحكومة والأهالى . والتنفيذ فيها أسرع من نفاذ السهم عن القوس ، كما أن المحاكم الأهلية لا تعرف قدر هذه القضية ومنزلتها من التاريخ ، ولا تقدر لك الفائدة من عهد وضع اليد عليها إلى الآن ، فلا مندوحة لك عن المحاكم المختلطة ، ولكن أخبرنى قبل كل شىء عن تلك الشجرة هل لها ذكرٌ فى الحجة باسمها التاريخى المعلوم ، وهل يمكنك إثبات نسبك متصلاً إلى الواقف ؟

(صاحب القضية) — أما الشجرة فمذكورة فى حجة الوقفية أنها « شجرة العذراء » ،

وهى قائمة على أرض سواد ، وأما نسبى فهو متصل بأحد عتقاء الواقف السلطان الغورى ، ولكن مَن لى بدخول القضية فى المحاكم المختلطة ، وأنا رجل من رعايا الحكومة ؟ ومن لى بمحام أجنبى وأنت تعلم ما يلزم لمثله من المبلغ الجسيم فى « مقدّم الأتعاب » الجعالة ؟

(التبيع) — هوّنْ عليك الأمر ، أما رفعُ القضية إلى المحاكم المختلطة ، فإنه سهل هين ، يكون بالتنازل عن القضية لأحد الأجانب ، وأما المحامى الأجنبى فأنا أتكفل لك بإقناع المحامى الذى اشتغل معه ليقبل القضية من غير أن يلتفت إلى « مقدّم الأتعاب » ، وإنما يتفق معك على مناصفتك فيما تأتى به القضية من الأموال ، وأما الأجنبى الذى تتنازل له عن القضية ، فهو حاضر فى مكتبنا تحت يدنا ، لتسخيره فى مثل هذه القضايا ، وما عليك الآن سوى النفقات والرسوم القضائية .

(صاحب القضية) — لا بأس بما تقول ، ولكن ليس عندى ما أستغنى عنه اليوم لتلك النفقات ، ولو كنتُ واثقاً بعض الوثوق بكسب القضية ، لبادرتُ إلى بيع الحصة التى بقيت لى من العقار ، ولكننى أخشى أن تذهب الحصة وأخسر القضية ، فأصبح بلا مال ولا أمل .

(التبيع) — لو كنتَ تعلم بمهارة معلمى ، وما له من علو الشأن فى المحاكم المختلطة ، ومن الاتصال بقناصل الدول ، لاستخرتَ الله فى بيع الحصة ورفع القضية .

(صاحب القضية) — استخرتُ الله واعتمدتُ على هذا الرأى .

(التبيع) — فقد أذنتنى حينئذ بالكلام مع المعلم ، ولك أن تحضر غداً لعقد الشروط .

(صاحب القضية) — أمهلنى أياماً ، حتى أجد من يشترى الحصة بالثمن المناسب .

(التبيع) — أنت فى سعة من الوقت لبيع الحصة إنما يجب أن تبادر بإحضار الأوراق والمستندات من الغد للاطلاع عليها ودرسها .

(صاحب القضية) — بينى و بينك مساء الغد فى هذا المكان .

قال عيسى بن هشام : وتركنا أيضاً هذه السمكة ، تتخبط فى الشبكة ، ثم حوّلنا النظر إلى العمدة فى لعبة البليار ، فما راعنا منه إلا أن ضرَب الكرة بصولجانه ضربة أُفقية فأطارها إلى وجه أحد الجالسين من الأجانب ، فاستشاط غضباً واحتدم غيظاً ، وقام هاجماً على

العمدة يريد به شرًّا ، وهو يُدمدِم ويطمطم ، والعمدة يجمجم ويغمغم ، وكاد يقع ما لا تُحمد عقباه لولا أن أسرع التاجر فحال بينهما ، وأخذ بيد الأجنبى يستعطفه ويبالغ فى الاعتذار إليهِ ، حتى لانت شكيمتهُ بافتتاح زجاجتين من « الشمبانيا » لعقد الصلح على حساب العمدة ، ثم عمد العمدة إلى الجلوس ، فلم يمهله الذى كان يلاعبه وطلب منه استكمال اللعب فقام إليه مكرهاً وقلبه يرتجف ويده ترتعش ، فما هى إلا الضربة الثانية حتى أخطأ الكرة بصولجانه فأصاب غشاء البليار فخرقه وشقه ، فذهب الخادم مسرعاً ، وعاد بصاحب « البار » ومن ورائه بقية الخدم ، وهو يقول لهم بصوت عال : كيف تسلمون عصا البليار لهذا الفلاح الأخرق ، فيخرقه ويتلفه ؟ ثم وقف للعمدة يطالبه بثمن ما أتلف ، وتعويض ما عطل وقدَّره له بخمسة عشر جنيهاً لا يتجاوزعن درهم واحد منها ، فأخرج العمدة كيسه فأحصى ما فيهِ عدًّا فإذا هو لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيهاً ، فلم يقبل منه . فتوسط إليهِ بعض الحاضرين فقبلها متكرهاً ، وجلس العمدة متكدراً ، ولقد كان اللعب بالأفعوان ، أقرب إلى السلامة من هذا الصولجان ، ثم استمر جالساً ينتظر انتهاء التاجر من لعبه ، حتى قام عنه زاعماً أنه خسر فيه ثلاثة جنيهات . وقعد بجانبه يظهر التأسف والتندم ، فقال له العمدة : دع عنك الأسف والكدر ، فالضائع ضائع ، ومصيبتك على كل حال أخف وقعاً من مصيبتى وبينما هما على هذه الحال إذا بالخليع قد حضر من غيبته يقول لهما هاشاً باشاً وفرحاً مرحاً :

(الخليع) — أشرق أُنسنا ، وسعدت ليلتنا ، وطاب وقتنا ، وانقضت حاجتنا ، وأسأل الله أن يطيل لنا ليلنا ، ويبعد عنا نهارنا ، فقد تم مرادنا وهلمَّ بنا .

(العمدة) — ونحن نسأل الله أن يقصر ليلنا ويدنى منا نهارنا ، فاقعد معنا نقصص عليك ما دهانا فى غيابك .

(الخليع) بعد سماع القصة — ويلى ثم ويلى ، فأنا الملوم إذ تركتكما . فوقع لكما ما وقع ولكن قدر الله لكما ولطف بكما ؛ أما مصيبتى الآن فهى أعظم من مصيبتكما وأبلغ ، فماذا أقول وماذا أفعل ؟ وكيف أدفع وبأى عذر أعتذر ، وقد أخرجت البيضة من خدرها والظبية من كناسها . واستعد المجلس لحضورنا وأنسنا ؟

(التاجر) — الأمر أيسر مما تخشاه ، فما يفوتنا الليلة ندركه غداً .

(الخليع) — ذاك شيء لايدرك فى كل وقت وحين ، وهـذه المرة هى بيضة الديك لبيضة الخدر ، وكيف يمكن فض هذا المجلس وتأجيله ، وقد مضى قطع من الليل وتعذرت سبل الرجوع .

كيف الرجوع بهـا وحول قبابها   سمر الرماح يملن للاصغاء ؟

فخلّصانى ناشدتكما الله مما وقعت فيه ، وأنقذانى من هذا البلاء العظيم .

(التاجر) — وما وجه الخلوص ، وقد علمت بتفصيل الحال ؟

(العمدة) — تالله إن الحرمان من هذا المجلس النادر لأعظم مصاباً من كل ما نابنا ، ولو كان الوقت نهاراً لأسرعت إلى « البنك » فأخذت مايلزم لنا من الدراهم .

(التاجر) — إذا كانت الرغبة انتهت بك إلى هـذا الحد فالأمر يسير ، ومعى الآن مايكفى ، وأنا أقوم لك مقام « البنك » ، فكم تطلب ، ولأى ميعاد تكتب ؟

(الخليع) — هكذا يكون الصديق ، فى وقت العسر والضيق ، فحياك الله وأبقاك .

(العمدة) للتاجر — أعطنى عشرين جنيهاً تكون معى على سبيل الاحتياط .

(التاجر) — ولك الفضل هاك سبعة عشر جنيهاً تبلغ العشرين المطلوبة بالثلاثة التى خسرتها هنا أمامك ، وألتمس منك كتابة ورقة على سبيل التقييد .

قال عيسى بن هشام : فما كان أسرع من الخليع فى استحضار الدواة والقرطاس ، لإجابة هذا الالتماس ، فطلب العمدة منه ، أن يكتب الصك عنه ، ثم خرجوا والعمدة يجرر أذياله ، ويحك قذاله[٣] ، وخرجنا خلفهم فى الحال ، نتبعهم متابعة الظلال .

---

(١) القذال : مابين الأذنين من مؤخر الرأس .

العمدة فى المطعم

قال عيسى بن هشام : ولما صرنا فى الطريق أخذ الباشا يطيل من فكرته ، ويقصر من مشيته ، ويقول : ما هذا الذى أرى ، من فساد هذا الورى؟ كأن ناقعاً نقعهم فى خابية[1] ، جمعت أخلاط الكبائر ، أو غامساً غمسهم فى جابية[2] ، وعت أمشاج الجرائر[3] ، أو كلما خطونا خطوة رأينا من الغش والمكر أصنافاً وأضراباً ، أو حضرنا ندوة شهدنا من الخداع والنفاق فصولا وأبواباً ، فما أتعس من يعاشرهم ! وما أنحس من يحيا فيهم ! وما أشقى من يجاورهم ! وما أسعد من يجافيهم ! واغوثاه من الانسان ، فى هذا الزمان ؛ فقلت له : قدك[4] ، بل فى كل زمان :

لن تستقيم أمور الناس فى عصر ... ولا استقامت ، فذا أمناً وذا رعبا
ولا يقوم على حق بنو زمن ... من عهد آدم كانوا فى الهوى شعبا

هكذا كان بنو آدم ، تأخر عهدهم أو تقادم ، فهم على ما هم فيه أبداً ، أمس واليوم وغداً ، وما عساك تقول فى ذرية الشيخ آدم وزوجه حواء ، وقد قالت من قبل فيهم ملائكة السماء : « أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء » ، وما عساك تقول فى قوم ترى الصغير منهم قبل الكبير ، والمولى قبل الأمير ، يهون عليه أن يفتدى ما أسف من الدنايا ، وسفل من المطالب ، بمنطقة البروج ومجرة الكواكب ؟ وما عساك تصف خلقاً أفضل ما فى أعضائه ، أكبر سبب لشقاء الخلق وشقائه ؟

أفضلُ ما فى النفس يَقتالها ... فنستعيذ اللهَ مِن جُندِهِ

هذه المضغة التى بفيه ، ويقال إنها أفضل ما فيه ، لو نسجتْ مضغة على قدرها، حُماتُ العقارب[5] — حماك اللهُ — لُحمتها ، ولعابُ الأفاعى — عافاكَ اللهُ — صِبغتها، لكانت فى جانب هذا اللسان أخفَّ ضرًّا ، وأهونَ شرًّا ؛ وما عساك تنعت نوعاً نعتَ اللهُ

---

(١) الخابية : الجرة الضخمة (٢) الجابية . الحوض
(٣) الأمشاج : الاخلاط والأوساخ . والجرائر : جمع جريرة وهى الاثم (٤) قدك : يعنى كفاك
(٥) الحمة : الابرة التى تضرب بها العقرب

واحداً منهم فى آية من الآيات، بتسع صفات : «حلاَّفٍ مهينٍ ، همّازٍ مشّاءٍ بنميم ، منّاعٍ للخير معتدٍ أثيمٍ ، عُتُلٍّ بعد ذلك زنيم . »

فأفٍّ لِعصرٍ بهم نهارٍ وحندسٍ وجُنديٍّ رجالٍ منهمُ ونساء
وليتَ وليداً مات ساعة وضعهِ ولم يرتضعْ من أمّهِ النفساء

وما يدريك أن ما رأيتهُ من أخلاق هذا النفر ، أفضل من أخلاق مَن علاهمْ من سادة البشر؟ ولعل ما أدركتهُ من طمع الغنى ، ومكر السمسار ، وخداع التبيع ، وما تبيّنته من غش التاجر ، وغفلة العمدة ، واحتيال الخليع . هو دون ما تكنّهُ صدور الكبراء ، وتجنّه قلوبُ الأمراء ، تحت حجاب التكلف والتطبع ، ويسترونه عن أعين الناس بستار التمويه والتصنع ، وكلما اعتلى الانسان درجةً فى المقام ، وخطا فيها خطوة إلى الأمام ، تقنّع لها بقناع ، وتلثم بلثام . فتجد حقائق الخلائق مرموسة تحت صفائح الدهاء ، مضروحة بين جنادل الرياء ، بل ربما كان أخلاهم أخلاقاً حساناً ، أبلغهم فى التظاهر بها زوراً وبهتاناً ، كان لى صاحب تراه من لسانه غضنفراً رِئبالاً[1] ، يحمى عريناً ويحرس أشبالاً ، تتقيه القياصرة ، وتخشاه الأكاسرة ، فإذا كشفتَ عن قلبه ، وحسرت عن لُبه ، وجدته شاةً تعطف على سَخلها[2] ، وظئراً تحنو على طفلها[3] ، وأعرفُ آخر قد ضجّت أحرف الفضيلة من ذكرها بقلمه ، ولوْ كها فى فمه ، وهو مع ذلك يخمش وجهه ويدمى جفونه ، إنْ سمع أن مختلساً اختلس دانقاً دونه ؛ وفيهم مَنْ يملك من وجهه التغيرَ بالانفعالات المتناقضة ، والتلوّنَ بالألوان المتعارضة ، فتكون دموعه طوع إرادته ، وابتساماتهُ عند حاجته ؛ قال حكيمٌ لآخر : ما أكثرَ ما تتحوّل رُقعة الشطرنج وتتقلب ! قال له : تقلّبُ وجهِ الإنسان أعجبُ وأغرب ، وقد تبقى الأخلاقُ الذميمة، والصفاتُ اللئيمة، مطويةً عن النظر، محجوبة عن البصر ، حتى يُتاح لها كاشفٌ من الحوادث ، فينزع عنها الفِدام[4] ، ويحسر اللثام ، فيظهر الطبع السقيم، ويبدو الخلق الذميم، ومنْ عوامل التبيين والبيان ، فى أخلاق الإنسان،

---

(١) الغضنفر والرئبال : من أسماء الأسد
(٢) السخل : جمع سخلة ولد الشاة
(٣) الظئر : المرضعة
(٤) الفدام : غطاء الابريق

الغضبُ والجُبن ، أو السكر والحزن ، ونحن الآن فى ساحة السكر ، فهلمّ بنا ، نلحق بأصحابنا.

فأدركناهم وهم وقوف يتشاورون ، وسمعناهم وهم يتحاورون .

(العمدة) — دعونى من هذا كله ، فقد صاحت عصافيرُ بطنى ، ولم يدخل جوف اليوم شىء من الطعام سوى لقمة الصباح التى أكلتها مستعجلاً ، فهيّا بنا إلى « السكة الجديدة » نعطف على « المَطْفِى » ، فإن طعامه دسم ، وسمنهُ زبدة ، ولحمه سمين .

(التاجر) — ما هذا « المطفى » الذى تذكره ، وأين أنت من كباب « الحاتى » ، وحمام « لُوكه » ، أو طواجن « الفار » ، وأرز « العجمى » ؟

(الخليع) — ماهذا الخلط ونحن فى وسط الأزبكية بين « النيو بار » و« سان جمس بار » و« اسبلندِدْبار » ، وفيها ماتشتهى الأنفس وتلذ الأعين ؟ وناهيك بهذه الأماكن ونظافتها ، وحسن خدمتها ، وعلو قدر الواردين عليها .

(العمدة) — دعنا من هـذه الأماكن ، فإن طعامها لا يسمن ولا يغنى من جوع ، خصوصاً وأنا على هذا الخلوّ من بطنى .

(الخليع) — وأنا لا يمكننى على كل حال أن أترك هذه الأماكن وأذهب معكما إلى الحوانيت التى تشيرَانِ بها ، وأخشى أن يرانى بها أحدٌ ممن يعرفنى فأصغر فى عينهِ .

(التاجر) — إذا كان الأمر كذلك ، فأنا على رأيك .

(الخليع) للعمدة — لا مناص لك حينئذٍ ، فضعيفانِ يغلبان قويًا ، فادخلْ بنا « النيو بار » .

قال عيسى بن هشام : فدخلوا ودخلنا معهم ، وجلسوا وجلسنا على مقربة منهم ، وما خلع الخليعُ طربوشه ، حتى نزع العمدة عمامته ، وما ضَرَبَ الخليع بيده على المائدة ، حتى صفّقَ العمدة بيديه . فحضر الخادم ومعه قائمة الألوان ، فتناولها العمدة ونظر فيها نظرَ المريضِ إلى وجوهِ العُوَّدِ ، ثم ناولها للخليع ليقرأها ، فأخذها ، وتأمل فيها ، وشرع يسرد الألوان حتى انتهى منها ، والعمدة لاهٍ عنه ، والتاجر منصتٌ إليه .

(الخليع) للعمدة — ماذا تحب وتختار ؟

(العمدة) — أختار المَرَق ، ومن بعده لحم الفرن أو الكَبَما .

(التاجر) — وأنا أطلب كباباً وقرعاً وأرُزّاً .

(الخليع) — وأنا أختار « فاتحة الطعام » أولاً . ثم خلاصة اللحم بالبيض ، وأرزاً بفاكهة البحر ، ودجاجةً بعشّ الغراب ، وسماناً بالكمأة ، وهَلْيُوناً بالزبدة .

(العمدة) — ما هذه الأسماء الغريبة ؟

(الخليع) — هى أطعمة خفيفة لا تقوى معدتى على هضم غيرها .

(التاجر) — كلْ ما يُعجبك والبَسْ ما يعجب الناس . »

قال عيسى بن هشام : فيذهب الخادم ويجئ للخليع بفاتحة الطعام من زيتون وفجل وسمك مِلح وزُبدة ؛ فيتأمل العمدة فيها ، ثم يميل على قطعة الزبدة فيبتلعها وهو يقول : أزبدة وسمك ؟ فيطلب الخليع سواها ، ثم يأتى الخادم بصحن المرق للعمدة فيجده قد أكل ما كان وضعه أمامه من الخبز ، وعطَف على خبز الخليع يأكل منه ، فيأتيه الخادم بنصيب آخر ، فيتناوله العمدةُ ويفتّه فى صحن المرق حتى يمتلئ ويفيض على المائدة ، ثم إنه انحنَى فانحنى عليه وصفّق يطلب صحناً آخر وخبزاً آخر ، وهو يميل فى هذه الأثناء على طعام الخليع ، فيأخذ قطعة من الدجاجة ويضعها أمامه ويحاول قطعها بالشوكة والسكين فتفلت منه إلى الأرض فيقوم فيلتقطها ويأكلها باليد ، ثم يأخذ جزءاً من عش الغراب فيقضم منه فلا يألفه ، فيمجه ثم يرده إلى صحن الخليع ثانية ، ويقول ما هذه القشور التى يطبخونها هنا ، وهى عندنا شائعة على الجسور تفحص عنها الخنازير فى الأرض بأرجلها فتستخرجها ولا تأكلها ، فتبقى ملقاة على ظهر الطريق لا يمسها إنسان ولا حيوان ، ثم يأتى الخادم بالمرق فيطلب منه خبزاً آخر فلا يكفى لامتلاء الصحن ، فيعاود الطلب ، فيملّ الخادم ويقول له : إنما أنت هنا ياسيدى فى مطعم لا فى مخبز .

(الخليع) للخادم — ما هذا الكلام البارد « يا جورج » أليس لكل شىء ثمن هنا ؟ نحن نأكل بدراهمنا ما نشتهى ونطلب ما نريد .

(الخادم) للخليع — لا مؤاخذة فإن كلامى ليس موجهاً إليك .

(الخليع) — إن لم يكن الكلام لى فهو لصاحبى ، وصاحبى هذا أعزُّ على من نفسى.

(العمدة) — دعهُ يأتِ لنا بخبز ولو بالثمن ولا تشغل نفسك بما يقول مع أنه يقال إن هذه المطاعم العالية تبذل الخبز للآكلين مجاناً .

(التاجر) للخادم — أعطني أيضاً لوناً من الخضر .

(العمدة) للخليع — قل للخادم يحضر لى مع لحم الفرن فحل بصل .

(الخليع) — كل شئ يجوز إلا أكل البصل فى هذه الليلة .

(العمدة) — لا مؤاخذة فإن النفس الملسونة ذهبت إليه من غير تروٍّ .

(التاجر) للخادم — إئتِ لى بشئ من الحلوى أو الفاكهة .

(العمدة) — إذا كان فى الفاكهة برتقال أو بلح فأعطنى منه .

(الخليع) — ولا تنس « يا جورج » أن يكون فى نصيبى من الفاكهة « ما نجو » و « قشطة خضراء » و « موز » و « أناناس » .

(العمدة) للخليع ممازحاً — ومن قال إنك لست من الناس ؟

(الخليع) للخادم — هات زجاجة نبيذ أخرى بغبارها .

قال عيسى بن هشام : ولما حضر الخادم بالفاكهة وانصرف ، أسرع العمدة بيده إليها فانتقى من كل فاكهة زوجين ودسها فى جيبه وهو يقول : هذه تنفعنا للتنقل بها على الشراب فيما بعد ، ثم حضر الخادم بآنية من البِلّور الملون فيها ماء وقشر ليمون ، فوضع أمام كل واحد منهم إناء ، فهمّ العمدة بشرب إنائه فى الحال ، فبادره الخليع ونزعه بيده عن فمه .

(العمدة) — لماذا تمنعنى عن شرب هذا « الخشاف » وقد أنعشتنى منه رائحة الزهر

(الخليع) — هذا يا سيدى ماء لغسل أطراف الأصابع بعد الأكل .

(التاجر) — من عاش رأى ! !

(العمدة) للخادم — الحساب « يا خواجا »

(التاجر) — القهوة .

(الخليع) — الخلالَ مع كأس من « الكونياك » بجانب القهوة ، ويأتى الخادم بجميع

هذا ، فيتناول العمدة ريش الخلال فيتخلل بريشة ثم يعيدها إلى مكانها ، ويأخذ أخرى فينكش بها أذنه ، ثم يمسح ما علق بها فى غطاء المائدة ، ثم يلتفت إلى الخليع ويطلب منه أن يقرأ قائمة الحساب ويخبره بكميته .

(الخليع) — أربعون فرنكا .

(العمدة) — اقرأ جيداً فان هذا غلط فاحش.

(الخليع) — قد قرأت وحسبت وأعرف أنهم لا يغالطون هنا .

(العمدة) — ما هذا النهب والسلب ، وما هذا الاسراف والتبذير ؟ لو كنا ذهبنا إلى مكان من الأماكن التى عدّدناها قبل دخولنا هنا لكنا ملأنا البطون وتمتعنا بالطعام الكثير مع الثمن القليل ، ولو كنا توجهنا إلى المحل الذى أبيت فيه لكنا وجدنا من الأكل ما يكفينا بغير ثمن، لأن فى غرفتى برمة أرزٍ بحمام مما أحضرته معى من البلد ، ولا شك فى أن الخادم يريد أن يستغفلنا فزاد فى الحساب ما أراد، وأنا رجل لا أقبل الغفلة على نفسى، ولا أدفع هذا الحساب،وسأكشف لكما هذا الغش بكل طريقة، فانه يهون علىّ أن أبدد عشرة جنيهات فى الهباء ، ولا يهون على أن أدفع قرشاً واحداً بطريق الغش والاختلاس .

ثم إنه رفع كأس النبيذ وهو فى حدّته فصكّ به قدحاً آخر ممتلئاً لاستدعاء الخادم ، فانقلب الكأس وأهرق النبيذ على غطاء المائدة ، فحضر الخادم فعز عليه ما رأى .

(الخادم) — ما هذه الليلة السوداء ؟

(العمدة) — هذا ما أقوله أنا أيضاً ، فقل لى ما هذا الغلط فى الحساب،وهل تريدون أن لا يدخل محلكم بعد اليوم أحد ؟

(الخليع) — هل فى الحساب غلط « يا جورج » ؟

(الخادم) — وأى غلط يكون فى الحساب بعد الذى حصل، وهذا هو بيان الثمن أمام كل صنف ؟

(العمدة) — أى حساب وأى بيان ! ولكنك أنت الكاتب له .

(الخادم) — نعم أنا الكاتب له ، ولكنك أنت الآكل له .

(العمدة) — وهل أكلنا أربعين صحناً ، حتى ندفع أربعين فرنكا ؟

(الخادم) للخليع — أرجوك أن تقنعه .

(العمدة) — وهل أنا جاهل حتى يقنعنى ؟

(الخليع) وهو قائم — حاشا لله يا سيدى .

(التاجر) للخليع — إلى أين ؟

(الخليع) — أراهم وضعوا فى لوح التلغرافات السياسية تلغرافاً جديداً أريد أن أقرأه.

(الخادم) للعمدة — أعطنى الحساب ولا تمطلنى عن الشغل .

(العمدة) — هاك عشرين فرنكا لا أدفع سواها .

(الخادم) — ليس هنا محل المساومة فى ثمن الطعام بعد أكله .

(التاجر) — زِدْهُ فرنكين .

(الخادم) — لقد كان الأوْلى بكم أن تأكلوا فى غير هذا المكان ما دمتم بهذه الصفة.

(التاجر) — لا تغلط « يا خواجا » فإن حضرته يأكل فى مثل هذا المكان وفى أعظم منه ، ولكنه يحب الأمانة ويكره الاستغفال .

(الخادم) — وهل أنا خائن ؟ وأنا صاحب شرف مثلك ومثل أعظم منك .

(التاجر) للعمدة — حقيقة إنه لقليلُ الحياء .

(العمدة) — وحياتك لا أخاف منه ولا يأخذ منى غير هذا المبلغ .

(صاحب المحل) — وقد حضر مع الخليع — ماذا جرى ؟

(العمدة) — خادمك يسرقنا و يشتمنا .

(صاحب المحل) — هذا كلام لا يقال عن محلنا .

(التاجر) — وذاك كلام لا يقال لنا .

(صاحب المحل) للخليع — عهدى بك لا تصاحب إلا الكبراء والظرفاء ، فما هذا الشيخ الذى جئتنا به هذه الليلة ، وقد شاهدتهُ من مكانى يفعل أفاعيل انتقدها جميع الحاضرين فإنه كان يبلع الزبدة ، ويطوى الخبز ، ويمدّ يدهُ إلى صحن سواه ، و يعيد

إليه فضلة ما يأكله ، ويتناول قطعة الدجاجة من الأرض فيلتهمها ، ويلوّث المائدة بالمرق والنبيذ ، ويمسح يدهُ فى الغطاء ، ويكسر الكأس ، ويختلس الفاكهة فيضعها فى جيبه ، ويهمّ بشرب ماء الغسل ، وينكش أذنه بريشة الخِلال ، ولم يكتف بهذا كله حتى أخذ يغازل السيدات ويغامزهنّ ، فمنَ مستقبحات مستنكراتٍ ، وقام كثير من المترددين على المحل اشمئزازاً من هذه الأفاعيل ، ولا أشكّ فى أنه إذا حضر عندنا شيخ آخر مثل هذا أن يبتعد الناس ويتعطل المحل .

(الخليع) — لا تُلقِّبْهُ بلقب شيخ ، فان سعادته من الحائزين للرتبة الثانية ، وله سعىٌ فى رتبة التمايز ، ولا تستصغرْ قدرهُ فهو من كبار الأغنياء فى الأرياف .

(صاحب المحل) للعمدة — لا تؤاخذ الخادم يا سعادة البك فهو على كل حال خادمك والمحل محلك .

(العمدة) للخادم — يجب عليك أن تعرف الناس وتتعلم حسن المعاملة من حضرة الخواجا صاحب المحل ، ووالله لولا حسن ذوقه ولطفه لما زدتُ عن العشرين فرنكاً ، ولكنى أعطى الآن ما تطلبه مراعاة لخاطره عن طيب خاطر وحسن رضاء .

(صاحب المحل) للخادم — اسأل حضراتهم ماذا يشربون على حساب المحل لتأكيد المعرفة والمسامحة فيما حصل .

قال عيسى بن هشام : ثم مال الخليع على العمدة يشير عليه بأن يطلب دَورين من الشرب لإكرام صاحب المحل فى مقابلة إكرامه لهم ، فطلب العمدة ثم طلب ، وشرب ثم شرب ، وقام بعد الدفع يتمايل ويتثنّى ، ويتثاءب ويتمطّى ، ويشكو للخليع فِعْلَ الكاس ، وهجومَ النعاس . فيقول له : هذه عادة تكون عند الامتلاء ، ولا يصرفها إلا كئوس الصهباء ، فهيا بنا الآن ، نذهب إلى الحان . فخرجوا وخرجنا من ورائهم ، نستقصى بقية أنبائهم .

العمدة فى الخان

قال عيسى بن هشام : وأخذوا طريقهم إلى الخان المقصود ، والحوض المورود . وفيما نحن نسير ، بين تقدير وتفكير ، إذ التفت الباشا إلى ذلك الفُندق الكبير ، بل الخورنق والسدير[1] ، فرأى فيه شموس الكهرباء مشرقة ، وينابيع الضياء متدفقة ، يلوح فيها زنجى الليل بقميص أبيض ، ويبدو فيها أديمُه كالآبنوس المفضّض ، وعمدُ المصابيح كأنها أغصان الأشجار ، أزهرت بالأنوار ، مكان الأنوار ، فصار كل عمود منها عمود فجر ، يُفجّر ثغرة الدُجُنّةِ أىّ فجر ، وكأن منثور الشموع فى ظلمة الحلك ، منثور النجوم فى قبّة الفلك ، ورأى تحتها صفوفاً من الرجال ، بين صفوف من ذوات الحجال ، على سُرر متقابلين ، وأرائك متكئين ، يُسعدهم الجدّ المقيم ، ويرُفرفُ عليهم الرّفهُ والنعيم ، فطفق يسألنى : أتراه محفلاً ليوم أنس ؟ أم زفافاً فى بيت عُرس ، أم تراها ليلة مهرجان ، لقبيلٍ من الجان ، نسوا تفاوت الجنس ، فأنِسُوا إلى الأنس ، وهجروا جوف الأرض لظهرها ، ودرجوا من بطنها إلى حجرها ؟ فقلت له : نعم هؤلاء شياطين الإنس يطوون البر والبحر ، ويقطعون الحزْن والوعر ، ويطيرون فى السماء ، ويمشون على الماء ، ويخرقون الجبال ، وينسفون القلال ، ويقلبون الآكام وهادا ، ويبسطون الرُّبى مِهاداً ، ويجعلون القفار بحاراً ، ويحيلون البحار بخاراً ، ويُسمِعُون منْ بالمشرقين ، أصوات مَنْ بالمغربين ، ويستنزلون لبصرك أنأى الكواكب ، ويعظمون فى عينك أوهى العناكب ، ويجمدون الهواء ، ويذيبون الحصباء ، ويستحدثون الأنواء ، ويزنون الضياء ، ويستشفون خبايا الأحشاء ، ويكشفون خفايا الأعضاء . فقال لى : أئنك لتحدثُ عن جن سليمان ، فى هذا الزمان . قلت : هؤلاء سيّاح الغربيين أهل المدنية والحضارة ، الناظرون إلى الشرقيين بعين المهانة والحقارة ، فإن نظروا إليهم من جهة العزة فنظرةُ العقاب من شماريخ رضوى وثبير[2] إلى جنادب[3] الرمل وضفادع الغدير ، وإن نظروا إليهم من طريق العلم ، فنظرة معلم الاسكندر عالم العلماء ، إلى صبي يتهجّى فى العين والياء ، وإن نظروا إليهم من باب الصناعة

---

(١) الخورنق والسدير : قصران معروفان
(٢) الشماريخ : جمع شمراخ ، وهو رأس الجبل . ورضوى وثبير : جبلان معروفان
(٣) الجنادب : جمع جندب وهو الصغير من الجراد

فنظرةُ « فيذْيَاسْ » صانع التماثيل والدُّمى[١] ، إلى بنّاء يقيم أكواخ القُرى ، وإن نظروا إليهم من جهة الغنى ، فنظرة صاحب المفاتيح التى تَنوء بالعصْبة إلى أجير ينضح عرَقاً تحت القربة ، وإن نظروا إليهم من جهة الفضائل النفسانية فنظرة الحكيم « سقراط » ، شارب السم غراماً بالفضيلة ، إلى الشرّير « أرِسطراط » حارقِ المعبد ولعاً بالرذيلة ، تلك دعواهم فى نفوسهم ، وقولهم بأفواههم .

وهم فى رحلتهم إلى الشرق على ضربين : أهل الفراغ والجِدَة ، الذين أبطرهم الغنى ، وألهاهم الاستمتاع ببدع المدنية ، ولم يبق فى أعينهم جديد ، فانتقمت منهم الطبيعة فى خروجهم عن سننها ؛ فسلّطتْ عليهم داء الملل والسأم ، فأصبحوا هائمين على وجوههم فى الأقطار والبلدان ، وحطتهم القدرة إلى الاستشفاء من ذلك الداء بالتنقل فى البلاد المنحطة عنهم فى درجات المدنية ، والاقامة فى الأقطار الباقية دونهم على الفطرة الغريزية .

والضرب الثانى : منهم أرباب العلم والسياسة وأهل الاستعمار والاستنفاض[١] ، يستعملون علومهم ويُعملون أفكارهم فى احتلال البلدان وامتلاك البقاع ومنازعة الناس فى موارد أرزاقهم ومزاحمة الخلق أرضهم وديارهم ، فهم طلائع الخراب أدهى على الناس فى السلم من طلائع الجيوش فى الحرب .

قال عيسى بن هشام : وانقطع الحديث بدخول أصحابنا فى الحان ، واصطفافهم حول الدنان ، فأخذنا مجلسنا بقربهم ، ننظر ما يُصنع بهم ، وإذا الخليع يلتفت عن اليمين والشمال ، ويبادر الخادم بالسؤال :

(الخليع) للخادم — ألم يشرّف دولة « البرنس » هنا فى هذه الليلة ؟

(الخادم) — هو فى داخل المكان وسيعود إلى مجلسه فى الحال .

(العمدة) مدهوشاً — هل يجىء هنا البرنسات ، وهل يليق بنا أن نجلس للشرب فى مكان يَحضرونَنا فيه ، فلِمَ اخترت هذا المحل ، ولِمَ لا نذهب إلى محل سواه ؟

(الخليع) — لا بأس علينا هنا ، وسترى كيف أفعل حتى لا نخرج من هنا إلا والبرنس مصافِحك ومُجالسك .

---

(١) الدمى : جمع دمية وهى الصورة المنقشة من الرخام أو العاج   (٢) استنفض المكان : نظر جميع ما فيه حتى يعرفه . وأهل الاستنفاض : الذين يعثون فى الأرض يتجسسون .

(العمدة) — لا تهزأ بي ولا تمزح ، فأين نحن من البرنسات ؟

(التاجر) للعمدة — لا تستبعد ذلك ، فإن لبعض البرنسات أخلاقاً واسعة ونفوساً تُرابيَّة ، ومن رأيهم الاختلاط بالناس والتساوى بهم فى مجتمعاتهم ومعاملاتهم .

(العمدة) للخليع — وهل لك معرفة سابقة به ؟

(الخليع) — كيف لا أعرفه ولى معه جلسة فى كل ليلة ؟ وكثيراً ما أوصلتهُ آخر الليل إلى قصره .

(العمدة) — إنك لَتبالغ ؟

(الخليع) — لا مبالغة ودونك البرهان .

قال عيسى بن هشام : ويقوم الخليع واقفاً عند عودة البرنس إلى مجلسه ، فيومىء البرنس إليهِ بالسلام ، فيتبعه إلى مائدة عليها صنوفٌ وألوانٌ من الخمر والنَّقل ، فيجلس بجانبه مع الجالسين حوله يخاطبه بصوت يسمعهُ العمدة من مكانه :

(الخليع) — لا زال أفندينا فى أسعد حال وأنعم بال .

(البرنس) — وأين أنت ؟ فقد سألت عنك مراراً .

(الخليع) — أنا فى الخدمة تحت أمر أفندينا وعند طلبِهِ ، وما منعنى عن المبادرة إلى مجالسكم العالى إلاَّ اصطحابى بصاحبين أحدهما من عمد الأرياف والآخر من تجار الثغور، لَصِقَا بى للبقاء معهما وألَحَّا علىَّ أن أصحبهما .

(أحد الجلساء) ممازحا — لا بل تسحبهما .

(البرنس) منكتاً — وهل هذا « زربية » يا بك .

(جميع الجلساء) ضاحكين — لله درّ أفندينا فى هذه النكتة : فما ألطفها وأرقها !

(البرنس) — أنا لم أتعلم التنكيت ، ولكن يصادفنى منه بعض كلمات فى بعض الأوقات.

(أحد الجلساء) لآخر — أنظرْ بالله يا أخى حدة البرنس فى لطافته ، وشدّته فى رقته ، وقوة إدماجه فى ألفاظه .

(الجليس) — وأنت ما شاء الله ما أفصحك الليلة فى تعبيرك ! وما أبلغك فى كلامك ! أأنت تأخذ هذه الجمل عن الجرائد ؟

(البرنس) للخليع — ماذا تشرب ؟

(الخليع) — العفو يامولاى ، فلا بد من الرجوع إلى صاحبيّ أولاً حتى أتخلص منهما

(البرنس) — وهل هما من الأغنياء المعتبرين ؟

(الخليع) — أما العمدة فإنه يمتلك ألف فدان ، وللتاجر فى بلده أعظم خان ، وللعمدة عشرة وابورات للرى وعنده الرتبة الثانية ، وللتاجر وابور للحليج وعنده وعدٌ بالثالثة .

(البرنس) — لا تحرمنا من وجودك ، ولا بأس من استدعائهما للجلوس معنا .

(أحد الجلساء) لآخر — قم بنا نُفسح لهما .

(الجليس) — انتظرْ قليلاً حتى يأتى « الدور » المطلوب مع صحن بلح البحر الذى أوصى عليه البرنس آنفاً .

قال عيسى بن هشام : وينصرف الخليع إلى صاحبيه لإحضارهما ، فينهض له العمدة واقفاً لتبجيله وتعظيمه ، فيسقط من يده « فم السجارة » على الرخام فينكسر فينحنى إلى الأرض يجمع شظاياه ، ويظهر عليه من الأسف والكدر ما لا يقدَّر ، فيجرُّه الخليع إليه ويقول له :

(الخليع) — لا يليق بنا أن نكون على هذه الحال من الأسف لأجل هذا « الفم » ، فإن البرنس ينظر إلينا وقد جئت لك بدعوة منه للجلوس معه .

(العمدة) — ليس أسفى على « الفم » فى ذاته ، بل لأنه تذكار عندى من حضرة مأمور المركز ، كنت أهديتهُ فرساً فأهدانى إياه ، فهو ثمين عندى من هذه الجهة ؛ ولكن قل لى : كيف يدعونى دولة البرنس إليه ، وكيف ذكرتنى له ؟

(التاجر) — أى نعم قل لنا كيف كان ذلك ، وهل جرى لى ذكر عنده أيضاً ؟

(الخليع) — قد قلت ما قلت وذكرت ما ذكرت ، ويقال فى المثل : « أرسلْ حكيما ولا تُوصه . »

(العمدة) — أُحب أن أسمع تفصيل مادار من الكلام بشأنى ، فإنى رأيته يضحك كثيراً وأنت تكلمه .

(الخليع) — أخبرته بقصتك مع سمسار القطن ولطف حيلتك معه حتى حرمَته أجره .

(التاجر) — وعلى ذكر السمسار ، هل تعلم أن دولة البرنس باع قطنه فى هذا العام ؟

قال عيسى بن هشام : فكان جواب الخليع أن أخذ بيد العمدة وتبعهما التاجر حتى صاروا أمام مائدة البرنس ، فطأطأ العمدةُ إلى ركبة دولته ، فدفعه بيده ، فاستلمها العمدة وقبلها مراراً بطناً وظهراً ، فتبسم له البرنس وأشار إليه بالجلوس ، فامتنع واستمر واقفاً ويداه إلى صدره ، حتى أقعده الخليع مع التاجر بجانبه بعد شدة الإلحاح .

(البرنس) لأحد جلسائه — لا تنس أن تذكرنى غداً بتصوير الفرس « سيرين » فان « الدوك أوف بروك » أرسل إلى صاحبنا المستشار يطلب منى صورتها ليعرضها فى معرض السباق بلوندرة .

(الجليس) — الأوفق أن يكون ذلك بحضور المستشار فى اليوم الذى عينه أفندينا له للغداء مع مفتش الرى .

(البرنس) للعمدة — ما ذا تشرب ياحضرة الشيخ . . . يا بك ؟

(العمدة) واقفاً على قدم التاجر — التمس السماح يا مولاى فانى لا أشرب شيئاً .

(التاجر) متململا من الألم — العفو يا أفندينا أستغفر الله فان ذلك لا يليق فى حضوركم .

(البرنس) — لماذا جئتما هنا إن لم تشربا ؟

(الخليع) — يشربان حسب أمر دولتكم فالامتثال فوق الأدب .

قال عيسى بن هشام : ويتناول الخليع « علبة السجارات » من أمام البرنس فيعطى للعمدة واحدةً وللتاجر واحدةً ، فيتحاشى العمدة إشعالها فى حضرة البرنس ظاهراً — وربما كان غرضه الباطن إبقاءها لديه أثراً من البرنس يفتخر به عند أقرانه — ثم يأتى أحد باعة الزهور فيهمس فى أذن البرنس بكلام يقهقه له ، ويأمر الخادم أن يعطيه كأساً فيشربه وينصرف ، ثم يلتمس الخليع من البرنس أن يسمح للعمدة بطلب زجاجة من « الشمبانيا » فيسمح له ، ويلتفت إلى العمدة يخاطبه بقوله :

(البرنس) للعمدة — كيف حال المحصول عندكم ، وكم رمى الفدان من القطن ؟

(العمدة) — رمى الفدان عندى سبعة بأنفاس دولتكم .

(التاجر) — المحصول جيد ، ولـكن الأثمان فى هبوط ، وهل باع دولة أفندينا أقطانه أم هى باقية ؟

(البرنس) لأحد جلسائه — أنا لا أدفع فى ثمن الخنجر الذى رأيناه اليوم أكثر من عشرين جنيهاً ، ولو كان عليه تاريخ صنعه لدفعت ما يطلبه صاحبك فيه .

(الجليس) — لا بأس به إلى الثلاثين .

(البرنس) — ما الذى تراه فى مسابقة الخيل غداً ؟

(الجليس) — أرى فرس البرنس سابقاً بغير شك .

قال عيسى بن هشام: ولما جاءت الزجاجة المطلوبة بادر العمدة إلى جيبه فأخرج منه ذلك الموز فمسح واحدة منه وقدمها إلى البرنس ووزع البقية على الحاضرين ، فيجد أحدهم صوفا متلبداً فى الموز فيعافه و يتركه على المائدة .

(أحد الجلساء) للعمدة — هل هـذا الموز من زراعتـكم وهل تنضجونه فى الصوف عندكم ؟

(العمدة) — كلا يا سيدى بل هو موز « النيوبار » ، ولم يمكث في جيبي غير مسافة الطريق ، ومعى أيضاً برتقال أحمر و بلح أصفر وقشطة خضرا .

(أحد الجلساء) — أظن أن لكم شركة مع حسن بك عيد فى تجارة الفاكهة ؟

(التاجر) — حضرته لا يشتغل بالتجارة ، وليس كل الناس من يقدم عليها فهى ربح محفوف بالخطر .

(العمدة) للخادم — أحضر لنا أيضاً زجاجة شمبانيا انكليزى

(أحد الجلساء) لآخر — يظهر أن الفدان رمى بعشرة .

(الجليس) — فى البنك العقارى .

(البرنس) — وما معنى انكليزى ؟

(الجليس) — يعنى أنها من جنس الجنيه

قال عيسى بن هشام : وفى هذه الأثناء يعود بائع الزهور فيلقى فى أذن البرنس كلاماً، فيقوم البرنس فى الحال ويخرج والبائع فى أثره ، ثم يتسلل الجلساء من بعده واحداً واحداً، فلا يبقى منهم أحد ، وتخلو المائدة للعمدة ، فيشرب سؤر الكأس التى تركها البرنس، ويميل على ما بقى فى آنية النقل فيأتى عليه أكلاً .

(التاجر) للعمدة — ينبغى أن تطلب من الخادم غيرها قبل حضور دولة البرنس .

(العمدة) — أنا لا أطلب شيئاً إلا فى حضور دولته .

(الخليع) — أظن أن دولته لا يعود فى هذه الليلة ، وهذه عادته إذا هو قام مع أحد الباعة عند تمام نشوته .

(العمدة) — ولكننى لم أره دفع شيئاً من الحساب .

(التاجر) — لعل له هنا حساباً جارياً .

(الخليع) — نسأل الخادم .

(العمدة) للخادم — ألم يدفع دولة البرنس شيئاً ؟

(الخادم) — لم يدفع شيئاً قبل خروجه .

(الخليع) — وكم الحساب ؟

(الخادم) — مائة وواحد وعشرون فرنكا .

(العمدة) — أنا لا أصدق أن أفندينا يخرج من غير أن يدفع ما عليه من الحساب، ومع ذلك فلننتظر عودته .

(الخادم) — إذا قام البرنس على هذه الصورة فانه لا يعود ، وإن أردت أن لا تدفع ثمن ما شرب به البرنس فأنا أقيده فى حسابه .

(العمدة) — وأنا إذا كنت أدفع شيئاً فلا أدفع إلا ثمن ما شرب به دولة البرنس وحده.

وفيما هم على هذا النزاع إذ دخل أحد وكلاء المديريات ، فينهض العمدة لمقابلته ، ويلح عليه فى الجلوس معه ، ثم يلتفت إلى الخادم بصوت عال :

(العمدة) — على بتفصيل الحساب وبين لى فيه ما شرب به دولة البرنس ، وما أكل

دولة البرنس ، و بكم شرب أصحاب البرنس ، وكم شربنا مع البرنس وكم شرب قبلنا البرنس، واسأل سعادة البك الوكيل ماذا يشرب ، وعد لأدفع لك كل الثمن المطلوب .

(الوكيل) — أنا لا أشرب شيئاً .

(العمدة) — كيف لا تتفضل علينا بالشرب معنا ، كما تفضل دولة البرنس إرضاء لخاطرنا ؟

(الوكيل) — لا بأس أن أشرب كأساً واحداً من « الكنياك » .

(العمدة) — لا والله لا تشرب إلا « شمبانيا » ، كما شرب معنا دولة البرنس .

(الخليع) للعمدة — لماذا لم تقدمنا للتعارف بسعادة البك ؟

(العمدة) — سعادته وكيل مديريتنا ، وحضرته (مشيراً إلى التاجر) من أكابر التجار، وحضرته (مشيراً إلى الخليع) من ظرفاء مصر .

(الخليع) للوكيل — تشرفنا بهذه المعرفة ، وكيف حال سعادة المدير فهو من أعز أصحابى وطالما قضينا معه أوقات أنس وسرور ؟

(العمدة) للوكيل — أظن أن سعادتكم حضرتم إلى مصر فى عقب كشف الرتب المقدم إلى الداخلية .

(الوكيل) — نعم كنت اليوم فى الداخلية وسينتهى الأمر إن شاء الله على ما تحب .

(العمدة) للخادم — زجاجة شمبانيا أخرى .

(الوكيل) — يكفى فإنى أريد أن انتقل إلى داخل المكان فى مجلس إخواننا القضاة ووكلاء النيابة .

(الخليع) — لا لزوم لا نتقال سعادتكم فأنا أدعوهم للجلوس معنا وفيهم فلان وفلان من أعز أصدقائى .

(الوكيل) — لا تكلف خاطرك بذلك فإن الأليق أن أذهب للجلوس معهم .

(العمدة) للوكيل — إذا كان الأمر كذلك فكلنا نقوم مع سعادتكم ويأتينا الخادم بزجاجة الشمبانيا هناك .

(الوكيل) — إن أردت ذلك فلا بأس .

قال عيسى بن هشام : فيقومون فيجلسون مع أهل ذلك المجلس ، ويحضر الخادم بزجاجة الشمبانيا ، فيرجوهم العمدة الشرب منها فيمتنعون ، فيشدد فيمتنعون ، فيقسم عليهم بالطلاق وهو يتلعثم سكراً إلا شربوا معه ، ثم يتناول الكأس ويقوم متسانداً على الخليع ليشرب معهم ، فما يكاد يضع الكأس فى فيه حتى تأخذه غصة فلا يملك نفسه عن رد الفعل فتتلوث ثيابه ، ويبادر الخليع مع الخادم إلى سحبه داخل المكان ليصلح ما فسد من أمره .

ثم لبثنا مدة ننتظر العمدة ، ونترقب له الرجعة والعودة ، حتى أقبل يتهادى فى مشيته ، بعد أن أفاق من غشيته ، وعمد إلى الخروج والخليع عن يمينه يناجيه ، والتاجر عن شماله يرائيه ويداجيه .

العمدة فى المرقص

قال عيسى بن هشام : ولما خرجوا من ذلك المحفل ، ونحن أتبع لهم من الظل ، سمعنا العمدةَ يشكو للخليع فى طريقه ، ما يجده من انقباض الصدر وضيقه ، ويسأل التفريج لكربه ، والترويحَ عن قلبه ، ويذكّره بما كان من الوعود ، ويطالبه بزيارة ذلك المجلس الموعود ويقول له : تالله لقد أنصبْتنا وأجهدتنا ، فهلمّ بنا الآن إلى ما وعدتّنا ، لِنَزْبأ عنّا الهم بربيبات الخدور ، ونكشف عنا الغم بكاسفات البدور ، ونجلو أعيننا بنُجل العيون ، وننعش أنفسنا بناعسات الجفون ، ونستصبح ليلتنا بالوجوه الصِّباح ، قبل أن يَصبحنا جيشُ الصباح ؛ فيقطع عليه الخليع كلامه ، ويدفع عن نفسه ملامه ، بأنّ طول الانتظار ، يذهب بحسن الاصطبار ، ولا صبر لذوات الدلال ، على خلف الوعود من الرجال ، وقد جاءنى رسولها فى غفوتك برسالة ، تشكو فيها ما لحقها من السآمة والملالة ، وتُنحى علىّ بالعتاب المرّ ، وأنّ ما فعلتُهُ معها ليس بفعل الحر ، إذ اخترقت من أجلنا ما اخترقتْهُ من السجوف والكِلَل[1] ، وتحملتْ فى مجيئها ما تحملتْهُ من الخوف والوجل ، حذر الوشاة والرُّقباء ، وخشية الأهل والقرباء. ثم إنها أقامت طويلاً فى انتظار اللقاء ، وهى على مثل حرّ الرمضاء ، فإذا الوعد بلا وفاء ، وإذا الدَّيْن بلا قضاء ، وكأنما كانت تنتظر غائباً لا يؤوب ، وتستمطر سحاباً لا يَسِحُّ ولا يصوب ، فذهبتْ بحسرتها ، ومضت لطيّتها[2] ، وفاتنا ما كنا نبتغيه ، وأيأسنا ما كنا نرتجيه ، وتلك فرصة أضعناها ، لنزغة شيطانٍ أطعناها . فيقول التاجر : إذاً ما الذى اكتسبناه ؛ بعد الذى احتسبناه ؟ وماذا أفدناه ، بعد الذى فقدناه ؟ وأين منّا ما نجمع به شملنا ، ونبدد به ليلنا ؟ فيقول له الخليع : لم يبقَ أمامنا فى هذه الساعة ، سوى ملاعب الرقص والخلاعة ، عسانا نجد فيها بديلا ، مما لم نجد إليه سبيلا . فيُخرج العمدة دراهمه فيعدّها ، ثم يخشخش بها ويردها . فيقول له التاجر : لا تَهْتَم فدِرْهَمُ الأنسِ ميسَّر . ويقول للخليع : تقدَّمْ ، فما من شىء عليك معسَّر . فيعطف بهما الخليع من غير إبطاء ،

(١) السجوف : جمع سجف وهو الستر . والكلل : جمع كله وهى ستر رقيق .
(٢) مضى لطيته : أى لنيته التى انتواها .

إلى حان للرقص والغناء . فدخلوه ودخلنا من خلفهم ، وجلسوا وجلسنا فى صفهم ، فرأينا المكان حومةَ وغًى احتدمَ وطيسهُ ، وميدانَ حرب اصطدم خميسه[١] ، عجاجتهُ الدخان، ومتارسهُ الدِّنان ، وسلاحهُ الأباريق والأقداح ، ودروعهُ الغلالة والوشاح، ونبله أصغر القوارير[٢] ، وطبولهُ توقيع العيدان والمزامير ، ومغافرهُ العصائب والأكاليل[٣] ، وأعلامهُ المآزر والمناديل ، وقوَّادهُ وشجعانهُ ، قوَّادهُ وغلمانه ، وكأن منصة الرقص هى حصنُهُ الحصين ، وصاحبُ الحان هو قائد الكمين ، وكأن المغنِّين هم الكماة والأقران ، والراقصاتِ الحماةُ والفرسان .

أولاتُ الظَّلْم[٤] جُنَّ بشرِّ ظُلْمٍ وقد واجهْنَنَـــــا مُتظلِّماتِ
فوارسُ فتنةٍ أعـلامُ غَىٍّ لَقينَكَ بالأساورِ مُعْلَمـــاتِ

وترى كل ذات ثدىٍ حاسر بارز ، تنادى : هل مِنْ مُنازل أو مبارز ؟ ثم تتبختر وتجول ، وتخطر وتصول ، فَتَرمِى كلَّ طامع فى وصالِها ، بسهام اللحاظ ونصالها ، ثم ترشق بها الدنانَ تارةً فتسيل بدم العُقار ، وتشقّ بها الجيوبَ أخرى فتسيل بدم النُضار :

وقد أُغمِدْنَ فى أُزُرٍ ولـكنْ سيوف لحاظهنّ مُجرَّداتُ
قَدَحْنَ زنادَ شوقٍ من زُنود بنارِ حُليِّهـــــا مُتوقداتُ

وترى فى وسط تلك المعركة ، من كل هَلُوكٍ مُهلِكة[٥] ، تنساب فى حلة رقصها وتسعى، كأنها حية فى قميصها أو أفعى ، لعاب الأفاعى القاتلات لعابُها، وأنياب الأسود الضاريات أنيابها ، تنفث السم رائحة ، وتنتهش غادية ، وإن رأيتها شادنةً وسمِعتها شادية ، فترى القوم فيها صرْعَى كأنهم أعجازُ نخلٍ خاوية .

قال عيسى بن هشام : ولما طال جلوسنا ، وضاقت أنفاسُنا ، وكاد يُغمَى علينا من كريه الروائح المنبعثة من أرجاء المكان المتصاعدة من أكنافه : رائحة عَكَرِ الخمور ، ورائحةِ عَرَقِ الأبدان، ورائحةِ زيت المصابيح ، ورائحةِ الدخان والحشيش ، ورائحةِ أنفاس

---

(١) الخميس : الجيش (٢) صمامة القارورة : سدادها .
(٣) المغفر : زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس (٤) الظلم : ماء الأسنان وبريقها .
(٥) الهلوك : الفاجرة .

المخمورين ، ورائحة تلك المراحيض التى لم يدخلها ماء ، ورائحةِ الأرض التى تسقى بالأقذار ولم تَسْطَع فيها شمس ولم يتغير عليها هواء ، فإذا امتزجتْ هذه الروائح بعضها ببعض، انعقدت منها فى جو المكان سحابة سوداء تمطر الأدواء ، وتساقط الأوباء ، فتستنشقها الأنوف ، وتمتصها الرئات ، وتَضْوَى بها الأجسام ، وتتضاءل منها ذُبالاتُ المصابيح تضاؤلها فى أجوافِ المناجم وبطون الكهوف . وكاد الباشا يختنق ، وَهَمَّ به الغثيان ، فَهَمَّ بالقيام ، فأمسكت به وقلت له :

(عيسى بن هشام) — أيصبر مثلى على هذا المقام ، ولم أشهد فى عمرى معركة ، ولم أحضر معمعةً ، ثم يجزع منه مثلك ، وقد مارستَ الحروب ، وشاهدتَ الوقائع تحت سُحُب العجاج ، وفوق جثث القتلى وأشلاء الجرحى ، لاتبالى برائحةِ الجيفة ، ولا برائحة الدم ممزوجاً بصدأ الحديد ؟

(الباشا) — لقد كان ذلك ولكن فى الخلوات والفلوات حيث تسطع الشمس وتجرى الرياح ، ولم أستنشق تلك الروائح منحصرةً كانحصارها فى هذا المكان ، ومع ذلك أتجلد مثلك للبقاء به كيلا يفوتنا شىء مما نحن بصدده من بداية الأمر إلى نهايته .

وبَيْنَا نحن كذلك إذا بصديق لى دنا منى فسلم علىَّ وأظهر لى تعجبه من دخولى هذا المحل ، فأظهرتُ له تعجبى من دخوله أيضاً ، فأجابنى بقوله :

(الصديق) — إن السبب فى دخولى هنا هو البحث عن رجل أحتال على فى بعض الشؤون ثم غاب عن نظرى ، وأنا أعلم أنه يأوى إلى مثل هذا المكان ، فدخلتهُ على كره منى بعد أن حرمتُ على نفسى التردد عليه منذ زمان بعيد ، وحُكمُ الضرورة مطاع ، ولكن قلْ أنت ما الذى جاء بك إلى هذا الوكر ، وكر الأفاعى ، وأدخلكَ فى هذا العُش، عش الشيطان ؟

(عيسى بن هشام) — أدخَلنا فيه حبُّ الاستطلاع والاستكشاف عن الأخلاق والعادات ، ولكننى فيه غريب لا أفقهُ كثيراً مما أرى ، والحمد لله الذى سخرك لنا فى هذه الساعة ، لتبيّن لنا ما غمض وتبدى لنا ما يَخفَى .

(الصديق) — لك ذلك منى وفوق ما تريد .

قال عيسى بن هشام : وجلس الصديق معنا يحدثنا ويرشدنا ، ويسرد علينا من غرائب الوقائع وعجائب النوادر فى هذا الباب ما أدهشنا به . ثم انقطع الحديث بيننا بدخول رجل يتمايل سكراً ، فاخترق صفوف الجالسين ، وقد سكنت ضوضاؤهم ، وهدأتْ حركاتهم ، لسماع الغناء من إحدى القيان البارعات فيه ، فاعناقهم نحوها مشرئبة ، وأبصارهم إليها شاخصة ، كأنهم جالسون تحت المنبر يستمعون أحسن الحديث من وعظ الخطيب . واستمر السكران فى سيره يقع بينهم مرة ويقوم أخرى ، حتى وصل إلى منصة الرقص والغناء ، فضرب عليها مراراً بعصا فى يده ، ونادى على مَنْ فيها بأعلى صوته يطلب العدول عن الغناء إلى الرقص ، فلم يسمعوا لندائه ، فالتفتَ إلى زمرة من الجالسين ، وطلب منهم مساعدته على غرضه ، فنادوا معه : الرقصَ الرقصَ ، ونادى الراغبون فى السماع : الغناء الغناء ، فانبرى لهم السكران يهزأ بذوقهم ، ويسفههم فى سوء اختيارهم ، فأجابه سفيه منهم على سفاهتِهِ ، فهجم عليه السكران بعصاهُ ، فقفز صاحب الخان من مَكمنه إلى السكران فأخذ بتلابيبه . ويقوم طالبُ الغناء حينئذ من مكانه ، فيشبع السكران ضرباً وصفعاً ، فيتعلق السكران بخناقه وينادى : البوليسَ البوليسَ ، فيجتمع غلمان الخان يجرونه إلى الخارج ، وهو ممسك بعنق الضارب لهُ لا يخليه ، حتى إذا صاروا إلى الباب أدركهم جندى البوليس ، وقبض على المتضاربين ، فيتعرض له صاحب الخان ، ويمنعه من القبض على الضارب ، ويقول له : ليس لك إلا أن تأخذ هذا السكران وحده ، فقد جاءنا بعد أن امتلأ سكراً من الخارج يعربد فى محلنا ، وكأنه مأجور من أرباب الخانات الأخرى للاضرار بنا ، وإحداث الفشل فى محلنا ، فيأبَى الجندى إلا أن يسوق المتضاربَيْن معاً ، فيغمزه صاحب الخان ليلينَ له فيبتدره أحد غلمانه قائلا له : لا لزوم لما تأتيه مع هذا الجندىِّ من المصانعة وغرضُنا يُقضى بدونه ، فإن حضرة معاون القسم جالسٌ عندنا داخِلَ « البار » مع صاحبته .

(صاحب الخان) للجندىِّ — لم يبقَ لك من وجه لسحبهما إلى القسم ، وتعالوا ندخل جميعاً عند حضرة المعاون فى « البار » .

(الجندىّ) — هذه حيلة غير خافية تريد بها تهريب صاحبك ، وكيف يكون حضرة المعاون موجوداً الآن فى « البار » والنوبةُ عليه الليلة فى القسم !

(صاحب الحان) — ما عليك إلا أن تدخل وهما فى قبضتك لتراه بعينك ، فيجيب الجندىُّ صاحب الحان إلى ذلك ، فيدخل فيرى المعاون جالساً بجانب صاحبته خالعاً رداءه على كتفها وطربوشه على رأسها ، وهو يسقيها من كأسه وتعاطيه من كأسها .

(صاحب الحان) للمعاون — لقد تعطل المحل يا حضرة الأفندى فى هذه الليلة ، وتعطيلهُ لا يرضيك ، فإن هذا الرجل دخل علينا سكران ولم يشرب من محلى شيئاً ، فعربد بين الجالسين ، وأخلّ بنظام الاجتماع ، ثم تعدّى على هذا البك بالشتم والضرب ، وهو من أجلّ المترددين على المحل ، والغريب أن جندى البوليس هذا لم يسمع لقولى فيه بل صمم على سحبه مع ذلك المتعدى إلى القسم ، وهو من أبناء الكرام ، ولا يليق بكرامته أن يساق مع هذا السكران إلى المحاكمة .

(المعاون) للجندى بعد أن يلبس طربوشه — ما هذا الذى أسمعه ؟

(الجندى) رافعاً يده بسلام التعظيم — لم أعلم بوجود حضرتكم هنا ، والأمر إليكم .

(المعاون) للجندى — إذا كان الرجل السكران فى حالة سكر بيّن ، فخذه وحده إلى القسم ، وما دام حضرة البك لم يحصل منه اعتداء بشهادة حضرة الخواجه ، فلا لزوم لذهابه معك ، ويكفى أن حضرته يعطينا وعداً بالحضور غداً إلى القسم لأخذ شهادته على هذا السكران .

(وعند ذلك يدفع صاحب الحان بالسكران إلى الخارج مع الجندى) .

(الجندىّ) — إذا كنت تطاوع غلامك كل مرة فيما يشير به عليك يا حضرة الخواجه فليس يكون حضرة المعاون عندك فى كل ليلة ، والأيام بيننا .

(صاحب الحان) — أوصيك بهذا السكران شراً ولا يكن عندك شك فى دوام الرعاية بك .

قال عيسى بن هشام : وخرج السكران أمام الجندىّ مدفوعاً فى ظهره ، يقع ويقوم ، ويستعدى ويستنجد . وعدنا إلى داخل الحان ننظر ما يجرى فيه ، فإذا صاحب الحان ومعه

البك خصيم السكران قد جلسا مع حضرة المعاون والكؤوس تغدو عليهم وتروح ، فجلسنا ناحية نستمع لهم ونؤثِر ما يجرى من حديثهم على نحو ما ترى :

(صاحب الحان) للمعاون — لماذا أوعزت إلى صاحبتك بالقيام عند جلوسنا معك ؟

(المعاون) — أنا لم أوعز إليها بشيء ، ولكنها هى التى قامت مغضبة .

(صاحب الحان) — ولأى سبب أغضبتها ؟

(المعاون) — لم آت سبباً يغضبها ، بل هى التى انتحلت سبباً كدرتنى به وكدرت نفسها أيضاً .

(صاحب الحان) — لا شك أن ما حصل هو من باب الدلال دون سواه ، وسأدعوها فى الحال لعقد الصلح بينكما .

(المعاون) — لا دخل للدلال هنا ، ولكن جرى فى أمر حضرة البك والسكران ما هو، على خلاف هواها ، فانها كانت ترغب فى التضييق على الأول والتفريج عن الثانى ، لأن حضرة البك هو من أكبر أصحاب المغنّية ، والمغنيةُ من ألدّ أعدائها .

(صاحب الحان) — لقد حرتُ فى أمر هذه الفتاة ، فان ضروب حماقتها لا حدّ لها، وفى كل ليلة تأتينى بنوع من المشاكل جديد ينتج عنه ما لا يعوّض من خسارتى ، ولولا منزلتك عندى ومنزلتها عندك لَمَا أبقيتها فى المحل يوما واحداً ، ولا كابدت إعطاءها فى كل شهر مقدار ما يأخذهُ وكيل المديرية مرتباً من الحكومة ، ولو شاهدت منها ما أشاهده كل ليلة تسافهها على الرجال وتخاصمها مع النساء اعتماداً على سلطتك واتكالاً على مساعدتك لعلمت مقدار حماقتها وجنونها .

(المعاون) — نعم إن حماقتها عظيمة ، وطالما شددت عليها لتجتنب المنازعات والمشاجرات حتى لا يقال إن علاقتها بى هى التى تجرئها على ارتكاب ذلك ، ولكنها على كل حال سليمة القلب خفيفة الروح .

(صاحب الحان) — صدقت وهى مع ذلك تحبك حباً صادقاً .

(وهنا تدخل المغنية فى البار بعد انتهائها من الغناء ، فتتقدم نحو هذا المجلس لتسأل من

حضرة البك صاحبها عما تم عليه أمر المخاصمة مع السكران ، فيقول لها) :

(البك) — أنا فى غاية التشكر لحضرة المعاون الذى أنصفنى ، وفى غاية التكدر لما وقع له من فلانة بسببى ، فانها اهتاجت غضباً لما علمت بمساعدته لى ، وهى تبغضنى لعلاقتى بك ، فبحياتى عليك إلا ما قبلت التوسط فى الصلح بينكما و إزالة ما فى النفوس ، فتعود راضية على حضرة المعاون ، ويتم الصفو لنا جميعاً .

(صاحب الحان) — أنا أوافق على هذا الرأى .

(المعاون) — وأنا لا أرفضه .

(البك) — وأنا أرسل فى طلبها .

قال عيسى بن هشام : وتحضر الفتاة فيقع نظرها على المغنية جالسة مع المعاون وأصحابه ، فتشتعل جذوةَ نارٍ من الغضب ، وتنقلب لبُؤةً هاجت لفقد أشبالها ، فتشتم وتسب وتقذف وتلعن وتتفل وتبصق ، وتنقضُّ على المغنية فتأخذ ببرقعها فتزيلها من مكانها ، وتلتفت إلى المعاون فتتوعده بالشكاية والطعن فيه لدى رؤسائه ، ثم إلى صاحب الحان فتتهدده بأنها لا ترقص فى ليلتها ، فلا يسع صاحب الحان إلا أن يتلافى الفضيحة ، فيجرها إلى خارج البار بالقوة ليتمكن المعاون أن يتسلل هاربا ، ثم أخذ ينصحها و يحذرها ، و يقول لها : إن المعاون قد ذهب إلى القسم الآن ، وقلبهُ مملوء منك حقداً وغيظاً ، فاذا أنت لم ترجعى عن حماقتك وتصعدى إلى المنصة للرقص أوعزت إلى المغنية أن تمسك بك وتذهب معك إلى القسم ، والحاضرون يشهدون أنك تعدَّيت عليها بالضرب ، والمعاون هناك ينتظرك للتشفى منك .

قال عيسى بن هشام : فوقع هذا القول منها وقع الماء فى النار ، و إنذار الحجز على أهل الدار ، فهدأ جأشها ، وسكن طيشها ، وصعدت للرقص على منصتها ، تتأوَّهُ من حسرتها وغصتها . وعدنا للجلوس أمام الميدان ، ننظر ما يكون من الغلبة والخسران .

قال عيسى بن هشام : جاء دور الرقص ، فضجت الغوغاء ، واشتدت الضوضاء ، وامتدت الأعناق بالصفير والنعيق ، واشتغلت الأكف بالتصفيق ، ترحيباً وتأهيلا ،

وتكبيراً وتهليلا ، إذ قامت على المنصّة هلوكٌ وَرْهاء(١) ، عمشاء مَرْهاء(٢) فطساء فوْهاء، عجفاء شوْها(٣) مُزجَّجة الحاجبيْن ، محمَّرة الخدين ، مبيضّة الساعديْن ، مخضّبة اليديْن ، قد ألبستْ وجهها من الطلاء نقاباً ، وأسدلتْ على أطرافها من الدهان ثياباً، بأصباغ شتّى وألوان ، بين أبيضَ ناصعٍ ، وأسودَ فاحمٍ ، وأحمر قان ، تتلوّن تلون الحرباء ، فى هجير البيداء ، وقد وارت ما تعرض من جسمها ، وتعرّى من لحمها ، بأنواع العقود والقلائد، والأساور والمعاضد ، والدمالج والجلاجل ، والمناطق والخلاخل ، فأخذت فى الرقص والحجلان ، على توقيع الضروب والألحان ، وبجانبها خادم ما شككنا من قبح هيئتهِ، أنه إبليس اللعين فى طلمته ، رُكِّبتْ منهُ أقبحُ هامة ، على أسوإ قامة ، بوجه قد قُدَّ من الصخر ، وعين كعين الصقر ، وأنفٍ كمِنسر النسر ، وفم يَرمِى بالزَّبد كالبحر ، وشفةٍ مهدولة ، وعمامةٍ مجدولة ، وفى يمينهِ قدح وإبريق ، يسقيها منهُ بكأس من حريق ، لا بكأس من رحيق ، ويُعاطيها من غِسلين أو قطِران(٤) ، ويجرعها من حميم آن ، وكما أترع لها كأساً ، همست فى أذنة همساً ، ثم تشير بطرف الكف ، إلى بعض الجلوس فى أول صف ، فيصيح اللعين صيحة الأسد فى عِرّيسته(٥) ، وَقع بصرُه على فريسته ، فيحيه غلام الحان جذَلاً وابتهاجاً ، ويأتيه بالزجاجات أزواجاً ، فيفضّ عنها الفِدام ، ويصفها أمامها تحت الأقدام ، ولا يزال خادمها يملأ لها ويسكب ، وهى تشرب وتطلب ، لا تكتفى ولا تقنع ، ولا تَروَى ولا تنقع ، كأنما يمتحُ لها من قليب(٦) ، ويصبّ فى وادٍ جديب ، أو يملأ من ماء منبثق ، ويُفرغ فى دَنٍّ منخرق ، فإذا دبّتْ فى عروقها نِمالُ الخمر، واشتعلت فى جوفها اشتعالَ الجمر ، جدّتْ فى لعبها ودورانها ، واشتدّت فى قفزها وجولانها، وتلوّت كالحية فى طُرُقها ، ولعبتْ كالسُلَحْفاة بعنقها ، والخادمُ أمامها ينازلها وتنازله، ويغازلها وتغازله ، ويراقصها وتراقصه ، ويقارصها وتقارصه ، وهى ترسل على الحاضرين أقوالاً بذيئة ، وتخاطبهم بألفاظ قبيحة رديئة ، فتفترّ لها الثغور ، وتنشرح الصدور ، ليس

---

(١) الورهاء : الحمقاء
(٢) المرهاء : التى ابيضت بواطن أجفانها
(٣) العجفاء : المهزولة
(٤) الغسلين : ما يسيل من جلود أهل النار
(٥) العريسة : بيت الاسد
(٦) القليب : البئر

فيهم إلا كل مستحسن مستزيد ، ومستملحٍ مستعيد ، إلى أن تخور قواها ، وتغور عيناها ، وتتقلص شفتاها ، ويَكلح شدقاها ، وينضح العرَقُ من أطرافها وتراقيها، وينعقد الزَّبد بنحرها وفيها ، فتضطر إلى إزالته ، وتعمد لإزاحته ، فتتناول المنديل تمسح به من وجهها وذراعها ، فيتلوّن بأشكال الصبغة وأنواعها ، فيغدو المنديل كأنه قوس قزَح ، بما نصبب من أديمها وارتشح ، وينكشف التمويه والتلبيس ، ويفتضح التلفيق والتدليس ، فيظهر ما بطن ، ويبرز ما كمن ، وتنقلب إلى صورة سعلاة ، تتراءى فى سراب فلاة ، أوغول ، تكشر وتصـول ، أودبّ ، يهتزويدبّ ، فحوّلنا عنها الوجوه استنكافاً واستنكاراً ، ولوْينا الأعناق استقباحاً واستقذاراً ؛ ومال الباشا على الصديق يسائله فى دهشته ، ويقول له فى نفرته : أعلى مثل هذه تذوب القلوب ، وتنشقُّ المرائر والجيوب ؟ وهل وَصَلَ العَمَى بالناس إلى هذا الحد ، ولم يبق فيهم تمييز للغزال من القرد ؟

(الصديق) — نعم إن هذه — التى تهرب منها الوحوش لفظاعتها ، ويتعوذ منها الشيطان لدمامتها — هى عند هؤلاء الحاضرين دمية القصر ، وفريدة العصر ، كم ذهبت بأموال ، وأودت بأرواح ، وكم أضاعت شرفاً ، وأزالت مجداً ، وأذلت رقاباً ، وأفسدت حكاماً ، وكم فرقت بين المرء وزوجه ، وولدت العقوق بين الوالد وولده ، وألهبت العداوة بين الأخ وأخيه ، وكم خربت بيوتاً عامرة ، ودنست أنساباً طاهرة ، وكم بذرت للشر أسباباً ، وفتحت للسجون أبواباً ، وهؤلاء الذين تراهم جلوساً فى هذا المستنقع الوبىء ، والمرعى الوبيل ، يقضون فيه ليالى الشهر تباعاً ، وشهور العام رداقاً ، لا تتوهمنهم من أسافل القوم ، ولا من أدنياء الناس ، بل فيهم الكبير والأمير ، والسرى والوجيه ، وانظر عن يمينك إلى هذا الجالس بين إخوانه جلسة الكبرياء ، فهو أحد أبناء الأمراء ، مات أبوه وترك له أموالا جمة ، فالتفّ حوله قرناء السوء من أهل البطالة والفراغ ، فبدأ فى تبديد تلك الأموال باقتناء الخيول المسوّمة ، والمركبات المطهمة ، ثم ثنّى بالإسراف الفاحش فى مهرجان زواجه ، ثم ثلث بتسليم ما بقى منها لأيدى العواهر والفواجر ، وأخصّهنّ هذه اللخناء التى لم يبق له منها إلا التمتع بالنظر ، وهى لا تنظر إليهِ ، ولا تسأل عنه ، بعد أن استفرغت أمواله ؛ وانظر عن

شمالك إلى هذا الجالس الذى يفتل شاربيه ، ويحملق بعينيه ، ويغمز بحاجبيه ، فهو من أبناء الكبراء أيضاً ، ماتت أمهُ فورث عنها أموالاً طائلة ، ولم يمض على موتها بضعة أيام حتى أوقعه سوء طالعه فى مخالب هذه الخداعة الغرَّارة ، فهو لا يصبر عنها ، ولا يقطع المجىء إليها فى كل ليلة ، وهى تسلبه كل ما تصل إليه يدُه من خفيف وثقيل ، وما كان لأمه من حلى وجواهر غير ما ينثره من الذهب والفضة فى أرض هذا المكان ؛ وانظر أمامك إلى هذا الجالس معظماً بين جلسائه مبجلاً ، فهو من كبار الحكام فى الأرياف ، وقع فى أشراك هذه المرأة ، فكادت لفظاعة أعمالها معه أن تسلخه من شرفه ، وتسقطه عن منصبه ، وهو مع ذلك لا يسلوها ، ولا يلهو عنها ، وليس له فى مدة إقامته بالقاهرة غير بيتها مأوى ، ومرقصها ملهى ، فاذا هو عاد إلى مقر وظيفته عاد بغير لبه ، فيسعى فى استغواء العمد والأعيان لاقامة الولائم والحفلات ، واستئجار هذه الراقصة لاحياء لياليها ؛ وانظر إلى هذا الشيخ الجالس منفرداً منزوياً ، ويده مرتشقة بين صدغه وعمامته ، فهو من أعيان البلد ، لم يمنعه وقار السن وهيبة المشيب من الوقوع فى أسر هذه الغاوية ، فأخذ يبدد عندها فى شيخوخته ما كان جمعه فى شبيبته .

(الباشا) — لو أنه كان لهذه المرأة مزية ظاهرة من مزايا النساء ، لقلنا الهوى فى الناس داء قديم ، والولوع بالحسان أمرٌ بديه ، والعذر غير معدوم ، ولكن ما بالهم والمرأة فى القبح والدمامة بمنزلة الشيطان ، والهروب منها مندوب إليه ، فهل تعلم لذلك من سبب خفى ؟

(الصديق) — السبب فيه حبُّ التباهى والتفاخر والأثرةُ والاختصاص ، وقد اشتهرت هذه البغى باتقان الرقص والتفرد فيه ، وأنفسُ الجهلاء مولعة بالشهرة الباطلة والصيتِ الكاذب يتشبثون به عُمىَ النواظر ، عُمهَ البصائر ، فهم يرون أن الاختصاص بمثل هذه الشهيرة فى فنها ، وإن قبُح منظرها ، وساء مخبرها ، هو الفخر كل الفخر والسبق كل السبق ، وهم مجبولون على الحكاية والتقليد ، فلذلك نفَذ فيهم سهمها ، وسَرى فى عروقهم سمها .

(الباشا) — إن كان لا يوجد فى هؤلاء الناس عقول تردعهم ، ولا يوجد بينهم واعظ يرشدهم ، أفلا كان هناك من سلطان يزعُهم ، وحكم يكف الأذى عنهم ؟

(الصديق) — لا واعظ ولا ناصح ، ولا سلطان ولا وازع ، وقل بيننا من يشتغل للناس فى نفع الناس .

قال عيسى بن هشام : وانتهت الراقصة من رقصها ، فدخلت حجرة لتغيير لباسها ، وإصلاح ما فسد من حالها ، ثم نزلت منها وقد جددت ألوانها وأدهانها ، وسارت تتكسر فى مشيتها بين الجموع وهم يرمقونها رمق الشهوة ، و يتطلعون إليها تطلع البهيمية ، فتزحزحت لها المجالس ، وحُلّت لها الحبَى ، وأعد لها كل فريق كرسيا بجانبه ، وتناثرت عليها الاشارات بالتفضل بالجلوس ، فلم تعبأ بشىء من ذلك ، ولم تلتفت إليه ، واستمرت فى تكسرها وتهاديها ، حتى وصلت إلى مقام صاحب الحان ، فوقفت معه مُلاعِبَةً مداعِبةً وممازحة مضاحِكة ، وجاء خادمها فى عقبها ، فاستوقفه إليه ذلك الحاكم من حكام الأرياف ، فوقف بجانبه يهزل معه ويمزح ، ثم شاهدنا الحاكم يخرج من جيبه بعض الدراهم فوضعها فى يده ، فانصرف الخادم إلى الراقصة فكلمها وأشار بيده إلى الحاكم يستعطفها له و يستدعيها إلى الجلوس معه فأبانت عن أمارات الإباء والرفض فى أول الأمر ، ثم انتهت بها لجاجةُ الخادم إلى الرضاء والقبول ، فقصدتْ مجلس الحاكم وقصَدَ الخادمُ غلامَ الحان ، فما جلستْ حتى كان الغلام بجانبها يحمل فى يده أربع زجاجات من الشمبانيا ، فبَزَلها كلها بِمبْزَله (١) ، ففارت وفاضت ، وانتشرت كلها حبَباً ، والغلامُ متلاهٍ عنها لا يسرع الإملاء منها ، حتى إذا لم يبقَ بها مقدار صُبابة (٢) صبَّها الخبيث فى الأقداح وقدّمها للفاجرة ، فبادرتْ إلى لمس كل كأس لمسةً بيدها وفيها ؛ ثم يعود الغلام بعد هنيهة لأخذِ الزجاجات الفارغة ، فتأمره باحضار سواها ، وهكذا يتوالى الحال فى طلب الأدوار ، حتى يبلغ إلى الدور الخامس فى مدة يسيرة ، وجميع الجالسين لا يتحولون بنظرهم عنها يراقبون حركاتها وسكناتها كأنما يرصدون نجماً أو يرقبون هلالاً ؛ ولما انقطع ورود الزجاجات ، التفت العاهرةُ إلى خادمها وهو على بعدٍ منها ، فرأتهُ يشير إليها بحاجبيه تارة ، و بطرف لسانه أخرى فهمتْ بالقيام ، فأمسك الحاكم بأذيالها ، فصفعتْهُ صفعة مزاحٍ على قفاه ، بعد أن لعنتْ أمه وأباه ، استرضاء له

(١) بزل الخمر : ثقب إناءها . والمبزل : المثقب (٢) الصبابة : البقية فى الاناء

عن تركها إياه ، فهش ّ و بش ّ اعتقاداً منه أنها لا تعامله بهذه المعاملة إلا لسقوط الكلفة ، وتَمكن الألفة ، وتنسلُ من حضرته إلى حيث أشار الخادم ، فتهبط على الفئة التى عن يميننا ، وفيها ذلك الشاب الذى أفنى فى حبها ماله وأضاع فى هواها شرفَه ، فخاطبته بلسان اللوم والعذل ، تسأله لأىّ سبب دعاها ، ولأجل أية علة أقلقها من مكانها ، فيتلعثم المسكين ، ثم يجيبها بأنه دعاها لمصلحتها وقضاء حاجتها ، فإن المحامى أخبره بنجاح قضيتها ، فتبسم له قليلاً ، ثم تلتفت عنه إلى سواه ، فيستحلفها بالود القديم والعهد العتيق أن تجلس معه لحة ليقصّ عليها تفصيل الخبر ، فتنفر منه ، فيرميها بسوء الوفاء ، وخيانةِ العشرة ، ويبكّتها مذكّراً لها بما كان بينهما من الصفاء والهناء ، وما أتلفه فى معاشرتها من نضار وعقار ، فتلطمه على وجهه لطمة المعلم المؤدب ، وتجلس إلى جانبه ، وتسأله أن يدع عنه ذكر تلك الليالى ، والأيام الخوالى ، وأن يحفظ عنها « قصة الأضراس » فى باب الاعتبار ، وروت له هذه القصة التى هى عندهنّ عماد الصنعة وأساس الفن: « زعموا أن فتى كان يهوى فتاة وتهواه ، فعاشا تحت جناح الحب زمناً سعيداً ، ثم طرأ على الفتى سفرٌ يبعده عنها فى طلب المال ، وجاءت ساعة الوداع ، فانهملتْ العَبرَات ، وتوالت الزفرَات ، وأقسمتْ له بأن العيش لا يطيب لها من بعده ، وأن الموت أهون عليها من بُعده ، وسألته أن يُبقى عندها أثراً منه تتعلل به فى غيابه ساعة الحنين ، وتشم منه ريحه وقت هيام الذكرى ، فقال لها سأترك لك بضعة منى ، وانتزع لك أثراً من بين لحمى ودمى ، ثم عمد بيده إلى فيه فاقتلع لها ضرساً من أضراسه غير مبال بألم الانتزاع ووجع الاقتلاع ، وناولها إياه يقطر بالدم ، فأخذته منه وأشبعته لثماً وتقبيلا ، ووضعتْه فى حقة نفيسة . وسافر الفتى سفره ومضت عليه الأيام والليالى ، ثم آب من سفره خائباً لم يظفر بحاجته ولم يفز بِطلبَته ، رقيقَ الحال ضعيفَ الركن ، فذهب إلى دار صاحبته ، وقد أضناهُ الشوق ، وبراه النوى ، فلما طرق الباب ولمحتْهُ من النافذة تنكّرت له وأنكرتهُ ، فناداها أنا فلان فاسمحى لى بالدخول ، قالت له : ومَنْ فلان فإنى لا أعرفه ؟ قال لها : خليلك وحبيبك ، صاحب العهد الوثيق والعشرة الطويلة ، قالت له : كل الناس عاشرَ وفارقَ فأيُّهم أنت ؟ قال لها : أنا صاحب

الضرس ، قالت : أوَلكَ ضرس عندى ؟ قال : نعم ، قالت : فادخلْ ، فدخل . فأجلسته وأحضرت أمامه حقة كبيرة وأمرته بفتحها ففتحها فوجدها مملوءة بكمية عظيمة من الضروس ، وقالت له : دونك ، إن كنتَ تعرف ضرسك من بين هذه الأضراس ، فأنا أعرفك اليوم من بين الناس » . ولما أتمتْ الواعظة وعظها انصرفتْ عن هذا المجلس إلى مجلس ذاك الشيخ الوجيه ، فيقوم لتحيتها واقفاً ، ويُبدى لها نواجذَهُ متهللاً ، فتجلس معه وغلام الحان فوق رأسها ينتظر طلب الزجاجات ، فلا تلتفت إليه ، فيديم الوقوف ، فتأمره بالانصراف ، فيعود خائباً ، وتقول للشيخ : إنها لا تريد أن تحمّله فى حبها مغرماً ، ولا تَقيسهُ عندها ببقية الحاضرين الذين تسلبهم لصاحب الحان ، فيخرج الوجيهُ من حزامه عقداً يتلألأ فيضمه بين يديها ، فتبسم له وتنعطف إليه وتقيم عنده مدة مضاحكة ومغازلة ، ثم تقوم لتنصب على سواه شباكها وترمى لصيد القلوب أشراكها .

تُحَيِّي وجُوهَ الشَّرْبِ فِعلَ مُسالمٍ(١)
يُضاحِكهُ والكيدُ كيدُ مُحارِبِ

قال عيسى بن هشام : وأقمنا نتأمل فى أفعال هذه البغىّ الفاجرة ، ونفكّر فى أعمال هذه الخدّاعة الماكرة ، ونعجب كيف يقتدر مثلها على ختل الرجال ، فترميهم فى مهاوى الغواية والضلال ، وهى عارية من ثوب الجمال ، مجرّدة عن جميع المزايا والخصال ، مُفرغة فى قالب الوقاحة ، معجونة من حمأة الدمامة والقباحة ، وما زالت الفاجرة تتقلب بين الجالسين وتتنقّل ، وتتجوّل بين الصفوف وتتحوّل ، وتروح إلى صاحب الحان وتغدو ، وتختفى آونةَ ثم تبدو ، منطلقةَ اللسان بالسب والثلب ، منبسطة اليد بالنهب والسلب ، ممتدة الكف باللطم والضرب ، دائبةً فى السّكب والشربِ ، وهى فى تنقلها تقطب تارة وتتجهّم ، وتفترّ تارة وتتبسّم ، وتنبسط حيناً وتنقبض ، وترضى ساعةً ثم تمتعض ، وتُعامل كلّ إنسان بما يلائمه ، وتجرى معه على ما يوائمه ، فتضلّ الألباب والنهى ، ويقع الجميع فى أسر الهوى ، وآيةُ حبها وميلها ، أن تصفع الصبّ بنعلها ، فاذا أضافت إلى الضرب بالنعال ، شقّ القباء ونَتْف السبال(٢) ، كان فى ذلك بلوغ الآمال ، بدنوّ ساعة الوصال ، واستوى المضروب

(١) الشرب : جمع شارب الخمر . (٢) السبال : مقدم اللحية .

يُفاخر أصحابه وخلانه ، ويباهى أنداده وأقرانه ، كالظافر فى ساحة الطعان والضراب ، والفائز بالغنائم والأسلاب ؛ فيغالى فى إظهار الابتهاج والانتعاش ، وتنبسط يدُه فى الكيس ويدها فى الكاس ، والغلامُ على رأسه بالآنية ، يصب لها زجاجة كل ثانية ، وهى تصبُّ الكؤوس فى الهاوية ، كأن حلقها قناة وكأن الساقِىَ ساقية ، وحانت منها التفاتة إلى الخليع وصاحبيْه ، فإذا العمدة يشير بيديه ، ويغمز بحاجبيْه ، ويقول للخليع فى اشتعاله والتهابه ، ويخاطبه فى ارتباكه واضطرابه :

(العمدة) للخليع — لقد أسعدنا الجدُّ ، وحلت لدينا عاقبة الصبر ، ولئن فاتنا الأنس بالغائب ، فما أكمل أنسنا بالحاضر ، وهذه الراقصة التى اجتمعتْ على محبتها القلوب ، وافتتنت بها العقول ، هى عندى الضالة المنشودة ، والأمنية المطلوبة ، ومَنْ يبلغنا إياها سواك ، ويمنّ علينا بها غيرك ؟

(الخليع) — هذه هى الفتّانة المشهورة بكثرة العشاق والطلاّب ، ولا عيب فيها غير المزاحمة عليها ، والمورد العذب كثير الزحام ، والوصول إليها من دونه أهوال .

وإنك إن أرسلت طرفك رائداً　　لقلبك يوم أتعبتك المنـــــــاظرُ
رأيتَ الذى لا كلُّهُ أنت قادرٌ　　عليه ولا عن بعضِهِ أنت صابرُ

(التاجر) — نعم هذه هى البضاعة الثمينة والسلعة الرائجة ، فاز مَنْ حازها ، وخسر مَنْ فاتها ، ولو كانت الأيام أيام ربح ورخاء ، لصبا إليها القلب وولعت بها النفس ، ولكن لربّ العيال ما يشغله عنها ويبعده منها .

(العمدة) — ليس يفوتنا على كل حال أن نتمتع بها الليلة بالمجالسة والمغازلة ، ونروِى بمحادثتها الغليل ، ونشفى بكلامها الهيام .

(الخليع) — حبذا لو جلست معنا ساعة ، ولكنك ترى من المزاحمة فيها والمنافسة بين الحاضرين فى الغرام بها والغرْمِ عليها ما يجعل نيل الغرض متعسراً ، ودَرْكَ الطلب متعذراً

(العمدة) — أما المزاحمة عليها ، فإن لنا من مهارتك ونباهتك ما يقرّب الأمل بالوصول إليها ، وأما المنافسة فى الغُرم عليها فالأمر مستدرك والدراهم موجودة .

(التاجر) — ما أشكُّ بعد هذا فى نيل الغرض وقضاء الوطر ، وستنتهى ليلتنا بمسك الختام .

قال عيسى بن هشام : ويدعو الخليع خادم المرأة ويهمّ بإعطائه شيئاً من الدراهم ، فيسابقه التاجر ، فيمنعهما العمدة ويقوم مقامهما ، فيلقى الخليعُ فى أُذن الخادم قولاً ، ويطول الخطاب بينهما همساً ، ثم يذهب الخادم ، فيعود بمولاته تتيهُ دلالاً ، وتتثنى اختيالاً ، وتُبدى الرضا من خلال التمنع ، فتسلم على أهل المجلس ، وتخص الخليع بابتسامة ، وتجلس بجانبه ، وتسأله عما جرى فى المجلس بعد انصرافها عنه بالأمس ، فيقطع عليها هذا الحديث بالقهقهة ، ثم يبدأ بعقد التعارف بينها و بين العمدة ، و يطنب لها فى علوّ شأنه ورفعةِ مقامه ، فترحب به ، فيرفع العمدة يده إلى رأسه مراراً تشكراً لها ، فتلمح فص الخاتم يتألق فى إصبعه ويتوهّجُ ، فتضع يمينها فى يمينه وتجرها إليها ترصد الحجر ، فيسيل الرجل طرباً وابتهاجاً ، ويعتقد أنها كلفتْ به حباً وغراماً ، فلا يروعه إلا أصوات الأصمة ينزعها الغلام عن الزجاجات تباعاً ، وكلما أفرغ أربعاً عاد بأربع ، حتى هال التاجرَ من ذلك ما هاله ، فمال إلى الخليع يناجيه ، فسكّنَ الخليعُ من رَوعه ، وأزال الهواجس عنه ، فيميل التاجر إلى الأقداح يسكب ويشرب ، و إلى المرأة يهازل ويغازل ، ويعاطِي ويناول ، والعمدة على حاله باهتٌ شاخص ، ومولع مولّه ، والخليع مسرور مبتهج ، لا يرسل الكأس عن فيه ، إلا ممسكاً بأخيه ، والمرأة تخدع وتكيد ، وتقول للغلام : هل من مزيد ؟ ثم يُخرج العمدة ساعته من جيبه ويتشاغل عن النظر إليها بالحديث ، فتقبض المرأة عليها تتمعن فيها وتقول له : قد آن أوان الانصراف ، وحانت ساعة الختام ، وتقوم مودّعة ، فيتلهف العمدة ويتحسر ، ويسألها أن تتم جميلها بالبقاء معه بعد الانصراف فى مجلس آخر ، فتضحك له ضحكة القبول ، وتلطم الخليع بالمروحة على خدّه ، وتغادرهم إلى صاحب الحان فتجلس معه ؛ ويأخذ الناس فى الانصراف ، والخدم فى رفع الكراسىّ ، وإغلاق بعض الأبواب ، ولا يبقى فى المكان غير أصحاب الوعد من العاهرة : ذلك الحاكم الوامق ، وذلك الغلام الوارث ، وذلك الشيخ المتصابى ، وهذا العمدة المغرور بتاجره وخليعه ؛ فإذا طال عليهم

الانتظار، ويئس الواحد بعد الآخر من صدق الوعد عمدوا إلى الانصراف ، يصحبهم الهمّ ويرافقهم الكدر إلا العمدة فإنه يلح فى الانتظار لشدة ما به من سكر الهوى وسكر الخمر .

سُكران : سكرُ هوًى وسكرُ مُدامةٍ ومتى يُفيق فتًى به سُكرانِ !

ويقصد المرأة فى مكانها عند صاحب الخان ، وهو يتعثر فى مشيته ، ويجر فى عباءته ، فيقف بين يديها يستنجزها الوعد ، فتغضى عنه ، فيلح عليها ، فتَلَجُّ فى الإعراض ، فيُخرج من جيبه كيس الدراهم ويبسط به راحته راجياً متضرعاً ، فتظهر له الجفوة ، فتشتد به الصَّبْوة ، فيترامى عليها ، فتدفعه برجلها عنها ، فيقع على الأرض ، فينتثر ما فى الكيس ، فيعمد الخليع لالتقاطه ، فيسبقه إليه صاحب الخان ، ويتمايل العمدة واقفاً ، فيمد يده إلى المرأة فيأخذ بضفيرتيْها يجذبها نحوه ، فتسبه وتلعنه ، وتُمسك بصاحب الخان ، ويستمر العمدة فى الشدّ والجذب ، فتَخُونُه الضفيرتانِ ، فيرتمى على ظهره طريحاً وهما فى يده ، والمرأة باقية فى مكانها تصيح وتستغيث ، فينقضُّ من أقصى المكان رجلٌ رثُّ الهيئة قبيح الطلعة ،وسخُ العمامة ، يرفع فى يمينه هراوة ، ويتأبط فى شماله صرة ثياب ، فيقع على العمدة ضربا بالهراوة ، ويدفع العمدةُ عن نفسه ضربا بالضفيرتيْن ، ويتوسط بينهما التاجر ، فيسأل الرجلَ عما يَعنيهِ فى الأمر ، فيقول له إنه زوج المرأة ، وإنه يدافع عن حريمه ، ولا يرجع عن غريمه ، فيتعرض له التاجر يمنعه عن الفتك بصاحبه ، فينصحه الخليع بالرجوع عنه ، لأن الرجل من أهل « الحماية » ، وفى التعرض له إلقاء باليد إلى التهلكة ، فإنه فوق القانون يَجنِي ولا عقوبة عليه ؛ فما يسمع العمدة هذا القول حتى يستنجد بالخليع لينقذه من بلائه ، فيتقدم الخليع ، فيكلم الزوجَ طوراً ، والحليلةَ تارة ، وصاحبَ الخان أخرى ، فينتهى النزاع بينهم على أن يترك العمدة ما التقطهُ صاحبُ الخان من دراهمه ، مرضاة للمرأة عن إهانتها، وعوضا لها عن خسارة الضفيرتين ؛ ثم يقوم صاحب الخان وينادى غلامه وهو مشتغل بإطفاء الأنوار ، فيسأل عن حساب العمدة فيكوّنه له ، فيلتفت إلى العمدة قائلاً :

(صاحب الحان) للعمدة — والآن فادفع لنا ثلاثة عشر جنيها ثمن المشروب ، وانظر ماذا تعطينا من العوض فى تعطيل المحل بهذه الأفعال الصبيانية .

(العمدة) — ما هذه الحسبة ، وما هذا الكلام ؟

(صاحب الحان) — أما الحسبة فصحيحة ، وأما ما أتيتهُ فإنه لا يليق بمقامك ، وأنت رجل من أهل الوجاهة والرفعة ، ولكنها الخمر أم الشرور ، وإن خالها الشارب أمّ السرور ، وما كان لك أن تتعلق بهذه المرأة المشهورة بتمنعها عن أهل التنافس فيها ، والنساء غيرها كثيرات فى المحل ، وإن كان لابد لك منها ، فأنا أسعى فى الصلح بينكما عند تشريفك المحل فى الليلة الآتية ، وأرجو أن لا تتوقف فى دفع هذه الحسبة الصغيرة ، فإنى لا أرضى لك الإهانة ، ولا ترضى لنفسك الفضيحة .

(العمدة) للتاجر — هل عندك ما نسدد به هذا المبلغ ؟

(التاجر) — لا وحقِ العشرةِ وحرمة الصحبةِ ، فلم يبق معى من الدراهم لا قليل ولا كثير .

(العمدة) للخليع — دبرنى يا صديقى فى أمرى ، وانظر لى طريقة الخلاص .

(الخليع) — يعز علىّ والله ما نحن فيه ، ولكن عزّت الحيلة ، ولو كان صاحب الحان يقبل منى ساعتى هذه رهنا على هذا المبلغ لرهنتها عنده ، ولكنه ربما استضعف قيمتها عن قيمة المطلوب ، ولو كان فى الوقت سعة لذهبت لاستحضار النقود بأية طريقة كانت .

(العمدة) — إن كان الأمر ينقضى بالرهن ، فهذه ساعتى أثمن من ساعتك ، وهى عندى أعز علىّ من روحى ، لأنى أخذتها هدية من دائرة « البرنسيس » يوم بعت لها أطيانها ، وعليها حروف اسمها منقوشة ، وقد قدرها لى الجوهرىّ بخمسين جنيها .

(الخليع) — إن كان الأمر كذلك فلا يليق رهنها ، وعندك الخاتم ترهنه مكانها .

(العمدة) — هذا هو الأصوب ، وإن كان الخاتم أغلى من الساعة قيمة ، فخُذه يا حضرة الخواجة رهنا عندك ، حتى أسدد لك المطلوب فى الغد .

(صاحب الحان) — أنا لا آمن لهذه الفصوص اللامعة ، فقد غشونى فيها مراراً بإحكام التقليد فى صناعتها ، وليس هنا الآن من أثق به من أهل الصناعة ، ليكشف لى عن حقيقة هذا الفص .

(التاجر) بعد أن يمعن فى الفص — كيف تقول ذلك وهو من الماس القديم وقيمته لا تنقص عن مائة جنيه ، وأنا مستعد لرهنه عندى على خمسين جنيها ، فانتظرونى ريثما أذهب إلى محل مبيتى وأرجع إليكم بالمبلغ.

(صاحب الحان) مكفهراً — ليس عندى وقت للانتظار ، فقد مضى الميعاد المقرر لإغلاق المحل ، وهذا جندىّ البوليس واقفٌ أمامنا يتعجلنى فى مطاوعة أوامر الحكومة .

(الجندىّ) — نعم مضى الميعاد ، ولا بد من الاغلاق حالا ، فانظروا معكم شيئا آخر للرهن يُفَضُّ به هذا المشكل .

(الخليع) للعمدة — أعطه الساعة ، فلا حول ولا ... وليس هناك ما تخشاه عليها فإننا نستخلصها غداً بعد أن تقابلنى فى الصباح بقهوة الموسكى .

(صاحب الحان) بعد التأمل فى الساعة — هذه الساعة لا توفى قيمة المطلوب وحدها ، فاترك الخاتم معها أيضاً .

(العمدة) — هذا لا يصح مطلقا ، فإن المبلغ المطلوب لا يزيد عن ثلاثة عشر جنيها ، على فرض صحته .

(الخليع) - ما دام العزم أكيداً على فك الرهن غداً فسيان رهن قطعة أو رهن قطعتين ، وأنا أرجو الخواجا أن يتجاوز لنا عما يطلبه من العوض فى تعطيل المحل .

(صاحب الحان) - إنى أتجاوز عنه لأجلك .

قال عيسى بن هشام : ويشدِّد جندىُّ البوليس فى طلب الإغلاق فى الحال ، فلا يسع العمدة إلا التسليم فى الخاتم والساعة ؛ وبينا الجميع يتأهبون للخروج ، والمرأة واقفة تهزأ وتسخر ، إذ دخل رجل قبيح الخلقة جهم الوجه عريض القفا جاحظ العينين واسع المنخريْن أهرَتُ الشدقين ، فأخَذَ يجيل فى الحاضرين نَظَرَهُ يمينا وشمالاً ، ثم تقدّم إلى المرأة فسبها ولعنها ولطمها ولكمها ، وقال لها: قد فات الوقت ومضى الميعاد ، وأغلقت الحانات ، وأنا قاعد فى انتظارك بالبيت ، وأنت واقفة هنا تلعبين وتسخرين ، فأين هذا الصيد الذى ألهاكِ عنى وأنساكِ أمرى يا عاهرة؟ فتجيبه مع الذل والانكسار بأنها أخطأت ، ولكن لها العذر ،

فقد وقعتْ حادثة مع بعض العمد يشهد بها الحاضرون . وتذكر له ما كان من هجوم العمدة عليها ونزع ضفيرتيها ، فيشهد زوجها مع خادمها بتفصيل الواقعة ، فيزمجر الرجل ويتوعد ، ويعمد للّحاق بالعمدة وهو يعدو نحو الباب ، فتستعطفه الفاجرة ، وتطلب منه أن لا يكدر على نفسه صفاء الليلة بالوقوع فى مخاصمة أخرى ، وتطلب منه الإسراع إلى البيت فى صحبتها.

وخرجنا مع الباشا نتعوذ من كيد النساء ، ونتأسف على وقوع الرجال فى أشراك المكر والدهاء ، وكيف نزل العمَى بهم والجهل ، حتى يستسلموا لهذا الخدع والختل ، ويخرجوا عن مثل هذا المكان الدنىء ، والموطن الردىء ، وقد خرجوا من الثروة والشرف ، ودخلوا فى البؤس والتلف ، ونزلت بهم أنواع المرض والسَّقم ، وصُبَّ عليهم سوط الأحزان والنقم ، ثم التفت الباشا إلى الصديق ، يسائله فى أثناء الطريق :

(الباشا) — ألا تخبرنى أيها الناقد الخبير ، كيف يصبر مثل هؤلاء الناس على الإقامة فى هذا المكان ، وكيف يترددون عليه ليالىَ متتابعاتٍ ، ولا يدركون ما يدركهم فيه من الهلاك والوبال ، وقد كاد يقضى علىَّ للاقامة فيه بضع ساعات ، فما وجارُ الضبع وما وكر الظربان[1] ، وما قبر الميت — يرحمنا الله وإياك — بأنتن رائحةً ، ولا أقذرَ مكاناً ، ولا أسوأ مقاماً من هذا الذى كنا فيه .

(الصديق) — يصبر الناس على الإقامة فى هذا المكان ، ويكثرون من التردد عليه ، بحكم التدرج وإلفِ العادة وقوة التمادى ، وكأنما أبدانهم تتلاقح شيئاً فشيئاً بسمهِ ، فلا تحس بضرره وألمهِ ، كالمريض يذهله المُرقدُ عن ألم الداء وبتر الأعضاء ، وإن شئت فكالهندىّ يتدرّج ويرتقى فى تناول الأفيون ، وهو سُمٌّ قاتلٌ ، حتى ينتهى بجسمه إلى حالٍ لو لسعته معها عقربٌ أو لَسَبَتْهُ[2] حية لم يؤثر سمُّها فيه .

(الباشا) — أفدتَ بما شرحتَ ، وقد بقى عليك أن تفسر لى ما أشكل علىَّ من أمر الرجلين مع العاهرة ، أحدهما الذى يقول إنه زوجها ، والثانى الذى أخذت بيده أمامه إلى بيتها.

(الصديق) — أما الزوج ، فإنه رجل من سفلة المغاربة المنتمين إلى دولة أجنبية ، تحميه

(١) الظربان : دويبة كالهرة منتنة الرائحة (٢) لسبته : لدغته

من سلطة القوانين المصرية أن تناله عند مخالفتها ، وهذه المزية هى التى تؤهله عند العاهرة للتأهل به ، فتدخل حينئذ فى حمايته ، وتخرج ببركته عن دائرة المحاكمة والعقوبة إذا أتت فى فسقها وفجورها مايخالف أوامر الحكومة ، و يعيش الرجل معها زوجاً بالاسم ، وديوثاً بالفعل ، وذلك فى مقابلة شىء من الدراهم يتناوله منها فى كل ليلة ، وهذه الطريقة قد تألفها الناس ، ولم تقتصر على العواهر ، بل تعدتهن إلى أرباب القضايا وأصحاب الجرائد ، فترى صاحب القضية يتنازل فى الظاهر عن قضيته إلى أحد أولئك المسخرين من رعايا الدول الأجنبية ، ليخرج بها من نظام المحاكم الأهلية إلى نظام المحاكم المختلطة ، إن ترجّح لديه نجاح قضيته فيها . وترى صاحب الجريدة ، الذى يزعم أنه الواعظ المرشد بين الناس إلى محاسن الأخلاق وغُررِ الفضائل ، يضع على جريدته اسم الواحد منهم بأنه هو المسؤول عما يُنشر فيها و يطبع ، يملؤها بما تسوّله له نفسه من الطعن على أولياء الأمور وأرباب الحكومة وأشرافِ الناس ، ويُسوّد صحيفته بكل فاحش من القول وبذىء من الكلام ، فاذا عوّل أحد الناس على محاكمته يوماً من الأيام وَارَى وجهه عن المحاكم بوجه الأجنبىّ ، وقال لك : ما ذمّ الأمراء ، ولا هجا الأشرافَ ، ولا طعَنَ فى الناس إلا صاحب الاسم المسؤول ، فعليك به ، فاذا التمستَهُ وجدتَه بائع نعالٍ يصفق بها فى عرض الطريق وينتسب إلى دولة من أكبر الدول الأجنبية يمتنع بحمايتها من سلطة المحاكم والقوانين المصرية ، ولا سبيل إلى محاكمته إلاّ فى بيت القنصل .

وأما الرجل الذى سَحَبَته العاهرة بيدها إلى بيتها ، فهو صاحب ودّها ، وحبيبُ قلبها ، تفضّله فى آخر ليلها على كل رجل يتعلق بهواها ، و يبذل نفسه فى سبيل رضاها ، ولا تعجبْ من سوء معاملته لها ، وسوء غطرسته عليها ، فذلك مما يزيدها فيه حباً ، و يولعها به شغفاً ، والنفس الدنيئة الحقيرة لا تميل إلا لمن يبادرها بالاهانة والتحقير ، ولا تنقاد إلا لمن يتناولها بالضر والأذى ، فهو يَضرِبُها ويُؤذيها على ما شهدتَ ورأيتَ ، ثم يتمتع بها دون المتهالكين عليها ، وينتفع بما تجمعه له من أموالهم لفضل هذا الوحش الضارى عندها على تلك الدواجن التى تدبّ حولها .

(الباشا) — لا شك أن فى هذا نوعاً من الجزاء لهذه البغى على بغيها فى الناس ، وسلبها للأموال ، وفتكها بالأرواح ، وقلّ لمثل هذا الجزاء المعجل فى الدنيا قبل العذاب المؤجل لها فى الآخرة .

(الصديق) — لا تستهيننّ أيها الأمير الجليل بما ينال مثل هذه العاهرة فى دنياها من الجزاء ، فانهنّ جميعاً فى معيشة كلها هموم وأدواء ، ومَنْ تأمل فى حقيقة أحوالهن خفّفَ من سخطه عليهنّ ، ووجدهُنّ أحق بالشفقة من القسوة ، فإن هذه الأموال التى ينهبْنَها ، والأسلاب التى يسلُبنها ، لا تلبث فى أيديهن إلا ريثما ينفقنها فى الحلى والحلل ، والعاهرة لا تنتهى حاجاتها من الزينة ، ولا تخلو من حبيب تكفله ، وخليل تقوم عليه ، فهى على الدوام فى عسر شديد ودين ثقيل ، و إن جميع ما عليها من الحلى والجواهر ، وما يتألق فى عنقها من القلائد ، وفى معصمها من الأساور ، وفى رجليها من الخلاخل ، إنما هى كلها فى الحقيقة أغلال وقيود يسحبها بها الصائغ والجوهرىّ فى أسرٍ لا فكاك لها منه طول الحياة ، وهى كما رأيت تقضى ليلها إلى الصباح فى شرب السموم من الخمور ، وفى تحريك الأعضاء والأحشاء بتلك الحركات المنهكة لقوى الأبدان ، وفى اشتغال الفكر بمراقبة الناس ، وتكلف التحبب إليهم ، وفى التفنن للتحايل عليهم ، ثم التعرض لسوء المنازعات والمخصمات مع دوام التذلل والخضوع لصاحب الحان ، فإذا انتهت من ذلك كله وصلت إلى بيتها منحلة الأعضاء ، مفككة المفاصل ، فترتمى على فراشها كالرمة فى مكان هو أقذر من ذلك الحان وأفسد منه هواء ، وربما لم تذق فى يومها طعاماً ، ولم تتناول فى ليلها غذاء ، فإذا قامت من نومها بعد نصف النهار ، كالذى يتخبطه الشيطان ، مصدعة مخمورة لا تشتهى طعاماً ، ولا تسيغ شراباً ، حتى إذا تماسكت قليلاً بادرت إلى إصلاح الفاسد منها ، ومداراة القبيح فيها بأنواع الزينة واللباس ، وقعدت لمقابلة زائريها إلى أن يدخل عليها المساء ، فتعود لما كانت عليه . لا تزال المسكينة هكذا دائرة فى حلقة من التعب والوصب ، ولا خلاص لها منها إلا بحلول الأمراض والأوجاع ، ثم يُقْضَى عليها وهى فى المعصية بعيدةً ، عن ذوى الحنو والإشفاق من الأهل والأقارب ، وذلك هو البلاء العظيم والعذاب الأليم .

قال عيسى بن هشام : وما راعنا فى طريقنا إلا صوت الديك يؤذن بالصباح ، وصوتُ المُؤَذِّنِ يُؤَذِّنِ حى على الفلاح ، فأسرعنا نطلب مأوانا ، وندرك أمّ مثوانا ، ونحن نسأل رب الأرض والسموات ، أن يغفر من ذنوب المسلمين والمسلمات .

العمدة فى الرهن

قال عيسى بن هشام : ولما ارتفع وجهُ النهار أو كاد ، ومسحنا عن النواظر كحل الرقاد ، بادَرْنا كل الابدار ، بالخروج من الدار ، لنلحق بأولئك الرفقاء ، فى المكان المعيَّن للقاء ، فقصدنا «قهوة القزاز بالموسكى» ، فوجدناها تتموج بالداخلين ، وتضطرب اضطراباً بالواقفين والقاعدين ، فوقفنا هُنَيهةً نرسل النظر إرسالا ، ونتصفح الوجوه يميناً وشمالاً ، حتى اهتدينا إلى « الصديق » جالساً فجلسنا عن جانبيه ، ورأينا العمدة جالساً بجانبنا مع صاحبيه ، فإذا العمدة يئن تحت الهموم المتقاطرة ، من سواد ليلته الغابرة ، حيث ناله فيها من الهوان ما ناله ، وأضاع تحت أقدام الراقصات شرفهُ وماله ، ورهَن ما رهن من حلية ومتاع ، من غير لذة ولا استمتاع ، فهو متخاذل متضائل ، «له شِقٌّ مائل ، ولونٌ حائل ، ولعابٌ سائل» ، وسحنة مُغْبرّة ، وأنامل مُصفرّة ، وجفونٌ محمرة ، وأحداقٌ جامدة ، وأعضاء هامدة ، ورأسٌ متصدّع ، ونَفَس متقطع ، يفتح تارة فاه ، ويحُكّ طوراً فى قفاه ، فيخاله كلّ من يراه ، نِضوْ[1] سفرٍ أضناه السَّرَى وبراه ، أو حِلْفَ تسخير أدمَتْهُ العصا وألهبهُ السوط ، ليبلغ من جهد « السخرة » منتهى الشوط ، وإذا التاجر بجانبه يقلّب حدقتيه ، ويتحلّب بشفتيه ، ويصعدُ أنفاساً كالحريق ، فى ميزاب[2] من الريق ؛ كأنه ذئب يهم بالعِثيان ، ويخشى صولة الرُّعيان ، أو صائدٌ يخاف أن يخونه كيدهُ ، ويفلت منه صيدهُ ، والخليعُ بينهما يطرق برأسه ، ويكتم ما فى نفسه ، متفكراً ينكتُ الأرض بعصاه ، ويحاول أن يبلغ من الغرض أقصاه ، دائماً يبرم الخديعة ويهيِّء العُدّة ، ليسقطها على رأس التاجر ودماغ العمدة ، ورأينا هنالك من دونهم نفرا ، لا يحولون عنهم نظرا ، كأنهم الطيور الجارحة تترقب حمامة سانحة ؛ فاستخبرنا من الصديق ، عن شأن هذا الفريق ، فقال ، هم جماعة من الفئة الباغية الماكرة ، والطائفةِ الرابحة الخاسرة ، طائفة الوُسطاء والسماسرة ، وشاهدنا الخليعَ يُوحِي إليهم باللحظ والنظر ، كأنه يعاهدهم على النجح والظفر ، ثم سمعناه يقول للعمدة تهويناً لأمره ، وتيسيراً عليه من عسره :

---

(١) النضو : المهزول من الحيوان (٢) الميزاب : القناة يجرى فيها الماء .

(الخليع) — لا تهتمّ يا مولاى ولا تغتم ، فالخطب أهون مما تظن ، والأمور بأمر الله ميسرة ، والحاجات باذنه مقضية .

(التاجر) — إن كان التيسير من جهة الاقتراض ، فأنا لا أتصور أن أرباب الأموال يقرضون اليوم أحداً بدون التوثق من الرهن لزوال الثقة بين الناس فى هذا العهد ، عهد المماكسة والمضاربة ، وفى هذه الحالة أرانى أوْلَى الناس بتأدية هذه الخدمة لصاحبى ، فانى له أرجح جانباً وأربح معاملة ، وأنقص فى قدر « الفائدة » من سواى .

(العمدة) — لا أرى فى ذلك من بأس لو كان فى الوقت سعة ، وفى الحالة مهلة تسمح بما يقتضيه إجراء الرهن من الكشف والمعاينة ، والتحديد والتقويم والتقدير والتحرير والتقييد والتسجيل ، إلى غير ذلك .

(الخليع) — ولا تنسَ مايكون وراء ذلك من سوء السمعة وقبح الشنعة بين الأهل والجيران ، وصدقَ من قال : « بيعُ الشىء خيرٌ من رهنه ، والرهنُ بيعٌ وغبْن » ، وأنت بحمد الله لك صيت بالغنى وشهرة بالثروة ، وأنا أضمن أن توقيعك وحده يكفيك مؤونة الرهن عند الاقتراض

(التاجر) للخليع — ما أحسن هذا لو أنه يتم ، ولكن لا تنسى أنت أيضاً ما قيل : « إن الذى يقرضك على الشهرة والسمعة ، لا بد أن يأخذ فائدَة شهر فى جمعة » ، ولن يخاطر أحد من أرباب الأموال بمالِهِ من غير رهن إلاّ مَنْ ضمن الفائدة الجسيمة والربح الطائل .

(الخليع) للتاجر — ما بالك تعسر علينا فى الأمور مع إمكان تيسيرها ، ولا يأخذك شكٌ فيما أقول ، فأنا أضمن الحصول على القرض ، فى هذه الساعة ، فى هذه القهوة فى هذه الجلسه ، ولا محل للتخوف من جسامة الفائدة ، ما دام وقت الحصاد قريباً ، والتسديد عتيداً .

(العمدة) للخليع — هكذا يكون التسهيل والتيسير بين الأصحاب والأصدقاء ، وهكذا تكون محاسن الشيم ، يا أبا المكارم والهمم .

(التاجر) — قد قلت ما عندى ، وكل إنسان حرٌ فى عمله .

(الخليع) للعمدة — قل لى كم تريد أن يكون مبلغ القرض ؟

(العمدة) — يكفينى على ما أظن مقدار مائة جنيه لسداد الحاجة فى الحالة الراهنة .

(الخليع) — هذا التقدير ضعيف ، وماذا ينفع مثل هذا القدر القليل و بماذا يفيد ؟ وعليك قبل كل شيء تسديد ما لصاحبنا هذا فى ذمتك من الدين ، ثم يتبعه ما لصاحب الحان لفك رهن الساعة والخاتم ، وأضف إلى ذلك ما يلزم لك من المال لتأجير البيت الذى تريد سكناه فى حلوان ، وما يتبعه من أثمان الفرش والأثاث ، هذا غير ما يجب أن يكون فى يدك للبذل والانفاق فى أوقات الأنس والطرب ، وأنت بلا شك فى حاجة عظيمة إليها بعد كل هذا الكدر والتعب ، فلا بدّ لك حينئذ من اقتراض مبلغ خمسمائة جنيه على الأقل ، ولا سيما أن أرباب الأموال الذين أعرفهم لا يقرضون أقل من هـذا المقدار إن كانت مدته قصيرة .

(وهنا يُومئ الخليع إلى جماعة السماسرة بالحضور ، فيتقاطرون عليه ، فيهمس فى أذن أحدهم كلاماً ، ثم يجهر بالخطاب فيقول) :

(الخليع) — إعلموا أن سعادة البك هو العمدة فلان الفلانى من كبار المزارعين الذين يمتلكون من الأطيان والعقار ما هو معروف مشهور ، ولم يسبق له اقتراض مال قط ، وليس عليه دَين مطلقاً ، وأطيانه وأملاكه خالصة له بلا منازع ولا مشارك ، وقد حلّت به ظروف استنفدت جميع ما كان يحمله معه للانفاق فى مدة وجوده بالقاهرة ، وهو الآن فى حاجة إلى اقتراض خمسمائة جنيه يقوم بتسديدها فى أوان الحصاد الآتى ، ولست أرضى له أن يقترض مثل هذا المبلغ الزهيد بالرهن من أرباب المصارف الكبيرة لما يجرى عندهم من طول التحرى والتنقيب وتضييع الوقت جهلا منهم بحالة أعيان البلاد .

(أحد السماسرة) — مرحباً بسعادته مرحباً ، وماهو بالمجهول عندنا ، فإننا نعرفه كلّنا ، و بما وصفتَهُ من شرف البيت وسعة المال زاده الله منه ، كان المرحوم والدى مع المرحوم والده معاملة قديمة وصحبة أكيدة ، وطالما سمعت من والدى وأنا صغير السن أنه لا يوجد بين أعيان القطر مثل المرحوم فى الصدق والأمانة وكرم الخلق وسماحة النفس ، ولكنك تعلم أن الدراهم عزيزة المنال فى هذه الأيام ، وقلّ من يخاطر بقرض هذا المبلغ من غير رهن يوازيه أضعافاً مضاعفة ، ولو كان الأمر لى وحدى لما تأخرت عن إجابة الطلب بدون

ميثاق أو رهن أو فائدة ، إكراماً للصحبة القديمة بين والدَينا ، وتوثيقاً لعرى المحبة بيننا ، ولكن شريكى فى الأشغال رجل متفرنج من أبناء هـذا العصر ، لا يعرف حقوق المودة القديمة ، ولا يرضى بقرض المال إلا إذا كان مستجمعاً للشروط القانونية ، ومع ذلك فأنا أعمل معه جهدى وأترضاه بضمانتى أولاً و « بتشريف » مقدار « الفائدة » ثانياً ، فإن اتفقتم معى على أن تكون الخمسمائة بثمانمائة إلى وقت الحصاد باشرتُ معه الأمر ، وقمت بالخدمة الواجبة على لسعادة البك .

(التاجر) — سلامٌ قولاً من ربٍّ رحيم ، أيكون مقدار الربا فوق مقدار نصف القرض . . . ماسمعنا بهذا فى آبائنا الأولين ؟

(السمسار) للتاجر — لعل مولانا من المجاورين بالأزهر الشريف ، فإنه لا يستعظم مثل هـذه « الفائدة » فى الأحوال الحاضرة إلاَّ مَنْ يعتقد بتحريمها ، على أن الربا محرَّم عندنا أيضاً ، كما هو محرَّم عندكم ، ولكن « الضرورات تبيح المحظورات » .

(العمدة) — حضرته ليس من المجاورين ، بل هو من التجار المشهورين .

(السمسار) — إذا كان حضرته من التجار ، فلا بد أن يكون واقفاً على ضيق الحال ، وقلةِ المال ، وكسادِ السوق ، وعالماً بمقدار « الفائدة » فى قرض من غير رهن ، ثم إنه لا يجهل فى الأشغال تكاليف المشاركة . . . والمساهمة . . . والمقاسمة . . . إن شاء الله .

(التاجر) — نعم نعم ، ولكن يجب إنقاص مقدار « الفائدة » على كل حال ، فإن أنت رضيت بأن يكون مبلغ الخمسمائة بسبعمائة وخمسين رضيتُ أنا لسعادة العمدة بالاقتراض منك وحكمت بذلك عليه .

(السمسار) — ما أصعب المعاملة مع التجار ، وما دمتَ حكمت حكمك فلا مردَّ له عندنا وما علينا إلا الطاعة والقبول إكراماً لسعادة البك ، فتفضلوا بالذهاب معى إلى المحل على بركة الله لاتمام الأمر مع شريكى .

(الخليع) — لا حاجة إلى ذهابنا جميعاً ، ويكفى أن يذهب معك سعادة البك وحده فان المسألة صارت بسيطة ، ونحن نمكث هنا فى الانتظار .

قال عيسى بن هشام : وقام العمدة مع السمسار وأقمنا جالسين فى مكاننا نتشاغل بالحديث مع الصديق ، ونستفيد من واسع علمه أموراً شتى مدة من الزمن ، و إذا بالعمدة عائداً وحده مقطب الوجه منقبض النفس ، فأسرع الخليع والتاجر إلى لقائه واستخباره عما جرى له .

(العمدة) — لعن الله الحاجة والاضطرار ، وما كان أغنانا عن هذا الخراب والدمار .

(الخليع) — وماذا وقع بك ودهمك ، هل خاب الأمل فى عقد القرض ، أم عقدته وسرقت منك الدراهم ؟

(العمدة) — لم تسرق كلها بل نصفها .

(التاجر شاهقاً والخليع محملقاً) — وكيف كان ذلك ؟

(العمدة) — ركبت مع الرجل وذهبنا إلى محل شريكه ، فأجلسنى هناك ناحية ، وكتب الصك وختمته ، ثم إنه انفرد بشريكه يناقشه ويجادله ، ثم أخذ عاد إلى عابس الوجه يقول لى : إن الأمر متعذر متعسر ، و إنه بذل كل ما فى وسعه من طرق الاقناع والرجاء ليقبل شريكه بقرض المبلغ ، فلم يقبل ولم يتحول عن رأيه . ثم أخذ يظهر لى أنواع التأسف والتوجع لخيبة مسعاه ، ويشير على بالصبر أياماً حتى تنفرج الشدة وتنقضى الأزمة ، فأريته شدة مابى من الحاجة إلى الدراهم فى هذا الوقت ، وليس فى الاستطاعة تأجيل الاقتراض ، وهممت بالرجوع إليكما لترشدانى إلى باب آخر يأتى بالتيسير المطلوب ، فدنا منى شريكه عند ذلك ، وقال لى : يعز على والله أن أردك خائباً ، وأرفض رجاء شريكى ، ولكنك تعلم مقدار العسر والضيق الذي لحق بهذا القطر فى هذا العام من كساد الموسم وانخفاض النيل ، وانتشار الدودة ، وكثرة المضاربات ، وظهور الأوبئة والطواعين ، وأنا أقسم لك بشرفى وذمتى وأولادى أنه لا يوجد فى محلنا من الدراهم الآن سوى أربعمائة جنيه هى أمانة عندى لطفل يتيم من أقاربنا نشتغل له فى استثمارها بكل احتراس واحتياط ، وأنا أضن بها وأحرص عليها أشد من حرصى على أموالى ، ومع ذلك فقد فكرت طويلاً ، وعولت على أن أضعها بين يديك ، لشرف مكانتك عندنا وحسنِ سيرتك ، وجعلتها أول خدمة جليلة نقدمها إليك ، فأسرعت إلى قبولها مع الشكر والامتنان ، فأخرج صرة ووزن مافيها من الذهب ،

ثم سلمه إلىّ، فعددته فوجدته أربعمائة تماماً، ثم وضعتها فى جيبى، وطلبت منه تغيير الصك لأن المبلغ المسمى فيه يزيد مائة جنيه عما قبضته من الذهب، فتلكأ فى الإجابة، واعتذر إلىّ بأن فرق ما بين المبلغين يبقى عنده، بعضه لربح اليتيم، و بعضه لنفقات القضية من رسوم وأتعاب محاماة، إن وقع منى تقصير فى التسديد عند الميعاد لا سمح الله، كما هى العاده السائرة اليوم، فهالنى الأمر، ونبذت الدراهم، وطلبت منه أن يردّ لى الصك فى الحال، فلم يلتفت لقولى، واشتغل عنى بالكلام مع بعض الوافدين إليه، وأنا مقيم على مثل الجمر، وكلما أشرت إليه باشارة من بعيد ليكلمنى لوى وجهه عنى، وأظهر الاشمئزاز منى، فتفقدت السمسار الشريك داخل المكان وخارجه، فلم أجد له أثراً، فاشتد بى الكرب، وحرّقنى الغيظ، فلم أتمالك نفسى وهجمت على صاحب المحل، فأمسكت بتلابيبه أطالبه برد الصك، فأظهر لى حينئذ من الملاينة والملاطفة ما حل خناقه من يدى، وقال لى: إنه لا يمنعه عن إجابة طلبى إلاّ غياب الشريك، فإن الصك كتب بحضوره، ولا يجوز أن يسلمه إلىّ بدون علمه، فعلىّ أن أنتظر أو بته، وبينما نحن على هذه الحال وإذا بسعادة عمر بك صهر مديرنا قد دخل علينا، فما وقع بصرى عليه حتى تراخت مفاصلى خجلا منه وحياء أن يسمع ما يجرى بيننا، ويرانى فى مثل هذا الموقف، فتسقط منزلتى فى عينه وعين صهره، فتقدمت إليه وسلمت فردّ علىّ التحية بالتكريم والتعظيم، فلحظ اللئيم صاحب المحل ما أنا فيه، فانتهز الفرصة وقص على سعادة البك قصتنا على حسب هواه، وطلب حكمه فى الأمر، فقال له سعادة البك: لا يليق بك أن تتنازع مع حضرة العمدة فأنا أعرفه رجلا من عيون المديرية التى يديرها صهرى، وله شهرة عظيمة بحسن السيرة وسعة الثروة، ثم التفت إلى وقال: وأنت لا يجدر بك أن تخالف حضرة الخواجة، وهو رجل مشهور بالأمانة وحسن المعاملة، وإذا كانت نقطة الخلاف فى المائة جنيه التى حجزها عنده لنفقات القضية، فأنا لا أشك فى أنه سيردها إليك بتمامها عند إيفاء الدين فى ميعاده، وأنت بحمد الله فى ثروة لا يتصور معها التأخر عن التسديد، وإن كنت لم تتعامل مع الخواجه إلا فى هذه الدفعة ولم تجرب مقدار أمانته، وحسن عهده، فإنى أكفل لك صدقه ووفاءه؛ فاضطررت من كل الوجوه إلى التسليم والإذعان، وأخذت الدراهم، وسلمت على سعادة البك، وقلت له عند خروجه:

لا يظنن سيدى أننى اقترضت هذه الدراهم للضرورة والعسر،فإن الأمور ميسرة بفضل الله، ونعمة الله وافرة على ، كما يعلمه سعادة صهركم المدير،ولكنى وجدت فرصة لا تعوض فى أثناء إقامتى بالعاصمة ، وهى مشترى أطيان من أحد أولاد الذوات ، وهو فى حاجة الليلة إلى استلام العربون ، ولا يمكنه أن يمهلنى ريثما أستحضر له المبلغ من البلد ، فاضطررت للاقتراض على هذه الصورة ، فقال لى : نعم ما تفعل ، وبارك الله لك فى البيع والشراء ، ثم إنه حملنى سلاماً وكلاماً لسعادة المدير ، وانصرفت وخلفته مقيماً مع الخواجه ، وحضرت إليكما ، ولم يدخل فى يدى من مبلغ الدين المسمى بسبعمائة وخمسين جنيهاً إلا أربعمائة جنيه فقط ، فهذا معنى قولى لكما لم تسرق منى الدراهم كلها ولكن سرق نصفها .

قال عيسى بن هشام . وكنا نشاهد فى أثناء هذا الحديث رجلا واقفاً على رأس العمدة ينتظر انتهاءه من الكلام ، وهو يمد إليه يديه ويحرك شفتيه ، فتبينا من هيئته أنه سائق المركبة يطالب العمدة بالزيادة فى قيمة الأجرة،ولما فرغ العمدة من كلامه بادره السائق بقوله:

(السائق) — خلصنا من فضلك ياسيدنا السيد ، فقد طال وقوفى وعطلتنى عن شغلى.

العمدة) — أنا لا أعطيك شيئاً زيادة عما دفعته اليك ففيه الكفاية .

(السائق) — من يقول يا حضرة الشيخ إن خمسة قروش تكفى فى أجرة المركبة مدة ساعتين تنقلت فى أثنائها من مكان إلى مكان ، ثم عدت بك إلى هذه القهوة ، وأنا لا أبرح مكانى حتى تعطينى الأجرة اللائقة بهذه المدة ، وإن كان الذنب من جهتى لأننى قبلت أن تركب معى ورفضت ركوب الخواجه الذى استوقفنى قبل ركوبك ظناً منى أنك من كبار العمد الذين لهم تردد كثير على العاصمة ويعرفون مقدار أجرة المركبات ، ولكن ظهر لى الآن أن هذه أول مرة لك فى زيارة العاصمة وفى ركوب المركبات،وجعلتنى أفضل « برنيطة » الخواجه على عمامة السيادة ، فلا حول ولا قوة إلا بالله ، خلصنا يا سيدى .

(الخليع) للسائق — اسكت عن هذا الكلام البارد،وهك قرشاً سادساً خذه وانصرف.

(السائق) — كن محضر خير يا حضرة الأفندى ، واعلم أننى لا أقبل زيادة قرش أو قرشين مطلقاً ، فإما الأجرة اللائقة ، وإما الذهاب معى إلى صاحب المركبة ؟

(العمدة) — دونك قرشاً آخر فاتركنا واذهب لحالك .

(السائق) — كيف أذهب وكيف أقبل سبعة قروش فى أجرة هذه المسافات الطويلة مع طول الانتظار ، فهل تحسبها أجرة ركوبك من هنا إلى محل الخواجه ، أو أجرة انتظارى هناك زيادة عن الساعة ، أو أجرة ركوبك من محل الخواجة إلى دكان الكوارع وانتظارك مدة الأكل ، أو أجرة رجوعك إلى هنا ووقوفك فى الطريق عند بائع الفاكهة ؟

(التاجر) — دكان الكوارع . . . . . ! ! وبائع الفاكهة . . . . ! ! « وَاحرَّ قَلْبَاهُ ممن قلبهُ شَبِم(١) » .

أهكذا يكون شرط الصحبة والوفاء تتركنا على الجوع وتنفرد دوننا بالأكل ، ونحن معك لم نذق منذ أمس طعاما ؟

(العمدة) — ما أجأنى إلى ذلك وحق الصحبة إلا الجوع المفرط واحتياج الجسم إلى ما يقيمه ، فإنى أحسست بالنور ظلاماً فى عينى من خلو البطن ، وأشهد أن الجوع كافر .

(السائق) — أدركونى برحمتكم ، فهذا جندى البوليس يأخذ نمرة المركبة ليكتبها فى المخالفات حيث خلّفتها واشتغلت عنها بكم .

(الخليع) — لقد صدعتنا وشغلتنا فخذ هذا القرش أيضاً وأنا أخلصك من جندى البوليس ، وإلا فانى أقوم إلى « القسم » وأرفع الشكوى لاجترائك علينا ، ولا تجد فى « القسم » مَنْ يرحمك .

(السائق) — ما باليد حيلة ، أعطنى ما تريد وهَلُمَّ أشهدْ عند جندى البوليس بأننى فى انتظاركم حتى أخلص من المخالفات ، والله يعوضنى خيراً ولا يحكم علىّ بركوب أمثالكم مرة ثانية .

(الخليع) للعمدة عائداً — قد انتهينا والحمد لله من جميع العقبات ، فلننظر الآن فى تدبير شؤوننا ، وهلمّ فادفع أولاً مبلغ الصك المطلوب منك لصاحبنا هذا ، ثم نُثَنِّ بصاحب الحان لفك الرهن ، ثم نثلث بمشترى المقتنيات اللازمة لك .

(١) الشبم : البارد

(العمدة) — نعم لك ذلك ، وهذا هو المبلغ المطلوب لصاحبنا جزاه الله خيراً .

(التاجر) بعد استلام المبلغ — أستغفر الله فالفضل والشكر لك على كل حال ، ولكن يتعذر على أن أرد إليك الصك فى الحال لأننى تركته بالمنزل ، فالأليق أن تُبقى المبلغ حتى آتيك به غداً .

(الخليع) — سبحان الله ! ما هذه المعاملة التجارية بين الأصدقاء الأوفياء ، وهل يجوز بينهم ذكر الصكوك والخطوط فى معاملتهم ؟ فتقديم الصك و بقاؤه عندك سيّان ، ما دام المبلغ تَسَدد لك ودخل فى جيبك .

(العمدة) — صدقت صدقت ، فليس بين الإخوان ما يدعو للتوقى والتحرز فى مثل هذه الأمور ، وقوموا بنا إلى صاحب الحان .

(الخليع) للتاجر ضاحكا — أنظر إليه ، فلا يزال قلبُه يحنّ ، وهواه يميل إلى سكان تلك المعاهد والديار .

(العمدة) — أقول لك الحق ، إن غيظى من معاملة تلك المرأة القاسية شديد ، وحنق عظيم ، ولست أنسى ضروب تفننها فى التدلل على والتمنع منى ، ولا أغفل عن تلك النظرات التى كانت ترسلها إلى بالتعطف والتلطف وأنا أسحبها من شعرها ، و بودى لو أراها مرة ثانية فأُوسِعَها عتاباً وأُشبعها تأنيباً .

(الخليع) مبتسما — أنا فهمت غرضك وعرفت نيتك ، تريد من العتاب أن ينتهى بك إلى العُتبَى ، وتخرج بها من التعنيف إلى التلطيف ، وما ألذّ الرضى بعد الغضب ، وما أمتن الصداقة بعد العداوة ، لكنى أقول لك قول المشفق الناصح : إنك مهما حاولتَ مع هذه المرأة ، فلا يمكن أن يخلو لك وجهُها بالليل مطلقاً لكثرة شغلها وازدحام الحائمين عليها ، و إنما الرأى لك أن تلتمسها نهاراً وتدعوها للغداء معك فى بعض جهات النزهة ، وأنا أفضّل نزهة الأهرام على سواها ، فانها تكون هناك خالصة لك من دون الناس بمعزل عن العذّال والرُّقباء .

(التاجر) — ما أدقّ الحيلة ، وما ألطفَ الرأى !

(العمدة) للخليع — لله درّك ، فما حار مَن أنت حاديه ، ولا ضلّ من أنت هاديه ، وهيّا بنا إلى الخان أولاً لفك الرهن .

(الخليع) — ولعلنا نُصيب خادم المرأة هناك فنرسله إليها بعرض التماسنا ، ولا شك عندى فى إجابة سُؤْلنا .

(العمدة) — نعم نعم ، وليكن الاجتماع بها غداً فخير البر عاجله .

(الخليع) — لك ذلك بكل تأكيد إن شاء الله .

قال عيسى بن هشام : وقاموا ونحن نعجب من كيد الإنسان ، بما لا يأتيه حيوان مع حيوان ، ثم بادرْنا نحن أيضاً إلى القيام ، على أن يكون الاجتماع غداً فى الاهرام .

العمدة فى الأهرام

قال عيسى بن هشام : ولما وقفتْ بنا الركاب فى ساحة الأهرام ، وهناك موقف الإجلال والإعظام ، قُبالَةَ ذلك العلَم الذى يطاول الروابى والأعلام ، والهضبة التى تعلو الهضاب والآكام ، والبَنيَّةِ التى تشرف على رَضوى وشمام(١) ، وتُبلى ببقائها جدّةَ الليالى والأيام ، وتطوى تحت ظلالها أقواماً بعد أقوام ، وتفنى بدوامها أعمار السنين والأعوام ، خَلِقَتْ ثياب ُالدهر وهى لاتزال فى ثوبها القشيب ، وشابتْ القرونُ وأخطأ قرنها وَخْطُ المشيب ، مابرحت ثابتة تناطح مواقع النجوم ، وتسخر بثواقب الشُّهُب والرّجوم ، وتحدِّث حديث المشاهدة والعيان ، ماتعاقب الفتيان(٢) ، وتناوب الملَوان ، عن قدرة هذا الإنسان ، فى بدائع الصنع والإتقان ، وتنْبىء عن قوة هذا الضعيف الضئيل ، فى إقامة هذا الأثر الجليل ، وكيف جاز لهذا الفانى البائد ، أن يصدر عنه مثل هذا الباقى الخالد ، وجلّ صنع القدير الخالق ، فى تصوير هذا الحيوان الناطق ، حيث جعله مصدراً للأعمال المتناقضة ، والأفعال المتغايرة المتعارضة ، فبينا تراه يصعد إلى أجرام السماء وعوالمها ، ويبحث بفكره فى رسومها ومعالمها ، ويسير بعلمه فى أنحائها ومناكبها ، ويهتدى لحساب أقمارها وكواكبها ، إذ تراه يعثر عثرة برجله ، فيكون فيها منتهى أجله ، أو يكبو فى طريقه ، فيغصّ بريقه ، ويهوِى بإذن الله إلى مكامن الخُلْد(٣) ، وهو طامع فى شجرة الخُلد ، فهو ذاك الذى كبر وصغر ، وعظم وحقر ، وعزّ وذل ، وكثر وقلّ ، وصعد وهبط ، وعلا وسقط ، وصلح وفسد ، وعرف وجحد ، وسعد وشقى ، وفنى وبقى ، وسبحان القاهر فوق عباده .

ثم انتقلنا من التفكير إلى التفسير ، وانبرى الباشا يكشف عن ضميره ، ويقول لنا فى تعبيره :

(الباشا) — كنت أعتقد ، وأنا فى سالف الأوان ، أن هذه البنيّة لمصر تاجها الذى تفاخر به التيجان ، وأعجوبتها التى تباهى بها الأقطار والبلدان ، وشاهدُها الذى يشهد لها بالمدنية والعمران ، ولكنى أراها اليوم ، بعد أن استضأتُ بنور العلم واهتديتُ بهدى العقل ،

(١) جبلان معروفان (٢) الفتيان : الليل والنهار (٣) الخلد : الفأرة العمياء .

و بحثت فى حقائق الأمور ، أن لا مزية فيها ولا خير منها ، سوى أنها أحجار مرصوفة ، وجنادلُ مصفوفة ، لاتمتاز عن جبل من الجبال ، أو تل من التلال ، فهل تعلمان لها من معنى غامض التوى علىّ فهمه ، أو سرٍّ خفىٍّ عزّ علىّ علمه ؟

(الصديق) — ليس لهـا على الحقيقة من سر خفى ، ولا من فائدة بادية ، سوى أن بعض القدماء من أغبياء الملوك وطغاة الولاة كانوا يعتقدون بالرجعة فى هذه الدنيا بعد الممات وأن أرواحهم تعود ثانية إلى أجسادهم بعد أن تتنقل مدة من الدهر فى أجسام أخرى ، فكان همهم فى حياتهم مصروفاً إلى حفظ أجسادهم من البلى بعد موتهم فى قبور مشيدة قائمة على الدهر ، لتعود إليها الأرواح بعد طول التنقل والتطور مثل هذه الأهرام وخلافها . والناظر فى الآثار المصرية يحكم حكما قاطعاً أن التقدم والتفنن فى البنيان والتصوير عند المصريين ينتهى أغلبه إلى المعابد والمقابر ، وكانت قصورهم و بيوت ملكهم مبنية بلبن الطين كأدنى الأكواخ ، قانعين بذلك فى جانب تسخير الأمة بأسرها فى نقل الصخور ورفع الأثقال لابتناء مثل هذا البنيان واتخاذه قبراً لهم تحفظ فى جوفه أجسادهم بعد تحنيطها سالمة من البلى إلى الرجعة — ولـكن إلى المتحف متحف الجيزة — فتسخير الأمة المصرية ، وتعطيل أعمالها ، وتمزيق أبدانها ، وإهراق دمائها ، و إزهاق أرواحها ، فى بناء هذه الصخور إنما كان لفكر ساقط ، واعتقاد سخيف ، من ملك جاهل ، لفائدة له موهومة ، أو من عمل كاهن ماكر ، لمنفعة له معلومة ، ومثل هذا لا يكون فيه من فخر لمفتخر ، ولا من عزة لمعتز وما هو إلا الظلم والغشم ، والضلال والجهل ، وما لهذين الهرمين من معنى اليوم غير أنهما قائمان على الدهر شاهدى عدل على سابق الشقاء فى الأمة المصرية ، وما كانت تقاسيه من فظاعة الظلم والهوان ، ومران الاسترقاق والاستعباد ، ولو كان لأولئك الملوك أدنى لمحة فى ارتقاء المدنية والعمران ، لكانت هذه الأحجار والصخور ، مرتفعة فى بناء القناطر والجسور ، وتالله لبانى القناطر الخيرية مثلا ، فى نظر الباحث المدقق ، أحق بالمزة والفخر من أولئك الملوك عُبّادِ الأوهام ، ومستعبدى الأنام ، وما أعلم لهذا الهرم من معنى آخر يذكر سوى أنه صار يوماً من الأيام منبراً من المنابر اعتلاه جبار آخر فرنسى اسمه نابليون ، فخطب من

فوقه على جنوده بكلام يهزُّ فيهم أريحية التفاخر والتباهى ، ويخدعهم به ليظلوا على العمى في طاعته يمارسون الحروب ، ويعانون أهوال الوقائع ، ويصبرون على الموت والقتل فى هواه .

وما لهذا البنيان اليوم من فائدة حاضرة إلا كونه صار مورد رزق لجماعة من العربان التهوْا به عن ابتغاء الرزق من قطع الطريق على السابلة ، ومما يحضُرنى الآن من كلام بعض المؤرخين فى شأنه : أن الملك الذى شيده أمر أن يكتب على جدرانه عقب الفراغ منه هذه العبارة عن لسانه على جهة التحدى : « إنى ابتنيت هذا البناء فى ثلاثين عاماً ، فإن جاء بعدى من الملوك من يدعى القوة والقدرة فليهدمه فى ثلاثمائة عام » ، ولو عقل المسكين أنه سيأتى عصر من العصور يمكن فيه لأحقر صعلوك أن ينسف هـذا البناء فى لمحة واحدة ، فيجعله كالعهن المنفوش والهباء المنثور بمقدار قبضة اليد من بعض الأجزاء الكيميائية ، لما اغتر بسعة القوة والسلطان ، ولما تحدى بشىء سلّمه ليد الحدثان ، وليس للحدثان من أمان ، اللهم إنك تعلم أنه عمل ضائع ، من جهل شائع ، لاينبغى للمصرى أن يراه إلا بدمع منهمر ، وقلب منفطر ، لأنه الشاهد الأكبر على كبرياء كُبرائه ، وهوان أجداده وآبائه .

قال عيسى بن هشام : وهنا رأينا أصحابنا قد أقبلوا ، وبينهم تلك العاهرة الفاجرة ، فأشارت عليهم بالجلوس ، فاتخذوا لهم مجلساً فى ظل من ظلال الأهرام ، وانبسطوا على بساط الشرب والنقل ، فقطعنا من بيننا حديثنا ، وانتهينا إلى جوارهم ، لنسمع ونرى من أخبارهم وأحوالهم ، فإذا العمدة يقول للتاجر ، متظاهراً أمام المرأة بمظهر الباحث المدقق والعالم المحقق :

(العمدة) — هل لك علم أيها الصاحب بشىء عن أصل هذه الأهرام ، وسبب وضعها ، وتاريخ تشييدها ؟

(التاجر) — كيف لايكون لى علم بذلك ، وقد وقفتُ على قصتها تماماً ، وقرأتها مراراً فى كتاب « قصص الأنبياء » عند الكلام عن سيدنا نوح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام ، بحيث يمكننى أن أقصها عليك حرفاً بحرف : « ذلك أن الملك « سودون » كان ملكا على مصر قبل الطوفان ، فرأى فى منامه رؤيا أفزعته ، فاستدعى السحرة والكهنة والمنجمين ، وقص عليهم أنه رأى النجوم تناثرت والقمر هاوياً إلى الأرض ، فقالوا له : إن هذه الرؤيا تدل على حدوث طوفان عظيم يغمر الأرض قريباً ولا يبقى على شىء

فيها ، فارتاع الملك ، واستشارهم ماذا يفعل للنجاة من هذا الحادث العظيم ، فأشاروا عليه بابتناء هـذه الأهرام ، حتى إذا حل الخطب انتقل إليها واستعصم بها مع أهله وحاشيته وذخائره وكنوزه ، فحشد الملك الألوف المؤلفة من الخلق وسخرهم لهذا العمل ، فأتموا له هذا البناء فى مائتين وخمسين عاماً ، ثم كساها بالديباج وفرشها بالحرير ، ونقل إليها من نفائس الجواهر وذخائر الـكنوز ما تعب الناس فى حمله ونقله شهوراً كثيرة ، ثم إنه جمع السحرة فحصنوها له بالأرصاد والطلاسم ، ولما قرب وقت الطوفان لجأ إليها بأهله وحاشيته ، وطغى الطوفان فلم ينج منه إلا أهل السفينة وعُوج بن عُنُق وهذه الأهرام ، وعوج بن عنق هذا هو حفيد آدم عليه السلام ، ولد فى زمن جده وأدرك موسى صلوات الله عليه ، وذكروا أن ذلك الطوفان الذى علا الهضاب والجبال لم يبلغ حد ركبتيه ، فكان يخوض فيه مع السفينة فإذا أحس بالجوع مد يده إلى قاع البحر فأخذ الواحدة من السمك فيدنيها من عين الشمس ويأكلها مشوية ، ولما انقضى الطوفان وعاد العمران إلى الدنيا أخذ يعيث فى الأرض فساداً دهراً طويلا ، حتى بعث الله موسى عليه الصلاة ، فشكا الناسُ إليه ما يفعله عوج بن عنق فدعا الله أن يكفيهم شره ، وكان عوج بن عنق قد حمل صخرة فوق رأسه ليلقيها على أهل بلدة حلّ بهم غضبه ، فأرسل الله تعالى طيراً له منقار من الفولاذ ، فما زال ينقر الصخرة من وسطها حتى ثقبها ، فسقطت فى رقبة حاملها وصارت غلا له يمنعه عن الحركة والانتقال ، فجاء موسى بعصاه ، وكان طوله عليه السلام أربعين ذراعاً وطول العصا أربعين ذراعاً ، ثم إنه وثب فى الهواء أربعين ذراعاً ، وضرب عوج بن عنق ضربة فلم تتجاوز كعبيه ، ولـكن قوة سيدنا موسى ألقته إلى الأرض ، لأنه من أولى العزم ، فوقع عوج بن عنق فى النيل فحسَرَهُ عن أرض مصر سنة كاملة ، ووقعت الوحوش الضارية تنهش من رجليه فكان إذا مرّ عليه مارٌّ عند رأسه قال له : « إذا وصلت بسلامة الله إلى قدمىّ فامنع عنى ما يؤلمنى من هذا الذباب » يعنى الوحوش المفترسة ، وبقى على هذه الحال إلى أن مات ، فاتخذوا من أضلاعه قناطر للنيل ، واتخذت الوحوش من عينيه وأذنيه ومنخريه كهوفاً ومغائر تسكنها ، وكفى الله العباد شره وفساده » .

(العمدة) — سبحان الخلاق العظيم ، أرجوك بالله يا أخى أن تشترى لى نسخة من

هذا الكتاب أحملها معى إلى البلد ، ليقرأها لنا إمام المسجد أو مأذون الناحية عند خلونا من الأشغال .

قال عيسى بن هشام : وكان الخليع فى هذه الأثناء مشتغلا بمحادثة المرأة متفرغاً لها ، يضاحكها وتضاحكه ، ويشاربها وتشاربه ، فلما انتهى التاجر من قصته ، أقبل الخليع على العمدة يلاطفه ويؤانسه ، ويقول له :

(الخليع) — هل رأيت بالله عليك يوماً أعظم أنساً ، وأتم سروراً ، وأجمع لأسباب الهناء والصفاء من يومنا هذا ؟

(العمدة) — حقاً إنه يوم سعيد وأنس ، غير أنى كنت أود أن يكون هذا المجلس فى البيت لا فى الخلاء ، وتحت السقف لا تحت السماء ، فإنك ترى كثرة السياح والعربان مِنْ حولنا ، وفى ذلك من التضييق على حريتنا ما لا يخفى عليك .

(الخليع) - لا تخشَ الناس ، ولا تَشغلْ نفسك بالخلق ، واغتنم اللذات بكل جسارة وإقدام ، وليس للانسان سوى ساعة الصفو ، إن لم يغتنمها ترك الدنيا بصفقة المغبون ، وأنا أقترح عليك الآن أن نعمل مثل عمل السياح فى الصعود إلى الأهرام ، حتى لا يفوتنا شىء من أسباب التنزه .

(التاجر) — دعنا من هذا الاقتراح ، فليس هو من شأننا ، وأية لذة بالله عندك فى صعود الجبل واحتمالِ المشقة والتعبِ مع التعرض للخطر فى كل خطوة ؟

(الخليع) — هذا أمر سهل جداً ، وقلّ من يزور الأهرام إلا ويصعد فيها مسافةً على قدر جهده ، وانظر إلى هذه النسوة الأمريكيات الصاعدات النازلات فى أيدى العربان أمام عينك ، هل تراها تخشى خطراً أو ترهب تعباً ، وهل يليق بنا معشر الفحول من الرجال أن نكون أدنى من النساء جرأة وإقداماً ؟ وعلى كل حال فلا بدّ لنا من الصعود قليلاً ليعلم من حولنا أننا جئنا مثلهم لزيارة الآثار لا للّهو والخلاعة ، والسيدة توافقنى على هذا الرأى .

(العمدة) — وأنا أوافق عليه أيضاً ، أرجو الله أن نعثر فى صعودنا على فص من الفصوص العتيقة التى طالما عثرتُ على مثلها فى التل الكَفْرِى بناحية بلدتنا ، ولكن كيف نترك سيدتنا وحدها ؟

(التاجر) — أنا أنتظركما معها .

(الخليع) — لا بل تصعد هى معنا أيضاً اقتداء بهذه السيدات .

قال عيسى بن هشام : ويقومون للصعود ، ويتلكأ التاجر فى أُخرَياتهم ، ويحاول التخلف عنهم ، فيدفعه العمدة بكل قواه ممازحاً له وساخراً منه لشدة تخوفه وحذره ، والخليعُ والمرأة يُغريانه به ، ويضحكان لضحكه ، وما كادوا يصعدون قليلاً ، حتى حانت من العمدة التفاتة إلى الأرض ، فهاله ما بينه وبينها من الفضاء ، فامتقع لونه ، وارتعدت فرائصهُ ، ومال على الدليل البدوىّ مستعيناً به أن يُنزله إلى الأرض ، معتذراً أن الصفراء لعبت برأسه فلا يقوى على متابعة الصعود ، فيدركه الخليع فيسنده مع البدوىّ ، فيسقط من أيديهما ، فيحمله البدوىّ على ظهره وينزل به ، فما يبلغ الأرض إلا ونسمع من المرأة صياحاً وعويلاً من فوق الهرم وهى تناديهم جميعاً أن يبحثوا لها عن فص الخاتم الذى وقع من إصبعها ، فيلحق بها الخليع ، فيبحث فلا يجد شيئاً ، فينزل معها فيتلقاها العمدة بالتخفيض والتهوين عند ما تتلقاه بالبكاء والعويل ، ويغلب على ظن التاجر أن الفصّ ربما لم يسقط فى حال الصعود بل فى حال الجلوس ، ويطلب من العربان أن يدركوه بغربال يغربل به الرمل عساه يجده فيه ، هذا والمرأة لا ينخفض لها صوت ، ولا يرقأ لها دمع ، ولا تنتهى لها شكوى ، والخليع يطيب من خاطرها تارة ، ويميل على العمدة طوراً يظهر له الأسف من الحادث الذى كدر عليهم الصفو ، وأبدلهم بالأنس حزناً ، وأن هذه شيمة الدهر قلما يتم فيه صفاء أو يكمل فيه سرور ، وما من لذة إلا وهى مشوبة بالألم .

فَسَدَ الزمانُ فما لذيذٌ خالصٌ   مما يَشُوبُ ولا سرورٌ كاملُ

على أن المصيبة هينة ، ما دامت فى المال دون النفس ، ومن ذا الذى يدرى بما هو مخبأ له فى الغيب ، والحمد لله على اللطف فى القضاء . ولا يزال الخليع بالعمدة حتى يتقدم إلى المرأة ويقسم لها أنها لا تبيت الليلة إلا ولديها فص مثل الفص الضائع ، فتشكره وتقول له : أنى لها بمثل ذلك الفص ، وهو من الياقوت النادر المثال فى لونه وصفائه ، فيعيد عليها القسم بأنه سيأتيها فى الغد بفص أثمن منه وأجمل ، ثم إنه يشد على يدها توثيقاً للوعد ، فتشد على

يده للتقبيل ، فيعز عليه حينئذ أن يرى إصبعها بخاتم من غير فص ، فيخلع خاتمه الذى استخلصه من الرهن ويلبسها إياه حتى يأتيها بغيره ، ويعودون إلى مجالسهم ، ويأخذون فيما كانوا عليه من المسامرة والأنس ، ويقول العمدة بعد استقرار المجلس بهم :

(العمدة) — ما أحسنَ المجلسَ ، وما أضيقَ الوقتَ ، وحبذا لو واصلنا الليل بالنهار !

(التاجر) — لعلك تريد أن نقضى ليلتنا مثل تلك الليلة الماضية فى ذلك الخان المنحوس .

(الخليع) — وهل تظن أنه يمكن لنا التمتع بصاحبتنا فى الخان ، مثل ما نتمتع بها الآن ، وقد شاهدنا بأعيننا ما حَولَهَا هناك من المزاحمة والمخاصمة ؟

(العمدة) — وما العمل حينئذ ؟

(الخليع) — العمل أننى أكلفها أن تتمارض هذه الليلة وترسل إلى صاحب الخان بتعذُّر حضورها عنده .

(العمدة) — نعم الرأى ما ترى .

قال عيسى بن هشام : ويأخذ الخليع فى استعطاف المرأة لقبول هذا الطلب ، فتمتنع أولاً معتذرة بما بينها وبين صاحب الخان من الشروط التى تَقضى عليها بدفع عشرة جنيهات إليه تعويضاً عن كل ليلة تتأخر عن الحضور فيها ، فيلتفت الخليع إلى العمدة ينتظر رأيه ، فيميل العمدة على المرأة متعهداً لها بدفع هذا التعويض ، ثم يتساءلون فيما بينهم كيف يقضون ليلتهم فى الأنس والسرور ، فَيرَى العمدة قضاءها فى البيت ، ويرى التاجر قضاءها فى التنقل بالمرأة فى « البارات » ، ويرى الخليع قضاء جانبٍ منها أولاً فى مشاهدة الرواية البديعة الجديدة التى تُمثَّل فى « التياترو » العربى ، فيقع اتفاقهم على هذا الرأى الأخير ، فيسرعون بالقيام ليدركوا فسحة الجزيرة أولاً ، وينصرفون على هذا العزم المؤكد ، والميعاد المحدَّد ، ويعنُّ « للصديق » أن نتخلف عنهم ، ريثما تنقضى فسحة الجزيرة بهم ، وأن نقضى هذه المدة الوجيزة ، فى زيارة قصر الجيزة ، ثم نلحق بهم عند المساء فى دار التمثيل والتشخيص ، وديوان الروايات والأقاصيص .

قصر الجيزة والمتحف

قال عيسى بن هشام : ووصلنا إلى قصر الجيزة ومتحف الآثار ، وملتقى السيّارة[١] من سائر الأقطار ، فدخلنا روضة تجرى الأنهار من بينها ، كأنها الجنة بعينها ، ولما رأى الباشا مسالكَ الروض منضدة ، وطرقه مرصعة مزرّدة ، حسبها أرضاً مفروشة ، بيُسُطٍ منقوشة ، وأشكل الأمر عليه ، فهمّ بخلع نعليه ، فقلت : طريقٌ مُعبّد[٢] ، لافرشٌ منجّد ، وحصباء ومرو[٣] ، لا بساطٌ وفرو ؛ ثم شاهدنا قصراً يكلُّ عنه الطرف ، ويقصر دونه الوصف ، فسرنا نرتاد خلاله ، ونتفيأ ظلاله ، فإذا الأسُود مقصورات فى المقاصير ، والأساود[٤] مكفوفات فى القوارير ، ورأينا النمور فى الخدور ، الرئال[٥] فى الحجال ، والذئابَ فى القباب ، والظباء فى الخباء ؛ فقال الباشا : لمن هذه الجنان ، وكيف يسكنها الحيوان ؟ وما علمتُ من قبلُ أن الليوث الضوارى ، تسكن مغانىَ الجوارى ، وأن أوابد[٦] البيد[٧] تتحجب فى خدور الغيد ؛ فقلت له: سبحان القادر العظيم ، هذا بيت إسماعيل بن ابراهيم ، لما كانت حُجُراته مطامع للأقمار ، ودرجاتهُ منازل للأقدار ، كان إذا نادى صاحبه فيه «ياغلام» ، شقيت أقوام وسعدت أقوام ، ولبّى نداءه البؤسُ والندى ، بأسرع من رجع الصدى ، وكان من احتمى بظل هذا الجدار ، تحامته غوائل الأزمان والأدهار . هنا كان يفصل الأمر ويحكم ، وينقض الحكم ويبرم . هنا كانت تنفرط فرائد القلائد ، من أجياد الخرائد ، فتختلط بمنثور أزهاره ، وتُرصّع لُجينَ أنهاره . هنا كانت تتناثر الحلىُّ من قدود الحسان ، فتشتبه بأثمار الأغصان . هنا كانت تصدح القيان على المزاهر والأعواد ، فتجيبها ذوات الأطواق فوق الأفنان والأعواد ... فأصبح اليوم حديقة مبتذلة عامة ، وموطئاً لأقدام الخاصة والعامة ، وأصبحت أرضه تكترى ، وجنى أشجاره يباع ويشترى ، ودوّى فيه صياح النسور وزئير

---

(١) السيارة : القافلة ، وأصلها القوم يسيرون
(٢) طريق معبد : أى مذلل
(٣) المرو : حجارة بيض رقاق براقة
(٤) الأساود : جمع أسود وهو العظيم من الحيات
(٥) الرئال : جمع رأل وهو ولد النعام
(٦) الأوابد : جمع آبدة وهي الوحش
(٧) البيد : جمع بيداء وهى الفلاة

الأسود ، وامتلأت ارجاؤه بعواء الذئاب وهمهمة الفهود ، وزال ما كان فيه من عز وطول، ومجدٍ وصول ، وأيدٍ[1] وحول ، وصدق الكتابُ فحَقّ عليه القول :

فى هذه الدار، فى هذا المكانِ عَلَى   هذا السرير ، رأيت الملك قد سَقَطا

وذكرت للباشا ما كان لصاحب هذا القصر ، ومليك ذلك العصر ، من الجدّ الصاعد ، والبخت المساعد ، وما صار إليه بعد ذلك من أفول السعد ، وما دهاه فى الغربة إلى أن سكن اللحد .

نالوا قليلاً من اللذات وارتحلو   برَغمِهم فإذا النعماء بأساء

ثم وقف الباشا هُنيهة فكر فيها واعتبر ، وتلا : «ولقد جاءَهُمْ مِنَ الأَنْباءِ مافيه مُزدَجَر، حكمة بالغة فما تُغنِي النُذُر . »

ثم إننا سرنا فى وسط الحديقة ، حتى انتهينا إلى دار التحف العتيقة ، فدخلنا نشاهد ما أبرزتهُ يدُ البحث من الخفاء إلى الظهور ، وما أعادته قوة التنقيب من البلى إلى النشور، وما صانتْه ألحاد القبور من يد الفناء والدثور ، وجمعته أحشاء الرموس من العفاء والدروس، وما أجَنّته أرحام المعابد والهياكل ، من بقايا المواضى وخفايا الأوائل ، وما انسدلت عليه سجوف الأحقاب ، من ودائع الأسلاف للأعقاب ، وما انشقت عنه الأرض من مكنون الدفائن ، ومكنوز الخزائن ، ومجائب الفن الدقيق ، وبدائع الصنع الأنيق ، بليت فى اصطحابها جدّة الأيام والليالى ، وانحنت على احتضانها ظهور العصور الخوالى ، ومضت دول بعد دول ، وذهبت أوَلٌ فى إثر أول ، واندثرت مدائنُ ونشأت مدائن ، وبادت مواطنُ وقامت مواطن ، وانقلبت الأغوارُ أنجاداً ، والأبحار أطواداً ، وغدا العمارُ خرابا ، والغمار[2] سرابا والسراب غمارا ، والخراب عمارا ، وهى هى مصونٌ شكلها ، كما تركها أهلها ، لسانٌ صادق ، وخبرٌ ناطق ، تنطق بالعبر ، وتحدث عمن غبر :

مضت غبرات العيش وهى غوابر[3]   على الدهر مكتوبٌ عليها حبائس

وأقمنا هناك نتنقل بين الأصنام والتماثيل ، ونتأمل فى التصاوير والتهاويل[4] ، ونتفكر

---

(١) الأيد : القوة   (٢) الغمار : جمع غمر وهو معظم البحر   (٣) غبرات : غبر الشيء بقيته وغوابر : جمع غابر وهو الباقى والماضى ضد   (٤) التهويل : زينة التصاوير ، النقوش والحلى ، الواحد تهويل .

فى هذه العظام المنشَّرة ، والرُّفات المُنظرة ، بما عليها من الحلى والزينة ، وتلك الأحجار الثمينة ، كيف كانت ملوكاً للأمم ، ثم بقيت على بِلَى الرمم ، وتوالى القدم ، فى حال الوجود مع العدم.

ورأينا بجانبنا رجلاً من ذوى العمائم ، مع فتى من الطرز المتحاذق المتعالم ، ظهر لنا من أمرهما ، وتبيَّن من شكلهما ، أن الرجل عين من أعيان المدينة ، وأن الفتى ابن له وزينة، وإذا هما يتناظران ويتحاوران ، فيما يريان ويبصران ، فدنونا منهما وأنصتنا إليهما .

(الابن) — أشهدت مشاهد عزنا ، ورأيت معاهد فخرنا ، وعلمت كيف كان مقدار مجدنا ، وإلى أية رتبة بلغت بنا صناعة أجدادنا ؟ فلله درهم ، ما كان أرقاهم فى الفكر ، وأبدعهم فى العمل ! ولو أن نوابغ الأمم اجتمعوا اليوم اجتماع مفاخرة ، ونزلوا إلى ميدان المناضلة والمناظرة ، لَمَا سَبَقَ المصرىُّ منهم سابق ، ولا تعلّق بأثره لاحق ، ولكان له من بينهم الكعب الأعلى ، والقدح المعلّى ، وهذه الآثار فى يده يفاضل بها ويفاخر ، وينشد عليهم قول الشاعر :

هــذه آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار

(الوالد) — ما أرى شيئاً فى هذه الآثار التى تماجد بها وتفاخر يفوق ما يكون السوق من البضاعة الكاسدة والسلع البائرة ، وما يتخرج عن بيوت الناس من الأعراض الواهية والأمتعة البالية .

(الابن) — كيف يكون منك هذا القول ، وهى بشهادة العالم أجمع : أثمن من كل ثمين ، وأنفس من كل نفيس ، لا تقويم لها ولا تقدير إلا بالقناطير المقنطرة من الذهب والفضة ، وكيف غاب عنك تهافتُ هؤلاء الغربيين أهل المدنية الحاضرة على اقتناء شىء منها بالمال الجمّ ، تنافسهم فى التمتع بمشاهدتها ،يتحملون لذلك الأسفار البعيدة ، والمتاعب الشديدة ، ولا يُعقل ، وهم هم أهل الهدى والعلم ، أن يشتغلوا بباطل ، أو يجهدوا أنفسهم على غير طائل .

(الوالد) — لكم دينكم ولى دين ، وما أزال أكرر القول لك بأننى لا أجد فى نفسى شيئاً مما تشعرون به فى هذا الباب ، وما أراه من هذه الأحجار والتماثيل لايساوى فى نظرى

إلا أنقاض بيوت عفت ، أو طلول درست ، وإن صح مايقال عن هذه التماثيل إنها أشخاص قديمة نزل بها السخط والمسخ ، كان التعلق بها والتمجيد لها مما يغضب الخالق ولا يرضى المخلوق ، وأما قولك إن فيها منتهى فخرنا ومجدنا ، لأنها من صنع آبائنا وأجدادنا ، وإن آباءنا وأجدادنا هم من نسل هذه الرمم الفرعونية ، فإنه إثم ونكر أستعيذ بالله منه « كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ من أفواهِهم إنْ يقولونَ إلاَّ كَذِباً » ، ما كان أجدادنا وآباؤنا إلا أولئك العرب الكرام ، أهل الدين والإسلام ، لا نفاخر إلا بمفاخرهم ، ولا ننتسب لغير أصلهم ، وأما من جهة الصنعة فى كل ما أراه هنا فإن صبيان الفلاحين اليوم يشتغلون بصنع مثل هذه الآثار والأحجار ، ويتفننون فى تقليدها ، فتخرج من أيديهم ، وهم بين الروث والطين ، أتقنَ صنعاً من هذه المحجّبة فى القصور ، المصونة فى البلّور .

(الابن) — علم الله لو كان فى لغتنا العربية من الكتب المؤلفة فى مزايا هذه الآثار ، مثل ما فى اللغات الأجنبية ، لعلمت منها ما لم تكن تعلم ، على أن مجرد النظر يكفى وحده لإثبات هذه الآيات والمعجزات فى حسن الصنعة والدقة ، أفلا تنظر إلى هذا التمثال البديع ، تمثال شيخ البلد ، وهو قطعة واحدة من خشب الجميز ، فما أدق الصنع ، وأتقن العمل ، وما أكملَ الشّبه ، وأجمل الصورة ؟

(الوالد) — نحن فى كل يوم نشاهد مائة شيخ بلد من لحم ودم لا من خشب وحجر ، فدعنى على غباوتى وجهلى ، وبارك الله لك فى علمك وعقلك .

(الابن) بصوت خفى — « واغفِرْ لِأبى إنَّهُ كانَ منَ الضَّالِّينَ » — (ثم يجهر بالقول) — لا لزوم حينئذ لطول إقامتنا هنا ، وهلم بنا فقد حل الميعاد المضروب بينى و بين ذلك السائح الذى زارنا بالأمس لتناول العشاء معه فى « أوتيل شبرد » .

(الباشا للصديق) بعد انصرافهما — ماذا تقول فى هذه المناقشة ، وما دار من الكلام بين الولد والوالد ؟

(الصديق) — ما عساى أن أقول غير ما قاله الله عز وجل : « فَخَلَفَ مِن بعدِهِم خَلْفٌ أضاعُوا الصّلاة واتبعُوا الشهواتِ فسوْفَ يَلقوْنَ غيًّا » ، وماذا نرى هنا غير الذى رآه هذا

الوالد الساذج : قبور مقلوبة ، ورموس معكوسة ، وأجداث منبوشة ؛ فإن كان الغرض من عرضها العبرة أو الموعظة ، فإن فيما هو أمامنا كل يوم من هبوط الملوك عن ذهب العرش ، إلى خشب النعش ؛ ومن وسائد الحبر ، إلى مساند الحجر ، ومن ظهور الصافنات الجياد ، إلى بطون الديدان فى الأكفان والألحاد ، لنعم الموعظة الحاضرة للنظر والحس ، والحكمة البالغة للعقل والنفس .

(الباشا) — هذه هى الحقيقة بعينها فى نظرى الآن ، وقد كنت أحسب أن لهذه الآثار شأناً عظيما فيما مضى من دهرى عند ما كنت أرى تهافت الغربيين عليها فى زمن الولاة السابقين ، ولكن لعل شأنها عندهم وعلو قيمتها لديهم ، هو لأجل توغلها فى البلى والقدم ، ومحلِّها من التاريخ ، وما تحمله منقوشاً عليها من أساطير الأولين .

(الصديق) — نعم إن كان من وراء هذه الآثار والأشلاء قيمة عند الغربيين فإنما هى كما تقول ، لتعلقها بمباحثهم فى أخبار الأوائل وفلسفة التاريخ ، وزد على ذلك حبهم للاقتناء ، وولوعهم بالاختصاص بالنادر ، ولذلك علت قيمتها عندهم ، وارتفع قدرها بينهم ، وليس للمصريين منها أقل فائدة سوى الشهرة بأن فى مصر آثاراً تفوق فى القدم مثلها من بقية المتاحف ، ولو أنك عرضت أهل مصر على هذه الآثار واحداً واحداً ، لما استفادوا منها شيئاً ، ولا أفادوك عنها شيئاً ، ولما وجدوا لها قيمة تذكر ، سوى النزر اليسير من المقلدين للغربيين ، ولم تجد بين عشرة الملايين اليوم سوى شخص واحد يفقه لغة « الهيروغليف » ، أعنى لغة آبائهم وأجدادهم ، كما يزعم الزاعمون ، مع كثرة الخبيرين بها من الأمم الغربية ، والله أعلم بمقدار علمه بها ، ولو تمنيت الأمانى لقلت : عسى الله أن يخفف بقيمتها العالية بعض ما على الحكومة المصرية من أثقال الديون ، وما على المصريين من أعباء الضرائب والمكوس ، وياليت المصريين يخرجون عنها لا عليهم ولا لهم ، فإنها تكلف الأمة المصرية نفقات على البحث عنها فى خبايا الأرض وجمعها والتحفظ عليها ونقلها من أماكنها إلى المتحف ، وناهيك بنفقات المتحف التى أنفقتها الحكومة أولا على متحف بولاق ، وثانياً على متحف الجيزة ، وما تنفقه ثالثاً على المتحف الجديد بقصر النيل ، فإنها تعد بالملايين .

(الباشا) — كنت أرى رأيك هذا وأتمنى أمنيتك ، لولا أن يقال : إن المحافظة على هذه الآثار ، والحرص على بقائها بمصر ، مزية أدبية لها قدر عظيم ، يعرفه من عرف مقدار حرص أهل الممالك الأخرى على الآثار والتحف ، وشدة ضنهم بها ، فلا يرغبون البتة فى بيعها والتخلى عنها ، ويرون فيها فخرهم ومجدهم ، فلا يليق بمصر أن تشذ عن هذا السبيل .

(الصديق) — إن حرص أهل الممالك على ما فى متاحفهم من الآثار ، وتفاخرهم بها ، هو لأنها عندهم علامة من علامات التغلب والانتصار ، وإشارة إلى المجد القديم والعز التليد ، ولكن أين علامة التغلب والانتصار عند المصريين ، وما هى إشارة المجد والشرف فى هذه الرمم البالية ، رمم أهل الجهل والظلم من أغبياء الملوك الأقدمين — ولأن الغربيين فى غير حاجة إلى قيمة أثمانها ، فهى عندهم من الكماليات ، أما عندنا فالأمر بالعكس ، ولم تأتنا هذه الآثار من جهة الفتح والنصر ، وإنما جاءتنا من طريق النبش والحفر ، والمصريون فى حاجة إلى المال لإنفاقه فى ضروريات المعايش ، وقلما يمر عام إلا ويكشف المكتشفون فى مصر من هذه الآثار الشىء الكثير بحيث يوجد لكل نوع منها أشباه كثيرة ، فما ضر المصريين لو تخلوا عن بعض هذا الكثير الزائد ، وعن تلك الأشباه المتعددة ، وانتفعوا بقيمة أثمانها فى بعض شؤونهم العامة ، ويبقى فى المتحف مع ذلك من الآثار ما يكفى للفخفخة والمباهاة ، ومباراة الأمم فى تشييد المتاحف ، وإن كان قد جاز لحكام مصر السابقين أن يهادوا ملوك أوربا وأميركا بالجانب العظيم والقدر الجليل من هذه الآثار القائمة اليوم فى الأنحاء المختلفة من أقطارهم ، وأن يغضوا النظر عن الوافدين على الديار المصرية لسلبها أو ابتياعها من أيدى الفلاحين بدرهم أو دينار ، فلم لا يجوز التخلى عن بعضها للانتفاع بأثمانها ، وهى على ما تراه — ما لا يُباع فانه يُتَقَسَّمُ — وجملة القول أن الانتفاع بها اليوم قاصر على الأجانب وحدهم ، إما بمشاهدتهم لها فى ديارنا ، أو بانتقالها مسلوبة إلى ديارهم ، وأى عار على الأمة المصرية أن تتصرف فى بعض الآثار المتشابهة التى تنبتها لها الكهوف والتلال فى كل يوم ، لتنتفع بأثمانها فى ترقية شأن المعارف ، وبث الأدب بطبع تلك الكتب المخزونة للأرضة بدار الكتب المصرية فى المطبعة الأميرية ، التى طالما أفادت الناس بطبع الكتب النافعة فى أيام

الحكومة السابقة ، حكومة الجهل والظلم ، وخبرونى ، ناشدتكم الله ، أى نفع وفائدة للأمة المصرية الإسلامية فى أن تنشر بين يديها رمم الفراعنة فى الأنتكخانة ، وتقبر أرواح العلماء والحكماء فى الكتبخانة ؟ وأى الأمرين أعظم نفعاً وأكثر ربحاً ، أن يعرض على أعيننا تمثال « إيبيس » وصورة « إيزيس » وذراع « رعمسيس » وفخذ « امينوفيس » ، أو أن تتداول الأيدى كتاباً للرازى ، ومقالة للفارابى ، وفصلاً لابن رشد ، ورسالة للجاحظ ، وقصيدة لابن الرومى ؟ ما تجرى الأمور عندنا — شهد الله — إلا على التناقض ، وما تسير إلا على خلاف المصلحة .

قال عيسى بن هشام : وجاء أوان الخروج ، فقمنا نسعى ، لنلحق بأصحابنا فى الملهى ، ونشاهد ما يتم عليه حالهم ، وينتهى إليه مآلهم .

العمدة فى الملهى

قال عيسى بن هشام : وعُدْنا إلى المدينة ، وقد مد الغروبُ حبالته ، ليقتنص من الأصيل غزالتَه ، فطارت نفسها شَعَاعا[1] ، واضمحلّ قرصها شُعاعا ، وجدت نافرة إلى كناسها ، وهى تصعّدُ الشَّفَقَ من أنفاسها ، ثم اختفت شقائقُ الشفق ، تحت أكمام الأفق ، ولمّا أن اخضرّ من الليل جانبه ، وطرّ شاربه ، وتوقدت مصابيح السماء ، فى قباب الظلماء ، قَصَدْنا دار التشخيص والتمثيل ، وبيتَ التصوير والتخييل ، فدخلنا مع الداخلين ، نساء ورجالا ، أجناساً وأشكالاً ، واخترنا لجلوسنا الكراسىّ دون الغُرف ، لتتيسر لنا المشاهدة من كل طرف ، ثم جلسنا نحدد النظر ، فِيمَنْ حضر ، وإذا نحن بين أخلاط من الطبقات اختلفت أزياؤهم ، واتفقت أذواقهم وأهواؤهم ، وعلا ضجيجهُم وصياحُهم ، وكثر لعبهُم ومزاحُهم ، سبًّا وشتما ، ولكزاً ولكما ، ثم يتمايل بعضهم على بعض ، ويضربون بعصيهم وأرجلهم ظهر الأرض ، رجالا وغلمانا ، شيباً وولداناً ، متظاهرينَ بملل الاصطبار ، ومطالبين برفع الستار ، ثم حولنا النظر إلى أعالى الشرف ، وجوانب الغرف ، فرأينا من بينها مقاصير عليها رقائق الستائر : تشف عن لوامع اللآلىء والجواهر ، فى نحور الحور ، من مكنونات القصور ، وبيضات الخدور ، ولولا التأدب لتخيلناها من بنات الفجور ، فهن يزحزحن من الوشى والحَبَر ، ويكشفن عن الطُرر ، تضىء بالغرر ، ضوء الليل تحت القمر ، ويتراءين ترائى الكواكب والنجوم ، من خلل السحب والغيوم :

وتنقبتْ بخفيفِ غَيْمٍ أبيضٍ ... هى فيـــه بين تخفّرٍ وتبرّجِ
كتنفّسِ الحسناء فى مرْآتِها ... كَمُلت محاسنُها ولم تتزوّجِ

والرجال من تحتها ينظرون ويتشوفون ، ويتشوقون ويتلهفون ، لا تنثنى أبصارهم عن وجهتها ، ولا يحولون الوجوه عن قِبلتها ، فهم قائمون على عبادتها عاكفون ، لا ينفكون عنها ولاهم يستنكفون ، وهن يوالين الضحكات ، ويتالين الحركات ، ويتبادلنَ معهم

(١) الشعاع : المتفرق .

الغمز ، ويتبادلون معهن الرمز ، ويتراسلون بمراوح تثير مكنون الهوى والغرام ، ويشيرون بمناديلَ تغنى عن فصيح اللفظ والكلام ، وقد خرَقت الأصابعُ نسيج الأستار ، لتنفذ منها رسل الأزهار ، وتقابلتْ بينهم المناظير بالمناظير ، تدنى البعيد وتكبر الصغير ، وكل فتى يرى أنه المرمىّ دون سواه بالنظرات ، وأنه المعنىّ بتلك الإشارات ، فيتصنع التجمل والتظرف ، ويتكلف التأنق والتلطف . وفوق أعلى الشرفات أقوام وأى أقوام ، متزاحمين أكواماً على أكوام ، كأنهم فى سوق من أسواق الأنعام ، لا ينتهون فيـه عن الشجار والخصام ، وتفقدنا أصحابنا فى أنحاء الملهى ، فوجدناهم فى غرفة والعاهرةُ فى أخرى ، وقد تزيت بزىّ الأجنبيات ، فنبذت الخمار والإزار ، وتبدت فى القبُعّة والزنار ، وهى تغامز العمدة بعينيها ، وتشير إليه بيديها ، والخليعُ يكون تارةً فى الغرفة عندها ، وأخرى يظهر فى غرفة بعدها ، إلى أن دق الجرس بالدخول ، وارتفع عن الملعب ستره المسدول ، وظهر فيه أمامنا طائفة من الممثلات والممثلين ، مابين ملحنين ومرتلين ، على طريقة يَمُجُّها السمع ، ويعافها الطبع ، وبكلام مبهم ، وألفاظ لا تُفهم ، كأنهم حداة فى مفازة[١] ، أو سُعاة فى جنازة ، وهم فى أزياء متعاكسة ، وأشكال غير متجانسة ، وثياب تنافرت ألوانها ، على أشخاص تباينت أوطانها ، وظلوا يعبثون بالأناشيد والتلاحين ، ثم انصرفوا عنا بعد حين ، ثم ظهر من بعدهم رجل مكتهل ، مزجَّج الحواجب مكتحل ، مصبغ الخد والجبين ، بأحمر كالورد وأبيض كالياسمين ، فأخذ يخطر ويتثنى ، ويهتف ويتغنى ، وبجانبه امرأة نَصَف ، تمايل وتنعطف ، لا تقلُّ عنه شيئاً فى باب التصبغ والتدهن ، والتصنع والتلون ، يقول لها فى شكوى الغرام ، وشرح الوجد بها والهيام :

« يا حبيبة الفؤاد ، وغاية المراد ، ما ألطف هذا الشكل ! فهيا بنا نغتنم الوصل » .

فتجيبه : « قد يكون ذلك أيها الخل الوسيم ، إذا ساعدتنا أُمى نسيم ، فدبِّرْ أنت ما عليك ، وها أنا ذاهبة لأرسلها إليك . »

ثم تنصرف الفتاة ، ويبقى الفتى فى انتظار حضور الأم ، فتدخل عليه ، وإذا هى عجوزٌ شوهاء ، وجُلُبَّانَة ورهاء[٢] ، فيتصل بينهما الكلام ، وينتهى بالقبول والاتفاق ،

---

(١) المفازة : الفلاة لا ماء فيها .   (٢) الجلبانة : المهذارة السيئة الخلق . والورهاء : الحمقاء

ويضع الفتى فى يدها كيساً من الدراهم عند مفارقتها إياه ، ثم ينفرد متجولا ينشد ويغنى مدة من الزمن ، ثم يذهب لسبيله ، وتأتى الأم ومعها زوجها ، وإذا هو رجل قد أثقلت ظهره السنون ، ولم تفده التجارب شيئاً ، فتحتال عليه ليقبل زيارة الفتى وتردده على ابنته فى بيته . فيمتنع ويتعلل بقوله : « حقاً إن ذلك الشاب ، هو ألح من الذباب ، وهو عندى أفسق من الشياطين ، وأخبث من البراذين ، لا يترك من النساء الدون ، ولا العجوز الحيزبون . »

فتجيبه بقولها : لا تخفْ أيها الزوج الأفضل ، فما كل الطيور تؤكل ، وابنتنا العاقلة الحلوة ، لا يُخشى عليها منه فى الاجتماع ولا فى الخلوة . » ، ثم يطول الكلام بينهما ، وينتهى بقبول الوالد ما دبّره له كيد الوالدة ؛ ثم يذهبان ويجتمع العاشق بالفتاة فيتعانقان ويتلاثمان ، وتقول له فى حديثها : « الحمد لله أيها الشاب الأنيق ، على التيسير والتوفيق ، فقد سهّلتْ أمى لنا الطريق ، ولم يبق أمامنا إلا استرضاء الخادمة ، حتى تكون لأسرارنا كاتمة . » ، فيجيبها : « نعم ، وإن لم تطاوعنا فإنها تصبح حزينة نادمة ، لأنى أقسم يا بنت الكرام ، بما بيننا من الحب والغرام ، أننى أذيقها كأس الحِمام ، بحدّ هذا الصمصام ، إن امتنعتْ عن تسهيل الأرب ، بقبول ما فى هذا الكيس من الذهب . » فتقول له : « آه يا حبيبى ، ما أطرب الجلوة ، وما أطيب الخلوة ، حيث نصبح فى بحر النشوة ، وهيا بنا أيها الهمام ، فإنى أسمع صوت أقدام ، وعندى الآن أن أحسن طريقة ، أن نتنشق نسيم الصّبا فى زوايا الحديقة » ، فيقول لها : « حُفظت يا سيدتى ومولاتى ، ومنبع حياتى ومماتى ، فالآن قد بزغتْ شمس سعودى ، وعَطّر الأكوانَ عرفُ نَدّى وعودى . »

ثم يذهبان ويحضر بعدهما غيرُهما ، فيتداول الكلام بينهم مرة عن سرقة واحتيال ، وخيانة واغتيال ، وأخرى عن اجترام واقتراف ، واختلاس واختطاف ، ثم يعلو بينهم الضجيج ، ويصيحون بغناء كأنه ندب وعويل .

وعلى هذا ينتهى الفصل الأول ويرخى عليه الستار ، ويجدّ الحاضرون حينئذ فى الصفير والتصفيق ، والتأوّه والشهيق كأنهم جميعاً فى نوبة من الصرع أو المسّ ، ثم إنهم يتناثلون

إلى الخروج لشرب الخمر والتدخين، ونقيم نحن جلوساً فى مكاننا، فيلتفت إلى الباشا ويقول :

(الباشا) — لقد سئمتُ — علم الله — ومللتُ من منظر هذه المراقص والملاعب، فما أشبه بعضها ببعض، وما أجمعها لأشتات النقائص والرذائل على اختلاف أوضاعها ؟

(عيسى ابن هشام) — ليس هذا المكان فى أصل وضعه بمرقص ولا بملعب، هذا هو «التياترو» المعروف عند الغربيين بأنهُ أصل التثقيف والتأديب، ومنبع الفضائل ومحاسن الأخلاق، يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهو عندهم توأم الجرائد، هذه تعظ بالخبر، وهذا يعظ بالنظر، فيغرس فى النفوس صورة الفضيلة مجسمة للأبصار، بما يعرضه على الناظرين والسامعين من تاريخ أهل الفضائل فى الأزمان الغابرة أو الحاضرة، ويفعل فى النفوس ما لا تفعله الرواية والخبر، وهى فى بطون القصص والسير، فيمثل لك محاسن الفعال، ومحامد الخصال، وما تأتى به عواقبها من الظفر بالمرغوب والحصول على المقصود، وإن اعترضتك معها المصاعب، ونالتك المتاعب؛ ويشرح لك شناعة الرذيلة، ويصوّر فظاعة النقيصة، وما يكون فى عاقبتها من السوء؛ وفى أثرها من المكروه، وإن خلبتك بمنظرها ساعة، وخدعتك ببهرجها لحظة، فيجتمع لديك من الموعظة والعبرة ما عساه يردعك عن القبيح إن هممتَ به، ويردّك إلى الحسن إن تقاعدت عنه، ويهديك إلى الطريقة المثلى، ويخرجها لك من الغيبة إلى الشهود، ومن القول إلى الفعل، فتنجذب نفسك إلى أنواع الفضيلة، من شجاعة وشهامة، وكرم ومروءة، وأمانة ووفاء، وسماحة وسجاحة، وصبر وحلم، وينفر طبعك عما تجمعه الرذيلة، من دناءة وجبن، وخيانة وغدر، وجهل وحمق، وفحش وفسق .

(الباشا) — إن كان الأمر كما تقول، فكيف تسنّى للمصريين أن يقلبوا وضعه، ويشينوا شكله، ويجعلوا هذا المكان على مثل حال الحان، فلا فرق عندى فيما أنظره هنا الآن، وما رأيته فى الحانات الأخرى، من الرقص والعزف، ومعاقرة الخمر، ومغازلة النساء، وتمثيل أحوال العشق بأعظم شكل يغرى به، ويهيج من شهوات النفوس إليه ؟ فإذا كان التشخيص على هذا النمط معدوداً بينهم باباً من أبواب الآداب، وهم يحضرونه ويشاهدونه على هذا الاعتقاد، فان شرّه عندى أعظم من شر الملاعب والمراقص الأخرى، لأن الداخل إليه لا يرى على نفسه من لائمة يتقيها فى دخوله، ولا ينكر على أدبه منكر فيه، ولا يخشى

انتقاداً عنده ، فتسترسل النفس فى غيها ، ولا تجد منها لها رادعاً ولا وازعاً ، بخلاف الحال فى الداخل إلى تلك الحانات ، فإنه يدخلها وهو واثقٌ بأنه قادم على ما يلام عليه و يعاب ، فيأتيه وفى نفسه من الخجل والحياء ما عساه يصرفه يوماً عن غيه وجهله ، والإقدام على المحرَّم الصُّراح ، فيه من تأنيب النفس ما يزجر و ينهى ، لكن الإقدام على تحليل الحرام و إباحة المنكر هو الداهية الدهياء ، والمصيبة العامة ، فلا وازع من الخجل والحياء ، ولا زاجر من خوف الهلاك والعقاب .

(عيسى بن هشام) — لا تأخذنّ ما تراه هنا من التقصير دليلا على أن هذا الفن غير مفيد للآداب ، فقد قدّمتُ لك أنه فن غربىٌّ ، ووصفتهُ لك بمقدار ما وصل إليه من الإتقان لدى الغربيين ، وهو لا يزال هنا على حال القصور والانحطاط ، لم يلتفت المصريون إلى إتقانه وحسن وضعه ، وجهل الناسُ أصل الغرض المقصود منه فحسبوه نوعاً من أنواع اللهو والخلاعة على ما ترى، وعذر الذين يشتغلون بهذا الفن فى تقصيرهم أنه لا بد من مساعدة أهله بالمال ، ليتمكنوا من السعى فى ارتقائه و إتقانه ، وهم يلومون الحكومة المصرية فى كل يوم حيث تبذل المال لمعاونة المارسين له من جماعة الغربيين أسوة ببقية الحكومات الغربية ، ثم إنها تحرم أهل بلادها كل مساعدة من هذا القبيل .

(الصديق) — قد سمعتُ مقالك ، وعندى أنه يجب على الباحث فى الأمور المتعلقة بتربية الأخلاق وتهذيب الطباع أن ينظر أولاً إلى تأثير التربية والإقليم ، و إلى تركيب الغرائز والفِطَر ، و إلى العادة والعُرف ، ولا يتحتم أن ما يكون ذا نفع عند الغربيين يكون له نفع عند الشرقيين ، لاختلاف ذلك كله فيهم وتفاوتهِ بينهم ، والشواهد كثيرة جمة على أن ما يكون فى باريس حسناً يكون فى برلين قبيحاً ، وأن ما يكون فى لوندرة حميداً يكون فى الخرطوم ذميماً ، وما يكون فى رومية حقاً يكون فى مكة باطلا ، وما يكون عند الغربيين جداً يكون عند الشرقيين هزلا ، ولست أرى أن هذا الفن ، لو تمّ لأصحابه ما يبغونه من وفرة المال ، ومعاونة الحكومة ، أن يصلوا به إلى حد الإتقان المطلوب ، ولا أن يكون له النفع المقصود فى تربية الأخلاق وحسن الآداب ، لما فيه من المنافرة البينة لطبائع أهل المشرق ، وأخصُّ بالذكر منهم أهل

الإسلام ، لا بل ربما كان منه الضرر البحت ، ولا يغيب عنك أن هذا التشخيص والتمثيل
قائم على أساس العشق يدور فيه بكل أدوار ، ولا تخلو قصة من قصصهم التى يمثلونها عن
ذكر العشق والغرام ، وما من رواية لهم إلا والعاشقان يكونان فيها كالفاتحة والخاتمة لها ،
وهو إن كان مقبولاً عند الغربيين ، مسموحاً به لموافقة العادة عندهم ، ولكونه شيئاً لا عيب
فيه ، يجهر به فتيانهم وفتياتهم ، بل هو أصل من أصول التزاوج بينهم ، لكنهُ غير
مقبول عند الشرقيين ، ولا مسموح بهِ فى عاداتهم ، ولا يدخلونه فى أبواب الفضيلة
ومحاسن الآداب ، ولذلك كان شأن الكتمان والتستر ، لا التجاهر به والتظاهر ، ولقد جرى
العشق فى بعض البلاد الشرقية مجرى العيب المحض والعار الفاضح ، وكان عند بعض قبائل
العرب إذا اشتهر أحد فتيانهم بعشق فتاة منهم منعوه عن التزوج بها لهذا السبب ، وربما
رفعوا أمره إلى السلطان ، إن شَهَرَ بها فى شعره ، فيهدر دمه . فهذا العشق الذى هو الركن
الأكبر والسبب الأعظم فى حصول التزاوج عند الغربيين ، هو من أكبر الموانع فى التزاوج
لدى الشرقيين ، ثم إن تهذيب الأخلاق بهذا الفن لا يأتى إلاّ من الطريق المألوف والمسلك
المعروف عند أهل كل بلد ، فتشخيص هذه الأقاصيص والروايات الغربية الموضوعة على
أخلاق أمة بذاتها لا يؤثر فى أمة أخرى ، ولا بد أن يكون التشخيص والتمثيل بين الشرقيين مطابقاً
لأحوالهم وظروفهم ، جارياً على مقتضى عرفهم وتاريخهم ، وليس من المقبول عندهم حصول هذا
التشهير والتمثيل فى معيشة الأهل والولد ، وما تنسدل عليه الحجب والستور ، فى البيوت والدُّور ،
وليس فى الدين الإسلامىّ ما يسمح باشتراك النساء مع الرجال فى تأدية هذا الفن ، لأنه ينهى
النساء عن التبرج بالزينة ، فضلا عن الاختلاط بالرجال ، ويأمرهنّ بغض البصر ، فضلا
عن طموحه ، ولا من أدب المسلمين أن يمثل بينهم تاريخ الإسلام وتاريخ خلفائهِ وصلحائه
فى أسلوب يبتدىء بالعشق والغناء ، وماذا ترى فى أبى جعفر عاشقاً ، وأبى مسلم مغنياً ،
وأبى الفوارس راقصاً ، كما يجترىء عليه الآن أهل هذا الفن ، وذلك أكبر إهانة للأسلاف
وأعظم خَرَف فى التاريخ ، وإن أردت أن أكاشفك بكل ما يجول فى خاطرى قلت لك
إن هذا الفن الذى تغالى الغربيون فى إتقانه وارتقائه لم يفدهم أدنى فائدة فى باب الآداب ،

وضرره بينهم اليوم ظاهر ونفعه غير باد ، لأن المعول عليه عندهم فى هذا الفن أن يظهروا الفضيلة من خلل تمثيل الرذيلة ، ويبينوا عن العفاف بتصوير الشهوات إلى حد المبالغة التى يذهب إليها خيال الشاعر ، فتوضيح الرذائل ، وتبيينُ الشهوات ، وعرضُها على أصحاب الرذائل فى القوالب المختلفة بما تنطوى عليه من وجوه الحيل والمكر والخداع والختل ، مدْرَجَةٌ إلى تعمق صاحب الرذيلة فى رذيلته ، واقتناعِه فيها بتلك الوجوه المنوعة ، فلا يسبقه إليها سابق ، وكم تدرَّبَ اللصوص ومَهَرَةُ الأشقياء ، وبرّز أهل الفسق والفجور بحضورهم تمثيل الروايات ، فاكتسبوا منها ما كان ينقصهم ، وأخذوا عنها ما كان يُعجزهم ؛ ومن تأمل قليلاً وجد أن الشرح والإسهاب فى خفايا الرذائل ، التى يندر حدوثها ويقل وقوعها ، كان من الأسباب فى انتشارها ، ولذلك قالوا : إن توضيح الجرائم التى من هذا القبيل فى القوانين مما لا يؤمن معه تيقظ المجرم إليها ، وقد سئل الشارع الحكيم اليونانى عن سبب إغفاله عقوبة القاتل لأبيهِ فى شريعته ، فقال : ما كنت لأتصور أن يونانياً فى الوجود يُقدم على قتل أبيه؛ فكان قوله هذا أنفى لوقوع هذه الجريمة من تدوينه شدةَ العقوبة عليها . واكتسابُ صاحب الفضيلة من كشف الرذيلة لا يقوم بمقدار الضرر الذى يلحق بأهل الشر منها .

قال عيسى بن هشام : ودق الجرس ، وعاد الناس إلى مقاعدهم ، واشتدت بينهم الجلبة وعلا الصياح ، وزين السكر لأحدهم أن يقوم فيهم واعظاً خطيباً ، فما زال يهذى فى القول حتى سقط على الأرض يتخبط فى قيئه ورجيعه ، لا فى دمه ونجيعه ؛ ثم ارتفع الستار عن منظر غابة ، يدور فيها ذلك الفتى ويتغنى بغناء يشبه أذان المؤذن ، ومن ورائه عشيقته تتلفت وتتعثر ، ثم رأيناه قد ترك الغناء مرة واحدة ، وتقدم نحو الحاضرين يخاطبهم بالزجر والتأنيب على جلبتهم وصياحهم ، ويشكو مر الشكوى من الانصراف عنه فى غنائه ، ثم إنه يعود إلى ما كان فيه من الغناء ، ويأخذ بيد خليلته للهروب ، فيدخل والدها عليه فى تلك الحال ، فيحول بينها وبين عشيقها ، فينبرى له الفتى بضربة حسام تلقيه على الأرض صريعاً ، ويدركه قومه ، فيصوب الفتى عليهم أسهمه ونصاله ، فيلجأون إلى الفرار ، وتقع المرأة مغشياً عليها ، ويقع العاشق باكياً تحت قدميها ، وعلى هذا يسدل الستار ، وينتهى

الفصل ، ويعود الناس إلى مكان الشرب والتدخين ، فنتبع أثرهم ، ونجلس ناحية فى بعض زوايا الخان ، وإذا بالعمدة وصاحبيه وعاهرته جالسون جانباً أمام إحدى المنافذ ، وأمامهم الراح والكؤوس مترعة ، وإذا برجل عابس الوجه بين الغاظة قد وقف أمامهم يقول المرأة فى كلامه : « أتظنين أن الهرب وخلف الميعاد يمنعك منى ويؤجل وفاء القسط المطلوب لى منك ، وأنا لا أزال أقتفى أثرك منذ الصباح إلى الساعة ، وتحملت فى البحث عنك تعباً عظيما ؟ والحمد لله إذ عثرت عليك فى هذا المكان ، ولست أبرح من هنا ، حتى تعطينى مبلغ القسط ، أو تردى إلىّ هذه الحلى التى يتزين بها صدرك أمام عشاقك وخلانك » ويمد يده ينتزع الحلى من صدرها ، فيمنعه الخليع متوسطاً بينهما ، ويقول له : ليس هذا وقته ، وليس هنا محل المطالبة ، وأمامك المحاكم ؛ فلا يرجع الرجل عن عزمه ، بل يقول : « أنا لا أطالب بحقى أمام المحاكم ، وأمامى مالى فى صدرها » ، ثم يمد يده ثانية ، فتقبض العاهرة على حليها ، وتميل على العمدة تستغيث به وتستجير ، فتأخذه الحمية والنخوة ، فيدفع عنها الصائغ بيده ، فيقول له : « إن كان قد عز عليك يا حضرة العمدة مطالبة صاحبتك ، فالشهامة تقضى عليك بأن تدفع لى المبلغ من عندك لا أن تدفعنى عن حقى بيدك » ، فيسأله العمدة عن مقدار المطلوب له ، فتقول له المرأة : إنه لا يزيد عن عشرين جنيها ، فينقد الصائغ الدراهم فى الحال ، ويطلب منه ورقة الاستلام ، ثم يقدمها إلى المرأة بيد والكأس بيد أخرى ، فتقبّل حافة الكأس شكراً له وحمداً ، وينصرف الصائغ ضاحك السن قرير العين ، ويعودون إلى شربهم وحديثهم ، فيقترح العمدة عليهم أن يغادروا هذا المكان إلى سواه ، وأنه يفضل الذهاب إلى منزل صاحبته ، ويطلب من الخليع أن ينظم له مجلساً هناك فوق سطح المنزل فى ضوء القمر ؛ وبينما هم فى أخذٍ وردّ ، وإذا بصاحب الخان الذى تشتغل فيه المرأة واقف على رأسها واضع يديه فى خاصرتيه يبكتها بقوله : « أهذا هو المرض الذى تعتذرين به عن تأخيرك فى هذه الليلة عن الشغل ، وهذا هو المستشفى الذى تتعالجين فيه ؟ وأظن أن حضرة العمدة هو الطبيب الماهر فى هذا العصر الحاضر » ، ثم يجرها بيده لتذهب معه إلى مباشرة الشغل فى الخان ، فيمسكها العمدة من أذيالها ، ويقول له : « ما هذه

الوقاحة ، وما هذا التهجم بعد أن أخذت منها عشرة جنيهات فى نظير تأخرها عن الشغل فى الحان ، ورضيت بهذا العوض لتكون على حريتها فى هذه الليلة ؟ » ، فيقول له : « إن كانت أخذت منك هذا المبلغ لدفعه إلى فقد كذبت فى دعواها وادخرت الدراهم لنفسها ، فإما أن ترد إلى المبلغ وتتعهد لى بأنك لا تجتمع بهذه المرأة فى غير محلى ، وإما أن تستعد للقضية التى أقيمها عليك بطلب التعويض الذى لا يكفينى فيه دخل أطيانك » ، ويشتد بينهم اللجاج والخصام ، فتنبرى إحدى الممثلات الجالسات فى الحان ، ممن انتهى دورهن ، فتستصرخ البوليس لإخراجهم ، فيأتى البوليس ويصمم على أن يسوقهم إلى « القسم » جميعاً ، ونخرج وراءهم ، لانباعهم ، فيأبى الباشا ذلك كل الإباء ، وينفر عنه كل النفور ، ويقول : أنا لا أتوجه إلى « القسم » ، لا شاكياً ولا شاهداً ولا مراقباً ولا مستخبراً ، فقد جربت ما يقع فيه ، وكفانى ما علمته من ظواهره وخوافيه ، وقد شعرت بسأم فى النفس ، وصداع فى الرأس ، فلنذهب إلى البيت ، لنتمتع بشىء من الراحة ، ونخلص من رؤية هذه الحرمات المباحة ، فأجيبه بالطاعة والانقياد ، ونترك الصديق على ميعاد .

المدنية الغربيـــة

قال عيسى بن هشام : وما وصلنا إلى البيت حتى عمد الباشا إلى غرفة نومه ، يحاول أن يشتفى بالرقاد من غمه وهمه ، فتركته فى غرفته ، ورغبت فى النوم كرغبته ؛ و بينا أنا غريق فى المنام ، أسبح فى بحر الأحلام ، إذ سمعت الباشا ينادينى نداء متتالياً ، فقمت إليه مسرعاً وملبّياً ، فأخبرنى أن طول التفكر نفى عنه الرقاد ، وأورثه الأرق والسهاد ، وطلب منى أن نحيي الليلة بالسمر ، وأن أقتلها معه بالسهر ، فجلسنا نتجاذب أطراف الحديث ، من قديم فى الزمن وحديث ، إلى أن صارت الليلة فى أخريات الشباب، فاستهانت بالإزار والنقاب، ثم دب المشيب فى فودها[1] ، و بان أثر الوضح[2] فى جلدها ، فعبثت بالعقود والقلائد ، من الجواهر والفرائد ، ونزعت من صدرها كل منثور ومنظوم ، من درر الكواكب ولآلئ النجوم ، وألقت بالفرقدين من أذنيها ، وخلعت خواتيم الثريا من يديها ، ثم إنها مزقت جلبابها ، وهتكت حجابها ، و برزت للناظرين عجوزاً شمطاء ، ترتعد متوكئة على عصا الجوزاء ، وتردد آخر أنفاس البقاء ، فسترها الفجر بملاءته الزرقاء، ودرجها الصبح فى أرديته البيضاء ، ثم قبرها فى جوف الفضاء ، وقامت عليها بنات هديل[3] ، نائحة بالتسجيع والترتيل ، ثم انقلب المأتم فى الحال عرس اجتلاء ، وتغير النحيب بالغناء ، لإشراق عروس النهار ، و إسفار مليكة البدور والأقمار ، وما نشعر إلا وقد طلع الصديق علينا مع الشمس ، للموعد الذى كان بيننا من أمس ، فسألنا كيف أصبحنا ، وهل نعمنا واسترحنا ، فأخبرته بما كان ، من اتصال السهر إلى الآن ، وما كانت تجرى عليه المسامرة ، وتدور به المذاكرة ، وجملتها أن الباشا لا يزال يدهش مما يراه فى رحلته ، ولم يكن له أثر فى أيام دولته ، و يستخبرنى عن سرعة هذا الانتقال ، من حال إلى حال ، وما الأسباب والعلل ، فى انتشار هذا الفساد والخلل ، فذكرت له بعض ما حضرنى منها ، وما علمته عنها ، و إنك

(١) الفود : معظم شعر الرأس مما يلى الأذن (٢) الوضح : بياض الصبح

(٣) بنات هديل : الحمائم

لخليق أيها الصديق أن تكشف لنا عن وجه الحق الصريح ، وتخبرنا بما عندك من السبب الصحيح .

(الصديق) — السبب الصحيح فى ذلك هو دخول المدنية الغربية بغتة فى البلاد الشرقية ، وتقليد الشرقيين للغربيين فى جميع أحوال معايشهم ، كالعميان لا يستنيرون ببحث ، ولا يأخذون بقياس ، ولا يتبصرون بحسن نظر ، ولا يلتفتون إلى ما هنالك من تنافر الطباع ، وتباين الأذواق ، واختلاف الأقاليم والعادات ، ولم ينتقوا منها الصحيح من الزائف ، والحسن من القبيح ، بل أخذوها قضية مسلمة ، وظنوا أن فيها السعادة والهناء ، وتوهموا أن يكون لهم بها القوة والغلبة ، وتركوا لذلك جميع ما كان لديهم من الأصول القويمة والعادات السليمة ، والآداب الطاهرة ، ونبذوا ما كان عليه أسلافهم من الحق ظهرياً ، فانهدم الأساس ، ووهت الأركان ، وانقضّ البنيان ، وتقطعت بهم الأسباب ، فأصبحوا فى الضلال يعمهون ، وفى البهتان يتسكعون[1] واكتفوا بهذا الطلاء الزائل من المدنية الغربية واستسلموا لحكم الأجانب يرونه أمراً مقضياً ، وقضاء مرضياً ، وخربنا بيوتنا بأيدينا وصرنا فى الشرق كأننا من أهل الغرب ، وإن بيننا وبينهم فى المعايش لبعد المشرق من المغرب .

(الباشا) — قد يكون ذلك ، ولكن لست أدرى لأية علة أخذ الشرقيون بباطل المدنية الغربية ، وارتدوا بلباسها ، ولم يلتفتوا يوماً للرجوع إلى سابق مدنيتهم الصحيحة وعمرانهم القويم ، فهم أهل السبق فى ذلك كله ، وعنهم أخذ الآخذون وقلد المقلدون فى كل زمان ومكان .

(الصديق) — لا أعلم لذلك من علة إلا ما أعقب العزة السابقة من البطر والأشر ، وما يتولد عنها من طول التوانى والتواكل ، وسوء التراخى والتخادل ، فغفلوا عن ماضيهم وذهلوا عن حاضرهم ، ولم يكترثوا لمستقبلهم ، وقعدت بهم هماتهم عن مشقة التكاليف التى كان يتباهى أسلافهم باحتمالها ، ويتفاخرون بممارستها ، وراقهم أن يأخذوا بهذا الطلاء الحاضر من مدنية الغربيين بلا مشقة ولا تعب ولا جد ولا كد ، فعظم مقدار أهل الغرب فى

---

(١) تسكع الرجل : تمادى فى الباطل .

أنظارهم ، وتوهموا أنهم من طبقة عالية فوقهم ، فخضعوا وذلوا ، وقهر الغربيون وغلبوا .

(الباشا) — ألاَ ليت شعرى كيف يمكننى الوصول إلى البحث والنظر فى أصول المدنية الغربية ظاهرها وباطنها ، وأن أقف على خافيها وباديها فى أرضها وديارها ، ولكن بعدت الشقة وعز المطلب .

(عيسى بن هشام) — لا نستبعد أيها الأمير حصول الغرض ونيل المطلب فى يوم من الأيام ، فإنه لايزال يدور فى خاطرى أن أرحل معك رحلة إلى البلاد الغربية نجتنى منها ثمرات العلم والبحث ، فإن كان هذا العزم من غرضك أيضاً فأنا أجهز له أمرنا .

(الصديق) — وأنا إن شاء الله معكما .

قال عيسى بن هشام : ثم قمنا وعقدنا النية ، على تحقيق هذه الأمنية ، ونسأل الله أن يسلك بنا سبيل الهداية ، فى المبدأ والنهاية .

[illegible]

الرحلة الثانية

باريس

قال عيسى بن هشام : سبحان من لا تجرى الأمور إلا بتقديره، ولا تنفذ العزماتُ إلا بتيسيره ، فقد يَسّر اللهُ لنا الرحلة إلى الديار الأوربية، لنشهد مظاهر المدنية الغربية ، و بلغنا من سفرنا المدى ، فألقينا بباريس العصا ، وشرعنا نجوب منها الطرقات الجامعة، والساحات الواسعة ، فلا القبائلُ تُدعى وتُهرع ، ولا الجيوش تحشد وتجمع ، ولا الموتى وهم يُنشرون، ولا الخلق وهم يحشرون ، يُضاهىٌ ما القوم فيه من ازدحام واقتحام ، واصطدام والتحام ، متدفقين فى سيرهم تدفق السيل ، تحت أضواء محت آية الليل فلا ليل ، يُخشى فيها على الأبصار ، أن تعشو من شدة الأنوار ، وربما انخدعت بها الديكة فأخذت فى الصياح ، إيذاناً بانبلاج الصباح .

فإذا نظرتَ إلى الشارع من العلوّ ، لم تبال بالغلوّ ، إن قلت بحر مسجور[1] ، قام عليه شاطئان من نور ، وإذا أبصرتَهُ من أسفله عند أوله ، قلت أسراب الدَّو[2] ، تصعد إلى الجو ، بين الكواكب الزهراء ، من كراتِ الكهرباء ، والبيوتُ عن حافتيه تشارف جو السحاب، وتحاول أن تعلق من السماء بأسباب ، فارعةً باسقة ، متلاصقةً متناسقة، كأنها فى انتساقها سطور الخط ، والأزهار على جدرانها شكلٌ ونقط ، فأين منه ما بناه لفرعون هامان ، وشاده جنٌّ سليمان لسليمان ، ورفعه سنمارُ للنعمان ؛ وأين شماريخ ثبير[3] ، من سنام البعير ، ومعارج الجبال ، من مدارج النمال ؟ لا بل أين البحر العباب ، من لامع السراب ، وأجرام الكواكب ، من بيوت العناكب ؟

وشاهدنا المارة يتسابقون فى هذا الموقف المتلاطم، والمأزق المتزاحم، من كل شيخ وكهل، وصبي وطفل، وفتى وفتاة ، بين ركبان ومشاة، والألوف من صنوف العجل تخترق صنوف الناس ، وتنفذ بينهم نفاذ السهام عن الأقواس، طائرة بقوة الكهرباء أو البخار أو الأفراس ،

(١) المسجور : المرتفع الأمواج (٢) الدو : الفلاة . (٣) الشماريخ : رؤوس الجبال ، وثبير : جبل معروف

ولما لم يسابقهن شىء من الحيوان سابقن الظلالا

وكل سائر منهم فى اضطراب العصفور ، وتلفت القطا المذعور ، إن خانته لفتته ، أدركته منيته ، وإن عثرت قدمه ، هُريق دمه ، وإن شمخ شامخ بأنفه ، وقع فى حتفه ، فهم يتلمسون شاكلتى الطريق[1] ، كما يتلمس الشاطىء الغريق ، والحوانيت على الجانبين متبرجة ببدائع البضائع ، ونفائس الصنائع ، تُغوى الزاهد فيشتهيها ، وتغرى الشحيح فيشتريها ، والحانات من بينها ممتلئة بالنفوس ، مشحونة بالجلوس ، فى يد كل واحد منهم كأس الصهباء ، وفى الأخرى جريدة المساء ، ونحن فى هذا الموقف تكاد تطيش منا العقول ، من هول الدهش والذهول ، وتطير منا الألباب ، من شدة الوجل والاضطراب .

فى ساحة لو أن لقمان بها وهو الحكيم لكان غير حكيم

ومال بنا طلب الراحة ، إلى حان فى تلك الساحة ، فلم نجد به مكاناً خالياً من الزحام ، فمكثنا مدة واقفين على الأقدام ، وكدنا نذهب عنه آيسين ، لولا أن تحرك بعض الجالسين ، فذهبوا لشأنهم ، وخلفناهم فى مكانهم ، وجلسنا فى هذا المأمن نتصفح وجوه الحاضرين ، وأجناس المارين ، فإذا عدد ربات الحجال ، يربو على عدد الرجال ، من كل ذات حسن وجمال ، وتيه ودلال ، وقدٍ متأوِّد ، وخدٍ مُتورد .

تختال فى مفوَّفِ الألوانِ من فاقع وناصع وقانِ

وهن يرفلن فى الوشى ، ويسرعن فى المشى ، ويبارين فى رفع الفضول ، من الأطراف والذيول ، ويَضْرِبنَ الأرض بأرجلهن ، ويزحزحن ما استطعنَ من خُلاِهن .

ويَبسمنَ عن دُرٍّ تقلَّدْنَ مثلَهُ كأن التراقى وُشِّحَتْ بالمباسمِ

وينشرن من الأرَج والطِّيب ، مثل نَشْرِ الزهر فى الغصن الرطيب ، ويُرسِلْنَ سهام العيون ، فيحرِّكْنَ سواكنَ الشجون ، ويُسلِّطْنَ من اللحاظ القواتل ، ما يُدمى حبات القلوب الغوافل .

إشارةُ أفواهٍ وغَمْزُ حواجب وتكسيرُ أجفانٍ وكفٌّ تُسلِّمُ

وأصناف الباعة يكثرون من الغدوّ والرواح ، ويَهيجون فى النداء والصياح ، بمثل العُواء والنُّباح ، دائبين فى الإلحاف والإلحاح .

---

(١) الشاكلة : الناحية والجانب .

ولما أفقنا هُنيهة ، أخذ الباشا كعَادِه[١] فى السؤال ، يَسْتجْلِى منا واقعة الحال ، ويقول: ما أشك فى أن هذا اليوم يوم عيد ، عند أهل هذا العالم الجديد ، أو هُمْ فى نظرى سكان مهاجرون ، أو جند قافلون ، انتهوا من حومة المنايا ، بالغنائم والسبايا ؟ فأقول له : لا بل هى كما يصفها الواصفون ، ويُعرِّفها العارفون ، تلك المَدِينة الفاضلة ، أُمّ المدنيَّة الكاملة ، مهبط العمران والحضارة ، ومظهر الزينة والنضارة ، وموطن العز والمجد ، ومصدر النحس والسعد ، بل هى تلك عندهم إرَمُ ذات العماد ، التى لم يُخلق مثلها فى البلاد ، لو رآها صاحب الإيوان ، كسرى أنوشروان ، لم يفخر على الدهر ، بإيوان ولا قصر ، ولحَكَمَ بأن «المدائن» لديها سَبْسَبٌ[٢] قفر ، ولو نظرها قيصر الرومان لأقْسَمَ أن رومية ، وهى عنده عاصمة الدنيا ، قرية لديها من الطبقة الدنيا ، مثل التى ذكَرَها فى كشفه عن طَمَاعِيَتِه ، قبل ولايته ، إذ قال : أفضِّلُ أن أكون الأوَّلَ فى أدنى قرية ، ولا أكون الثانى فى مدينة رومية ، ولو شاهدها أفلاطون حكيم اليونان ، لم يقل فيما دَبَرَ من الزمان . أحمد الله على نعمٍ ثلاث يعجز عن حمدها اللسان ، ولا يقوم بحقها شكران : أن خلقنى من نوع الانسان لا من نوع الحيوان ، ومن جنس الرجال ، لا من جنس النساء ، ثم جعَلَ نسبتى إلى «أثينا» عاصمة اليونان ، دون سائر البلدان ، وَلو اطّلع عليها هارُوت ومارُوت ، لم يُمارِيا فى أن بابلَ عندها فلاة سُبْرُوت[٣] .

لجنة الخلد تُسْرُ مَنْ رأى ❊ فتزدَرِى «الخُلْدَ» و«سُرَّ مَنْ رأى»[٤]

هذه هى اليوم بيت العلم والفضل ، ودار السلام والعدل ، ومعهد الحق والانصاف ، ومهد الاتحاد والائتلاف ؛ هذه هى المدرسة التى يُشرق منها على العالمَ شمس الهدى والعرفان ، ويتلقَّى الإنسان عنها حقوق الإنسان ، ويعرف منها وجوه الخير والإحسان ، ولكل إنسان وطن ، وهى لكل وطنىٍّ وطنٌ ثان ، لولاها لم يدرك الانسان لنفسه من قدْر ، ولم يأمن فى دياره من اغتيال أو غدر ، فقد كفّتْ عن الناس عادياتِ المظالم ، وكفتهم بائقات[٥]

---

(١) العاد : العادة (٢) السبسب : المفازة والأرض البعيدة المدى (٣) السبروت : القفر

(٤) الخلد : قصر للمنصور . وسر من رأى : بلدة بناها المعتصم العباسى شمال بغداد .

(٥) البائقات : جمع بائقة . وهى الداهية

المغارم ، وعلمتهم كيف تؤتى المكارم ، وتجتنب الأوزار والمحارم ، وكيف يعيش البشر فى دار الشقاء ، عيش السعادة والهناء ، تحت ظل « الحرية » و « المساواة » و « الاخاء » . إذا ناداها المظلوم من أى جنس وأى قوم ، أجابته : لبيك مات الظلم فلا ظلم اليوم .

وهؤلاء أهلها كما تراهم يهجرون الرقاد ، ويواصلون السهاد ، ويصرفون الحياة فى الجد والعمل ، ولا ينتهى بهم أمل إلا إلى أمل ، فليس على هممهم شئ بمحال ، فى كل حال ، يذيبون بعزائمهم صلب الحديد ، وتلين لاشارتهم صم الجلاميد ، ويذيبون الهواء ، ويكتبون على الماء ، ويفتلون الحبال من الرمال ، ويزيلون راسيات الجبال ، برائشات النبال ، وينضبون الدأماء[1] بمتح الدلاء ، ويمحون آية الليل فلا تبلغ فيهم أمدا ، ويجعلون النهار دائماً عليهم سرمدا .

أولئك الناسُ إنْ عُدُّوا بأجمعهم ومَنْ سواهم فَلَغْوٌ غيرُ معدودِ
والفرقُ بين الورى جمعاً وبينهمُ كالفرق ما بين معدومٍ وموجودِ

أقول قولى هذا ، والباشا ينصت ويتأمل ، و « الصديق » يتبرم ويتململ ، فالتفتُّ إليه أستخبره الخبر ، عن سبب هذا الضجر ، فما أتممتُ عليه أحرف السؤال ، حتى انهال علينا فى المقال ، انهيال السيل من مُشْرِفٍ عال :

(الصديق) — تالله لقد سئمنا ومللنا من سماع مثل هذه المبالغات ، وتردادها على آذاننا فى وصف هذه الديار ، ونحن فى ديارنا السنين والأعوام ، وأولى ما يوصف هذا الوصف للغائب عنها لا للحاضر فيها ، وأنت رجل بحاث نباث[2] من دأبك استنباط الغوامض واستجلاء الدخائل ، وألزم ما يكون لنا الآن أن نجعل فكرنا مجرداً عن مثل هذه الأوصاف والأخبار ، التى شحنتْ خيالنا زمناً طويلا ، فننساها ولا نذكرها ، ليكون حكمنا على المشاهدة والعيان خالياً من مقدمات سبقت على الغيب ، ورسخت فى أذهاننا بالخبر ، وقد علمتَ أن ذهن الإنسان يغلب عليه الانقباض عن الفحص والتمحيص ، ولا يباشرهما فى الغالب إلا مضطراً مقسوراً ، لما فى التسليم المطلق والتصديق المعجل من

---

(١) الدأماء : البحر (٢) نباث : منقب

راحة الفكر وسكون البال ، وربما ارتسم فى خياله أمر استحسنه بالخبر ، فيركن إليه ويردُّ كل ما يَردُ عليه من قبيله إلى صحيفة الاستحسان والقبول فى نفسه — والأذن تعشق قبل العين أحياناً — كما أنه إذا هو استقبح أمراً كان الأمر على هذا القياس ، ولذلك ترى العاشق يردّ كل ما يصدر عن معشوقه إلى الحسن ، وإن كان غير حسن فى الواقع عند الفحص والتأمل ، للميل الأول والاستحسان السالف ، واستمداد لوح الرضا والقبول فى نفسه ، لانتقاشه فيه ، ومن هنا جاء قولهم :

وعينُ الرضى عن كل عيب كليلةٌ كما أن عين السخط تُبدى المساويا

ولقد ترى الرجل الشاعر الأديب إذا أنت أنشدته بيتاً من الشعر لم يكن يعرفه ولم تُسم له قائله ربما استهجنه ولم يستملحه ، فإذا سمَّيْتَ له أبا تمام مثلاً أو أبا الطيب ، ارتد إلى الاستحسان ، وأخذ يتحمل القائل البيت عذراً ، إن كان فى البيت ما يستهجن حقيقة ، وما كان ذلك إلاَّ لِمَا اطمأنت عليه نفسه وتعودّته من القبول والاستحسان لكل ما يصدر عن هذين الشاعرين .

ويمكن من هذا كله أن نستخرج معنى الحظ والسعد والإقبال الذى يناله الإنسان فى دنياه ، إن صادف عملهُ فى النفوس صحيفة الاستحسان بين الناس ، ومعنى النحس والتعس والإدبار ، إن صادف ما يأتيه عندهم لوح الاستقباح ، والشاعر يقول :

إذا أقبل الإنسانُ فى الدهر صُدِّقتْ أحاديثُهُ عن نفسِهِ وهو كاذبُ

فما بالك بأحاديث الرواة عنه وحسنِ المقالة فيه ، وقد عهدنا الغربيين عموماً ، وهؤلاء الفرنسيين خصوصاً ، لا نتصفح لهم كتاباً ولا نسمع منهم حديثاً إلا بتمجيد مدنيتهم ، ومباهاة الناس طرًّا بنظام معيشتهم ، وأنهم هم أرباب الخلق وسادة البشر ، وأن الهدى هداهم ، والضلال فيمن عَدَاهم ، وأنه أُوحِيَ إليهم من سماء مدنيتهم أن يخرجوا الناس من الظلمات إلى النور ، فإما الإيمان بها وإما الحسام ، وقد ذاعت فينا دعوتهم ، وأعانهم منا على نشرها مَنْ أعانهم ، فقبلنا مبالغاتهم بالتصديق والتسليم من غير بحث ولا نظر ،

وصرفنا كل ما يأتونه إلى وجوه الحكمة والصواب ، و بسطنا لهم صحيفة الاستحسان من النفس ، يرتسم فيها كل ما يتخيلونه لنا و يموهون به علينا .

فالرأى لنا حينئذ أن نطرح عنا ما قالوا وما وصفوا ، وننظر اليوم إلى الأمور فى حقائقها ، ونحكم عليها بحسب قيمتها فى ذاتها لا على حسب ما رسمه الوهم وسوّله الخيال فى نفوسنا ، ومعنا الباشا يمتاز علينا والحمد لله بأنه كان بعيداً عن هذا العالم محتجباً عن هذه الدنيا الدهر الطويل ، فبقى خالى الذهن مما شحن رؤوسنا من هذه المدنية ، فحكمه اليوم على ما يشاهده بالعيان ، دون الخبر والرواية ، يكون أصح حكم ونظره أصدق نظر ، وما علينا إلا أن نشاركه فى صحة النظر مجرّدين عن الهوى ، حتى نقف على كنه الحق والباطل فى نظام هذه المدنية وقوفاً تاماً .

(عيسى بن هشام) — لك الله فيما تبدىء وتعيد ! ! كأنك تريد أن نخالف الإجماع ونقابل الناس بغير ما ألفوه ، فننتقد لهم ما هو خالٍ عندهم من انتقاد ، بعيدٌ من الذام والعار ، فيرموننا بغلظة الطبع ، وجفاء الفهم ، وسخف الرأى ! ثم لا يفوتنك أن كثيراً من ذوى الرأى يرون أنه ليس من أدب الدنيا أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يُروَى .

أو ليس من صواب الرأى حينئذ أن نسير على أسلوب الذين سبقونا إلى زيارة هذه البلاد ، فنرجع على أهل الشرق باللائمة عليهم فى انخفاضهم وارتفاع أهل الغرب فوقهم ، وأن نَصِفَ ما القوم فيه من القوة والمنعة وَمظاهر العز والعظمة فى النعيم المقيم ، وَأننا لا نزال راقدين رقادنا الطويل فى كهوف التراخى والخمول ، يقولون فنسمع ، ويأمرون فنصدع ، و يقتسمون أرزاقنا فنشكر ، و ينقصون من أرضنا فنحمد ، و يحتلون ديارنا فنقبل ، أفلا أقل من أن نسهب فى بيان الأسباب التى ارتقت بهم إلى مرتبتهم فى الوجود ، ونطنب فى شرح القواعد والأصول التى أسسوا عليها بنيانهم ، لنحذو حذوهم ، ونعمل على شاكلتهم ؛ أو ليس الأليق بنا أن نحض قومنا ، لينفضوا عنهم غبار الكسل ، و يخلعوا عنهم لباس الخمول ، و يهبوا إلى تقليد هؤلاء المجتهدين فى أنواع الكمالات ؟ أوَ لستَ ترى ، مِن أفضل الأبواب فى الحث والتحريض. أن نفخم ما استطعنا فى وصف هذه المدنية ، ونعظمها

فى أعينهم ، ونكبرها فى صدورهم ، ونبكتهم بأحاديثها ، ونرفع من قدرها بقدر ما نحط من قدرنا ، ونعيرهم بالمقارنة ، ليكون الحث والتحريض على المباراة أشدّ ، والإثارة إلى اللحاق بهم أبلغ ، ولو سكت الأستاذ عن تلميذه ، ولم يعيره بسبق غيره عليه ، أكنت تراه يجد فى الأخذ ، ويجتهد فى التحصيل ؟

(الصديق) — لا يعزب عن فطنتك بادىء الأمر أن جل هؤلاء الذين تحكى عن طريقتهم ممن زار هذه البلاد من أقوامنا ، وعادوا إلى بلادهم فحدثوا عنها ، وكتبوا وقرروا وحكموا ، ينقسمون إلى أقسام :

القسم الأول منهم : الطلبة الذين تلقوا فى هذه البلاد دروسهم ، وهؤلاء لِمَا هم فيه من غُلَوَاء الشباب والافتتان بكل رائع يغلب عليهم الأخذ بالظواهر ، ولا متسع ثَمّة عندهم للبحث والفحص ودقة التمييز فيما هو داخل تحت حكم الفضيلة ، وداخلٌ تحت حكم الرذيلة عند النظر فى معيشة أهل هذه المدنية الغربية ، بَلْ هى تتجلى لهم فى صورة معظمة ، فيأخذونها على الجملة زاهية زاهرة ، حتى إذا انقلبوا إلى أهليهم ، رووا لنا عنها مثل حديث المغرم عن معشوقه فى أوقات نشوته ، وكان همهم أن يظهر عليهم أثر من آثار تلك المدنية العظيمة مما تخف مؤونته وتهون تكاليفه ، لِيُلحقوا بأنفسهم شيئاً من تلك العظمة التى بهرت خيالهم وبهروا بها أعين الناس ، ولسنا من أهل هذه الطبقة .

والقسم الثانى : جماعة منا قصدوا هذه البلاد للنزهة والاسترواح لا سواها ، فهم لا ينظرون إلى هذه المدنية إلاّ من وجه تطبيق العِيان على الخبر ومَنْ بحث منهم فانكشف له فيها عيب ، كره تغيير الرأى ومخالفة المعهود ، لما فيه من المشقة والكلفة ، ثم أضف إلى ذلك ما يكون للاختصاص بمشاهدة المحاسن دون المعايب ، والتبسط فى الحكاية عنه من الفضل على السامعين والمستخبرين ، ولسنا من هذا الصنف .

والقسم الثالث : طائفة من أرباب الوظائف فى الحكومة يفرون إلى هذه البلاد من أسر الخدمة مسافة الشهر أو الشهرين فرار الأسير من القِد ، ومنهم مَنْ تَلَقَّى دروسه فيها ، وحكمهُ حكم الذين ذكرناهم فى القسم الأول ، وفيهم من لم يتعلم فى أوربا ،

فهم يسيرون على نهج المباراة للمتعلمين فيها ، صائرين على نمطهم ، ليلتحقوا بهم ، ويُحشروا في زمرتهم ، ويرتفع عنهم بعضُ امتيازهم عليهم ، وحكمهم حكم واحد أيضاً ، على أنهم ليس عندهم جميعاً من سعة الوقت ما يفسح لهم مجال البحث والتدقيق فيما يرونه ، فان كل موظف منهم لا ينفك مدة زيارته مشتغل الفكر ، مقسَّمَ النظر ، بين أمرين : عين تنظر إلى ما بقى فى صحيفة إجازته من الأيام ، وعين ترمق ما بقى فى كيسه من الدراهم ، ولسنا من هذه الرتبة أيضاً .

وجميع هذه الأقسام كما تراهم مولعون بالمبالغة فى الوصف والغلو فى القول ، ولا غرو فالناس لا يرون لهم فضلا فى الرواية والنقل ما لم يضيفوا إليهما الكثير المفترى من عندهم ، ولحكاية الغريب وروايةِ العجيب لذة فى نفس الراوى وحلاوة فى أذن السامع . على هذا دَرَجَ الخلق منذ خلق الله آدم إلى اليوم ، ومنذ جرت أساطير الأولين عن الجن والعفاريت والأغوال والسعالى إلى قصة « ألف ليلة وليلة » و « سيرة عنترة » و « خريدة العجائب » .

وهناك قسم رابع ربما فحص ودقق ووقف وعلم ، ولكنّ له هوى خالصاً به يمنعه من كشف الحقائق ، ويدفعه إلى المبالغة على القصد والغلو على العمد ، فلا يرى ما يرويه عن هذه المدنية إلا بالتشييد والتمجيد ، باطلا كان أم حقاً ، لينصر مذهباً له معينا وغرضا مضمراً ، فيدأب بيننا كالأجير للأجنبىّ ، يرفع لنا من شأن مدنيته وقوة حضارته ، ليرتفع معه بارتفاعه ، ويتسلط علينا بسلطانه ، وينتفع منه بتمكين جاهه فينا وقدرته علينا ، وفى هذا القسم من يرى أن فى استيلاء المدنية الغربية على الشرق وتغييرها لقديم عاداته وأخلاقه انتصاراً لمذهب بعينه ، فهم فى إشادتهم بأمرها وتشيعهم لها ، وتبشيرهم بها ، كالمتشيعين لمذهب ، والمبشرين بدين .

فقد تبين لك إذن أننا لسنا بمعدودين فى قسم من هذه الأقسام ، وقد خرجنا من ديارنا واصطحبنا فى سفرنا على شريطة الفحص والتنقيب والاعتراض والانتقاد ، وأن نتحدث عن هذه المدنية بما فيها من ضار ونافع ، ومعوج ومستقيم ، على المشاهدة فى منبت أرضها وتربة نشأتها ، وأنا رجل أميل إلى أن كل حقيقة تقال وكل صحيح يروى ، فدعنا حينئذ من

الغلو والاغراق ، واتركنا من التخيل فى النعت وتمحّل الشعر فى الوصف ، وخذ بنا فيما عهدناه على أنفسنا ، وقد آن أن نسأل الباشا ، وهو ينظر إلى الأمور بنظر صادق مجرد عن الهوى ، عما وقع عليه من التأثير فى نظرته الأولى عن هذا العالم الحديث عنده ، وعن جملة ما حصل منه فى نفسه .

(الباشا) — ما أرانى أميّز شيئاً فيما رأيته من هذا الخلق المزدحم ، وهذه الحركة المشابهة لحركة الأسواق فى هذا الدّوىّ المماثل لدوىّ الخلايا ، وهــذه الأضواء التى يتأذى منها البصر ، وجملةُ ما أنا فيه الدهشة والحيرة ، ولعل هذا هو الذى يمنعنى من التمييز ، وكنت أود أن يقع اختيارنا على ناحية ساكنة من المدينة ، خالية من مثل هــذا الزحام ، حتى نألف الديار وساكنيها .

(عيسى بن هشام) — ليس ماتوده من هذا القبيل بميسور ، لأن الزحام منتشر فى جميع أرجاء المدينة ، وهذه الحركة لا تنتهى الليل والنهار ، ولا جرَم فان عدد سكانها يُقدّر ببضعة ملايين ، ولك أن تقول فيها إنها جملة بلاد متجمعة متشابكة يَعدُّونها مدينة واحدة .

(الصديق) — وفى هذا من عظمة الملك مالا يخفى على أحد ! !

(الباشا) — إن كان الأمر كذلك ، فلا بدّ لنا من مرشد يرشدنا وهادٍ يهدينا ، فنقف منه على ما يخفى علينا فيها ، وما يغمض من حقائق الأمور .

(الصديق) — ما إخالك واجداً لطلبتك ، فقلّ أن تجد فى أهلها منْ لا يسلك السبيل المعروف فى تشييد مجد قومه ونشر مفاخرهم بما نحن فى غنى عنه ، ولسنا نستفيد منه إلاّ كثرة اللغو وقلة المحصول .

قال عيسى بن هشام : وجاء وقت الطعام فقمنا إلى المطعم ، ولما أخذنا مقاعدنا على المائدة تبصّرنا أمامنا ثلاثة أشخاص من أهل المدينة يتجادلون بينهم . فأنصتنا إليهم نتلقف من أفواههم ما يخوضون فيه ، أحدهم شاب ضئيل الجسم حسن الشّارة محلوق اللحية والشارب ظاهر التكلف فى زيه ينمّ شكله وحديثه على أنهُ أديب من كتّاب العصر ، وثانيهم رجل بَدِين منتفخ البطن أحمر اللون ينبئك وجهه وقوله أنه من طائفة التجار ، وثالثهم شيخ جميل

المنظر فى وقار السن ورزانة العلم مايشك رائيه والسامعُ له فى أنه رجل من أهل الفلسفة والحكمة ، ولَذَّ لنا أن نجعل التفرغ لاستماع كلامهم سمرَ المائدة ، فوجدناهم ينتقلون فيه من باب إلى باب ، ومن شأن إلى شأن ، حتى انتهى القول بهم فى الأحوال الحاضرة إلى حرب الصين ، فسمعنا « الكاتب » يقول ، وهو يضرب المائدة بيديه والأرض برجليه :

(الكاتب) — لقد آن للمدنية أن تزيل الهمجية وتمحو الوحشية من الوجود ، وأن نقوم بنشر الرسالة التى سخرنا أنفسنا لتبليغها إلى الناس ، فنصلح من شأن الإنسان فى أي مكان كان ، ونغرس فيه أصول المدنية ، ونأخذه بتعاليمها ، لنصل بالعالم الإنسانى إلى الراحة الدائمة والسعادة المطلقة فى هذه الحياة ؛ و إلا فما مزية جهادنا فى فنون الترقى والتقدم والتسابق فى العلوم والفنون ؟ وما فائدة هذا الاختراع والابتداع فى أبواب الصناعات والآلات ؟ فإن كان المقصود من المدنية أن نتقن هذه الآلات الحربية، ونعدّ هذه القوى العسكرية ، ليقتل بها بعضنا بعضاً ، ونخرّب بيوتنا بأيدينا ، فبئست العلوم والفنون، و بئس ماسخرنا له أنفسنا وأضعنا فيه أعمارنا ، إذ تنقلب الغاية من تهذيب المدنية إلى فظاعة الوحشية .

ولقد كان الواجب على دول الغرب وأممه أن يتحد بعضها ببعض فتنصرف بكليتها ، وتندفع بجميع قواها ، التى شيدتها لها أفكار العلماء وذوى المعارف منا إلى تهذيب بقية أهل هـذا العالم المقيمين على الجهالة إلى اليوم ، لتنتزعها من حضيض الهمجية إلى مقام الرفعة الإنسانية ، فيحق لكل واحد منا بعد ذلك أن يفتخر على الطبيعة بأنه أصلح فسادها وسد نقصانها .

(التاجر) — نعم هكذا يجب أن تكون سيرتنا ، و إلاّ فكيف يتسنى لنا تصريف بضاعتنا ، وترويج صناعتنا التى تقوم عليها معايشنا وتضيق بها أرضنا إذا اجترأ أهل الصين على أن يقوموا فى وجوهنا و يعطلوا مصالحنا ؟ وكيف نُجهد أفهامنا فى العلوم ، ونشقى ونتعب ، وفى العالم أقوام نيام على أرض من الذهب كالأرصاد فوق الكنوز لا ينتفعون بها ولا يتركون الانتفاع بخيرات الطبيعة وطيباتها للذين استحقوها بكشف أسرارها ورفع أستارها ؟

(الحكيم) — إن كان الكلام بينكما عن المدنية الصحيحة التى تقوم على الحرية والمساواة والإخاء حقيقة، وتعم الخلق من غير استثناء بالعدل والاحسان، وتوفر لهم أسباب السلم والأمن فى السعة والرخاء، فلسنا منها فى شىء إن كنا نظنها مقصورة على إتقان الآلات وحشد الجنود، والتفنن فى تشييد قوى الحرب، وإنفاق ثروة الأمة فى سبيل ذلك، حتى تضيق بنا الأرزاق فى أرضنا، فنعمل على طلبها فى أنحاء المسكونة، ونسلط على أهلها هذه القوى الحربية؛ ولسنا من المدنيـة فى شىء أيضاً، إذا كنا نعتبر أنفسنا ملائكة الأرض، وصفوة البشر، وأرباب الخلق، فنحتقر بقية العالم، ولا نرضى منهم إلا بتغيير أخلاقهم ونسخ عاداتهم، وأن يفوضوا إلينا أمورهم، ويسلموا إلينا مقاليدهم، ونكون فوقهم كالأوصياء نصرفهم إلى مانحب ونسوقهم إلى مانهوى، وليست المدنيـة أن نذهب إلى الصينى فى أقصى الأرض، وهو آمن مطمئن بين أهله وولده فى عيش يرتضيه ونظام يألفه، فنقول له: قم فقد جئناك بالهدى والحق، فهلم فـكسر أصنامك، واهدم مناسكك، واحرق كتابك، وغير ثيابك، وبدل طعامك، وارفع حجابك، وكن أوربياً فى الصين القديم، وغربياً فى الشرق الأقصى، فإذا قال لنا: لست أفقه شيئاً مما تدعوننى إليه، ولا أدرى ما هذا الدين الذى تبلغوننى رسالته، قلنا له: ليس هذا بدين ولا بمذهب، وإنما هى دعوة المدنية الغربية ندعوك إليها لتقرها وتتلبس بها، فيقول لنا إن كانت لكم مدنية غربية فلنا مدنية شرقية أسستها فينا تجارب القرون المتراكمة، وبقيت فينا نقية خالصة هذبتها الدهور وأخلصتها يد الزمان، وليس يبقى على الزمن من الأخلاق والعادات إلا ما كان له أصل ثابت وجوهر نقى، وأنتم إن كنتم تؤرخون وجودكم فى العالم بسبعة آلاف من السنين، فنحن نؤرخ وجودنا بمئات الألوف، وإن كانت مدنيتكم بنت قرن أو اثنين، فإن مدنيتنا بنت عشرات القرون، اصطلحنا عليها وألفناها، وطاب لنا العيش بها طول هاتيك الدهور، ومن دلائل المدنية الصحيحة أن تعيش فيها بأمن وسلام لايطمع أحد فيما ليس له، ولا يغير على حق لغيره، وقد علمتم أننا عشنا دهرنا الطويل لم نطمع فى أرضكم ولم نترحر باً لفتح، ومن دلائلها أنها لاتنتهى بأصحابها إلى مفاسد الترف

والنعيم فتضعف الأجسام ويقل النسل ، وقد علمتم أن بلادنا هى أكثر البقاع سكاناً وأعظمها عمراناً ؛ فنقول له : ما أضلَّ أحلامكم يا معشر الصينيين ! ألم تعلموا بأن مدنيتنا هى مدنية العالم كله لا سواها ، قامت على العلوم والمعارف ، واستوت على أساس متين كان ينشده الخلق منذ القدم ، فما زالوا يتخبطون دون الوصول إليها ، حتى سمحت الطبيعة آخر الدهر فأنجبتنا لها ، فأخرجناها للناس هدى ورحمة ، وعهدنا على أنفسنا دعوة الخلق إليها ليسعدوا بها مدى الحياة ؟ بهذا وصانا أئمة المدنية فينا ورجال الدعوة منا .

إن كانت هذه هى المدنية التى نفاخر بها ونساجل ، فلا بدع أن يعتقد أهل الشرق أنها ليست إلا وسيلة من وسائل الفتوحات لنيل المطامع و بلوغ المآرب .

قال عيسى بن هشام : وتأتى غادة هيفاء ، تتثنى بقوامها ، وتتكسر فى مشيتها ، فتخاطب « الكاتب » بالعتاب ، لأنه أهملها فى الانتظار ، وجلس للكلام والجدال ، وتسوقه أمامها بعصا المظلة ، و يتبعهما التاجر ، و يبقى الحكيم يرمى ثلاثتهم بالنظر الشزر ، وينعى عليهم سوء رأيهم وفساد نظرهم .

و يلتفت إلىّ « الصديق » فيقول لى : ما أغرب ما نرى من هذا الشيخ الفرنسى ، فما أصلبه فى قول الحق ، وما أجرأه على الجهر بالصدق ، وما أولانا بمعاشرة مثله نستبصر به ونسترشد ؟ فأرفع ببصرى إلى الشيخ ، فإذا هو يرمى بنظره إلينا ، و يستمع لحديثنا بالعربية و يظهر نحونا البشر ، فقابلته بابتسامة أخطب بها وده ، فبادرَنا بالحديث ، واتصل بيننا حبل الكلام ، فسألنا عن أمرنا ، وسألناه عن أمره ، فتبين لنا أنه رجل من أساتذة الفلسفة والحكمة ، ومن المستشرقين الذين يشتغلون بالشرق وأهله ، وكشفنا له حقيقة أمرنا ، والغرض الذى رمينا إليه ، فاتفق معنا على المخالطة والمصاحبة نحكى له عن الشرق و يحكى لنا عن الغرب ، ودعانا لزيارة المعرض العام معه فى الغد ، فقابلناه على ذلك بالشكر والحمد .

المعـــرض

قال عيسى بن هشام : وانطلقنا نقصد عكاظ الممالك والأمم ، وسُوقَ الأقدار والهمم ، ومشهدَ النفائس والعظائم ، ومظهر القُوَى والعزائم ، وحلبة الابتكار والابتداع ، وميدان الإنشاء والاختراع ، ومعرض التبصر والاهتداء ، فى حسن التقليد والاقتداء ، ولهذا للمعرض خمسون باباً ، تختلف ابتعادا واقترابا ، فبلغناهُ من ناحية الباب المعظم ، والمدخل المقدَّم ، فإذا الباب قبة تقوم على ثلاث قوائم ، تلامس بعلوها الغمائم ، كأنها اليفاع (١) ، فى الاتساع والارتفاع ، ينحدر من تحتها الجيش المتراكب ، فلا تماسُّ فيه المناكب ، وعلى كلا الجانبين (٢) سارية ، تقارن السُحبَ غادية وسارية ، يدور فى رأس كل واحدة منها نبراس وأىّ نبراس ، إذا اشتعل جمل فحمة الليل قبساً من الاقباس ، فكلتاهما علم فى رأسه نار ، يستوى عندهما الليل والنهار ، ومَنْ لصخر الخنساء أن يأتمَّ بهما فى ظلمة البيداء وهو المؤتمُّ به فى أبيات الرثاء :

وإنَّ صخراً لتأتمُّ الهُداةُ به ۔۔۔ كأنه عَلَمٌ فى رأسه نارُ

فهما عمودا فجر ، لا عمودا صخر ، يكتنفان تمثال غانية غيداء ، قائمة على رأس تلك القبة الشماء ، رشيقة القد ، بارزة النهد ، ممكورة لفّاء (٣) ، مجدولة عجراء ، قد خلعت الإزار والوشاح ، وتبدت فى « قميص الصباح » ، وهى تضمُّه بيديها إلى صدرها ، خشية أن يحاول النسيم هتْكَ سترها ، إذا عارض وجهها القمر ، علا وجهه الكدر ، ثم بان فيه الكَلَف والنمَش ، فاحتجب بالغمام وانكمش ، وغارت منها الزُّهرة ، غيرة الضرة من الضرة ، فغارت فى الدجون ، وغابت عن العيون ، لو قام نابغة بنى ذبيان من قبره ، لشهد أنها الدُّمية التى وصف بها المتجرِّدة فى شعره :

---

(١) اليفاع : التل المرتفع ۔۔۔ (٢) السارية : الأسطوانة والعمود

(٣) المكورة : المدمجة الخلق . واللفاء : الممتلئة الساقين

أو دُميةٌ من مرمر مرفوعةٌ   بُنِيَتْ بآجُرٍ يُشادُ وقَرْمَدِ(١)
أو دُرّةٌ صَدَفيـة غوّاصُها   بَهِجٌ متى يَرَها يُهِلّ ويسجدِ
لو أنها عرَضَتْ لأشمطَ(٢) راهبٍ   عَبَدَ الإلهَ صرورةٍ مُتعبِّدِ(٣)
لرنا لرؤيتها وحسنِ قوامها   ولخاله رشداً وإن لم يرشدِ

فقد أقامها الصناع آية الفن فى التصوير والتشكيل، وشاردة الشوارد فى الرسم والتمثيل، يُخيِّلون بها « فرنسا » فى ترحيبها بالزائرين والقاصدين، تحيتها للواردين على المعرض والوافدين، والبابُ كله مرصع بحقاق من البلور(٤)، إذا تلألأ فيها شعاع النور، خِلتها أنوار الأزهار فى أغصانها، أو أذيالَ الطواويس فى اختلاف ألوانها، بل قلائدَ منظومة من در وجوهر، وعقودَ ياقوتٍ من أحمر وأزرق وأصفر، لا بل فصوصاً مُنضَّدة من الماس، يتراءى فيها طيف الشمس بالانعكاس.

ولما تجاوزنا الباب، انتهينا إلى سهل رحيب، ووادٍ عشيب، نبتَتْ أرضهُ بالقصور المنيفة، كما ينبت الروض بالأغصان الوريفة، تضل فيه الحُداة، وتحار الهُـداة، ولا بدع فالمدينة فى اتساعها قطر من الأقطار، وهذا المعرض فى سرتها مصرٌ من الأمصار، وما زلنا سائرين على أرض تزهو فيها أغراسُ الجِنان والبساتين، وأزهارُ الأغصان والرياحين، يتخللها من الدُّمى والتماثيل، ما يعرب عن الدقيق من المعانى والجليل، فتكاد تبادرك بالخطاب، أو تردّ رَجع الجواب؛ ولما امتلأت العينُ من هذه المحاسن الشائعة، وجنّ اللب من هاتيك المناظر الرائعة، التفت إلى أصحابى أتلمّس ما يجرى فى خواطرهم، وأتحسس ما يدور فى ضمائرهم، فرأيت الباشا يتأمل ويحدق، ويمعن ثم يطرق، وإذا هو يقول فى همسهِ، وحديثهِ لنفسه: للهِ أبوهم، ما أبعد شأوهم فى التشييد، وأجلّ شأنهم فى الإنشاء والتجديد، وما أسبقَهم فى الجد والاجتهاد، إلى التوسع وحب الازدياد، وما أشغلَهم بما يكفى الإنسانَ أقلهُ وأدونُه، ويكفل راحتَهُ أصغرُه وأهونُه، ولو تيقن ابن آدم أن القبر غايتُه،

(١) القرمد : كل ما يطلى به
(٢) الأشمط : الذى خالط سواد شعره بياض
(٣) الصرورة : الذى لم يتزوج
(٤) البلور : نوع من الزجاج

لم تخفق على القشور رايتهُ ، ولكان همه بحفر القبر ، أعظم من همه بتشييد القصر ، فمُقامه هناك طويل ، و بقاؤه هنا قليل ، ولو علم أن هذه الأحجار المذهَّبة فى الشرفات العالية ، لا تلبث أن تنتقل صفائح فى القبور البالية ، لم يعمل عمل المخلدين ، وهو بين أظفار المنايا رهين .

تَبنِي المنازلَ أعمارٌ مهدَّمةٌ من الزمان بأنفاسٍ وساعاتِ

ووجدت « الصديق » فى هذا الموقف على حال لا تتغيَّر ، وهيئة لا تتأثر ، ينظر إلى ما نستعظمه نظرة الفلاَّح إلى قريته ، والبدويّ إلى دِمنته ، لا يعجبه شيء ولا يزدهيه ، مما تحار أحلام الورى فيه .

لا مُعنًّى بكل شيء ولا كلُّ عجيبٍ عنده بعجيبِ

إلا أنه مع ذلك غير هادىء البال ، ولا ساكن البلبال ، كأنما هو يغوص على معنى يدِقُّ فى الفهم ، ويبحث فى أمر يجل عن الوهم ، ويستجمع لديه حواشى التفكير ، ويلم أشتات التذكير ؛ فاستخبرته عما يشغله ، وسألته عما يذهله ، فلم يسعف بالجواب ولم يسعد ، غير أنى سمعته يترنم وينشد :

ما أقلَّ اعتبارَنا بالزمانِ وأشدَّ اغترارَنا بالأماني !
وقفاتٌ على غرور ، وإقدا مٌ على مزْلق من الحدثانِ
التفاتاً إلى القرون الخوالى هل ترَى اليومَ غيرَ قَرنٍ فانِ ؟
أين ربُّ السدير فالحِيرة البيْـ ضاء ، أم أين صاحبُ الأيوانِ ؟[1]
والسيوفُ الحِدادُ من آل بدْرٍ والقنَا الصمُّ من بنى الرَّيانِ
يكرعون العُقارَ فى فِلَق الإبْـ ريزِ كرعَ الظِّماء فى الغُدرانِ[2]
من أُباة اللعنِ الذين يُحيَوْ نَ بها فى معاقد التيجانِ[3]
تتراءاهُمُ الوفودُ بعيداً ضاربينَ الصدورَ للأذقانِ

(١) قصران معروفان (٢) الفلق : جمع فلقة بالكسر ، وهى القطعة .
(٣) أباة اللعن : الملوك الذين يخاطبون بأبيت اللعن .

في رياضٍ من السماح حَوالٍ   وجبالٍ من الحلوم رِزانِ
وَهُمُ المــــاء لَذَّ للعطشا   نِ بَرْداً والنارُ للحَيْران
ما ثَنَتْ عنهمُ المنون يدٌ شَوْ   كاء أطرافُهـا من المُرّانِ(١)
عَطفَ الدهرُ فرعهم فرآه   بَعد بُعدِ الذُّرا قريبَ المجاني
وثَنَتهمُ بعـد الجماح المنايا   في عنـان التسليم والإذعانِ
ليس يَبْقى على الزمان جَرِىءٌ   في إباء أو عاجزٌ في هُوانِ

ورأيت الشيخ « الحكيم » يهز كتفيه ، وينظر في عطفيه ، ويقول في التفاته إلينا ، وانعطافه علينا : ما أشبَهَ الأواخر بالأوائل ، في التفاخر بالباطل الزائل ! لا يظنّ ظان أن كل ما يراه من هذا المشهد الفَخْم ، ويستعظمه من البناء الضخم ، بما أُنفق عليه من الأموال الطائلة ، وما اقتضاه من المشاق الهائلة ، سيدوم السنين والأعوام على الدهر ، وإنما يُعدُّ بقاؤه باليوم والشهر ، وليس يمكث من كل هذا البناء والعمران ، إلاّ هذانِ القصران ، وأشار بيده إلى قصرين متقابلين كأنهما في ارتفاعهما ذروتا جبلين ، وهنا أخذ الباشا يستفهم منه ويستعلم ، وأنا أنقل له وأترجم :

(الباشا) — وما مقدار الأموال التي أنفقت في تشييد هذا المعرض ؟

(الحكيم) — اشتركت الحكومة في الإنفاق عليه بعشرين مليوناً من الفرنكات ، وبلدية باريس بعشرين مليوناً ، وتألفت جمعية اشتركت فيه بستين مليوناً أصدرت بها خمسة وستين مليوناً من التذاكر لأيدى الناس تحت ضمانة البنك العقارى .

(الباشا) — وما الغرض منه ؟

(الحكيم) — الأصل فيه الكسب والربح ، والغرض منه عرض الأعمال والصناعات بما يظهر مقدار المسافة التي تقطعها الأمة من حين لآخر في باب الإجادة والإتقان ، ليتضاعف الجد والاجتهاد ، وتتسابق الهمم في أسباب التقدم والارتقاء في مدارج المدنية .

(١) المران : الرماح

(الباشا) — وهل تظنه يأتى بربح عظيم ؟

(الحكيم) — كان أمل الربح منه عظيما ، ولكن خاب الظن فيه ، فإن الشركة قدّرت عدد الزائرين والمترددين عليه بخمسة وستين مليونا فى مدة وجوده وهى مائتان وأربعة أيام ، ولكن لم يتردد عليه إلى الآن سوى عشرة ملايين وقد مضى من المدة نصفها ، وقد بلغ عدد الشركات التى اشتهر إفلاسها فيه سبعين شركة إلى اليوم ، وآخر شركة شاهدت إفلاسها أمس شركة « شارع القاهرة » ، ورأيتهم يبيعون « معروضاتها » وأثاثها بحكم المحكمة فى ناحيه من نواحى المعرض كانت الشركة أقامت لها فيه مكاناً فسيحاً جمعت فيه ما يكون فى شوارع مدينتكم من لعب القرود ، والتِواء الثعابين ، ورقص الزنوج ، وتسريح الجمال ، وسَوْقِ الحمير ، فرأيت الجمال وهى ثلاثة تباع بمائتين وخمسين فرنكاً ، وبيعِ الحمار من الأربعين حماراً بتسعة عشر فرنكا ، وكان من ينظر إلى هذه الدواب ، وهى تُعرض للبيع بهذه الأثمان فى غير بلادها ، يتخيل من أعينها كأنها تندب نحس طالعها وبخس قيمتها فى غربتها ، ولا تَسلْ عن سوء الحال التى كان عليها النساء والرجال المصاحبون لهذه الحيوانات وقد تداركهم « مأمور التفليسة » فخصص لهم مقداراً من الدراهم يُنفق عليهم لإعادتهم إلى وطنهم ، وعلى الجملة فالخسارة فى هذا المعرض عظيمة ، وأرى أنهم أخطأوا كل الخطأ بالتوسع فيه وتكبير ساحته حتى لا تكاد تدرك الدورة الواحدة فيه إلا بقطع مسافة لا تقلّ عن عشرة كيلو مترات ، فوزعوه وشتتوه مع قلة الزائرين والواردين ، ولو أنهم اختصروا فيه لكان خيراً لهم .

(الصديق) — أهذه الشركة التى تذكرها فى كلامك هى « شركه المعرض المصرى » التى سمعنا به ؟

(الحكيم) — لا ولكنها شركة أخرى فرنسية ، وليس من الضرورى أن يكون أصحاب الشركة من أبناء مصر .

(الباشا) — ولما لم تقدروا فى هذا المعرض حسابكم بما لكم فى مختلف الأمور من الدقة وصحة النظر ؟

(الحكيم) — كانوا يحسبون أن أمم العالم ستهرع إليه من كل فج ، وكانوا يعتقدون أن أكثر ملوكها يفدون على المعرض فينفقون فيه خزائن أموالهم ودفائن كنوزهم ، فلم يحضره إلا ملك السويد من ملوك الغرب ، ولم يزره إلا شاه العجم من ملوك الشرق ، وكانوا قد دعوا إليه ستاً وخمسين مملكة للاشتراك فيه فلم يجبهم سوى ثلاثين منها .

قال عيسى بن هشام : وكنا وصلنا فى هذه الأثناء إلى باب أحد القصرين المشار إليهما بالبنان ، المعدودين لعرض مايسمونه بالفنون الجميلة ، وهو المعروف بالقصر الصغير ، فعوّلنا على البدء بزيارته ، فدخلناه فإذا هو ببنائه وتشييده وزينته وزخرفه ونقشه ورسمه يفوق كثيراً من قصور الملوك والقياصرة، وناهيك أنهم أنفقوا فى إقامته اثنى عشر مليوناً من الفرنكات، وقد عرضوا فيه نفائس المصنوعات مما حُفِظ عن الأوائل منذ العصر الرومانى إلى القرن الثامن عشر من قطعة المعدن المضروبة إلى نقوش أبواب الكنائس ، ومن أوانى الفخار إلى الحلى والجواهر ، ومن النعل المطرّزة إلى التاج المرصع، وهنا يعجز القلم عن الوصف والنعت، والإحاطةُ بمثل هذه النفائس لا تأتى من طريق الخبر والنقل بل من جهة المشاهدة والعيان، ولا يمكن أن يتجلى أثرها فى نفس القارىء مثل أثرها فى نفس الرائى . ولما فرغنا من دورتنا الأولى فى القصر ، استوقف الصديقُ الباشا يسأله عما شاهد من التحف ورأى من الطرَف:

(الباشا) — ما أرى إلا كثيراً مما كان يوجد عندنا بعضه فى الأسواق القديمة و بعضه فى البيوت العظيمة .

(الحكيم) — اعلموا أن ماترونه هنا هو أنفس الأشياء وأغلاها قيمة فى العالم لاتتناول كنهها الظنون . مثال ذلك أن هذه الساعة التى بجانبنا ، ولم تلتفتوا إليها فى وقوفكم عندها، قد رغب فى شرائها بعض الأغنياء ، فساومها بثلاثة ملايين فرنك ، فلم يسمح صاحبها بالبيع لقلة الثمن ، وما هى إلا كرة محمولة على أيدى ثلاثة هيا كل من الرخام ، ولكن دقة الصنعة وقدم العهد أورثاها هذه القيمة العجيبة فى الثمن .

(الصديق) — حقاً إن التحفظ على التحف القديمة والآثار العتيقة حسنة من حسنات

أهل الغرب يُغبطون عليها ، فان النظر إليها يورث إحساساً جليلاً فى النفس ، وذكراً جميلاً بمجد الأمم الغابرة ، ودرساً مفيداً فى التاريخ ، كما أن فى ذلك من حفظ السلسلة فى الصناعات ما يفيد الفكر ويساعد على الترقى فى العمل ، وقد أهمل أهل الشرق هذا الباب إهمالاً لا يغتفر لهم ، حتى اندثرت المآثر واندرست ، ولم نعد نعلم من كيفيات المعايش عند المتقدمين إلا الأسماء التى غابت عنا مسمياتها ، وقل لى بالله : أى شىء يكون اليوم أجمل فى العين نظراً وأجل فى القلب وقعاً لو حفظنا ما ضيعه التفريط مثلا من « درة عمر » و « صمصامة معدى كرب » و « قميص عثمان » و « درع علىٍّ » و « تاج الرشيد » و « راية المعز » ؟ ولكننى أرى مع ذلك أن الغربيين تجاوزوا الحد وتغالوا فى هذا الباب غلواً كبيراً ، وذهب بهم حب التنافس فى اقتناء العتيق مذهباً يلامون عليه لحبسهم الأموال الطائلة على أثمان هذه المقتنيات التى لولاها لكانت من قسمة الأرزاق بين العباد ، وكم فى هذا العالم المتمدين من الألوف الذين لا يجد أحدهم فرنكا واحداً لقوت يومه ، بينما نرى أحد المولعين بالمقتنيات يعرض ثلاثة ملايين لاقتناء مثل هذه القطعة من الرخام .

(الحكيم) — نعم لك الحق فيما تعتب به علينا من هذه المغالاة لمجرد التباهى والتفاخر ، مع حرمان الناس من أرزاقهم ، ولكن ليس عندنا من الوقت الآن ما يكفينا لبسط القول فى نصرة المذهب الاشتراكى .

قال عيسى بن هشام : وأدركنا التعب والكلال ، وإن لم يكن يدركنا السأم والملال ، واحتاج الجسم إلى الراحة والسكون ، فغادرنا القصر وفى النفس منه بلابلُ وشجون .

القصر الكبير

قال عيسى بن هشام : وزُرنا القصر الكبير ، بعد القصر الصغير ، أعنى الآية الكبرى ، بعد المعجزة الصغرى ، ناطقةً بما لا يُتصوَّر من جمال الوضع ، وحسن الصنع ، فيما احتواه هذان البناءان من الكنوز التى لم تجتمع لأحد من قبل ، ولم يظفر بمثلها ملك فى الدهر ولا قَيْل ، ما كنوز قارونَ عندها إلاّ من الترب والحصى ، ولا قُرط « مارية » إلاّ من الخرز أو النوى ، وما طَوْقُ « عمرو » ، إلاّ طوق أسر ، وما أسلابُ الاسكندر لديها إلاّ من أطمار « المجاذيب » و « الأولياء » ، ولا وَشْىُ « دارَ » إلاّ من فِراء « العرفاء » والفقهاء ، وما أقلام البلغاء ، إلا مغازل النساء ، إذا هى حاولت فى وصفها تسطيراً ، ورامت لنعتها تحبيراً ، وماذا تقول فى خزائن المسكونة تسكن فى دارَيْن ، وأفلاذِ البسيطة مبسوطة بين جدارَيْن ، لو توزّع بعض ما اختزَنَاهُ على الخلق ، لم يكدّ أحد بعدها فى طلب الرزق ، ولم يشكُ شاكٍ من عيش الحرمان ، ولم يبكِ باكٍ من بؤس الزمان ، ولأصبح المحروم بين الورى غنياً ، وغدا اسم الفقر فى الدنيا خبراً مطوياً ، ولتساوى الناس فى الرتبة والقدر ، ولم يسلكوا فيما بينهم سُبلَ الختل والغدر ، نعم ولم يُغِرْ سالب على مسلوب ، ولم يَفتك غالب بمغلوب ، ولم تُقترَف فى العيش المآثم والذنوب ، ولم يبق للنفوس فى الدنيا من مُشتهى ولا مطلوب ، فالقصران قائمان يفخران على الدهر ، بما ليس له به عهد من الثراء والوفر ، وسِرْنا فى أنحاء الغُرَف ، نتأمل التحف والطرف ، ومِنْ أبدع ما اجتلاه النظر ، بين تلك الدرر والغرر ، معرضُ التماثيل والصُّوَر ، فكم هناك من صُوَرٍ براها الإتقانُ والأحكام ، تمثّل للعقول والأفهام ، ما لا يمثله تأليف الكلام ، وتشخّص لك حوادثَ التاريخ ومناظِرَه ، كأنك كنت حاضرَه وناظره ، ويوضح لك قلم الرسم والتصوير ، ما يعجز عنه قلم الخط والتحرير ، من مكنون الأهواء والأشجان ، بلفظ مبينٍ من النقوش والألوان :

أراكَ المُنى فتمنيّتها وصاغ لك الطيفَ حتى انبرى

فما شئت فيها من أثر يجلو صَدَأ الحس ، ويرقق حواشىَ النفس، فتتولاك هِزةُ الطرب لرؤيتها ، وتعتريك نفحة السحر من هيئتها ، فتكاد تَئن للفارس المقتول، وتعطف على الواله المتبول ، فتترحم على قتيل الرمح والحسام ، كما تستغفر لشهيد الهوى والغرام ، وتستبيك الفتاة الحسناء ، والكاعب العذراء ، فتصبو إلى محبتها ، وتطمع فى مودتها ، لولا عيون الرقباء من أهلها . وهم ضاربون من حولها .

وترى هناك صورة غادة باهرة الخلق ، عريقة الحسن والعتق (١) ، يتألق على وجهها نور العفاف والصيانة ، ويبدو على محيَّاها خصال الرزانة والركانة (٢) ، مع قوة الشكيمة ، وثبات العزيمة ، قد وطِئت تحت أقدامها غولاً من الأغوال ، لها مائة فم للنهش والاغتيال ، وطَعَنتها بالرمح فى أحشائها ، فأوردتها مورِدَ فنائها ، وعلى رأس الغادة فَوج من ملائكة النصر ، يُتوّجونها تاج العز والفخر ، وتلك هى صورة « الفضيلة » فى مصارعتها « للرذيلة » ، وعن يمينها حُرةٌ بارعة الجمال ، بادية المهابة والجلال ، ترمقها بعين المستبشر بظفر حزبه ، والمغتبط بنيل سؤله وإربه ، وتلك هى « الحكمة » التى لا تُنال الفضيلة إلا بها ، ولا تدرك إلا بخالصها ولبابها ، وعن شمالها حُرةٌ أخرى ، يتلألأ فى غرتها نور المعرفة واليقين ، وقوة الإدراك والتمكين ، تحمل على كتفها طفلاً فى سن الرضاع ، وتُمسكه فى يده شبه القلم أو اليراع ، وهى تنظر إلى « الفضيلة » نظر التوقير والتعظيم ، فى موقف التبجيل والتكريم ، وتلك صورة « العلم » وفضله ، وذلك الطفل صورة الإنسان فى جهله .

وترى امرأة نَصَفاً وضعت على كل ثدى لها طفلاً ترضعه وتضمه ، وكأنها تقبّله وتشمه ، ومنْ حولها أطفال عراة تجذبهم إلى حجرها ، وتسترهم بفضل إزارها ، وعلى مُحياها سمات الغبطة والارتياح ، وعلامات الرضا والانشراح ، فيكاد يلوح فيها ما طوَته يد الزمان ، من براعة الحسن والافتتان — وتلك صورة « الخير والإحسان » .

ثم ترى صورة وليدة من حسان الولائد ، وخريدة من أبهَى الخرائد ، كأنها المهاة فى الخمائل ، والظبية فى الشمائل ، يطول شَعرُها فضلَ الازار ، ويريك الليل فى وَضَح النهار .

---

(١) العتق : خلوص الأصل والجمال (١) الركانة : الوقار

بِفرعٍ يُعيد الليلَ ، والصبحُ نَيِّرٌ   ووجهٍ يُعيد الصبحَ ، والليلُ مظلمُ

تبدّتْ فى مُلْتفٍّ غابةٍ أغصانُها من العود والند ، وأغراسها من البنفسج والورد ، فالأرض مفروشة بمنثور الأزهار ، والسقف معروشة من أغصان الأشجار :

فهى تختال فى زبرجدة خضـــــــراء تُغذَى بلؤلؤ منثورِ
وغدَتْ كلّ ربوة تشتهي الرقـــــــص بثوب من النبات قصيرِ

وقد نثرت الشمس عليها مثل نثار العرائس ، بدنانيرَ تُعيي أيدى اللّوامس ، كما عيَ المتنبي بمثلها من قبلها ، وهو يجتاز شِعبَ بوّان ، ويصف فيه التفاف الأغصان :

فسرت وقد حَجَبْنَ الحرّ عنى   وجئْن من الضياء بما كفانى
وألقي الشرقُ منها فى ثيابى   دنانيراً تفرُّ من البنانِ

والأطيار واقفة من حولها على هيئة التغريد ، وترديد النشيد ، كأنها تجاوب الفتاة فى سؤالها ، عن أوبة خِلها ، بأن لكل حمامة منا شوقاً ينازعها ، إلى ألف يضيمها ، فيشتد بالفتاة الولع والهيام ، وتشترك فى الهديل مع الحمام ، وتلك هى « الطبيعة » فى جمال الفطرة ، وجلال القدرة .

وترى « هوميروس » آدم الشعر اليونانى وهو أعمى البصر ، متلفعاً بالوشى والحبر ، تضىء لحيته بنور المشيب ، ويملأُ العينَ بالمنظر المهيب ، متربعاً على سرير الملك ، مُلكِ الأشعار ، لا مُلكِ الأقطار ، وسلطانِ الأوزان ، لا سلطان البلدان ، وشعراء الجن يكللونه بأكاليل الانتصار ، وشعراء الأنس بين يديه فى موقف الإعظام والإكبار ، من «هبرنون» و « إسكيل » و « هوارس » و «فيرجيل» ، وعن يمينه أبطال الشجعان ، وفرسان الزمان ، ممن روَى الشعر أنباءهم وخلدَ النظم أسماءهم ، وهم على سمة الخضوع ، وهيئة الخشوع ، من « أشيل » و « اسكندر » و « إينية » و « قيصر » ، وعند رأسه كاعبان ، كأنهما اللؤلؤ والمرجان ، متفقتان فى جمال الوجه والجسم ، وإن اختلفتا فى الشكل والرسم ، هما الفنان اللذان ابتكرهما فى الشعر ، منذ شبيبة الدهر ، والشعراء فى وقوفهم كأنهم يتأدبون بأدبهما ،

ويَنعمون بقربهما ، والقيانُ من حولهما صفوف ، يضربن بالمزاهر والدفوف ، ويوقعن النغم واللحْن ، على ذلك النظم والوزن .

ومَنْ لنا بهذا الشاعر وأمثاله من الأولين الأقدمين ، والسابقين المقدمين ، يصورون بأشعارهم مابين أيدينا من صور هذه الألواح والمهارق ، فالتصوير شعر صامت والشعر تصوير ناطق .

ولما أفقنا قليلا من نشوة الاعجاب والازدهاء ، واقتربت زيارتنا من الانتهاء ، إذا نحن برجل أمامنا رثّ الثياب ، خلق الجلباب ، كأنه المعنيُّ بقول القائل ، من شعراء الأوائل

أخو سفر جواب أرض تقاذفت   به فلواتُ فهو أشعث أغبرُ

وقد اختلط شعر جبهته بشعر لحيته ، فاختفت بينهما مقاطعه وملامحه ، وغمضت أساريره ولوائحه ، ونحل جسمه نحول الشاة بالأجادب[1] ، وطالت أظافره فتقوّستْ كالمخالب ، واختزن فيها الوسخ فصارت كالمكاحل علقت بها المراود ، أو كخطوط الحداد على صفحات الجرائد ، وهو يلحظ الداخلين والخارجين لحظة المزدرى المحتقر ، ويذهب بنفسه ذهاب المبتدع المبتكر ، والناس يقابلونه مع ذلك بالاحترام ، ويواجهونه بالاكرام ، فالتفت الباشا إلى صاحبنا « الحكيم » يستخبره عن هذه الكتلة من الدمامة ، والكومة من القُمامة ، وكيف راق لهم الجمع بين هذه المناظر الحسان ، وبين منظر هذا الشيطان ، فاشتبك بينهما الخطاب ، وأخذت أترجم لهما فى السؤال والجواب .

(الباشا) — أفما كان ينبغى منع هذا الرجل وأمثاله عن هذه الأماكن النفيسة ليحفظوا لها رونقها ، ولئلا يضيعوا بهجتها فى نفوس الزائرين ، ولكن لعلهم أرادوا بذلك صرف عين الكمال .

(الحكيم) — هذا الرجل هو من كبار المصورين الذين نفتخر على العالم بصنع أيديهم ، مما ابتهج به نظرك فى هذا القصر الذى أقيم لتفخيم هذه الصناعة ، وأنفق على تشييده أربعة

(١) الأجادب : الأرض التى لا نبت فيها

وعشرون مليوناً من الفرنكات ، ولا تعجب من تفاوت المنظرين ، فالذهب من التراب والماس من الفحم .

(الباشا) — وكيف جاز لكم أن تتركوهم على مثل هذه الحالة من الفاقة وشظف العيش وتضنوا عليهم بما يصلح أحوالهم ، وينقذهم من هذه الرثاثة التي يرثى لها الناظر ؟ وإن كانت هذه الصناعة لاتدر الرزق على أربابها ، فلِمَ هذا التشييد لها وشدة العناية بها ؟

(الحكيم) — إن هؤلاء الذين تعطف عليهم ، هم بيننا أوسع الناس رزقاً ، وأكثرهم بضاعة رائجة ، واللوح الواحد من صنعتهم يقدَّر بالمئات من الألوف وبالملايين ، وليست هيئتهم هذه عن حاجة أوفاقة ، وإنما هي ناشئة عن إهمال أنفسهم وذهول عقولهم ، وعذرهم فيها أن أرباب الأعمال الدقيقة التي يغوص فيها الفكر ، وتجهد القريحة ، ويتوزع لها الذهن في عالم الخيال ، قل أن تتوازن فيهم قُوى الدماغ ، فما تنمو قوة إلا بضعف أخرى ، فيصيبهم من الفتور والذهول ما يقصر بهم عن النظر في نظام الملبس والمطعم ، ولا يميزون في المعيشة الطيب من الخبيث ، فتختل أجسامهم ، وتسوء أخلاقهم الى أن ينتهوا إلى حال من الطيش والحماقة لاتطاق معها المعاشرة مع الأقارب والأجانب . ومنهم من يتصنع ذلك كما يتصنع بعض أهل الدين التقشف والزهد ، وقد ألف الناس ذلك منهم ، فإذا قيل لك هذا فلان الشاعر أو فلان الصانع أو فلان المتفنن ، غفرت له ما ساءك من منظره ، لما يسرك من مخبره ، وربما لم يكن عند بعضهم من حسن الصناعة سوى قبح الهيئة ورثاثة المرأى .

(الصديق) — إني لأعجب لقوم يعتمدون في أعمالهم على رؤوسهم ، ثم يذهلون عن أبدانهم ، وقد علموا أن القريحة السليمة لاتسكن إلا الجسم السليم ، وكيف يصح البدن إذا لم تتعهده بالنظافة وطيبِ الغذاء وحسنِ الرياضة وقضاء الفروض الطبيعية له ، ولقد يعرض للرجل المتفكر ، وهو في تجلي قريحته ، أن يشم رائحة كريهة ، أو يبصر منظراً رثيثا فيضيق في الحال صدره ، وينقبض فكره ، فكيف بمن يجد ذلك في نفسه ويحس به في جسمه ، وأخرِ بمن ينقطع في عمله للفنون النفيسة أن يكون نفيساً في ذاته ، فلا يعرف عجرفة الطبع ، ولا شراسة الخلق ، بما تولده فيه من صفاء الحس ولطف الشعور ،

وبما تورثه من حلاوة الشيم ورقة الطبع ، وعلى الوجه الأعم ، لست أدرى ما فائدة العلوم والمعارف والفنون إذا لم تكسب صاحبها بادىء الأمر محاسن الأخلاق ومكارم الصفات ، فيكون القدوة الحسنة لمن يقتدى بعلمه ويتأدب بأدبه ، وإلا فكيف تنبت الزهرة من السبخة ، ويسطع النور من مهجور القبور ؟

(الحكيم) — صدقتَ وأجدتَ ومَنْ قَصَّر فى تربية نفسه فكيف يطمع فى تربية غيره؟

(الباشا) — وماذا يصنع هؤلاء الصُّناع بهذا الرزق الواسع والثراء الوافر ، وحالهم فى سوء المعيشة على ما أسمع وأرى ؟

(الحكيم) — يصنعون به ما يصنعه أهل الطيش والنزق من أرباب المواريث فى الإسراف والتبذير ، وهم لشغفهم بالجمال ، الذى تَستمد صناعتُهم منه حسنها ورونقها ، لا يفترون عن التولع بالنساء والافتتان بمحاسنهن ، فترى ثمن اللوح الثمين يخرج من خزانة الغنى المتباهى ، إلى يد الصانع المفتون ، إلى كيس الفاجرة الهلوك ، إلى صندوق التاجر والصائغ ، وعندهم أيضاً باب إنفاق عظيم على طائفة من النساء التى يطلقون عليها اسم « المِثال » .

(الباشا) — وما « المثال » ؟

(الحكيم) — « المثال » هو المرأة التى يتخيرها المصور ، ليأخذ فى التصوير على مثالها ، لجمال وجهها ، أو لحسن تركيبها وتناسب أعضائها ، فهذه لزندها ، وهذه لنهدها ، وتلك لقوامها ، والأخرى لشكل ابتسامها ، وهلم جرا ؛ فترى غرف المصورين ممتلئة بهاته « الأمثلة » ، التى تختلف أجورها باختلاف أقدارها ، وقلما تدخل على مصور فى مصنعه إلا ترى أمامه امرأة مكشوفة البدن ، عارية الجسم ، يقلبها كيف شاء ذات اليمين وذات الشمال ، حتى تصير على الشكل الذى يريد أن يملأ عينه منه ويحصره فى ذهنه ، ليخرج الصورة على مثاله .

(الباشا) — ما هذا الذى تحكيه من التبذل والتفضح ؟

(الحكيم) — ليس هذا عندنا بعيب ولا نقص ، ولا غضاضة على النساء منه ، فالأمر معدود بينهن كأنه صنعة من الصناعات الجليلة ، لا عار فى مزاولتها ، ولا بأس على السمعة

منها، وعندنا اليوم خلاف قائم : هل يجوز للمصور أن يمارس صناعته على هذا الشكل فى طريق الناس ، وفى مسالك السابلة ، كما يفعل ذلك فى داخل مصنعه ؟ فإن أحد المصورين عَنَّ له بالأمس أن يصور صورة انبعاث من القبور ، فقصد إحدى المقابر وجلس هناك بأدوات صناعته وفيها امرأتان للمثال ، وأقامهما أمامه وهما عاريتا الجسد ، وكان يقيم هناك فى كل يوم الساعة والساعتين على هذه الحال ، يمعن بنظره فى الفتاتين ، ثم يخطط ويصور، وكان بجانب المقبرة دار تبنى قام على حائطها البناءون ، فاشمأزوا من هذا المنظر ودفعهم دافع الحياء إلى مخاطبة المصور ليعدل عن قبح ما هو فيه ، فلم يعبأ بهم ، ولم يبال بتأنيبهم ، واستمر على ذلك أياماً ، فرفعوا الأمر إلى رجال الشرطة ثم إلى قضاة المحاكم ، لمنع الرجل عن هذا الفعل السيء ، ولا تزال الجرائد تتجادل فى المسألة، أيجوز المنع أم لا يجوز، فبعضها يذهب إلى وجوبه، ارتكاناً على نص القانون الذى يعاقب من ينتهك حرمة الآداب العامة فى الطرق ، وبعضها يرى الاباحة ، لأن كل إنسان حر فى صناعته ، ولا يجوز لأحد أن يحول بينه وبين ما فيه إتقان صناعته وإجادة فنه .

(الباشا) — نعوذ بالله من هذه البدع .

قال عيسى بن هشام : وانتهينا بالخروج من القصر، بعد أن كدنا نضل فيه ، لاتساع أطرافه ونواحيه ، وتعدد غرفاته وحجراته ، وهى كلها غاصة بالصور والتماثيل ، ثم وقفنا فى الخارج وقفة الإجلال والاعظام أمام هذين القصرين اللذين هما تاجا المعرض وإكليلا الصناعة ، وعاد الباشا إلى « الحكيم » يسأله :

(الباشا) — وماذا يكون شأن هذين القصرين بعد انتهاء المعرض ؟

(الحكيم) — يبقيان على حالهما دون ابنية المعرض لعرض أعمال أهل الصناعة والتصوير فى كل عام .

(الصديق) — إننى كلما نظرت إلى هذه العناية الكبرى عندكم بفن التصوير والغلو فيه إلى هذا الحد ، ثم نظرت إلى قلة العناية به عندنا ، حرت فى معرفة السبب ، فإن كان ذلك ناشئاً عن الترقى فى المدنية ، فإننى أراه فيكم قديماً منذ جاهليتكم الأولى كما أراه والمدنية

مسفرة بينكم ، وربما كان القديم أبدع من الحديث ، مع أن أهل الشرق ، على ماتعلمون ، أوسع مجالا فى الخيال ، وأبعد شأواً فى التصور ؛ فكيف نما هذا الفن فيكم دون أن ينمو فينا؟

(الحكيم) — إن أهل الغرب كانوا قبل الدين المسيحى أهل عبادة الأوثان والأصنام، فقضى الاعتقاد الدينى باتقان الرسم والتصوير ، واتسع نطاقه على الأخص فى الدولة اليونانية والدولة الرومانية ، حتى تعدى التصوير تماثيل الآلهة إلى تماثيل الخلق ، فأقيمت التماثيل لكبراء الرجال وعظماء الأبطال ، ووصل الغلو فى ذلك أيام الدولة اليونانية أنهم أحصوا ثلثمائة تمثال لشخص واحد فى شوارع « أثينا » فى حال حياته ، فلم تمكث بعد وفاته ثلثمائة يوم ، لأنه كان ممن نال الشهرةَ بالباطل ، وعلوَّ الصيت على غير استحقاق ؛ ومن مُلح ما يروى فى هذا الباب أن بعض الناس قال لعظيم من عظمائهم جليل القدر كبير الخطر: إنى لأعجب لأهل « أثينا » يقيمون لمثل هـذا الرجل ثلثمائة تمثال بغير حق ، ولا يقيمون لك تمثالاً واحداً ، وأنت المقدّم المفضّل فيهم ، فقال له : لأنْ يتعجب الناس مثلك من أنهم لم يقيموا لى تمثالاً واحداً أفضل عندى من أن يتعجبوا لماذا أقيمت لى التماثيل ؛ ولما دخل الدين المسيحىّ على هذه الحال ، لم يحظرها ولم يحرّمها ، فاستمر الناس على ما ألِفوه ، وتناولوا الدين المسيحىّ نفسه بفن النقش والتصوير ، وصوروا المسيح وأمه فى كثير من أطوار حياتهما ، ودونوا به ما شاءوا من روايات التاريخ المقدس ، فبقيت العناية بذلك متصلة قائمة إلى اليوم ، بخلاف الدين الإسلامىّ عندكم ، فإنه حظر التصوير ، فكان هذا سبب تقلص هذا الفن بين الأمم الإسلامية ، وإلا فهو منتشر فى الشرق انتشاره فى الغرب بين الأمم الوثنية كالصينيين واليابانيين والمجوس من أهل الهند .

قال عيسى بن هشام : وسرنا عن هذين القصرين نقصد سواهما من المعاهد ، ونقف على ما اشتهر فى المعرض من المرائى والمشاهد .

الأشجار والأزهار

قال عيسى بن هشام : ودخلنا معرض الأشجار ، و بستان الأزهار ، فى قصر لم يُبنَ بناء القصور والديار ، ولم تُشدْ أركانه بالشيد(١) فوق الأحجار ، ولم ترتفع بالآجرّ حُجرُه وغُرَفه ، ولم تُتخذ من الخشب أبوابه وسقفه ، عُقدت له القباب والأبراج ، من صقيل البلور وسبيك الزجاج ، فهو صرح ممرَّد(٢) من قوارير ، كأنه لجة يَمٍّ أو صفحة غدير ، لو دخلته « بلقيسُ » صاحبةُ العرش فى الأيام الخالية ، لكشفتْ عن ساقيْها مرة ثانية ، جمعوا فيه أشتات النبات الغض ، من كل بقعة وناحية فى الأرض ، مما ينبت بين ثنيات الجليد وتنشقّ عنه صُمّ الجلاميد ، وما اخضرّ فى رُبا الصحراء ، وأورق فى وهاد البيداء ، وأزهر فى الَجمد ، وأينع فى الوَمَد(٣) ، ومن حيث تجرى الأنهار والجداول ، إلى حيث تعتصم الأراوى والأجادل(٤) ، ومن حيث تشدوا الحمامة الورقاء ، تحت الظلال والأفناء ، إلى حيث تدور الحرباء ، حول الغزالة فى كبدِ السماء(٥) ، ومن أدنى الشرق إلى أقصى الغرب ، ومن طرف القطب إلى طرف القطب ، فما أردتَ هناك من جميع الأنواع ، فى متفرق البقاع ، مابين مُلتفّ ومنتشب(٦) ، ومتسلق منه ومتشعب ، يفترّ بكل محمّر ومُبْيَضّ ، ومذهّب ومفضّض ، ومشرق ومُومض ، وأين ابن الرومىّ يتأملها فيخلع عنه رداء الفخر والتيه ، ويُقر بعجزه فى الوصف والتشبيه ، ويحرق ديوانه بكبريته المذكور ، فى تشبيهه المشهور :

ولا زَوَرْدِيةٍ تزهو بزُرقتها بين الرياض على حمر اليواقيتِ(٧)
كأنها ، وضعافُ القضبِ تحملها أوائلُ النارِ فى أطراف كبريتِ

(١) الشيد : ما طلى به من الجص وغيره (٢) ممرد : أملس مصقول
(٣) الجمد : الثلج . والومد : الحر (٤) الأراوى : جمع أروى وهو الوعل . والأجادل : جمع أجدل وهو الصقر
(٥) الكبد : وسط الشيء . والغزالة : الشمس
(٦) منتشب : ملتف (٧) اللازورد : معدن شفاف أزرق يقرب إلى الحمرة

هنالك تستبيك ألوان الأزاهر ، بما يزرى بلمعان الجواهر ، فما الياقوت عندها والزبرجد ، وما الفيروز والزمرد ، وما العقيق والجُمان ، وما الدر والمرجان ! وكيف يقاس الحجر ، بالشجر ، وتستوى الحصباء اليابسة ، بأكمام الأغصان المائسة ، وكيف يُقدَّم الجامد الثابت ، على النامى النابت ، وأين الحركة من السكون ، والمنشور من المدفون ، وأين المنشور على ظهر الروضة الزهراء ، من الملحود فى بطن الغبراء . ولئن انتظمت القلائد ، بجواهر تلك الفرائد ، فى لبّات الخرائد ، وكان مكانها من الحور ، فى المعاصم والنحور ، لكانت هذه الزهور ، بين الرئات والصدور ، وكم أنعشت خامد النفوس والأرواح ، بطيب الأنفاس وشذى الأرواح ، فوقفنا نستنشق الأريج والنشر ، من أصناف ذلك الطيب والعطر . لو كان معنا ضرير المعرّة رهنُ المحبسينْ ، لانقلب منشرح الصدر قرير العين ، ولأنس من وحشته ، وذهل عن فاقته وخَلته[1] ، وعلم أن من المسكر ما هو طلق حلال ، ولم يتلهف على شرب المعتّقة حيث قال :

تمنيتُ أن الخمر حلّتْ لنشوة تجهلني كيف اطمأنتْ بِىَ الحالُ
فأجهلُ أنى بالعراق على شفاً رزىُّ الأمانى لا أنيسٌ ولا مالُ

وما زلنا فى هذه الروضة الغناء ، والجنة الفيحاء ، نردد قول العبد الصالح الأواه :

« ولولا إذ دخلتَ جنتَك قلتَ ما شاء اللهُ لا قوّةَ إلاّ بالله . »

ونكرر النشيد ، لبيت التوحيد :

فنى كل شىء له آيةٌ تدل على أنه الواحدُ

حتى إذا آن أوان الإنصراف ، خرجنا من بين هذه الجنة الألفاف[2] ، خروج أبينا من دار الخلود والبقاء ، إلى دار الهموم والشقاء ، ولما تركناها إلى نواحى المعروض ضؤل فى أعيننا ، ما كان يروقنا ويزدهينا ، وصغر فى أنفسنا ، ما كان يخلبنا ويشجينا ، وذبل أمامنا ما كان من المناظر ناضراً ، وذال[3] ما كان فخماً نادراً ، وغلب ذلك المنظر على

(١) الخلة : الفاقة (٢) الألفاف : البستان المجتمع الشجر (٣) ذال : هان

كل بديع رائع ، من مختلف الفنون والصنائع ، وأين قدرة الحيوان الناطق، من قدرة المبدع الخالق ، وما تسوّيه آلات المصانع ، مما تصوره يد البارىء الصانع ؛ وكاد الباشا يهمُّ بالرجوع من حيث أتينا ، ويقتصر فى يومه على ما رأيناه ، لولا أن استوقفنا قول «الحكيم» للصديق فى عرض كلامه ، عن ترتيب المعرض ونظامه :

(الحكيم) — نعم تنقسم أماكن المعرض إلى قسمين : هذا القسم الذى شاهدناه من نفائس الصناعة والطبيعة ، وهو مباح للزائرين بغير أجر ؛ وقسم آخر أقاموه لترويح النفس ، واستجلاب الأنس ، بالمشاهدات الغريبة ، والمناظر البديعة ، يدخله الداخلون بأجر معيَّن .

(الصديق) — لقد قرأت فى الجرائد عن هذا القسم الأخير ما يعجب ويدهش ، وأشد ما تشتاق نفسى لزيارته تلك « النظارة المعظمة » الهائلة التى اخترعوها لمشاهدة القمر على بعد متر واحد ، فتحيط به العين فى زعمهم كما يحيط الجالس فى الغرفة بأجزاء جدرانها، فأين ذلك المكان منا الآن ؟

(الحكيم) — ليس هو ببعيد ، وهم يسمونه « قصر الأضواء والمرَايا » ولطالما أسهبت الجرائد كما قلتَ فى وصفه بما يهيج الرغبة إلى زيارته،ولم أزره بعدُ ، فهلمّ بنا نقصد قصده.

(الباشا) — البدارَ البدارَ إلى زيارته ، فلو كان ما يقولونه عنه صحيحاً لكان إحدى المعجزات .

قال عيسى بن هشام : وسرنا جميعاً نلتمس هذا المكان ، حتى وصلنا إلى قصر مشيد، قلّ أن يكون مثله لكبار الأمراء والملوك فى فخامته وضخامته ، ووجدنا مكتوباً على بابه ، بين صور الكواكب والنجوم ، هذه العبارة باللغة اللاتينية : « من هنا يصعد الإنسان إلى أجرام الكواكب ويتصل باللانهائية » ؛ ولما دخلناه رأيناه مزدحماً بالجموع ، فبدأنا معهم بالدخول فى حجرة واسعة تبلغ خمسة عشر متراً فى الطول وعشرة فى العرض ، وهى مقسمة بالمثلثات والأضلاع من زجاج المرايا القائمة يبلغ علو الواحد منها مترين ونصفاً فى عرض متر ونصف ، وقد تخللتها مصابيح الكهرباء،فاذا نظر الانسان بين تلك الأضلاع والمثلثات رأى

صورته تتعدد بالمئين ، وإذا مشى بضع خطوات ضلّ الطريق ، ولم يهتدِ السبيل ، وكلما ظن أنه وجد منفذاً للخروج منه ، اندفع إليه ، فيصطدم وجهه بزجاج المرايا ، فتعلو أصوات الضاحكين وهم فى حيرتهم وضلالهم ، ولا يزال على هذه الحالة مدة من الزمن حتى يصل إلى نهج الطريق من طريق الاتفاق ؛ وما أوسع مجال الخيال هنا للشعراء فى وصف أشكال الزائرات ، وانطباع صورة الواحدة منهنّ على صفحات المرايا ألف مرة ، كما تنطبع محبتها وهى واحدة على صفحات قلوب الرجال وهم ألوف .

ولما اهتدينا للخروج من هذه الغرفة التى يضل الداخل فيها ، كما يضل الراكب فى الفيافى والقفار ، سرنا نقصد غيرها ، « والحكيم » يقول « للصديق » فى حديثه :

(الحكيم) — إن الفكرة فى إقامة الأماكن والأبنية على أوضاع وأشكال ، يضل الداخل فيها ، ولا يهتدى للخروج سبيلاً ، شىء قديم فى الوجود ، وقد علمنا أن قدماء المصريين هم أول مَنْ شيد الأبنية للضلال والتيه ، منها الهيكل الذى رآه « هِيرُودُتُس » فى زمانه ووصفهُ فى تاريخه ، وكان يحتوى على ثلاثة آلاف حجرة بعضها متداخل فى بعض ، فمن دخل هذا المعبد ، ولم يكن معه دليله ، ضلّ فيه حتى يهلك جوعاً ، ولا يزال أثره باقياً عندكم إلى اليوم بقرب بحيرة « موريس » أمام المدينة القديمة المعروفة بمدينة « التمساح » ؛ وقد حذا قدماء اليونانيين حذو المصريين ، فأقاموا فى مدينة « كريد » معبداً يماثله ، ومما يذكر عنه فى أساطيرهم أن غُولاً من الغيلان كانت تفسد فى الأرض وتعيث ، ثم تلجأ إليه ، فلا يدركها أحد ، وصمم أحد المشهورين من شجعانهم على اتباع أثرها ، والفتك بها ، فلم يتوصل إلى ذلك إلا بالحصول على خيط معلوم دلّته عليه عشيقته ، فربط طرفه عند الباب قبل دخوله ، وسار بهِ فى طريقه ، فأدرك غايته ، وفتك بالغول ، واهتدى به فى رجوعه ، والفرق بين ما صنع القدماء فى السالف ، وما صنعه المحدثون فى الحاضر ، كما ترى ، أن بناء المتقدمين من الحجر ، وبناء المتأخرين من الزجاج .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا بعد ذلك غرفة فى إثر أخرى ، وكلها على هذا النمط من

انعكاس الأضواء فى المَرَايا وتعدُّدِ الصور ، فتتخيل هنا بئراً ، وهناك بحراً ، إلى غير ذلك من وجوه التخييل ، ثم انتهينا إلى تلك الغرفة المنشودة التى يُرصد فيها القمر على بُعْدِ متر واحد ، فما جاوزنا بابها حتى اطفئت فى وجوهنا المصابيح ، وتخبطنا فى الظلام الدامس ، ثم سلطوا أشعة الكهرباء على قسم من الحائط فأضاءت عليها خريطة القمر مصنوعة بكيفية تتبين فيها مرتفعات كرة القمر ومنخفضاته فتتراءى لك الأولى بمقدار قلامة الظفر ، والأخرى بمقدار خروق الغربال ، ووقف هناك رجل كالمرشد يشرح للناس مايشرحه عن هذا الرسم ، ويزعم أنه صورة القمر بعينه على بُعد سبعين كيلو متراً كما يُرى فى « النظارة » التى انتشر الاعلان عنها بأنها تُرِيكَهُ على بُعد متر واحد ، وأسهبتْ فيها مقالات الجرائد العلمية والسياسية مدة من الزمن قبل افتتاح المعرض ، ثم خرجنا و« الصديق » يقلِّب كفاً على كف من شدة الدهش والعجب ويسأل صاحبنا « الحكيم » على كُنة هذا الغش والكذب .

(الحكيم) — خَفِّضْ عليك ، فإن أكثر ما تقرأ من التفخيم والتهويل لمثل هذه المسائل فى الجرائد لا يُعوَّل عليه ، فانها تتعمد ذلك لمصلحتها الخاصة لما تتناوله عليها من الأجور ، ولمصلحة أبناء البلاد فى ترغيب الناس إلى زيارة المعرض ، وهى تستحل الغش والكذب فى سبيلهما ، ولا تعجبْ إن قلت لك إن الذى باشر هذا المشروع هو أحد مشاهير المستعمرين من النواب عندنا ، فقد قام فى المجلس خطيباً ، وطلب منه الموافقة عندنا على إقامة المعرض العام ، وأعلن أنه وجد عنقاء المعرض والآية الكبرى فى ارتقاء الصناعة بانشاء «نظارة معظمة» يرى الناظر فيها القمرَ عن بُعدمتر ، ومازال يحكى ، والجرائد تكتب ، حتى أنشأ شركة من بعض الفلكيين لعمل هذه «النظارة» التى يقولون عنها إنها ترى القمر على بعد سبعين كيلو متراً ، وأقاموا هذا القصر بمناظره لاجتناء الربح من تهافت الزائرين وإقبالهم عليه لرؤية المعجزة الكبرى ، وعلى هذا تدور أكثر الأمور بين الناس فى العالم من التهويل الباطل فى أقوالهم والغلو الفاضح فى وصف أعمالهم بمقدار الفرق ما بين المتر الواحد والسبعين كيلو متراً ، والرابح فيهم من كان ماهراً فى الغش والخداع ، والفائز فيهم مَن كان سبّاقا فى المكر والاحتيال .

قال عيسى بن هشام : وانصرفنا ونحن نعجب من هذا النائب الذى لم يكْفِهِ الغش من طريق السياسة والاستعمار ، حتى ترقى فيه إلى طريق الكواكب والأقمار .

المرائى والمشاهد

قال عيسى بن هشام : وسرنا فى قسم المرائى والمَشاهد ، ندخل واحداً منها فى إثر واحد، فلا نجد فيه ، عند ما نوافيه ، مصداق ما سمعنا من وصف واصفيه ، بل ربما وجدنا ما يخالفه وينافيه ، إلى أن وصلنا إلى قصر مشرف منيف ، يزهو على القصور بحسن الترصيص والتصنيف ، أعدُّوهُ هناك لأنواع الرقص والعزف ، وفنون القفز والقصف ، منذ الغابرة ، إلى عهد الحضارة الحاضرة ، ومن عيش الخشونة والشظف ، إلى عصر النعومة والترف ، فما شئت من رقص الحماسة والشجاعة ، إلى رقص الخلابة والخلاعة ، فترى رجال البداوة يرقصون بالسيوف ، فى مواقف الحتوف وترى العذارى من ورائهم يَضربن بالدفوف ، ويصْفقنَ بالكفوف ، تحريضاً لهم على الحرب وإلهابا ، وإثارة لهم على العدو وإغضابا ، فتحلو لهم مضاضة الإقدام ، كما تحلو لشاربها غضاضة المدام ، ويرتشفون كئوس المنايا ، كما يرتشف سواهم رُضاب الثنايا ؛ ثم ترى رقص الآيبين من السفر ، والقافلين بالنصر والظفر ، بين عذارى الحىّ وجواريه ، وسبايا العدو ومأسوريه ، بإشارات تُبين أيّما بيان ، عن مكنون الهوى والأشجان ، فى صدور ملؤها الغيرة والشمَم ، وقلوب حَشْوها الشهامة والكرم ، ونفوس تفزع لصولتها الوحوش الكواسر ، وتفرَق من هيبتها الأسود الكواشر ، لكنها تخضع لربّات القدود والنهود ، خضوع العابد للمعبود ، فتتفرّق لديها أوزاعا ، وتطير أمامها شعاعا[1] ، إن خشيتْ منها بادرة صدّ وجفاء ، أو حركة نفور وإباء ، وهُنّ يقابلن حركات التذلل والتزلف ، بحركات التدلل والتعفف ، ويَجزين على التولع ، بالترفع والتمنع ، ويبدين لطيف التجنى ، ببديع التثنى ، ويَغضُضْنَ من أبصارهنّ ، فى جلائهنّ وإسفارهن ، ثم يُسرعن إلى الالتفاف ، ويَسترن ما انحسر من الأطراف ، فيرتدّ طرف الواله حسيراً ، وقلب الهائم كسيراً ، وما أبدع الحياء فى الوجه الجميل ، كماء الفرند فى السيف الصقيل ، إذا عارض

(١) طار قلبه شعاعاً : تفرق من الخوف .

حياء الشجاعة فى الفارس المغوار ، فلَّ غَربه عن ربة الحجل والسِّوار ، وكأنما الشجاع منهم فى يد الغادة ، لا يفتأ ينشد قول أبى عبادة :

نحن قومٌ تُذيبنا الأعين النُّجْـــلُ على أننا نُذيب الحديدا
طَوْعُ أيدِى الغرامِ تقتادُنا البيـــضُ ونَقتاد بالطعان الأسودا

ثم رأينا أشكالاً متفرعة من الرقص والحَجَلان ، وأنواعا متعددة من الدَّورانِ والخطَران مما هو شائع عند عبدة الأوثان ، وسائغٌ مباح فى بعض الأديان ، حتى يجد المشاهدُ لحركة تلك الأبدان ، ما يجده راكب السفينة من الهيضة والغثيان ، وكأن الأصل فى ذلك إنهاك القوَى الجثمانية ، لإضعاف الجواذب الشهوانية .

ثم شاهدنا بعد ذلك ما فى رقص المدنية والحضارة ، من الفضاحة والدعارة ، فترى أفواج النساء ، كأسراب الظباء ، لا يستر أجسامهن إلاّ غِلالة كالقشرة ، فى لون البشرة ، تنطبق على أعضائهن انطباق الغرْقِىء على ترائك الرئال[1] ، وتلتصق التصاق القميص بأجساد الصِّلال[2] ، فهنَّ عاريات للناظر ، كاسيات فى الخاطر ، فيأتينَ فى رقصهن أشكالاً تشرح فى ساطع الضياء ، مذاهبَ الأعصاب ومفاصل الأعضاء ، فتارة ينْثنِين ، وطوراً ينحنين ، وآونةً يدُرْنَ على أطراف أصابعهنَّ ، غير متنقلات من مواضعهنَّ ، وفيهنَّ من ترفع ساقها حتى تلطم فى الخد سوادَ الخال ، بذهب الخلخال ، وتلمس الجبين الوَضَّاء ، بطرف الحذاء ، والنظَّارة من أنحاء المكان يستعذبون ويستجيدون ، ويصفقون ويستعيدون ، ثم ما لبثن أن عُدْنَ بنوع آخر من أحدث الأنواع ، فى ضروب التفنن والإبداع ، فتوشحت كل واحدة منهنَّ بمُلاءة بيضاء ، متسعة الأطراف والأنحاء ، إذا استدارت فيها خِلتها قطعةَ غمام ، أطلَّ منها بدرُ التمام ، أو زُفَّةَ حمائم بيضاء[3] ، ترفرف ظمأ حول الماء ، وفى قُبالتهنَّ مصباح الكهرباء يرسل أشعته من أعلى المكان ، بمختلف الأضواء والألوان ، فتبدو الراقصة بانعكاسها فيها كأنها طاقة أزاهر ، أو قلائد جواهر ، وكأنها فى سرعة تلونها واهتزازها ، زَبدُ اللج هاجتْهُ السفينة فى اجتيازها ، فانعكست فيها أشعة الشمس المشرقة ،

---

(١) الغرقىء : القشرة الملتزقة ببياض البيض . والتريكة : بيضة النعامة . والرأل : النعامة .
(٢) الصل : الحية . (٣) زفة : جماعة الحمام .

بألوانها السبعة المتفرقة ، وفى يد كل راقصة منهنّ عصا جرداء ، إذا هَزّتها فى الهواء ، وقابلت بها شعاع الكهرباء ، أزهرتْ بأزهار من نور ، وأينعتْ بأثمار من البلّور ، يخالها كلُّ مَن يَرَى « كعنقود مُلاحِيَّةٍ حين نَوّرا[1] » لو رآها سَحَرَةُ فرعون وهامان ، لأقروا بفضل العصا فى كل زمان ومكان .

ولما توارت عن أعيننا هذه الأدوار ، وانسدل عليها الستار ، خرجنا ونحن فى دهش وذهول ، والتفت الباشا إلى « الحكيم » يخاطبه ويقول .

(الباشا) — أرى أن للرقص عندكم ، معشر الغربيين ، شأناً فخماً ، كأنه من نفائس الفنون وطرائف الآداب ، وأنه لا بأس لديكم بهذه المناظر والأشكال ، التى يأبى الأدب انتشارها واشتهارها على أعين الناس بهذه الكيفية الفاضحة .

(الحكيم) — إن شأنه عندكم أعظم ، وشكله فيكم أفضح ، ولا يزال كتّابُنا وأهل النقد منا يعيرونكم به ، ويستفظعون ذلك الشكل الذى يسمونه « رقص البطن » ، وهذا المعرض المصرىّ هنا ، كل من دخل فيه ، وشاهد النساء المصريات ، حاسرات النهود ، عاريات البطون ، يحركن طياتها ، خرج يقطر وجهه خجلاً ، وتكاد تجيش نفسه غثياناً من شناعة هذا المنظر فى عينه ، فيحكم عليكم بخسّة الآداب وقلة الاحتشام ، ومَنْ شاهد مواضع اللهو فى بلادكم ، لم يجدها حافلة بسواه ، فإذا عرضتم علينا آثاركم فى ديارنا كانت هذه الراقصات فى أوائل ما تعرضونه ، لنفاسة قدرها بينكم وجمال موضعها فيكم .

(الصديق) — إن الأمر على غير ما تتوهمه أيها الحكيم ، فإن هذا الرقص ليس بمنتشر فى عاداتنا ، ولا معروف فى بيوتنا ، وإنما هو من عمل المواخير وبيوت الفاحشة ، يباشره العواهر فيما يباشرنه من أبواب الإثم والفجور فى بيوتهن ، ولم يظهرن به على الملأْ فى الملاهى العامة إلا فضل أصحاب الحانات من الأجانب الذين يرون وجوه الربح متساوية لا حطة فيها ولا نقيصة ، والجمهور عندنا على استقباحه ، والنفور منه كما تنفرون ، ولا يشهده عندنا سوى أهل البطالة والخلاعة ، ولا يأتيه من النساء إلا الفواجر العواهر ، وكلما حاولت

(١) الملاحية : شجرة العنب .

الحكومة ، فى محافظتها على الآداب ، حظرَهُ ومنعه ، اعترضتها امتيازات الأجانب وحريتهم المطلقة فيما يأتون ويَذَرون . أما الرقص عندكم ، فهو متأصل فى عاداتكم ، وسُنّة متبعة بينكم ، لا يقتصر على الملاهى والأماكن العامة ، ولا ينفرد به النساء دون الرجال ، ولا يخلو منه بيت من بيوت السُّوقة ، ولا قصر من قصور الملوك ، ولا تقام عندكم وليمة من الولائم ، ولا يتم لكم احتفال فى المواسم إلا والرقص ركن من أكبر أركانه ، ومظهر من أفخر مظاهره ، والرقص عندكم من الفنون النفيسة ، يدرسه الرجال كما يدرسون العلوم ، ويتعلمه النساء كما يتعلمن الغزل والتطريز .

(الحكيم) — ليس الرقص فى أصله من المنكرات ، ولا مما يعاب شأنه ، كما تذهب إليه ، وهو حركة طبيعية فى الإنسان يقتضيها تركيب الجسد لرد الأعصاب إلى ميزانها ونظامها عند ما تلحقها خفة الطرب وهزة التأثر ، وهو قديم فى الفطرة ، وربما تجاوز نوعَ الإنسان إلى بعض الحيوانات والطيور ، وقلما خلت أمة من أنواعه منذ البداوة إلى اليوم ؛ وهو ينقسم إلى أربعة أنواع : نوع يستعمل فى الحرب ، ونوع يستعمل فى الصيد ، ونوع يستعمل فى حكاية الهوى من طريق الإشارة والإيماء ، والنوع الرابع فى الشعائر الدينية ؛ وقد اعتنى بأمره كثير من أمم الحضارة الغابرة ، وبلغ عند قدماء اليونانيين مرتبة عالية ، وكان كبراؤهم وأمراؤهم يمتازون بإتقانه ، ويتباهون بالتبريز فيه ، وفيهم من انقطع له واشتهر به ؛ ولقد كان السفير بين أهل « أثينا » وبين الملك « فيلبس » والد الإسكندر المقدونى رجلاً اسمه « تُوسيِّدِيمُوس » من أكبر الأساتذة فى هذا الفن ، ثم إن هذا الملك نفسه تزوج براقصة معروفة اسمها « لارِيسَا » ، وكان سقراط أبو الحكماء يهوى الرقص ولا يستنكره ، وكان « إيبامينُونْدَاس » ، وهو من أشهر الفلاسفة ، راقصاً مُبرِّزاً فى الفن ، والأمر على ذلك أيضاً من جهة الرقص الدينىّ فى الدولة الرومانية عند نشأتها ، ثم انتشرت فيها أنواعه انتشاراً عاماً إلى أن دخل الدين المسيحىّ على الوثنية الرومانية ، فلم يستنكره فى بادئ الأمر بأشكاله التى تفنن فيها الرومانيون على ما هو معهود فيهم من التناهى فى الملاذ الفاضحة فى أواخر دولتهم ، ثم دخل فى عادات الأمم الغربية ، فتمسكت به ،

ولم يصدّها عنه بعد ذلك استنكار الرؤساء الدينيين له تارة بعد أخرى ، إذ كانت النفوس ألِفَتْهُ واعتادت أن لا ترى فيه عيباً أو شيناً ، وإنما الذى شانَهُ فى نظركم اجتماع الرجال والنساء عليه فى حفلاتهم ، وذلك ناشىء عن ارتفاع الحجاب عندنا ووجوده فيكم .

قال عيسى بن هشام : وقَطَعَ الحديثَ بيننا أن رأينا فى طريقنا مكاناً يتزاحم عليه الناس ، وعلمنا أنه أحد المرائى الشهيرة الذى قرأنا عنه فصولاً متعددة فى الجرائد العالية مثل « الديبا » و « الفيجارو » ، ووصفته بأن الداخل يركب فيه سفينة عظيمة تسير به فى مياه البحر المتوسط فتمرُّ به على الثغور فيرى ما فيها من البنيان ويشاهد حركة السكان، فدخلناه بعد أن دفعنا الأجرة ، وصعدنا السُّلَّم حيث انتهينا إلى هيئة سفينة كبيرة فركبناها ، فإذا هى تميل بجانبيها كما تميل كفة الميزان بالصعود والهبوط فى حركة مثل حركة السفينة عند اضطراب الأمواج ، ويحف بها من الجانبين حائط من قماش نُقشت فيه أمواج البحر وأشكال الثغور الكبيرة مثل «نابولى» و «فينسيا» وغيرهما ، فيتخيل للراكب عند ذلك أن السفينة تسير به فى عرض الأمواج المرسومة ، والرسم متصل بآلة السفينة تديره بسرعة كبيرة ، والسفينة فى تمايلها كالأرجوحة لا تتحول عن مكانها، فلم نر فى الأمر ما يستغرب له .

ثم زرنا بعد ذلك العدد الكثير من قسم المرائى ، فرأيناها كلها على هذا النسق من التمويه ، وما برح «الصديق» يظهر التذمر لشدة الفرق بين ما رآه من هذه المناظر التافهة ، وبين ما انتشر عنها فى أنحاء العالم من المبالغة فى الوصف والغلو فى البيان ، ولم يخالفه « الحكيم » فى ذلك ، وإنما أشار علينا بأن نزور المنظر الوحيد الذى أعجبه حسنه من قسم المرائى كله ، وهو منظر القرية التى أقامها أهل سويسرا فى المعرض ، يمثلون بها جبالهم وأنهارهم ومعيشة الأهالى فيها على حال الفطرة ؛ ولما دخلناها تملّكنا الطربُ وتولانا الابتهاج من جلاء المنظر وبهاء الهيئة ، وشاهدنا الجبال شامخة تسيل من قممها السيول إلى قرار الوادى ، فتتشعب منها الجداول والأنهار ، وتتخلل البيوت والجدران ، وشاهدنا هناك الأبقار المشهورة فى تلك البلاد واقفة على مذاودها، ومن حولها الولائد والجوارى تتألق فيهن نضرة الشباب وتبرق أسرتهم بحسن البداوة .

حُسْن الحضارةِ مجلوب بتطرية وفى البداوة حُسْنٌ غير مجلوب

وهن يحتلبن ألبانها فى قُعُوب من البِلّور، ويُقدّمنها برغوتها لمن يرغَب فى استقائها من الزائرين، ورأينا الرجال فى حوانيتهم يملأون العين حسناً وبهاء واقفين وقفة التأدب يعرضون ما طاب وحلا من أثمار بلادهم وأزهار جبالهم، ولقد علمنا أنهم أقاموا فى تشييدها ثلاث سنوات وأنفقوا عليها ثلاثين مليوناً من الفرنكات؛ فأعجبنا المقام، وقضينا هناك زمناً نتناقل ونتفاكه ونتذاكر فى حديثنا فضل المعيشة الطبيعية فى سذاجتها، على المعيشة المدنية فى تصنعها وكلفتها.

الافتراء على الوطن

قال عيسى بن هشام : وفيما نحن ندور بين أقسام المعرض ونجول ، إذ سمعنا صوت مزمار وطبول ، فهاج منا الذكرى والشَّجَن ، وأذكى فينا الحنين إلى الوطن ، حنين أنضاء النوق[١] ، بلامعات البروق ، تنبعث من أفق بلادها ، وتنازعها الأشواق فى أغوارها وأنجادها ، فشخصت إليه الأحداق ، ومالت نحوه الأعناق ، فقصدنا منبعه ، وأمَمْنا مطلعه ، عسانا نجد عنده من آثار مصر فضلا ، ومن أشكال بلادنا شكلا ، يملأ العينَ جمالاً ، والصدرَ جلالا ، ويؤنسنا فى وحشة الفراق ، بما يخفف من لواعج الأشواق ، ويكون لنا فى المعرض موضعاً للفخر والمباهاة ، فى باب المسابقة والمباراة ، فوجدنا أخلاطاً من الزُّمَر والجماهير ، حول الطبول والمزامير ، ورأينا فى وسطهم رجلا يعلوهم فظاً فى هيئته ، كظاً فى طلعته[٢] ، لو استزاد من الفلاظة لم يجد له من مزيد ، كأنه جلمود صخر أو قطعة جليد ، بوجه تثور منه السماجة ، ثورانَ العجاجة ، «وطربوش» عليه طوق مثل الدُهن من العَرق والوضر ، لو لَجَّ فيه شعاع الشمس لاحتدم واستعر ، وهو يعجُّ مثل عجيج الإبل فى الفلوات ، ويصيح بصوت من أنكر الأصوت ، دُونَهُ صوت الحُمُر الناهقة ، أو الرعد بالصاعقة ، وفى يدِهِ مروحة يتزود بها هواء للتنفس ، خشية الاختناق من التهيُّج والتحمس ، وهو يتمايل عُجباً واختيالا ، ويذهب فى الحلقة يميناً وشمالا ، منادياً فى الجمع ، بألفاظ مكروهة فى السمع ، ترغيباً للرائح والغادى ، فى دخول ذلك النادى ، ليروا من أسباب الأنس ، ومُسْتَمتَع الحواس الخمس ، ما ينفى بلابل الصدور ، ويُجلِّى بواعث السرور ، من كل منظر ليس له نظير ، لا يحيط به التخمين والتقدير ، مما بَذَّتْ به مصرُ سائرَ الأمم ، وحلَّت به فى الفخر محل الذُرا والقِمم ، ولا غرو فهى لا تزال فى مضمارها منذ القِدَم ، عالية الكعب راسخة القَدَم ، وأن هذه فرصة سانحة لا بدّ أن تُلتَمَس ، وخلسة من الدهر يعقبها الندم إن لم تُختلَس ، فمن لم يبادر إليها فقد أساء الاختيار ،

(١) أنضاء : جمع نضو ، وهو المتعب المنهوك (٢) رجل كظ : عسر متشدد

وأوقع نفسه فى الخسار ، ولم يقف من المعرض على موضع حسنه وجماله ، بعد أن يفقد النفيسين من وقته وماله ، ومن لم يشاهد صنعة « زُهرة » و « معتوقة » ، لم يشاهد فى الدهر معشوقة ولا مموقة ، ولم يحصل إلا على الخيبة ، فى السفر والأوبة ، فدخلنا نستكشف الأثر ، ونستشفُّ الخبر ، فتلقَّانا بالباب رجل حسن الثوب والعمامة ، فى زى أهل التَّشَيُّخ والإمامة ، مشغول اللسان بالترحيب واليدِ بالتسبيح ، كأنه إمام مُصلًّى أو سادن ضريح ، لولا أن تأملته فعرفته رجلا من ذوى الرتب بين التجار ، مشهوراً بتجارة الطِيب والأعطار .

ذئبٌ تراه مُصَلِّياً فإذا مررتَ به ركَعْ
يدعو وجُلُّ دعائهِ ما للفريسة لا تقَعْ

فَهنأنا بالسلامة ، وبالغ فى الحفاوة والكرامة ، وتقدم بنا إلى ساحة من ساحات اللهو واللعب ، و « مرسح » من مراسح الرقص والطرب ، وانكشف لأعيننا الستر عن بنات الفجور والعِهر ، فأخذنَ فى « رقص البطن » بتلك الحركات الشنيعة ، والأشكال الفظيعة حتى تخيلنا أننا عدنا إلى أدوار تلك المدة ، فى مصاحبة « الخليع » و « العمدة » ، فَلوينا أعناقنا نحو الباب ، ونحن فى حزن واكتئاب ، وخرجنا نستر وجوهنا بأيدينا خجلا ، وتمنينا أن لا نُنسب إلى بلادنا أصلا ، لنتخلص من وصمة هذا العار ، وما يجره علينا من الأزدراء والاحتقار ؛ ورجعنا مهرولين ابتعاداً عن هذا « المعرض المصرى » وما يحويه ، من مثل هذا المشهد المعيب والمنظر الكريه ، وأقسمنا على أن لا نمر من هذه الناحية ، مرة ثانية ، فأخذ « الحكيم » يهوّن علينا من وقع المصاب ، ويخاطبنا فى معرض العتاب :

(الحكيم) — لِم هذا التسرع والتعجل ؟ أمَا علمتم أن المعرض ينقسم إلى قسمين : قسم الصناعات والآثار ، وقسم المشاهد والمرائى ؛ وقد رأيتم من « المعرض المصرى » القسم الثانى ، فدعُوه إلى سوء أدبه وقبح أثره ، ولا يمنعنا ذلك من زيارة القسم الأول منه الذى هو قسم الجد والعمل ، ولعلنا نجد فيه من محاسن الأعمال والآثار ما يصرف عنكم هذا الذى اعتراكم من الهم والكدر .

(الباشا) — ما أظن هذا القسم إلا عنواناً للقسم الآخر ، ومن أساء الاختيار فى قسم المشاهدات ، فجدير به أن لا يحسن الاختيار فى قسم الصناعات ، ومن بلغ به الانحطاط فى انتخاب مشاهد بلاده ومرائيها إلى عرض بطون النساء وفحش العاهرات للرائح والغادى من أطراف المسكونة فى هذا المعرض ، فلا يُرجَى منه حسن الاختيار فى آثار البلاد وأعمال صنَّاعها .

(الصديق) — لقد أعمى الطمع فى الربح مثل هؤلاء التجار عن قبح هذه المشاهد ، وغرهم ولع السفهاء بها فى مصر ، فحسدوا عليها أصحاب الحانات ، ولم يكن من اللائق بهم أن يزاحموهم فيها ببلادهم ، فانتهزوا هذه الفرصة للتفرد بها فى بلاد الغربة ، وظنوا أن الغربيين يقبلون عليها إقبال الشبان فى بلادهم ، فيفوزون بالربح ، وليس من يعيِّر بقبيح وجهه فى بلاد لا يعرفهم بها أحد ، فإن فيهم مثل هذا التاجر الوجيه ذى الرتبة الثانية الذى لو دعوته لرؤية الرقص فى مصر لغطى وجهه بجبته ولَوَى عنقه يستعيذ ويستغفر من هذا الإثم الذى ينهاه عنه دينه وأدبه ، ولكن جاء الأمر على خلاف ما قدروه ، فلم ينالوا ربحاً ، ولم يستروا قبحاً ، فإن أدب زوار المعرض على اختلاف أجناسهم ينهاهم عن مشاهدة هذه الفضائح ، فلم يقبل عليها أحد ، ولم يبق لأصحابها إلا سخط المصريين عليهم جزاء تعيير الأمم لنا بسوء رأيهم وقبح اختيارهم .

قال عيسى بن هشام : ولما جاوزنا باب الملهى قليلاً ، انثنينا إلى القسم الأول من هذا المعرض المصرى مطاوعة لرأى صاحبنا ، فوجدنا بناء مشيداً مثل أبنية الجوامع والمساجد ، يفاجئك مدخلهُ بحانة للخمر ذات اليمين تتخطر فيها شمطاء من عجائز باريس ومن حولها بناتها وحفَدَتها ، وعن ذات الشمال رجل معمم قد جلس متربعاً ، عريق فى القبح والدمامة ، تنطبق عليه القبعة دون العمامة ، وأمامه منضدة عليها دواة وقرطاس ، وقد التفَّ عليه جماعة من أجناس الناس ، يتقدم إليه الواحد بعد الآخر فينقده بعض الدراهم ، فيسأله عن اسمه واسم أبيه وأمه ثم يخط له بالعربية فى ورقة معصفرة مزعفرة بعض الدعوات الصالحات ، وسمعنا بعض النظارة من الغربيين يقولون فى انكبابهم عليه : هلم إلى شيخ

المسلمين ليكتب لنا شيئاً من « قرآن محمد » ؛ فحز بنا الأمر ، وانتظرنا قليلاً حتى انفض الجمع عنه ، وأقبلنا عليه نسائله ، فانفضح لنا أمره عن لهجة سورية ، فزجرناه قياماً بواجب الدين الإسلامىّ الذى ينكر مثل هـذه البدع السافلة على أبنائه ، فأخبرنا أنه استأجر هذا المكان من « شركة المعرض المصرىّ » للارتزاق بهذه الوسيلة التى دفعته إليها ضرورة العيش ، فتركناه وتوغلنا فى داخل المكان ، وإذا برجل آخر معمم ومَنْ حوله صبيان فى أزياء المصريين التفّوا حلقة على الأرض كحلقة أولاد الكتاب حول الفقيه ، وهو يقرئهم آيات الكتاب بصوت عال ويُرَوضهم على اهتزاز الجسم فى أثناء التلاوة ، وفى يده قطعة من جريد النخل يهددهم بها ويؤدبهم ، والجمع من حولهم يسخرون ويضحكون من شكل التدريس فى مصر وتعليم الدين بين المسلمين . ولما سألنا هذا الفقيه عن أمره أيضاً وما فيه من المنكر تبين لنا أنه رجل مسلم من عامة المصريين اجتلبه أعضاء الشركة مع صبيانه ليمثلوا به هذا المنظر ، ولم يستنكروه ، وفيهم بضعة من صلحاء المسلمين ، وأن طمع الربح سهل عليهم هذا الموقف ، فكان إنكارنا لأمر هذا المسلم المتعبد ، أعظم من إنكارنا لحال ذلك المسيحىّ المتصيِّد .

ولما توسطنا ساحة البناء وجدنا بها سوقاً تشبه أسواق الموالد وحوانيتها ، فعن اليمين بائع « لب وحمص » و « فول وترمس » ، وعن الشمال بائع « عرقسوس وسحلب » ، وفى هذا الجانب بائع « حرابر شامية » ، وفى الجانب الآخر بائع « حلوى استامبولية » ، ومن دونهم بائع « أحذية صفراء وطرابيش حمراء » ؛ ولما استخبرنا : أهذه كلها آثار مصر والمصريين ؟ قالوا : نعم ويزيد عليها « معروضات المصنوعات والمزروعات » فى داخل هذا المكان ، وأشاروا إليه ، فدخلناه ، فإذا هو مكان متسع على شكل معابد القدماء من المصريين ، ووجدنا حوانيته أشبه شئ بحوانيت العطارين انتقلوا منها إلى سواها ، وتركوا فى أنحائها وزواياها بقايا من صنوف تجارتهم ، فهنا صرة فيها بذرة قطن ، وهناك قطعة بها حبوب حلبة وذرة ، وفى صدر المكان صوان[1] من زجاج به كسوة مطرزة بالذهب مما

---

(١) صوان : هو المعروف فى العامية بالدولاب

يلبسه العداءون « القمشجية » أمام الخيول بمصر ، فانقلبنا خارجين من « قسم المزروعات والمصنوعات » على حال من الغم والحزن أشد وأدهى من الحال التى خرجنا عليها من ملعب المغنيات والراقصات .

وفزعنا إلى الهرب من هذا المعرض المصرىّ وسيئاته ، فعارضَنا أحد المروجين له ، واستحلفنا ألا نتركه من غير أن نشاهد أعجوبة العجائب فيه ، فطاوعناه ، فدخل بنا غرفة مُحجَّبة ، وانكشف لنا الستار عن فتاة مقطوعة الذراعين تغزل برجليها وتستعملهما استعمال اليدين فى كثير من الشؤون ، فخرجنا لا نلتفت وراءنا ، وقد حان وقت الغروب ، حتى صرنا فى الشارع ، فرأينا مثل القطيع من النساء المصريات وبأيديهن الدفوف والشموع ، وفى وسطهنّ امرأة عليها زينة العرائس ، وهن يُنشدنَ حولها أناشيد الأعراس فى زفاف المصريات ، فعجبنا من تركهنّ لمكان اللعب والرقص إلى خارجه فى وسط الشارع ، وبينا نحن كذلك إذ بصر « الصديق » بأحد المصريين من أصحابه ، فاستوقفه يطارحه الحديث عن خبث ما رأى وسمع ، وينعى على المصريين سوء سمعتهم بين الأمم بهذا « المعرض المصرىّ » :

(الصديق) — ألاَ تخبرنى عن سر هذا التفضح ، فإنهم لم يكفهم ما يدور فى داخل المعرض من كل مخجل معيب ، حتى انتشروا به فى الشوارع على نحو ما تراه ، لو قلنا إن جماعة من أعداء المصريين تألبوا على النكاية بهم ، ليظهروهم بأسوأ المظاهر بين الأمم ، فانتهزوا هذه الفرصة لتنفيذ مكيدتهم ، لَما أخطأنا الصواب .

(المصرىّ) — ليس الأمر كما ذهبت إليه ، وإنما دفع أهلَ الشركة الشَرهُ والطمعُ واستجلاب الربح بكل سبيل ، كما تراه فى تسيير موكب الزفاف فى أنحاء الشوارع للإعلان والترغيب فى زيارة المعرض بقطع النظر عما يجلبه من العار على أهل مصر جميعاً ، ولكن الذى يقف على حقيقة هذا المعرض وتأليف شركته لا يلبث أن يهون عليه الأمر شيئاً ما لأنه لا ينتسب للمصريين بنسبة رسمية ، فقد امتنعت الحكومة المصرية عن إجابة الدعوة

التى أرسلتها الحكومة الفرنسية إليها ولم تشترك فيه رسمياً ، كما أعلنته فى الجرائد ، وليست شركة المعرض بالشركة المصرية ، لأن الجانب الأعظم فيها من الشرقيين المقيمين بمصر مع بعض مَن لا خلاق لهم من المصريين .

(الصديق) — وهل تظن أنهم يربحون الشىء الكثير من هذا المعرض ، وهو على ما تراه من حال الكساد والبوار ؟

(المصرى) — ما أظن الربح على هذه الحال بميسور ، ولكن الشركة لا تخسر شيئاً ، وإنما الخسارة على الذين اكتتبوا فيها ، وهم يقدرون الخسارة إلى اليوم بثمانين ألف فرنك ، وعسى أن يستمروا على هذه الخسارة عبرة لهم وتأديباً ، حتى لا يقدموا مرة أخرى على مثل هذه المشروعات التى لا يسلمون فيها من الخسارة ، ولا يسلم المصرىّ فيها من وصمة العار .

قال عيسى بن هشام : وزوّدنا الرجل بالتحية والسلام ، بعد أن خفف علينا بعض ما بنا من الآلام .

خبز المدنية

قال عيسى بن هشام : وانتهى بنا التجوال فى المعرض إلى « أقسام الدول » ، فرأينا فيها من مفاخر الأواخر ومآثر الأول ، ما يشهد لهن بالعلو والارتقاء ، فى أبواب الإبداع والإنشاء ، وقد تبارين فى ميدان المناضلة ، وتسامَين فى مضمار المفاضلة ، بما لا يشق لهن فيه غبار ، وتقصر دونه الأنباء والأخبار ، وكانت الدولة الألمانية من بينهن أسبقهنَّ قدماً ، وأرفعهنَّ علما ، وأعز مكاناً ، وأعظم شأناً ، كأنها لم تقنع بالسبق عليهن فى ميادين الحرب والطعان ، فأرادت أن تسبقهن أيضاً فى حلبة العلوم والعرفان ، وأن تبذهن فى حالتى الحرب والسلم ، بشدة البأس وقوة العلم .

و بينا نحن نمتّع النظر بحسن الصنع ، وجمال الوضع ، إذ شعرنا بضجة ، والناس يتقاذفون بعضهم على بعض كالبحر اللجىّ ، فى الليل الدَّجوجىّ[1] ، قد ركبوا رؤسهم من شدة الفزع ، وطارت عقولهم من الهلع والجزع ، وانتشر بينهم الصراخ والصياح ، واشتد فيهم العويل والنواح .

فسألنا عن الخبر ، فقيل لنا إن القنطرة القائمة على رأس المعرض ، هَوَتْ بِمَنْ فوقها على من تحتها ، فتوجهنا ناحيتها ، فوجدنا من المنظر الشنيع ما تنقبض له النفوس وتذرف العيون ، فمن جثث هامدة وأجساد دامية ، ما بين فتاة وصبى وشاب وكهل ، من زوار المعرض ، يزيدون على المائة ، والدماء تجرى كالسيل ، والناس يترامون على الأرض ليتعرفوا بمن عسى أن يكون بين المصابين من أقربائهم وأصدقائهم ، وما فيهم إلا كل متوقع للمصيبة ومترقب للمكروه ، فالبكاء شامل والأنين عام ، والأطباء يضمدون ، ورجال الصحة يحملون ، وأشتد علينا الحال باشتداد الهول ، وتكاثر الزحام فضاق علينا التنفس كما ضاقت النفس عن احتمال هذا المشهد الفظيع ، فجذبنى « الباشا » إليه لنخرج من هذا المأزق ، فأسرعنا إلى مطاوعته ، وسار بنا وهو يقول :

---

(١) الدجوجى : المظلم

(الباشا) — تالله ما يفى كل ما رأيناه فى هذا المعرض من بهجة وسناء فى ترويح النفس، بمقدار ما اعترانا من الضيق والكرب أمام هذا الموقف الهائل ، حتى لقد تخيلت أننى أشاهد يوماً من أيام الحرب تتمزق فيها الأعضاء وتتناثر الأشلاء .

(الصديق) — صدقت ، ويزيد على ذلك أن هول الوقائع الحربية قد يكون أقل فى النفس وقعاً ، لأن للحروب رجالا استعدوا لها واستأنسوا بها وغلظت أكبادهم ، ولست ترى من حولهم مثل هؤلاء الصبية والأطفال ، وهاته النسوة اللواتى رقق النعيم أديمهن ، ورفهَ الرغد أجسادهن ، يفزعن من مس الإبرة ويذعرن من لمس الوبرة ، فأصبحت الأوصال ممزقة تحت الردم ، والأعضاء مدكوكة فى الأنقاض ، وهكذا صارت وقائع المدنية فى سلمها أشد من الوقائع فى حربها .

(الباشا) — لقد آن لنا أن نغادر هذا المعرض ولا نعود إليه مرة أخرى ، فقد قطعناه طولا وعرضاً ، واستوفيناه بحثاً وتدقيقاً ، و بدأ فينا الملل من طول التردد عليه .

(الحكيم) — إن كنتم عقدتم العزم على الانتهاء من زيارات المعرض بعد اليوم ، فلا يفوتنكم أن تختموها فيه برؤية العجيبة التى هى فى الحقيقة أم العجائب ، ومصدر هذه الطرائف والغرائب ، والأصل الذى تتفرع عنه الفنون والصنائع . والمنبع الذى تسيل منه مظاهر المدنية ، والمطلع الذى تشرق منه شمس الرفاهة والحضارة .

قال عيسى بن هشام : فشوقنا بكلامه إلى متابعته ، وسرنا وراءه إلى حيث يريد ، فانتهى بنا إلى بناء فخم من أبنية المعرض لم يكن وصلنا إليه من قبل ، ولما دخلناه وقف بنا عند فوهة هاوية عميقة مظلمة يضطرب البصر عند رؤيتها ، وتختلج النفس من هيئتها ، فدعانا للنزول فيها ودفعنا لركوب آلة هناك للهبوط والصعود ، كأعظم ما يكون من الدِّلاء ، فهوت بنا إلى قرار بئر عميق ، وجُب سحيق ، فتولانى من الهلع والذهول ما أنسانى كل شىء فى ذاكرتى مما يحفظه أهل الدنيا إلا ثلاثة أبيات لم يُبق لى سواها ما أنا فيه من هذا الانحدار ، والهُوِىّ فى ظلمات بعضها فوق بعض ، قالها الفرزدق لما تعلق بحبال الغوانى من أعلى الجدران . فراراً من صولة الثائر والغَـيْران :

فلما استوتْ رِجلاىَ فى الأرض نَادَتَا أَحَيٌّ يُرجَى أم قتيـلٌ نحـاذِرُهْ
فقلت ارفعوا الأسبابَ لا يَشعروا بنا ووليَّت فى أعجاز لَيْلٍ أبادرُهْ
هُمَا دَلَّتَانِي من ثمـانين قامـةً كما انقضَّ بازٍ اقتمُ الريش كاسرُهْ

ولولا أن حسن العشرة وطول الخلطة مَكَّنَ الثقة من نفوسنا بالحكيم الفرنسىّ ، لقلنا إنه كاد لنا وأراد أن يجدد فى عصرنا الحاضر ما فعله أبناء يعقوب بأخيهم فى عصرهم الغابر ؛ ولما أفقنا من الإغماء فى بطن الأرض ، سألناه أين نحن من الآخرة ، أو فى أية طبقة من الطباق السبع ، فعلمنا أننا فى مكان صوروه على نمط معادن الفحم الحجرىّ تحت الأرض ، وكيف يستخرجه العمال فى غياهب الجب ، فأخذنا نحدق العيون فى حنادس الظلماء عسانا نبصر شيئاً ، فتمثل أمامنا العمال يدأبون فى عملهم على ضوء سراج معقود بناحية كل عامل كأنه نار الحُباحب تنقدح بين الأشجار فى ظلمات الليل البهيم ، وأنى لأضواء السُّرُج الكهربائية أن تشق عباب هذا الظلام الدامس ، وهو يكاد من تكاثفه يُمْسَك باليد ويُقبض بالراحة ، وحسبك أنها لا تفيد فى كشف الظلام وإضاءته ، وإنما تزيد فى بيانه وإراءته ، ثم خطونا قليلا وعثرنا كثيراً ، فرأينا من السرادب والكهوف ومن الأخاديد[1] ما تضل فيه الصلال بالتوائها ، وتنكمش دون انسيابها ، ونظرنا فى كل فجوة أشباحاً يتشكلون بأجسامهم على كل أشكال الصراع الذى يتفنن فيها المصارعون للتمكن من العمل فى ثنايا الفجوات والمنعطفات ، وفى أيديهم ما ثقل ودق من أدوات القطع والحفر وأخشاب الإسناد يقيمون بها ما يريد أن ينقض من جدران المغائر والكهوف فنهم الواقف فى عمله على أصابعه ، والمضطجع على جنبه ، والجاثى على ركبتيه ، والمنكب على وجهه ، والمياه تسيل عليهم من الثنايا والشقوق ، هذا بعض ما تقاسيه الأجسام من المتاعب والمشاق والله العليم بما يدور فى القلوب والرءوس من توقع الخطر وترقب الهلاك بما شئت من أنواعه المتعدده انهيالاً واندفاقاً ، وانفجاراً وانبثاقاً ، وغرقاً واحتراقاً ، وارتداماً واختناقاً ،

(١) الأخاديد : جمع أخدود وهو الحفرة العميقة

وهمهم الأكبر أن يراقبوا ما على نواصيهم من السُرُج ، خشية أن تصاب برضَّة تنثلم فيها ثلمة ، فتتصل بغاز الفحم المتسرب فى المعدن تسرب الهواء ، فتميد الجدران ، وتندكّ الأحجار ، وتخسف بهم الأرض ، واهتدينا آخر الأمر إلى منفذ فخرجنا منه ، وتركناهم يعملون فى ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض :

فالفحم ظلام جامد ، والظلام فحم سائل ، وعيشهم أسود حالك ، وكفانا الله شر المهالك .

ثم درنا قليلا فى « معدن الذهب » ، بعد أن انتهينا إليه من « معدن الفحم » ، فلم نجد أرباب العمل فيه أسعد حالا ، ولا متاعبُه أهون احتمالا ، لا نصيب لهم من الأصفر الرنان ، مما يجلو عنهم صدأ الكروب والأحزان ، سوى أنهم صفر الأيدى من الفضة والذهب ، صُفر الوجوه من النصب والتعب .

والعِيسُ أقتلُ ما يكون لها الصدَّى والمـــــاء فوق ظهورها محمولُ

وكادت الرطوبة فى المعدن تعقد دماءنا فى مجاريها ، فأسرعنا إلى مكان الصعود ، فانتشرنا من بطن الأرض إلى ظهرها ، وأقمنا هنيهة نعالج بأيدينا غشاوة الظلماء عن الأبصار ، عند مفاجأة ضوء النهار ، وسرنا نتمتع بفضاء الأرض لا ننطق حرفاً ولا نحس خطاباً ، وإذا بصاحبنا « الحكيم » يستوقف أنظارنا إلى « مسبك المدافع » الذى يمثل أعظم المسابك فى فرنسا تُطلُّ منه أعظم أسطوانة للمدفع فى العالم ، ويخاطبنا بقوله .

(الحكيم) — وهذا هو الثالث من أمهات المدنيـة وأقانيم الحضارة ، فقد رأيتم الأقنوم[1] الأول وهو الفحم ، والأقنوم الثانى وهو الذهب ، وهذا الأقنوم الثالث وهو الحديد .

(الصديق) — « وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديد ومنافعُ الناس » .

(الحكيم) — نعم إنهم يستخرجون الذهب ، ليشتروا به الفحم ، ليصهروا به الحديد ، فيصنعوا منه ما شاءوا من آلات السلاح وأدوات الصناعة ، فيخرجوا للناس ما تشاهدونه من عجائب الصنع ، وإن كل ما ترونه مما يبهر الأنظار ، ويستهوى القلوب ، راجع فى

(١) الأقنوم : الأصل

الأصل إلى ذلك الفحم الأسود ، الذى هو اليوم الخبز الثانى للانسان فى عالم المدنية ، منه نعيمها ورفاهتها ، وبه بأسها وقوتها ، تباً للانسان ! فما أعقّ عمله وأقبح صنعه ! يهوِى بالملايين من العمال إلى أسفل طبقات الأرض ، فيخربون باطنها ، ليستخرجوا منه ما يخربون به ظاهرها ، وتعساً له ! يزعم أنه يعمل لسعادة الحياة وراحة العيش ، وهو يقضى عمره فى الشقاء والبلاء حتى يأتيه حمامه ، فيخرج من الدنيا باكياً كما دخلها باكياً ، بعد أن قضى فيها لحظة العمر على حال تَفْضُلُها حالة الحيوانات والحشرات ، وهو بزعمه أفضل المخلوقات !

(الباشا) — كم يكون عدد العمال الذين يستخرجون الفحم فى فرنسا ، وما مقدار أجرة العامل فى اليوم ؟

(الحكيم) — يشتغل فى معادن الفحم مائة ألف عامل ، ويبلغ ما يستخرجونه منه سبعة وعشرون مليوناً من الأطنان تباع بمائتين وستين مليوناً من الفرنكات ، ويعمل العامل منهم فى جوف الأرض على عمق المئات من الأمتار ، وفى وسط الأخطار التى لا تقل حوادثها فى العام عن ألف وخمسمائة حادثة ، فتذهب بالعدد الجم من القتلى والجرحى ، هذا غير ما يصيب العمال من الأدواء الصدرية والأمراض الرئوية لاستنشاق « الكربون » وفاسد الهواء ، ومنهم من يشتغل بالليل ومنهم من يشتغل بالنهار ، ومعهم أولادهم ونساؤهم ، كل هذا بأجرة تختلف من اثنين إلى خمسة فرنكات فى اليوم !

(الباشا) — وأين تذهب هذه المئات من الملايين من أثمان الفحم التى هى ثمرة كدهم ونتيجة تعبهم ؟

(الحكيم) — تذهب إلى فئة معيَّنة من أرباب الشركات والامتيازات ، فينفقونها على شهواتهم ، أو يدّخرونها فى صناديقهم ، ولا تظننّ أن هذه الفرنكات التى يأخذها العامل أجراً له فى اليوم تصل إلى يده ، فان أكثر الشركات تبتنى بيوت السكنى للعمال فى أحياء بجوار المعدن ، وتقيم بجانبها الأسواق ، فيشتغل العامل فى معدن الشركة ، ويسكن فى بيت الشركة ، ويشترى طعامه ولباسه من سوق الشركة ، والشركة تخصم عليه من أجرته ، فاذا خرج آخر الشهر لا عليه ولا له ، كان رضى الحال ، رخى البال !

(الصديق) — مِنْ هنا نشأت المذاهب الاشتراكية ونحوها ، فانه كيف يصبر الإنسان على هذه الحال ، يعمل عمل الحشرات فى باطن الغبراء ، ليغنى المقعدين فى قصور العز والهناء .

قال عيسى بن هشام : ووصلنا فى مسيرنا إلى البرج الشهير ، برج « إيفل » المهندس القدير ، فأسندنا إليه ظهورنا ، نتفكر فى أعمال الانسان ، وما يأتيه من فنون الجنون فى كل زمان ، وهو يدّعى أنه المخلوق الكامل ، والحكيم العاقل .

المعجزة الثامنة

قال عيسى بن هشام : ووقفنا نشاهد ذلك البرج المنيع ، والعماد الرفيع ، فهالتنا رفعته ، وأدهشتنا صنعته ، فهو فى باب المشاهد الفريدة العصماء ، والغرة الشهباء ، والهضبة العلياء ، والقُلة الشّماء ، أعجوبة الصنائع وضعاً و إتقاناً ، و بكر هذا المعرض و إن كان فيه عواناً (١) ، تنحنى أمامه الآطام (٢) والآكام ، وتخرّ له الرُّبا والأعلام ، فأين من ارتفاعه الهرمان ، ومن علوّه صرح هامان، لمّا أمره فرعون بقوله فى كفره وعناده ، وجحوده و إلحاده : « ياهامانُ ابنِ لى صرحاً لعلّى أبلغ الأسبابَ اسباب السمواتِ فاطّلِع إلى إلٰهِ موسى وإنّى لأظنّهُ كاذباً » لو رآه فرعون لهدم ما شاد وأعلى ، ولم يَقل أنا ربكم الأعلَى ، ولا نحى على هامانِه فَجَلدَهُ ألفاً ، وعلّقه في الجذع شَنقاً (٣) ، وأين « برج بابل » من برج يشافه بروج السماء ، و يشارف الشِّعرَى الغُمَيْصاء ، إذا حوّم عليه نسر الجو صار ثالثَ النّسرَيْن ، واتخذ وَكرَهُ فى منازل الفرقدَيْنِ ، وأنّى لخيال الشاعر أن يعلو فى وصفه علوّه ، ويسمو سموّه ، لاجَرَمَ أنه يضيق عليه نطاق الوصف ، فيلجأ إلى تشبيه الأكبر بالأصغر ، والأعظم بالأحقر ، كما شبهوا شمس النهار ، بكأس العقار ، والثريا بعنقود ، والجوزاء بعود ، ودَرارىّ النجوم، بالوَدَعِ المنظوم ، والليلَ الدجوجى، بالعبد الزنجى ، والاشفاق ، بالدم المُهراق، فلعله يقول إذاً : إنه ألف الهجاء ، فى كتاب التقدم والارتقاء ، همزتهُ رايته التى تخفق فى صفحة الأفق ، أو أول العدد المرقوم فى جدول الفنون والعلوم ، أو الابرة التى تُغرَز فى خريطة الكرة الأرضية ، لتعيين مواضع المدنية ، أو هو القلم الذى يخط فى أديم البدر ، ما بلغتهُ أمم الغرب من علو الشأن والقدر ، أو هو قرن الثور في زعم البعض ، نفذ إلى ظهر الأرض.

ولما فرغنا من الطواف حوله مراراً ، وامتلأت له نفوسنا إعظاماً و إكباراً ، سمعنا « الصديق » يتنهد ويُصَعِّد ، و يعيد فى قوله و يردد :

---

(١) العوان : بعد البكر (٢) الأطام : الحصون (٣) الشنف : القرط

(الصديق) — هذه سنة الدهر منذ القدم ، وعادة الزمن فى أبنائه ، كلما ترقت أمة من الأمم فى معارج المدنية ، شيدت لها أثراً يفوق سواه من بديع الصنعة ، يقوم لها شاهداً بين الورى على ما بلغته من السمو والقدرة فى زمنها ، ثم لا يلبث أن يمحوه الدهر من صحيفته، ليقوم مقامه آخر ينتهى إلى مثل نهايته ، لا يزال الدهر هكذا فى محو وإثبات ، ولا يزال ابن آدم عن العِبر فى غفلة وسُبات ، اللهم إنه عمل باطل ، وظل زائل .

(الحكيم) — لا تَمِلْ بنا فى أفكارك علو البرج قبل أن نصعد فيه ، ولا تشغلنا بأقوال الحكمة عن مشاهدته ، وهلمَّ بنا إلى الارتقاء .

قال عيسى بن هشام : ودخلنا من أحد جوانبه فى غرفة للصعود ، فارتفعت بنا من سطح الأرض إلى عنان السماء فى لحظة كلمح بالبصر ، فرست بنا فى الدور الثانى منه ، وإذا هو سوق من أكبر الأسواق ، اصطفت فيه حوانيتُ التجار بأنواع البضائع ، والحاناتُ بأصناف الخمور ، وفى وسطه مطعم فخم يزرى بمطاعم الأرض ، فأخذنا مجلسنا فى بعض حافاته ، وجعل « الباشا » يسأل « الحكيم » إجمالاً وتفصيلاً :

(الحكيم) — يرتفع هذا البرج عن سطح الأرض بثلثمائة متر ، وهو من الحديدالخالص، ويبلغ وزنه تسعة ملايين كيلوجرام ، وعددُ قِطَعِهِ التى يتركب منها اثنا عشر ألف قطعة ، والخطاطيف فيه مليونان ونصف وله من العمر عدة سنوات ، وبلغ دخله من الصاعدين فيه فى أثناء المعرض الماضى سبعة ملايين فرنك ، ولو تم لأهل العصور الماضية بناء مثله لكان الثامن للآيات السبع .

(الباشا) — وما الآيات السبع ؟

(الحكيم) — إنَّ ذكرها ليطول .

(الصديق) — نحن فى مجلسنا هذا ، وفى علونا عن الأرض ، وتفرغنا عن العالم مايبعثنا على جولان الفكر فى تاريخ البشر ، للمطابقة بين أعمال الإنسان فى ماضيه وحاضره ، وأن اختلاف العصور ، ومرور الدهور ، لم يُغيِّر شيئاً من جِبِلَّته ، فهو هو على عهده فى غرامه بالمعجب المدهش ، يبيع نعيم الدنيا بشقائها فى سبيل ذلك ، ويشتغل بما لا تقضى به الحاجة ، لمجرد الزَّهو والعجب ، والتباهى والتفاخر .

(الحكيم) — نعم يحق لك هنا أن تذهب مذاهبك الحكيمة فى تعليل أعمال البشر وطباع الخلق ، وأنت تنظر إلى أهل العالم السفلى من هذا العالم العلوىّ ، كأنهم جموع النمل تغدو وتروح فى سُبُل أرزاقها ، ولكن الفرق بين الجنسين أن النمل فى تآزر وتعاون ، والناس فى تَضَارب و تقاتُل ، والمصير واحد ، والفناء شامل ، وعمل النمل حق وعمل الإنسان باطل .

وإن أبيتم إلاّ أن أحدثكم حديث المعجزات من أعمال البشر ، فهى : الأهرام ، والحدائق المعلقة ، وسور بابل ، وتمثال جو بيتير ، وصنم رودس ، وهيكل إيفيز ، ومدفن الملك موزول .

أما أهرام مصر فأمره مشاهد معلوم .

وأما « الحدائق المعلّقة » فى أرض العراق ، فقد أقامها « بختنصر » فوق الربوة التى تعرف الآن بربوة « عمران بن على » ، وهى فى اتساع أربعين فداناً شُيدت بالبناء على أشكال الجبال ، وعقدت فيها القِباب على عُمُد وأساطين أفرغوها وملأوها بالطين ؛ وغرسوا فيها الأشجار تنساق جزورها فى أصولها ؛ وتورق فى رؤسها ؛ ووضعوا فيها الدَّرَج يصعد منها الصاعد إلى مثل رؤس الجبال ، حيث تثمر الأثمار ؛ و تزهر الأزهار ، وتعشب الاعشاب؛ وتدور الدواليب لرفع الماء من مجرى الفرات إلى أعلى القباب ؛ ويقال إن السبب فى إقامتها على هذا الشكل أن امرأة الملك كانت تحنُّ دائما إلى مناظر بلادها التى نشأت فيها ، فأنشأها لها الملك بالصناعة ما يعوضها به عن الطبيعة .

وأما « سور بابل » فهو عدة أسوار متداخلة بعضها فى بعض ، يتسع محيطها للإحاطة بسبع مدائن مثل مدينة باريس ، وكان ارتفاعه ثمانية وأربعين متراً ، وعرضه سبعة وعشرين متراً ، ومِنْ حوله خندق عميق ، وعليه أبراج متعددة ، وله مائة باب من حديد .

وأما « تمثال جوبيتير » ، الاله الأكبر عند اليونانيين ، فقد صنعه لهم « فيدياس » النحّات الشهير ، وطول قامته أربعة عشر متراً ، وهو جالس على العرش ، مكلل بورق الغار ، وفى يمناه تمثال « إله النصر » ، مصنوع من الذهب الخالص وسن الفيل ، وفى

يسراه الصولجان ، منضّد بكرائم الأحجار ، وفى طرفه نسر من الذهب ، والطيلسان والحذاء من الذهب أيضاً ، أما العرش فكان من الرخام وسن الفيل والأبنوس ، وكان موطئ قدميه من العرش أسدين من الذهب ، وقد أجاد صانعه وأتقن فى تناسب الأعضاء فى هذا الحجم العظيم ، حتى عدّه القدماء أنفس ما فى الوجود من الصنع ، وكان كل يونانى يعد نفسه ناقص الإيمان إن مات ولم يحجج إليه .

وأما « صنم رودس » فهو تمثال « أبولون » ، إله الفنون عند اليونانيين أيضاً ، أقاموه تجاه المرفأ ، وكان ارتفاعه اثنين وثلاثين متراً ، وهو أكبر ارتفاع بلغته تماثيل القدماء ، وانتهى بأن أسقطته الزلازل وهشمته ، ونقلت العرب كثيراً من بقاياه فى القرن السابع .

وأما « هيكل إيفيز » (وهى مدينة من مدن اليونان) ، فهو معبد « دِيَانْ » ، آلهة الصيد والقنص ، ولم يكن له مثيل فى البناء والنقش والزخرف والتصوير بين معابد القدماء على الإطلاق ، ومما يُذكر للدلالة على أنه أعظم أثر عندهم أن أحد أهل الشقاوة من المولعين بحب الشهرة ، على كل حال ، واسمه « إيروسطراط » بحث عن أكبر عمل يمتاز به فى الوجود ، ويخلد ذكره على مدى الدهور ، فاحتال لإحراق المعبد ، فأكلته النار ، وأعلن الجانى عن نفسه أنه هو الفاعل لتلك الفعلة الشنعاء ، فحكم عليه القضاء بالتعذيب حتى يموت ، وأدركوا غرضه من إحراقه ، فأمروا أن يُلحق به كل من ذكر اسمه ، فكان ذلك داعية انتشاره ، لأن الناس أخذوا يهمسون به بينهم ، حتى اشتهر وخلّد ذكره بسوء فعلته إلى اليوم ، وكان حرقه فى الليلة التى وُلد فيها الاسكندر ، فلما بلغ من الملك ما بلغه ، عرض على أهل « إيفيز » أن يعيد لهم بناءه من ماله بشرط أن ينقشوا عليه اسمه ، فأبوا ذلك حتى لا يكون لأجنبى عنهم فضل عليهم فى معبدهم ، وباشروا هم أنفسهم تجديد بنائه وزخرفته ، حتى تم لهم فى مائتين وعشرين عاماً ، وما زال قائماً حتى جاء « نيرون » القيصر الرومانى فنهب ما فيه من الذخائر والكنوز ونقل الفسيفساء من أرضه فوضعها فى قصوره بمدينة « رومية » ، ثم انتهى الأمر بأن خرّبه « الجرمانيون » فى حروبهم .

وأما مدفن الملك « موزول » ، فهو مدفن أقامته له امرأته (وكانت أخته) بعد موته ، جمعت له مهرة الصناع من سائر البقاع ، وخصّت كل طائفة منهم بجانب من العمل ، وكان

ارتفاعه اثنين وأربعين متراً ، وأساطينه من المرمر النقيّ نُقشت عليها صور الحوادث التاريخية ، وكان غطاؤه صخرة من المرمر صُوِّرت فيه وقائعه الحربية ، وبقى هذا المدفن سليما إلى القرن الرابع عشر ، ثم اندثر أثره فى القرون الوسطى ، ونُقل جانب من أجزائه قريباً منه لبناء قلعة « بودرون » بالأناضول فى القرن السادس عشر ، وبقى منه قِطَع من الرخام المنقوش لاصقة بأرضه إلى أواسط هذا القرن ، فاشترتها انكلترا ووضعتها فى متحف لوندره .

(الصديق) — ما أشبه الليلة بالبارحة ! وما أبعد ابن آدم من العبرة والتذكرة ! ! تراكمت القرون ، وشاب فَود الدهر ، وتغيرت الأرض ، واندثرت المعالم ، فى كل زمان ومكان ، والإنسان هو هو لا يزال على غيه ، يعتقد لأعماله البقاء ، ولآثاره الخلود ، لا فرق فى هذا الاعتقاد بين الأشوريّ عند برج بابل ، والفرنسيّ اليوم تحت « برج إيفيل » ، كلاهما يتعب ويشقى ، وكلا العملين لا يدوم ولا يبقى ، وما تبقى إلا الأحاديث والذكر .

كلُّ بيتٍ إلى الهدم ما تبتنِي الْ ... وَرقاء والسيّدُ الرفيعُ العمادِ
والفتى ظاعنٌ ويكفيه ظلُّ السّدْ ... رِ ضربَ الأطنابِ والأوتاد

(الحكيم) — نعم صدقت ، ويحضرنى فى هذا الباب محاورة ابتكرها أحد قدماء العلماء وأجراها فى عالم الأموات على لسان « ديوجين » الفيلسوف الزاهد القديم ، والملك « موزول » صاحب ذلك المدفن الشهير ، وأذكر منها :

(ديوجين) — مالى أراك أيها الرجل الأسيويّ مختالاً تياهاً فى أكفانك ! كأنك تريد أن تنزل هنا أيضاً بين الأموات منزلةً أشرف من منزلتهم ، وتحل تحت طبقات الأرض فوقهم مكاناً علياً .

(الملك) — وهل مِنْ شك فى ذلك أو ارتياب ! ومتى تساوت الملوك بالسُّوقة ! وأنا أكبر الملوك ملكاً وسلطاناً ، وأحسن الخلق بهاء وجمالاً ، وأعظم الفاتحين نصرة وجلالاً ، وقد كنت فى الحياة أرفع ذوى التيجان عرشاً وقدراً ، وأنا اليوم فى الممات أعظمهم مدفناً وقبراً ، وإن افترى مُفْترٍ منهم أنه كان يساوينى فى فخامة الملك ، فقد انقطعت ألسنتهم أن

يكون لهم مثل هذا القبر ، فهو معجزة البشر فى النقش والحفر ، وآية الدهر فى المجد والفخر، فهل ترى بعد ذلك أيها المتقشف فى الدنيا والمندثر فى الآخرة أن ليس من حق التخايل والترفع!

(ديوجين) — ولكنى أراك أيها الملك العظيم الجليل لم يبق لك من سلطانك وجلالك اكثر مما بقى لى ، وهذه جمجمتك لا تمتاز عن جمجمتى بشىء ، فكلتاهما مثقوبتا العينين ، مفحورتا الأنف ، بارزة الأسنان ؛ وأما ذلك المدفن الفخم والصخور المزخرفة فوق رأسك ، فلا فائدة لك اليوم منها بعد أن تساويتَ فيه بمن دُفِنَ فى بلقع من الأرض ، وإنما أصبحتْ فائدته للأحياء من أهل بلدكم يتباهون به على الوافدين إليه من الأقطار حيناً من الدهر ، ثم لا يلبث أن تندك أحجاره ، وتزول آثاره .

(الملك) — ما هذا الذى أسمعه ، يا ربَّ الصواعق والرواعد ! ! أيذهب كل ما أُوتِيتُه من أسباب العز والمجد متاعاً باطلاً ، وأُصبح مساوياً لديوجين ، فيوسعنى تأنيباً وتبكيتاً ؟

(ديوجين) — لا تقل أيها المخلوق إنك أصبحت مساوياً لى ، فشتانَ ما بينى و بينك ، فإنك لا تنفك تتحسر على ما كان لك فى الدنيا من الملك والسلطان وزخرف الحياة ، وأما أنا فلا يحزننى شىء ، ولا يكدرنى الآن مكدر ولم أترك فى الحياة شيئا آسف عليه ، و يوجعنى فراقه ، ولئن خطر الزنبيل الذى كنت أسكنه فى الدنيا على بالى يوماً لكان للاغتباط بأن مسكنى الآن فى بطن الأرض أوسع لى مجالاً وأحسن منزلاً ، ولكنّ لى فى قلوب أهل الدنيا ذكراً حسناً ، وأثراً من الفضائل خالداً ، لا تمحوه الأيام ، ولا يبلى ببلاء الزمن ، فأين مكانك أيها المغرور من مكانى ، وأين ذكرك أيها المفتون من ذكرى ؟

(الباشا) — ما أحكمَ الموعظة وأجلَّ العبرة ! !

(الحكيم) — ولو علمتم أن « المسيو إيفيل » صاحب هذا البرج العظيم قد انتهى أمره بتهمة السرقة والاختلاس وسُجن فى قضية « بناما » الشهيرة ، لاشتدَّ بكم العجب فى نتيجة هذه الآثار ، وذهاب أصحابها بسوء السمعة والأخبار .

والآن فقد أحطتم بمشاهد المدينة ومناظرها فى صنائعها بآلاتها وأدواتها ، من بطن الأرض إلا سطح البرج متجلية لكم فى هذا المعرض بأجلى مظاهرها وأسنى مراتبها ، فإن

كان من عزمكم العودة متعجلين إلى بلادكم ، فقد كفاكم ما شاهدتموه ، مما يملأ الصدر مهابة والعيون حسناً ، وأودّعكم مع الأسف الشديد لفراقكم ، فقد رأيت فيكم من حسن العشرة ، ولطف الخلطة ، وذكاء القريحة ، ودقه الفكر ما لم أكن أتوسمه من قبل فى كثير من أهل الشرق وإن كان فى نيتكم الإقامة زمناً بيننا ، وكان الميل فيكم شديداً لاستطلاع العالم الأدبىّ ، بعد العالم المادىّ ، فى هذه الحضارة الغربية ، واحببتم الوقوف على ما تجرى عليه أحوال الجمعيه البشرية ، وما تدور به المعاملات فى المعايش والمرافق ، وما تنطوى عليه من الأخلاق والصفات ، ويتسلط عليها من الطباع والعادات ، فأنا حاضر بين أيديكم لمصاحبتكم ومرافقتكم ، والفضل كل الفضل لكم فيما أجده من الأنس بكم ، ولذة النفس فى مباحثتكم ومناقشتكم .

قال عيسى بن هشام : فحبب إلينا البقاء بكلامه ، وحمدناه على حسن صنعه وإكرامه ، وصادف رأيه لدينا حسن القبول ، ففضلنا الإقامة على القفول ، وبهذا انتهينا من زيارة معرض النفائس والأعلاق ، لنبدأ بالنظر فى معرض الأطوار والأخلاق .

من الغرب إلى الشرق

قال عيسى بن هشام : وأقمنا مع صاحبنا « الحكيم » نهتدى فى سيرنا بهديه ، ونستضىء بنور فكره ورأيه ، ونتبعه اتباع الإبل لحاديها ، والرفقة لهاديها ، ونحمد القدر الذى ساقه لمرافقتنا ، وأنزله على موافقتنا ، وقضينا معه الليالى والأيام ، منذ انتهينا من المعرض العام ، وكأنها حُلم من الأحلام ، ينتقل بنا فى الأندية الحافلة ، والمجالس الآهلة ، ويدور بنا فى اختبار الأخلاق والصفات ، بين مختلف أهل الطبقات ، فيعلو بنا تارة إلى مراتب الخاصة والحامّة[1] ونسفل معه أخرى إلي أدنى منازل السوقة والعامة ، فاليوم مع كبار الرجال والأمراء ، وغداً بين شراذم الصناع والأجراء ، ثم نتحول من محادثة أرباب القصور العالية ، إلى محاورة أصحاب الأكواخ البالية ، ومن منابر الوعظ والخطابة ، إلى مجامع ذوي الدعارة والدعابة ، ومن أروقة العلماء والفضلاء ، إلى أزقة الأوباش والسفهاء ، ومن جمعيات العلوم والمعارف ، إلى حانات المراقص والمعازف ، حتى لم يبق مجتمع تختبر فيه الفضائل والرذائل ، وتُسبر فيه الطباع بين الأعالى والأسافل ، إلا لدينا طرف من خبره ، وعلم من أثره ، باحثين فى العلل والأسباب ، مُستشفّين لما وراء الحجاب ، إلى أن أدركنا الشتاء بخيله ورَجله ، وجليده ووحله ، ورعوده وبوارقه ، وعواصفه وصواعقه ، وتوارت الشمس عنا الأيام بعد الأيام ، وانسدل على العالم ستر الظلام ، وأصبحنا نستضىء بمصابيح الكهرباء ، من الصباح إلى المساء ، وانطلقت فى الجو مداخن المعامل ومداخن الاصطلاء ، فعقدت سحباً أخري تحت سحب السماء ، وتدفقت السيول والأمطار ، طول كل ليل وكل نهار ، حتى أغرقت الغدرانَ والأنهار ، فطغى الماء بمثل الطوفان ، وسال فى الأودية والبلدان ، وامتد نهر المدينة فوصل إلى أرض المنازل والمساكن ، وقد يعلو إلى الأدوار والأماكن ، فانزوينا فى الغرف والحجرات ، نقضى بها جميع الأوقات ، وكأنما نحن فى العذاب ، نُعذَّب تارة بنار الاستدفاء ، وتارة بزمهرير الشتاء ، وأقمنا عاكفين على الحديث والسمر ، بما وعيناه عن هذه المدنية من كل خبر وأثر ، وكان « الصديق » بيننا كعهده ،

(١) الحامة : مرادف الخاصة

يرسل علينا القول إرسالا ، ويذهب فى حدة انتقاده يميناً وشمالا .

ويذكر من أسواء المدنية الغربية ما يهول السمع ، ويذرف الدمع ، حتى استفز « الحكيم » للرد عليه ، وتهوين ما ذهب إليه :

(الحكيم) للصديق — لقد أسرفت أيها « الصديق » فى القول ، وغاليت فى الوصف ، وإن كان فى بعضه الجانب الصحيح ، والحق الصريح ، ولكنْ لهذه المدنية الكثير من المحاسن ، كما أن لها الكثير من المساوئ ، فلا تغمطوها حقها ، ولا تبخسوها قدرها ، وخذوا منها معشر الشرقيين ما ينفعكم ، ويلتئم بكم ، واتركوا ما يضركم ، وينافى طباعكم ، واعملوا على الاستفادة من جليل صناعاتها ، وعظيم آلاتها ، واتخذا منها قوة تَصُدّ عنكم أذى الطامعين ، وشرَهَ المستعمرين ، وانقلوا محاسن الغرب إلى الشرق ، وتمسكوا بفضائل أخلاقكم وجميل عاداتكم ، فأنتم بها فى غنى عن التخلق بأخلاق غيركم ، وتمتعوا فى رخاء بلادكم ، وسعة أرزاقكم ، وأحمدوا الله على ما آتاكم .

قال عيسى بن هشام : ولم يبق لنا بُدٌّ فى هذه الحال ، من السفر والانتقال ، فاستخرنا الله فى العودة إلى ديارنا ، والأوبة إلى أوطاننا . والحمد لله باطناً وظاهراً ، أولا وآخراً .

(وإلى هنا انتهى الحديث)



بدأت هذه الكتاب بخير ما يبدأ به كتاب بعد اسم الله ، وذكر رسوله : رسالة الحكيم جمال الدين .

لم أرم فى ذلك — علم الله — إلى التنبيه من ذكرى ، والتنويه بقدرى ، وأستغفره ثم أتوب إليه أن يكون الدافع إلى نشرها هذا الغرض دون سواه ، وأنا أعلم أن مثل هذه الرسائل من كبار العلماء إلى تلاميذهم إنما يكون مصدرها حث المتعلم على العلم والإغراء بالتعمق فيه ، كالطفل توضع فى يده قطعة العاج المنقشه علالة يتعلل بها لتنبت أسنانه ، بل كان نشرها لأنها أثر من الآثار يجب عرضه على النظار ، ونفاسة بما يخطه ذلك القلم الجليل فى أى قصد من المقاصد ومطلب من المطالب أن يبقى مطوياً فى أدراج الأوراق ، وحقه أن ينشر على سائر الآفاق .

وأختتمه على مثل هذه النية بخير ما يختم به القول بعد حمد الله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين: هذه الرسالة التى شرفنى بها مولانا الأستاذ الشيخ سالم بو حاجب شيخ العلماء وصاحب الإفتاء بالمملكة التونسية، بعد أن قرأ هذا الكتاب فى طبعته الأولى، وناهيك بقدر هذه الرسالة بركة ويمناً وشرفاً وجلالا ، ممن يمثل لك بالفعل ، ما يروى عن السلف الصالح بالقول ، ويشهد لك بسيرته فى هذه الأيام ، كيف كان العالم العامل فى صدر الإسلام، ويعيد لنا ذكرى البصرىّ فى الزهد والتقى ، والكوفىّ فى الرأى والحجى ، والمكى فى الفقة والدين، والمدنىّ فى العلم علم اليقين، هذا إلى سعة فى الإطلاع، وتصرف فى الأفكار، ودقة فى البحث ، واستنباط للأمور ، يؤلف الغابر بالحاضر ، ويطابق بين أحكام ما قضت به الحكمة فى سالف الأوان ، وما تقضى به قواعد هذا الزمان :

أنفق العمر ناسكا يطلب العلـــم بكشف عن أصله وانتقاد

فهو المثال التام، الذى ينشده الإسلام، منذ السنين والأعوام ، من بين العلماء الأعلام، ليعود إليه مجده ، ويرتد إليه حقه ، ويعرف بهم قدره ، ولو منّ الله بمن يأخد بقدوته فى

سائر الأقطار ، ولو جرى العلماء على مثاله فى كل مصر من الأمصار ، لاستوى الأواخر بالأوائل فى العلم والدين ، ولعاد الإسلام إلى ذلك العز القديم والنصر المبين .

وهذا نص الرسالة الكريمة :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

أيها الجهبذ النحرير ، المتصرف فى أحرار الألباب ، ورقيق الآداب ، بالاسترقاق والتحرير ، البالغُ من رتب التهذيب أقاصيها ، المالكُ من بدائع التربية نواصيها . أما بعد تقديم التحية اللائقة بعزة تلك الحضرة المحمدية المويلحية ، فقد وصل إلىّ — واصلَ اللهُ فى مدارج الإجادة ارتقاءكم ، وأدام لحسنِ الإفادة إتقانكم وانتقاءكم — كتابُكم الجليل ، الذى يقوم به على تقدمكم فى حلبة العرفان ، وبراعة البيان ، وكمال تربية الإنسان ، أوضح دليل ، فوَالذى علّم بالقلم ، ومنح خيرَ خلقهِ جوامعَ الكلم ، إنّ لقلمكم من السحر المبين ، ما تخرّ له سحرة البيان ساجدين ، وإنه ليحقق اللطيفةَ الموسوية التى لمح لتأهّلكم لها كتابُ الأستاذ جمال الدين كما يتحقق ما يُتفاءل به عن إسناد مرويّاتكم لاسم عيسى ، وإحياء موتى الأفكار المؤسّسة على حياة مَنْ كان فى اللحد رميسا ، فيالَهُ من معلم قد علم منه كلُّ أناس مشربَهم ، ووَجد فيه الباحثون عن وسائل الاستقامه مأربهم ، فرجال الحكم مثلا سواء كانوا من الأمة الاسلامية أم غيرها ، يتعرفون منه مِلاكَ عز الأمة ونموّ خيرها ، باسناد الوظائف إلى أهل المعرفة والفضل ، والضنّ بها عن غير الأهل ، وإقامة منار العلم والعدل ، لتداركِ ما تخرب بيد الجور والجهل ، والعلماء يدركون به طرق النصح فى التعليم ، وعدم النفرة من الحديث لمجرّد كونه لم يُعهد فى القديم ، ومع ما يلزم لهم فى اقتياد ذوى الجهالة والعناد من الملاطفات ، والتحذير مما يدنس الشريعة المصونة من مُخْتَلَقِ الخرافات ، والحاكم الغاشم ينتهى بمطالعته بالكف والإعراض ، عن كل ما يمس المروءة ويدنس الأعراض ، والمنشئ يتعلم منه كيف يسحر العقول بهينمة لفظه ، ويستلب القلوب بحسن إرشاده ووعظه ، وكيف ينتحل الأديب مهارة الطبيب ، فيشرح النصائح بأسلوب عجيب ، لا يتطرقه إنكار

أو تكذيب ، وقد يجد المريض من حذق الطبيب عذوبة التعذيب ، ثم يسترشد به الوالدُ في تربية أبنائه ، ويدعوهم إلى حفظ مجد البيت والثروة بعد فنائه ، ويعينهم على استثمار دوحة البذور ، وينقذهم مما يُفضي إليه سوء السيرة من الأسواء والشرور .

ملأ الله أوقات الجميع بالسرور ، ولا زال يرينا من أعمالكم كل أثر مشكور ، وإذا كان لا يتيسر لغيركم ، رعاكم الله ، أن يصل بقلمه إلى منتهى آماله ، فحسبنا أن نقنع في أداء الواجب بإجماله .

هذا ما حملت عليه محاولة القيام ببعض الواجب ، من متيم ودكم وأدبكم

سالم بوحاجب

فهرست الكتاب

١٩٤٧/١٨٧٤



Univer

